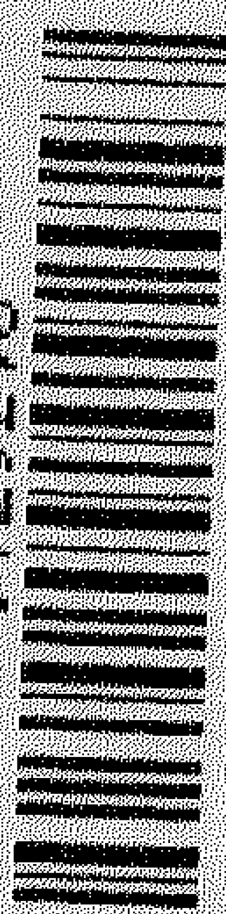



موسوعة الأديان

الدكتور سامي أبو شقرا

موسوعة الأديان

الجُزءُ الثّاني

دار الاختصاص للنشر

بيروت ـ لبنان
١٩٨٩
الطبعة الأولى

الناشر : دار الإختصاص للنشر ش. م. ل

الباب الثاني عشر

الفصل الأول

ديانات الهندوصينية ـ السند

كانت المعتقدات الهندية على تعددها وعمقها هي السائدة على شاطيء البحر الهندي الشمالي بطوله ، في معظم المناطق ، وكان للهنود الصينين وللسند والمناطق المتاخمة عدا الصين ، طقوسها الخاصة احياناً . أما العامل الرئيسي الذي قرّب معتقد هذه المناطق على ترامي اطرافها فكان : التجارة البحرية خاصةً لوعورة المسالك البرية ومخاطرها ، وهذا ما جعل تلك المناطق في شبه معزلٍ عن الصين ، فكراً ومعاملات .

المذاهب التي تغلغلت في احشاء تلك الشواطىء هي : البوذية « الماهايانية » في جنوبي الهند ، والبنغال ، ثم عبرت حملايا إلى متاهات الصين وحاضراتها ، واعتنقت سيلان بشكل خاص ، عنوةً عن محيطها : البوذية « الهينايانية » . كان هذا قبل تسرُّب الإسلام والمسيحية لتلك الربوع . الصراع بين النفوذين الهندوكي والبوذي هيمن على كلٍّ من : (سيام وكامبودج ولاوس) الحالية . ولا يغرب عنا مقدار النفوذ السياسي الملكي ، الذي اسهم إسهاماً كبيراً في نفوذ كل من التيارات الدينية في كل من هذه البلدان ، وبشكل أبرز لدى اعتناق الصين البوذية ، وبعد التاريخ المسيحي ببعض قرون . وقبل أن يحق لنا تجاوز هذه المناطق ، يتوجب دراسة كل منها بشيء من التفصيل .

(الكامبُودج :

بعـد صراع سيامي حـاد ، وانانيـات جامحـة للحكم والسلطان ، في منتصف القرن الخـامس للميلاد ، تبـدل النفوذ العقـائدي الـروحي فيها ، وأصبـح السـواد الأعـظم من الشعب يدين (بالبراهمانية) بديلاً عن البوذيه .

وكانت آلهة الـبرهمانيـة الكمبودجيـة ، هي نفسها آلهـة البرهمـانية الهنـدية بفـارق في الاسم مثلاً : الإله (سيفا) اسموه بـ (هـارا) والإله (فشنـو) بـ (هاري) . كـان هذان الالهـان متجزئـينِ ومتحدَين في وقتٍ معـاً . مما يـذكّر بـالمثلث المسيحي . ومما يؤكـد النفوذ الهنـدي في البـلاد . لـدى سيـطرة الهنـدوكيـة في الهنـد عـادت فسيــطرت هي نفسهـا في (كامبودج) .

إلى أي مدى وَصَل نفوذ كلٍّ من المعتقدَين في كامبودج ؟

إن الخط البارز أمام محققي التاريخ ، كان مدى التسـامح الـديني في البوذيـة . ففي كل ناحية يحاولون التقرب من مُنَـافِسَتِها الهنـدوكية ، لعـلَّ ذلك عن نبـل وترفّـع ، أو عن اضطرار نزولاً عند الأمر الواقع . كانت قداسة الكامبـودج (فَجْرِپَـاني Vajrapani) الذي اعتبروه البوذا نفسه ، وتعلموا « اليوغا » البوذية ، وانكروا وجود روح فردية مستقلة ، بـل هي الروح الكلية التي تعود إليها كل روح فردية .

استمرت هذه الحال حتى العصر الحاضر . فـالبوذيـة المتطورة مـا زالت معتقد بعض الفئات في الكمبودج ، معتبرين البوذا انه بأشكال المادة والطبيعة والروح معاً ، وانه بذلك يتعدى ازدواجية (الذات واللاذات) مجسَّداً : (اللاَّإزدِواجيَّة) .

في القرن الثالث عشر اضطرت المهايانية على التراجـعُ أمام الهينـايانيَّـة بسبب النفوذ السياسي الخارجي . دلت على ذلك الاثار الموجودة في الهياكل البوذية في القرن الثالث عشر (م) . وما برحت الهينايانية هي النافذة في البلاد . وفي خمود النشاط البـوذي تألق نشـاط هندوكي بشكل آخر ، هو التفضِيـل بين (فشنـو وسيفا) وتسميـة كل من الالهـين بأسـماء مختلفة وبتوحُّدهما ، حسب مشيئـةِ السلطةِ القائِمـة : « الناس على دين ملوكهم » والملوك أحياناً عن تبريكٍ أو عن غرورٍ ، يلقبون بـ : (برهما لوكا) بدلاً من (هرشافامـان) الثاني

عام (٩٤٥) م . وكان الملك (بـارامتهان) قـد ادعى اتحاده بـ (سيفـا) وهلمّ . . واعاروا (الأوبـانيشاد والـرامايانـا) تقديـراً فائقـاً حتى أكد المؤرخـون أن تلك البلاد كـانت علميـاً وروحياً ، سابحة في بحر النفوذ الهندي .

الكهان :

كـان الملك السعيد يحـظى ببركـة الإله إذا هـو لم يتحد بـه ، وكان الملك بـدوره يأخـذ بيد الكَهنة ، ويرعى الهياكل ومتطلباتها ، ويحمي الكهنوت ويعمـل على تنشيـطه بكل مـا أوتي من قـدرات . ولا عجب فالخط مـترابط ، طالمـا مطامـح الملك : الألوهـة العليـا . وكـل تصرفاته وتعاليمه مستقاة منها ، يوصلها للشعب بواسطة كهنوته .

لعل هذه المعتقدات المتوارثة في معظم حضـارات العالم ، منـذ فجر التـاريخ في تَبنّي الملك للالوهة ناجم ، عن ترابط السماء بـالأرض ، حيث كان هنـاك اعتقاد بـألهينَ : إلـه السـماء وإله الأرض ، فحـاول الملك توحيـدهما بـه نفسه . أو لعـل الأنانيـة الجامحة نزت بالملوك ترفعاً وتعاظماً عن الرعية لأن يجسدوا هـذا التسامي بـادعائهم: آلهـةً. لعلّ الإيمـان الباطني في الديانات منذ نشأتهـا ، وفي ما يعـود إلى التجلي الـرباني ، وإلى المسيـح نفسه ، وهو من عامة الشعب جسداً اجتماعياً ، لعلَّ ذلك مقلّدٌ أو مـوحٍ للملوك الغابـرين بادعـاء الألوهة انسياقاً بفكرة التجلي هذه . وفي الكمبودج كان قد عثر علماء الآثار على هياكل فيها آثار دالة على تصورات الشعب لالهـه الخاص . فهنـاك هيكل عـلى عمق اثني عشر متراً ، يحوي تمثالاً لبوذا متربعاً على أفعى (الكُوّبرا) المقدسة ، وهنـاك هيكل (الجبـل الأقدس) وهو المقر الأسمى للروحانية الكمبودية .

وقد أوضح المؤرخ الشرقي (يي ـ تْسنْغ Yi - tsing) أنَّ التقاليد الكهنوتية في كل من كمبودج والهند الصينية هي متشابهة جداً .

وعلى ما كان للنفوذ البرهمي بوذي من سلطان في نفوس سكان كمبودج ، فقد ظلت آثار بارزة ولوقت طويل من المعتقدات سائغة شائعة. منها : عبادة الشجر وخاصة : التينة المقـدسة التي اعتـبروا فيـها بعـد : جـذورهـا هي (بـرهمـا) وجـذعهـا (سيفـا) وغُصـونها (فشنو) .

من تقاليد هؤلاء ، تقديم قربـانٍ للإلـه من الأرزّ المحلي عن كـل من يسقط قتيلاً في

معركة ، أو عمَّن ماتوا جائعين تعساء ، والإيمان الراسخ فيهم كـان : إن الأفعى المقدسـة ذات الرؤوس التسعة سيدة أرضهم ، تسكن في برجٍ مرتفع بقصر الملك . لذا حين يتوفى هذا الملك يدفن في قِمَّة هذا البرج المذهب ، مُتَّحداً بهذه الأفعى المقدسة .

معتقد اقاصي الشرق الجنوبي :

كان النفوذ السياسي والاقتصادي قـد امتد بـالهند في مـطلع القرن الأول للمسيـح ، حتى الـرابع منـه إلى بلاد (أنـام وكوشنشـين) ، على الشـاطيء الشرقي الجنوبي لآسيـا . دلَّت الاحصاءات يومـذاك على أن معـظم السكان عبـدوا (سيڤا) والقليـل آمن (بِفِشْنو وبْرَهْما) ولبث زهـاء سِدس السكـان ينتمون لمعتقـدات محلية قـديمة . والعقيـدة المهايـانية وتقاليدها كانت السائدة اجمالاً . واستمرت بهم الحال في تنافس عقائدي تبعـاً لمشيئة الملكِ الحاكم . هذا الملك ، على ارتباطاته بالقوى الفاعلة بالمنطقة الفسيحة ، يتحلى بمعتقـدها ، ويتبـارك بآلهتهـا ، ويسمو أحيـاناً لمصـافِّها . كـانـت مـرتبـة الإلـه (سيڤـا) هي الأسمى والأقدس في معظم البلاد ، فهو بنظرهم : الخالق والمـدِّمر معـاً ، وهو الحـافظ للعالم . لـه عيـون ثلاث تتـألق فتخترق السـاء ، وتتوهـج منها أشعَّـةٌ وشرارات وضَّاءَةٌ نـاعمة أحيـاناً كأشعة القمر .

آمن هؤلاء بتجلي الاله (سيڤا) ، وكان العديد من ملوكهم يُلحِقون بأسماءِ الخاصـةِ اسمَ سيڤا إما عن تبُّركٍ أو عن تألُّهٍ . من هؤلاء : الملك (بَدْرا فَرْمان الأول) الـذي لُقب بـ (بدَرشعارا) وكانوا يعتقدون بأن الإلـه (سيڤا) ذا العيـون الثلاث : (النـار والشمس والقمر) ، حين يتجلى لهم يتجسد به الضدان : نعومة ضوء القمر ، وحدة حرارة الشمس في آن واحد . اما الملك فكان شأن جيرانه ، شديد العناية والحـراسة للكهـان والهياكـل ، وما يعود إليها ، لانها امتداد لسلطانه السماوي . مـارس الهند وصينيـون السِحر واتقنـوه ، والمُـرجَّـح أنـه انتقـل إليهم من النـوتيـين والتجـار الفُـرس . كـذلـك السِحـر الهنـدوكي وطرائقه . كما اعتقدوا بقـدرات الكلب السحري المتعـدد الأنواع ، ذي العيـون الأربع ، وهـذا الأخير ورد ذكـره وتعظيمـه في (الأڤِسْتا الإيـرانية) وهـو القاضي عـلى تأثـير العـين الشريرة .

واتَّخذ هذا الشعب للاله (سيڤا) زوجةً هي (بـاغاڤـاني) الإلهة العـظمى ، متَّحدةً

بالاله الزوج . نشطت عبادتها في البلاد بالقرن الثامن للمسيح . ولهذه الإلهة العُظمى مظهر متميِّز هو : جسد يفيض جمالاً وروعة ومهابةً معاً . كل عضو فيها يشع ويلتمع كالذهب والياقوت . لها ثلاث آذان ، ولها أُلوهةٌ مزدوجةٌ ، شأْنَ الإلهة الكمبودية (هارَبْهارا) أي اتحاد زوجَيْ (سيفا وفشنو) .

الفصل الثاني

سيام والجوار

طُقوسُها :

لدى وفاةِ الملك ، يُدفَنُ بجوارهِ أربعةَ عشر شخصاً ، من خاصته ووَزيراته . ورفاتُ هؤلاء جميعاً تلقى في البحر . دامت هذه العادة الى ما بعد عام (١٠٨١) م في الكامبدج .

اتَّبعت (سيام) الطقوس نفسها بالتقريب ، مراعية التيارات السياسية المتقلبة ، والصينية خاصةً ، حيث تغلغلت في العمق العقيدة (الهينيانية) البوذية . شُهِروا بالتقشف . أما (تيلان) فلها مميِّزات خاصة . منها : كانت الهندوكية ضعيفة الانتشارِ ، في حين اكتسحت المعتقدات (الأنَامِيَّة الكوشنشينية) معظم مناطق البلاد . وفي بلاد (لاوس) شاعت عقيدة عبادة الأفاعي ، منها : خمسة عشر إلهاً أفعى . وكان كذلك شأن المعتقد (البِرماني) . والسائد الأبرز في المعتقدات لدى كل هؤلاء : البرهمانية والبوذية بفرعيها (المهايانِّية والهينيانيَّة) . وكان ملحوظاً جداً تأثير التجار القادمين من (التيبت) أو من (سيلان) على المعتقد المتأرجح . وفي القرن الثاني عشر تبيَّن نشاط (الهينيانية) على منافستها ، حيث تتابعت البعثات الدينية من سيلان وإليها بهذا الشأن . دامت هذه الحال في (بيرمانيا) خاصةً حتى أواخر القرن الخامس عشر .

على أن الهندوكية كانت قد شاعت في المناطق الغربية من البلاد ، بسبب مجاورتها للهند ، وتواصل المعاملات الاقتصادية والاجتماعية بين الدولتين : البرمانية والهندية . استمر ذلك حتى القرن الرابع عشر . ولكن القصر الملكي كان أكثر عنايةً بالهندوكية عن سواها .

وما كان بمستطاع الديانتَين البوذية والهندوكية أن تقضيا على عبادة (الأفعى

المقدسة) المسماة : (ناجا) أو الناعية ، في برمانيا ، كما عُبدتْ في الهند وسائر الجيرة . إنها (الكوبرا المقدسة) نفسها . اتباع هذا المعتقد يرتدُون ألبسةً متميزة ، بمثل ما يرتدي هؤلاء في التيبت والصين . معيشتهم تذكرنا بمعيشة الأسينيين على ضفة البحر الميت قُبيل مولد المسيح . يعتمدون تقديم الضحايا الحيوانية ذوات اللون الأبيض : (دجاج ، بقر ، ماعز) وقد امتدت هذه العقيدة إلى أواسط (برمانيا) بفتور ، واستمرت حتى القرن التاسع عشر .

أما الكهان فكانت توكل إليهم مهام دينية وسياسية معاً ، بتوصيات من الملك . وكانت لهم مقتنيات فخمة ويتعاطون مِهناً حرَّة . لهم تنظيمهم الخاص ورؤوساء روحيون يوجهونهم . وكانت للملك خاصته ومميزاته وأبَّهته وتعاليه . إلى جانب هذه المعتقدات ، كان لسكان (بيرمانيا) طقوس روحية ، توارثوها عن السلف والجيران ، أهمها كما ألمحنا : عبادة الناعية ثم عبادة الطوطم النباتي ، والإلهةِ الأرض والشجر المقدس .

الفصل الثالث

اندونيسيا

يجدُ بخطٍ عريض ظاهر ، كلُّ مطالع باحثٍ ، أن المصادر العقائدية الروحية في كل الشرق الجنوبي والأقصى ، هي هي ، في جوهرها . كلها مركَّز على الهندوكية والبوذَّية اولاً ، بالنظر إلى الروابط الاقتصادية التي تشد هذه البلدان إلى الهند والصين . وهناك عادات موروثةٌ تدور في فَلَك واحد . كذلك هي الطقوس الكهنوتية والسلطة الملكية. مَعاد هذا إلى المناخ المشترك والترابط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي يفرض نفوذه بتبسُّط . لكننا ، حباً بتقصي الحقائق الدقيقة نتناول بلاد (اندونيسيا) روحياً بشيء من التفصيل :

معاد الفضل في جلاء الغموض الذي كان مخيماً على اندونيسيا ، بجزرها المتعددة ، إلى الباحثين الذين وجدوا في الهياكل القديمة المَنسيَّة أو المغمورة بالركام . ادلةً أوضحت حقيقة ما كانوا يعتقدون به بشكل علمي ثابت . والظاهر للعيان هو التأثير البارز لتجار الهند الجنوبية ، الذين نقلوا ورسَّخوا الديانة البوذية بفرعها (المهاياني) الذي أصبح فيها

بعد دين الدولة في كلٍّ من (مليزيا وسـومطرا) وقسم من جـاوا) . لكن دخول الإسـلام إلى تلك البلاد ، بالتجارة والتبشير ، اكتسح معظم العقـائد في غـالبية الجـزر الأندونيسيـة الكبرى .

قبل انتشار الاسلام ، حوالي بدء التاريخ المسيحي ، كانت التـأثيرات السيـاسية في خارج البلاد وداخلها ، أهم عامل على انتشار المذهب الذي يقره الملك الحـاكم ، خاصـة حـين تكون البـلاد تحت نفوذ سيـاسيٍّ عسكريٍّ مبـاشر ، فالبـوذية والهنـدوكية كـانتـا همـا سائدتين . والتنافس بينهما بالذات كان على اشده . وفي الجزيرة الواحدة احيـانا كـما حدث في جزيرة (جاوا) ، كانت مـدارس هذه العقـائد منتشرة في كـل النواحي ، والصراعـات متتـابعة ، وكثيـراً ما كـان يسبِّبها الاجتيـاح الحربي ، فيُغـيِّر وُجوهـاً بِوجـوهٍ ، في الهيـاكـل والقصور على السواء .

وبالتدقيق فان الآثار (الهينيانية) في اندونيسيا كانت الأقدم ، حسب توضيح المؤرخ (Yi - Tsing ، ييْ ـ تْسِنـغ) الذي كتب بـالتفصيل طقـوس الكهنوت ومَـلابسـه ، وقـام بسياحة عميقةِ الأثر إلى الهند . اخيراً عَبَرت (المهايـانا) شـواطيء جزيـرة جاوا وتغلغلت في بعض نـواحيها ، وفي (البنغـال) خاصـةً . أما الهنـدوكيـة فكـان لهـا نصيبٌ اوفـر في (جاوا) . نقل الجاويون شعراً كتاب (الراميانا) ، وكتاب (المهابها راتا) .

ولكن قبل أن تدخل البوذية تلك البلاد ، كان سكانها يتصورون وجود إلـهٍ في أعالي الجبل ، يعبدونه ، شأن الأناميين في عبادة جبل (مَـارُو Méru) ثم اعتبروا الالـه (سيڤا) متحداً بالجبل نفسه ، ولم يفـرقوا بـين عبادة سيڤـا المتَّحد ، وعبـادة (سيڤا) . ان زوجـة (فشنو) المسماة (çri سْري) في اعتبار الهندوكيـين ، هي نفسها في نـظر سكان (جـاوا) إلهة الأرز . وعبدوا كذلك (Kubera الكـوبرا) إلـه الثراء . كـان (سيڤا) الإلـه المفضَّل يعقبـه (فشنو) ، أخيـراً (بْرَهْمـا) . بينما الاسـلام الذي ازداد تـوغلاً وتعمقـاً في (جاوا وسومطرا) ، ظل محافظاً على خطهِ الديني المتبع في الجزيرة العربية ، دونما تبديل أو تحريف في شيء منه .

في هذا المحيط الزاخر بالتنافس العقائديِّ ظلت ملامح الطقوس الدينية المتوارثة منذ القديم تستولي عـلى نفوس معـظم الأهلين في الجزر هـذه . من طقوسهم : عبـادة السلف

التي خفت وطأتها حين شاع تأليه الملك . وفي الارخبيل الاندونيسي ، بعد تلك الجزر الكبرى ، كانت تبدو منافسة الهندوكية للاسلام ، كما كان هنالك مَن يعبد الشمس ، وهم يقدمون لها الخيل ضحايا . والمعتقدات الرئيسية غير ما تقدم ذكره ، هي الأولى : آلهة كونية ميتيولوجيَّة ، منها أن الشمس والأرض خلقتا الإنسان تلقائياً ، وبعض اساطيرهم عَزا هذا الخَلق إلى الإله (برهما) .

آلهة صغرى :

لكن ما يلفت النظر ترفُّع الآلهة عن مداخلة الناس ، إلا بواسطة الكهان الذين هم الصلة بين الأرض والسماء ، وهذا النوع من الطقوس مغايرٌ لما رأيناه في المناطق الغربية . والكَهنة انفسهم يتوارثون هذه القداسة .

والنوع الثاني من الآلهة هو :

الإيمان بقوة خفية تسكن الذوات والنبات والشمس هذه القوة مَسيرة ارادة صاحبها نفسه . إنها الـ (ماناManal) التي شوهدت في الرومانية القديمة . من عوائدهم أن السيدات يَدَعْنَ شعورهنَّ مُرسلة أملاً باقبال مواسم الأرز ، ولكلٍّ جزيرة عاداتها وأساطيرها .

والنوع الثالث هو الناس الذين يفرقون كثيراً بين روح انسان وروح متَوفٍ . الروح مستقلة عن الجسد كلياً ، باستطاعتها مغادرته مؤقتاً أو أبديا ، اعني لِمرضٍ ، أو لِموت .

وليس الجسد إلا ظِلاً لها ، وللكاهن السلطة المطلقة على هذه الروح ، إذ بوسعه اعادتها لجسد صاحبها في حالات خاصة . وفي مناطق اخرى (كَسومطرة) فان بعض قبائلها يعتبر الحياة عنصراً حيوياً وروحاً ووجداناً . وهذا الأخير يخطط للجسد في حال رقاده أو مرضه . مركز الروح من الجسد يختلف بين قبيلة وأخرى . بينما في (اندونيسيا) فان شعبها يؤمن بخلود الروح في الإنسان والحيوان ، وفي الأرز من النباتِ فقط . هذا الاستثناء لِلأرَزِّ مردُّهُ إلى الفائدةِ الكبرى التي تتوقف عليها حياةُ ذلك الشعب . يزعم كثير من سكان (اندونيسيا) أن الجسد يضمحل في حضن الطبيعة ، فيشكل لحمهُ الأرض ، وعظامه الحجارة ، ودمُه المياه ، وشعره العشب ، والتنفُّس يختلط بالهواء ، والروح تبقى ،

لكنَّ لونها يستحيل إلى السواد ، تفرقةً بينها وبين أرواح الأحياء . هذه الروح في المتوفَّى ، تبقى على صلة بالأحياء . أين وكيف وإلى متى ؟ هذا ما صمت عنه التاريخ ، ولعل اولئك كانوا على جهل به ، لعدم قدرتهم على التعمق في الأُمور وأسبابها ومصيرها . وهناك مبدأ يقول بأن روح المتوفَّى ، تستمر حياتها في الشجرة السماوية رَيْثَما تُبعث ثانية . هذه العقيدة كثيرة الشبه بالتقمص في الديانات السماوية الباطنيَّة ، ولعلها أقرب من ذلك في نظر علماء الروح المعاصرين ، الذين يعتقدون بأن الروح بعد الوفاة ، تنتقل إلى مستوى أرفع ، غير أرضي ، بجسد أثيري ، وكثيراً ما تعود للتجسُّد ، كما تؤكد ذلك الهندوكية . ومن سكان هذه المناطق مَن يزعم أن روح المتوفى تلبث بعض الوقت حائمةً في عالم الأحياء ، ثم تتابع مسيرتها إلى أرض الأموات الواقعةِ في اقصى الغرب ، وهي كأرض الأحياء ، غير أن الأرواح تتجمع كُتلاً مختلفة حسب نوع الوفاة وسببه . أما الذين يموتون موتاً طبيعياً ، فباستطاعتهم الاتصال بالأحياء بواسطةٍ ما ، ولهؤلاء تقدَّم الذبائح الحيوانية غالباً .

هذه الطقوس والمعتقدات راجت في معظم الارخبيل الانـدونيسيِّ ، لكن الهندوكية ثم الإسلام كانا الضابط لذلك الخيال الجامح ، فما أبقيا مع الزمان ، غير القليلِ القليلِ من تلك الطقوس .

الفصل الرابع

الڤيتنام

إن خريطة بلاد الڤيتنام تحتِّم عليها التأثر البالغ بالدولة الكبرى المجاورة من الشمال ، أعني الصين . فالمواصلات البحرية والبرية سهلة وقريبة ، والضغوط التي يمكن أن يفرضها بعض قادة الصين على الدول الصغرى المجاورة ثم النفوذ الحضاري الذي ساد الصين قروناً ، كل هذا جعل من (الڤيتنام) دولة متقاربة المعتقد ، بالعملاقة الصين ، رغم طبيعة شعبها السَلِسَةِ ومناداةِ مُعتقداتها بالتسامح والتراضي والطِيبة .

دخلت ڤيتنامَ البوذية الصينيةُ والكنفوشية والطاوية وانتشرت في البلاد جمعاء ، وخاصة في الضاحية الشمالية المتاخمة للصين ، استناداً إلى الاعتبارات التي مرَّ ذكرها .

وقـد اضافت الڤيتنـام على المعتقـدات الجنوبيـة ، تلك الطقـوس الدينيـة الموسيقيـة المتعـارفة في سيبـيريا وفي بعض منـاطق الصين . من هـذه المعتقدات وخـاصـةً في منـطقـة (Dong - Son ، دونغ ـ سُون) وُجدت آثارٌ دالة على عبادة الشعب للطوطم ، منجرفين في تأثرات اساطير الصين القديمة ، أو أساطير الهند الصينية معاً . دلت على ذلك الآثار للقطع الموسيقية التي عَثرت عليها ايدي الباحثين هنالـك ، منها : الـدفُّ المصنوع من الـبرونز أو الحجر وهو الأقدم ، مع ريش الطاووس مجتمعاً بـريش الديـك البرّي (faison) . هـذه الموسيقى يتبعها رقص شعبي حـار ، يؤدي بالمصلين الـراقصين ، إلى الاعتقـاد بـالاتّحـاد بالطائر وهو شكـل من الطوطميـةِ المرحـة ، وصلت بهم إلى التزين بـذلك الـريش محفوفـاً بالقداسة .

كان هذا المعتقد سائداً قبل دخول البوذية والطاويـة والكنفوشيـة . وفي حلول القرن الثاني للميلاد عـبرت البوذيـة حدود الڤيتنـام ، إلى القلوب ، مصادفـة تيارات للكنفـوشية والـطاوية هنـا وهناك ، كـانت قد سبقتهـا إلى تلك الربـوع ، وما بـرحت هي نفسها حتى اليوم ، لكنها لم تستطع كلها القضاء على بعض الطقوس الروحية القديمة .

أما انتقال الطاوية لهـذا البلد ، فمردُّه إلى الاضـطهاد الـذي فُرض عـلى معتنقيها في الصين ، فأتخذ هؤلاء الڤيتنامَ ملجأً لهم ، وبذلـك مع الـزمن ، شاعت عقيـدتهم . كانت منهم ومن الكنفوشيين الطبقة المثّقفة في البلاد ؛ وعـامة الشعب ، كـانت بأغلبهـا بوذيـة أو معتصمة بالطقوس القديمة لها . ومرت القرون والمنافسـات العقائـدية لا تنقـطع في منطقـة وأخـرى من الڤيتنام ، تغـذوها كلهـا أيدٍ اجنبيـة وبعثات وسفـراء وتجار مختلفـون . والميزة الظاهرة عندهم هي أن (الطاوِّيينَ) يعتبرون (البوذا) إلهاً ، كاعتبارهم لـزعيمهم الرائـد (لاوتسي) . واتّخذ الكنفوشيون آلهةً لهم من معتقـداتهم السابقـة . السماء والأرض والميـاه هي آلهـة في اعتبارهم . وكـانت عندهم مـدينة (تـونكنْ) المقرَّ الـرئيسي لهؤلاء . ومعظم آلهتهم نسـائيـة ، وكَهنتهم نسـاء ، وهُنَّ الـلاّتي يتّصلن بـالآلهـة لقضـاء حـاجـات الشعب . ومن العبادات القديمـة كانت الشجـرة والحجارة . لعلهم يعنـون بالحجـارة عبادة الأرض ، أمـا الشجرة فكانتْ معبـودةً في مناطق اخـرى من الهند الصينيـة . ما كـان للڤيتناميـين طقوس دينية واضحة ، غير أنهم كانـوا يمارسـون السِحر المعقّـد . والعبادة الفضـلى عندهـم كـانت عبـادةَ (السَلَف) ، وقد تحـلُّ روح هذا السلف بحيـوان أليف فيُقدَّس . من قبـائلهم مَن

يعبد الأرواح والصوَّان وما إليه . في العام (١٩٣٠) للمسيح استجدَّت حَرَكة تحررية فكرية تقدمية ، آمن بها زُهاءَ مليون ونصف من السكان ، قامت بدور خطير في سبيل تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي ، في العام (١٩٤٥) . لهذه الديانة ذاتٌ عليا ممثلةٌ بعين واحدة محاطة بالغيوم ، بجانبها آلهة عدة ثانوية ، أبرزهم : كنفوشيوس ، لاوتسي - تونغ ، البوذا ثم المسيح . يعتمد هؤلاء المريدون الوساطةَ للاتصال بالآلهة . ولكَهنتهم رئيس اعلى أسموهُ (البابا) .

دخلت المسيحية بلاد الڤيتنام في القرن السادس عشر بواسطة الاستعمار الغربي والبحَّارة البُرْتوغاليِّين اولاً ، ثم قامت البعثات اليسوعية ، يدعمها مادياً وأدبياً الاستعمار الفرنسي ، فحازت على بعض النفوذ الشعبي . وقد عملت الدولة الهولندية جهوداً جبارة في اندونيسيا ، بصفتها دولة مستعمِرة ، ذات السلطة العليا في البلاد ، عملتْ على دخول الديانة الپروتستنتيّة لتلك الأرجاء . لكن الفكرة التي امتلكت مشاعر الهندوصينيين والڤيتناميين ، رغم محاولات وإغراءات الاستعمار الغربي ، ورغم قدراته المادية والمعنوية على شراء النفوس وبناء المعابد ، مزدانة بشتى الاغراءات ، ظلَّت الديانات الهندية الصينية هي المُمسكة بزمام الفكر الروحي، في البرِّ الهندوسيَّ . أما جزر السند ، فما برح الإسلام دين جزرهاالكبرى إلى اليوم ، تمَّ هذا الانتشار في تلك الأرجاء لِلاسلام بواسطة التجَّار المُسلمين بالتبشير .

موجز ديانات الهند الصينية :

هذه البلاد من الهند غرباً ، حتى المحيط الهادي شرقاً ، بين الصين والبحر الهندي ، كانت الديانتان المتصارعَتان فيها : الهندوكية والبوذية المهايانية . ولكن قبل الديانتين كانت شائعةً عبادةُ الشَجر . وبخاصة ، وفي كمبودج ، عبادة التينة المقدسة التي اعتبروا جذورها (برهما) وجذعها (سيفا) وغصونها (فشنو) . ثم في هيكلٍ تحت الأرض وجد علماء الآثار تمثالاً لبوذا ، متربعاً على أفعى مقدسة (الكوبرا) ، اشارة إلى معبودات سابقة اصيلة ، بما فيها عبادة السلف ، وكانت عبادتهم (لڤجرامي ، Vajrami) قبلاً ثم اعتبروه البوذا نفسه . يتعدَّى في مفهومهم (للبوذا) الذاتَ واللّاذات . والملك يرعى الكهنة ويحفظ الهياكل ويقدِّس ، وصولاً به إلى مرتبة الالوهة وترابُطِ الأرض بالسماء . يقدمون للاله قربانا من الأرز المُحلِّي .

أما بلاد (أنَّام وكوشَنْشينْ) فقد خضعت للنفوذ الفكري البرهمي والبوذي معاً ، مع قليل من التبديل ، بما يتناسب مع المعبودات الطبيعية السابقة . وأمّا الاحصاءات التي اجراها الباحثون ، فأثبتتْ دخول كل نفوذ سياسيٍّ اقتصادي فكريٍّ إلى هذين البلدين ، كان في القرن الأول للميلاد . أكثر ما قدسوا : (سيڤا) وقليلٌ من آمن بسواه . انه الخالق ، المُحيي والمدِّمر . تصوروا لسيڤا عيوناً ثلاثاً هي (الشمس القمر النار) واسم زَوجتهِ : (Baghvani باغهاڤاني) . وقد انتشرت عبادتها في القرن الثامن للميلاد . لدى وفاة الملك يدفنون بجواره خاصته .

تيلاند :

كانت عبادة (تيلاند) سابقاً للأفعى ، كما كانت في (لاوس) و (برمانيا) ثم دخلت إليها بواسطة الدُعاةِ والتجَّارة - الهندوكية والبوذية بفرعيها (المهايانا والهينَيانا) لكن البلاط الامبراطوري كان يميل إلى الهندوكية شأن البلاط الأندونيسي . وشاعت هنالك فكرة : الناس على دين ملوكهم ، في معظم مناطق البلاد الشاسعة .

وكان للكهنة طقوس خاصة يمارسونها ، وكان لهم شأن كبير عند الامبراطور ، أو أيَّة سلطة حاكمة ، إذ هم المستوى الأدنى صعوداً إلى السماء المقدسة .

كان التنافس الكهندوكي البوذي على أشده ، حين التقت العقيدتان ، بالرغم مما كانت تتحلى به البوذية من تسامح وتعاطف وقابلية للتطور والانفتاح . هذه المميزات مهدت امام دُعاتها سبيل انتشار مبادئهم في الشرق الأدنى ، باستثناء الوطن الأم (الهند) حيث بلغ عدد البوذيين فيها زهاء رُبع السكان وحسب .

أما بلاد (الڤيتنام) فان موقعها الجغرافي ، والضرورات الحياتية ، اقتضت عليها مجاراة الصين في الإيمان بالبوذية والكنفوشية والطاوية .

وجد الباحثون في (الڤيتنام) آثاراً موسيقية، بالأخص ما يوحي بعبادة الطوطم على شكل طائر . لكن الديانات الدخيلة طغت على الجميع ، سيَّما بعد دخول الاسلام للشرق الأقصى ، وبعد المسيحية بفرعَيْها الكاثوليكي والبروتستنتي .

المراجع العامة لديانات الهندوصينية - السند والڤيتنام

١ - بالعربية :

٢ - بالاجنبية :

1 - Le Bouddhisme Henri Arvon, Paris (966) Ch:II P (84 - 100).

2 - Histoire de L'humanité: trad Pierre Laffont (1969) - 3eme livre P: (412 - 432).

3 - Histoire générale des Religions Jeannine Oluloyer (1960): livre III P: (282 - 298) - (301 - 311) - (315 - 322) - (1960).

4 - La Question religieuse en Indo - Chine Philippe Vernier: P (8 - 32) - (79 - 113). Paris.

5 - Hist. de la Civilisation, Will Durant, (962) P (29 - 42).

الباب الثالث عشر

الفصل الأول

ديانات اليابانيين

مبدأ العقيدة اليابانيَّة :

روت « قصة الحضارة » عن اليابان ما يلي :

« تعني كلمة يابان في الصينية : « حيث تشرق الشمس » . كانوا يعتبرون الآلهة تولد : أنثى وذكراً . وقد صدر أخيراً الأمر من شيخ الآلهة ، إلى اثنين منهما هما (إيزاناجي وايزانامي) الأخ والأخت أن يخْلقا : اليابان .

وقف الإلهان الأخوان على جسر السماء العائم ، وقذفا في المحيط برمح مرصَّع بالجوهر ، ثم رفعاه ، فتساقط من الرمح قطرات ، أصبحت فيها بعد ، الجزر المقدسة ، اعني : اليابان . ثم شهدت الآلهة ما تفعله الضفادع في الماء ، فتعلَّمت منها سرَّ اتصال الجنسَيْنْ . اخيراً التقى الالهان الأخوان ، ونسلا الجنس الياباني . بعدها ولدت (أما تيراسو) إلهة الشمس من عين إيزاناجي اليسرى ، ومن حفيدها (نَنيجي) ، نشأتْ سلسلة متصلة الحلقات ومقدسة هي : اباطرة اليابان . وقد استمر سلطان وعنجهية وتقديس هؤلاء الأباطرة ، منذ العصر السحيق حتى الحرب العالمية الثانية ، حيث سقطت اليابان تحت النفوذ الاميركي ، بعد تفجير القنبلة الذرية في البلاد . اعتقدوا اولاً بقداسة

العلاقة الجنسية ، وبأن لكل كائن روحاً سائرةً في داخله ، بدءاً من الكواكب حتى الإنسان ، وأصغر المخلوقات الحية والنبات .

آمنوا كذلك بأرواح الآلهة الراقصة فوق المنازل ، لدى كل انبثاق فجر . يتصلون بآلهتهم ، اما بإحراق عظام غزال أو بقوقعة سلحفاة ، وفحص الخطوط التي ترسمها آنئذٍ النار في وهجها . كما كانوا كذلك يعبدون الموتى رهبةً منهم ، وكانوا يرفقون بالميت الذكر سيفا ، وبالانثى مرآة .

يضعون الطعام الفاخر ازاء صُوَرِ الأسلاف ويقدّسونهم . من هنا ، نشأت اقدم ديانة قائمة في اليابان : « الشنتو » ، أعني طريق الآلهة . لم يكن لهؤلاء تشريع خلقي ، ولا كهنوت ولا آمنوا بخلود الروح ، ولا بالنعيم . كان همهم تقديم الواجبات الدينية للسلف ، والخضوع للأمبراطور .

وفي عَودتِنا إلى تاريخ الشعب الياباني يبدو واضحاً أصله ، غريباً عن جزرها الحاليَّة . وفَدَ إليها البشر من الفليبين وفورموزا وكوريا ومن سيبيريا ، في ما قبل التاريخ . وقد دَخلها شعب من الجنس الأبيض هو الـ (آنو : Ainu) دون أن يعرف أصله . قيل انه سيطر على الجزر اليابانية جميعاً ، لكنه امتزج بالشعب الأصيل ثقافةً مدنية ودينية ، واتقن لغتهم . لم يتكاثر نسله ، وهو اليوم مجموعات في جزيرة (آزو) اليابانية جنوبي « سَكالين » .

عُرف القليل من أحداث اليابان ، منذ مطلع القرن الأول للميلاد ، وأخذ يتضح في القرن السادس ، حيث دخلت الحضارة الصينية ، الجزيرة جمعاء ، واستمدَّت البلاد مقوماتها الإجتماعية واللغوية من شعب كوريا المجاورة ، وممّا حاذاها من حضارات . بعد تقصّي علماء الآثار ، وجدوا في اليابان كثيراً من الأدوات المصنوعة من الحجر الصقيل والفخار والعظام ، خالية من أي أثرٍ يشير إلى حيوان . توسَّم الباحثون في هذه الآثار ، وخاصة الفخارية منها ، التي لا يتجاوز ارتفاعها نصف المتر ، انها مشيرٌ إلى نفس الموتى ، أو إلى تجسيد السلف المتوفّى . ومنها ما يوضح الجنسَ دلالةً على الاخصاب ، وهذا منتشر في المناطق الشمالية من البلاد . يعود تاريخ هذه الآثار إلى مطلع التاريخ الحالي .

تحقق الباحثون المعاصرون من أن الشعب الياباني الأول الـ (آنو) كان يؤمن بذوات عليا هي الـ (كاموي Kamui) لم يوقف على أثر عندهم للهياكل ولا للكُّهان . عبدوا

(الدبّ) ودلّلوه ، ثم يذبح ويؤكل لحمه بوليمةٍ كبرى ، لعل ذلك تبركاً به . غير أن النساء لم يكن لهن أي دور في العبادة عند هؤلاء . وسبب ذلك أما تحقيراً لِدور المرأة في مجتمعهم ، أو لسببٍ ما ، لم يوضحه المؤرخون .

الفصل الثاني

الشنتو : (Shintô)

قبل أن تقرع بابَ جزر اليابان ، المعتقداتُ المتنوعة ، كانت لها كما نعلم ، معتقداتها الخاصة : ظاهرةً وباطنة . وكان مواطن (الهيُوغا Hyûga) في أقصى الجنوب ، والـ (إيزُومو Yzumo) مقابلاً لكوريا . وكان من سهول (ياماتو) ظهور أول امبراطور لليابان جمعاء . ولما كانت أرض اليابان محاطةً بالمياه من الجهات الأربع ، غدا محتماً أن يعير شعبها ابصاره وبصائره للبحر وعظمتهِ وقدسيَّته ، فانه باب رزقهم الأول والأعظم . وسَوادُ السكان فلّاحون ، يجوبون المناطق الساحلية من الصين لفورموزا ، للفلبين ، لسواها جنوباً . وكان لهذه الرحلات البحرية تأثير في نقل الأفكار الدينية من هنا وهنالك للبلاد ، متداخلة بالآلهة القديمة ، ومعظمها آلهةٌ بحرية صرفاً . وقد غدا (أماتورازو) الإله الأكبر والأهم وطنياً في عرفهم ، وهو رمز للشمس .

وكانت الشانتو أي (طريق الآلهة) أو هي الطاوية بمضمونها ، الديانة الوطنية الأعرق قِدماً . وقد لبثت مخطوطات الشانتو : الـ (كوجيكي) سريةً وغامضةً حتى عام (١٦٤٤) إذ بانت اسرارها بعد طباعتها واعلانها آنذاك .

كانت مثيولوجيا (الشانتو) القديمة مُبهمةٌ ومتفسِّخةٌ ومملةٌ أقصى الملل . انها تحمل الكثير من ملامح الأساطير المختلفة . نقلها على الأرجح البحارة الوطنيون والأغراب إلى الشواطىء اليابانية .

كانت آلهة السلالات الستّ الأُول في اليابان أشخاصاً فارعةً مختلفة . أول هذه الآلهة هو (سيد العظمة السماوية) وهو روح لاذات. وكان (موزيبي) إله النبات المختلف، وباعث الانتاج الزراعي . في سلالة سابقة متأخرة ظهر الزوج الإلهي : (إيزاناجي وايزانامي) المشار إليهما آنفاً. وكان أول ابنائهما (هيروكو) يعني (ابن الشمس) . نسل الزوج بعده مجموعة اطفال آلهة : الريح والبحر والنار والشجر الخ . . .

لكن إله النار (كاغوتْسوشـي Kagutsushi) قد أحرق والدته . ومن غضون جسد الأم المحروقة (أزانامي) تولّدت العناصر الثلاثة : المياه والمعادن والتراب . اتجهت بعد إحراقها إلى بلاد الموتى . حاول زوجها أن يتبعها ، فمنعته من رؤيتها . تحول مشعلاً ، وبمشطٍ لديه اتخذه مِرقباً ، شاهد جُثمان زوجته المتناثر ، فألقى مشطه ثانية ، فنبت قصب ضخم ما لبثت أن ابتلعته المسوخ . اخيراً تبعته زوجته (ايزانامي) ونسل آلهة عدَّةً منها : (سُوزانُو) وُلد من عينه اليمنى ، ووُلد القمر من اليسرى . هكذا تلتقي الأسطورة بتوالد الآلهة على الشكل المبيِّن . وتتابعتْ الولاداتُ وتنوعاتُ الآلهة من الأصل الواحد (إيزاناجي) في السماء ، وفي الجحيم معاً . كانت تدور هذه الاساطير في حدود ميلاد المسيح .

آلهة الشانتو :

كانت (إيزانامي وزوجها إيزاناجي مشابهين لإلهيَ الصين : الروح السماوي (إيين وإيانغ) وأعني بهما ، تلاقي الأرض بالسماء . ان آلهة اليابانيين متنوعة خلا ما جاءت به الأساطير من شطحات خيالية . عبدوا قوى الطبيعة كما أسلفنا ؛ شمس ، بركان شجر نار الخ . . ولم يتبين للباحثين غير ذاتٍ مؤلهة واحدة . كل شيء في عرفهم يحمل قداسة معينة لا الوهةً بمعناها الشامل .

هذه المقدسات لا تُشير في شيء إلى الاخلاقيات . لكن أشارت إلى أنه بتقديم القرابين وبطهارة الطقوس ، تتلاشى الأفكار الشريرة . واعتبر (الشانتو) بين القرن الثالث والخامس عشر أن العائلات اليابانية هي مخلوقات خاصة مؤلهة (كامي Kami) . وان الأُسرة المالكة هابطة من الإلهة الأنثى (الشمس) . وهناك إله الأرض وإله الحرب والمزروعات وغيرها . من عادات هؤلاء الناس ، انه لدى دفن موتاهم ، دفناً لا احراقاً ، يمسك الأقارب عن أكل الأرز وشرب الخمر ، فترة من الزمن ، بينما الآخرون يرقصون ويعزفون ويحرقون العظام . وفي حال الوفاة ، اثناء سياحةٍ ما ، يكلف الرجل بعدم التزين ، وعدم تناول اللحوم ولا الاقتراب من النساء .

طرق العبادة هذه لدى هذا الشعب ، مشابهة لما كان يفعله الشعب الصيني ، في الألف الثاني قبل الميلاد .

وتقديم القرابين كان شائعاً عندهم ، لكنَّ الضحايا تقدَّم مِن الحيوان الأبيض وسواه

وأبداً من الجنس البشري . وتقدم الطرائد والسمك للمذابح مصحوبةً بالأرز والملح .

وما كان تقديس العضو الجنسي الا اشارة لوجوب التناسل . وقد حظى الأثريُون على الطرقات ، بحجارة ترمز إلى ذلك ، مما يدل على العناية بهذا العضو واحترامه .

دام انكماش وتأخُر هذه العقيدة (الشنتو) حتى اقترنت بالبوذية والكنفوشية ، فغدت ذاتَ مغازٍ رفيعة كما سنرى .

إن الآثام عندهم هي : الزنا ، والنزق ، والاخلال بالانتاج الزراعي ، والنوائب المختلفة المسببة عن طيش أو رعونة .

بعض الظاهرات الدينية في اليابان :

خلا ما عثر عليه الأثريون من أدوات حجرية وفخارية وبرونزية في انحاء اليابان ، فانهم وجدوا في غربي الجزيرة ، اجراساً في منطقة (هونْدُو) ، لكنهم لم يعرفوا سبب استعمالها . وقد عنوا بالتبرج . من أهم أدواتهم لذلك : (المِرايا) هذه المرايا كانت تعتبر رمزاً لنافذة مشرعة شطر العَلاء ، انها ينبوع ضياء خارق انها بإيجاز : الشمس . وكثيراً ما كانت تقدم للهياكل (الشنتوية) السيوف البراقة ومثلها المجوهرات .

وقيل أن عبادة السلف ، لم تدخل اليابان إلا بدخول الفكر الصيني ، مما يدل على أن هذه العبادة دخيلة على الجزيرة . كان من أولى دول الشرق الأقصى التي عنيت بالهياكل هي اليابان . وكانت تقام بتواضع في قلب الغابة المقدَّسة .

كان لديهم هيكل واحد فخم هو (كيزوكي) مصنوع من الخشب على رابية . في داخله غُرف ورواق يمتد إلى قبة هي : (قدس الأقداس) . وكان لهم هيكل آخر هام هو : (إيز Yse) لكنه غير ثابت. يعيدون بناءه كل عشرين عاماً، دون أن يُحدثوا فيـه أي تغيير. وبعد القرن الثامن تعددت الهياكل المتواضعة ودامت الكبرى الآنفة الذكر .

مهدت هذه الأفكار الروحية ، العقل الياباني لتقبل الموجات المتدافقة على شواطىء الجزيرة ، من الغرب والجنوب . كانت لكوريا مصالح ونفوذ مرموق في اليابان ، تشد ازرها الصين ، وقد وحدت بينها الديانة البوذية . وكان منتصف القرن السادس للميلاد أول إرساء لزوارق روحية بوذية على الشاطيء الغربي المقابل لكوريا الجنوبية . بهذا التاريخ كان قد بعث ملك كوريا برسالة لأمبراطور اليابان الصديق ، يقول له فيها : « إن هذه العقيدة

(ويعني البوذية) هي الأسمى من كل عقيدة . يعسر فهمها ، حتى أن كنفوشيوس نفسه لم يسبُرْ معانيها . إنها تبعث بالمكافآت المتواصلة ، وكل صَلاةٍ هي ملائمة لنا . تنفحنا بها هضبات الهند ، بناء لتعاليم المستنير : (بوذا) الذي يقول : ان عقيدتي ستمتد إلى المشرق » .

لم يأخذ مُستشارو الملك بهذا الرأي ، معتصمين بمذهب الـ (شنتو) السابق . لكن الملك كان اكثر تريثاً منهم ، ووزن الأمور من كل جوانبها . وكان عام (٥٧٧) للميلاد ، إذا بالمبشِّرين من فنيِّين ومهندسين يدخلون البلاد وينحتون التماثيل .

وقد أصاب الجزيرة بلاءٌ فتاك ، لعب فيه المبشرون البوذيون دوراً انسانياً رائعاً ، حال دون مطاردتهم . وقبل أن ينتهي القرن السادس بقليل ، كان الامبراطور لظروف سياسية قاهرة ، محبذاً لهذا المسلك الجديد ، وما اطل القرن السابع حتى كانت ألْسنة العقلاء تتناقل المناقب البوذية وتصفِّق لها . وتلا ذلك مآوٍ ومدارس ، ثم هياكل داعية للدين الهندي الجديد .

كان من حكمة الدعاة لهذا المذهب انهم يعنون بإخلاص في المعالجات الصحية ، ويسهرون على اشاعة الطمأنينة وتخفيف الألم عن ذلك الشعب البدائي . وقد نسب المعالجون هذا الشفاء لقدرة (بوذا) ومحبته للعالم . هذه الحسنات فتحت مغالق الجزيرة لهذا الدين ، بعد تسليم السلطة العليا سياسياً واقتصادياً ، بهذا الرأي . لكن المعتقدات السابقة ظلت عميقة الجذور . غير أن حسن تكييف البوذية كان العامل الأفضل في شيوعها ورسوخها وسمي (البوذا أميتابا) : النور السرمدي . وشعارُه : رحمةٌ وحنان . وطفق دُعاتَه ومريدوه يبشرون بهذا الدين الجديد ، حتى بلغ عدد المريدين في نهاية القرن السابع زهاء خمسة الاف بين ذكور واناث . وتضاعف مع الزمن حتى غدا المحرك الرئيسي للسياسة والتشريع الياباني .

الفصل الثالث

البوذية اليابانية في القرن الثامن للميلاد

منذ مطلع القرن الثامن نشطت الأيدي العاملة في بناء المعابد البوذية هنا وهناك من الأرض اليابانية . وقد شغلت مسافات واسعة ، البهوات البوذية في البلاد جمعاء . من أفخم

المعابد البوذية هنالك كان ما يبنى في ضواحي مدينة (نارا) المسماة اليوم (هونشُو) وكانت في القرن الثامن عاصمة البلاد ، حين بلغت الحضارة اليابانية أوج عظمتها . سُمِّي ذلك العصر الذهبي بـ : عهد (نارا) . دامت هذه الحضارة في القمة من عام (٦٤٥ إلى ٦٩٤) للميلاد . في النصف الثاني للقرن الثامن فتح القصر الملكي أروقته للمهندسين من المبشرين البوذيين ، الذين بدرايتهم وتساهلهم تمكنوا من موآخاة (الشنتو) ومن إحضار ملفات بوذية تبلغ (٧٣٥) الف ملفٍ ، وبلغ عدد الكهان نيفاً وعشرة الآف كاهن . يُشرفون على ادارة معابدهم ويطوفون مبشرين ومقدمين الخدمات الصحية الجليلة لأبناء القرى النائية المتخلفة ، ولغيرهم على السواء . حتى لم يعد الرأي يستطيع التمييز بين الفنون الصينية واليابانية في البلاد .

في نهاية القرن الثامن ، كانت قد تعددت المدارس البوذية من (مهايانية إلى هينيانية) إلى (طاوية شنتوية) .

المدرسة المهايانية الرئيسية كانت الـ (هوسّو Hosso) التي ما برحت تعيش حتى اليوم . ومدرسة الـ (سانرون ، Sanron) دخلت اليابان في عام (٦٢٥) ، بواسطة المبشر الخطير (أكوان) . والمعروف عن هذا الحكيم المبشر انه يعتنق الميتافيزيا لأقصى تطرفها . (الأنا) فيها غير موجود ، ولا شيء غيره موجود ، حتى العالم المحسوس لا يجد إطلاقاً . اما مدرسة الـ (رِتْسُو Ritsu) التي دخلت اليابان عام (٧٥٤) فقد اخذت تُعنى بالاخلاقيات والوجودية وتهمل الماوورائيات .

ثم كانت مدرسة الـ (شنتو) في العصر الوسطي التي تختلف بعمق عن سابقاتها .

الشنتو المتطورة :

فيما كانت مدرسة الشنتو تبشر بالمستنير الأكبر ، كان شائعاً عبادة الإلهة : (الشمس) ارتداداً إلى العصور القديمة . هنا بدأ الصراع يعنف ويتفاقم ويتبسط في انحاء الجزيرة . واثيرت فكرة المذهب الدخيل بحجة طعنه ، ولم يفشل الطاعنون ، إذ ظهرت ملامح تقديس الطوطم ، منها : الأيل والسعدان ثم الحمامة والثعلب وإله الحصاد الذي توافق مع الالهة (كامي) بذاته . وما (الكامي) إلا أحد تجليات البوذا ، وهو يتلبَّس مع الزمن اشكالاً متعددة تظهر في المعابد وفي غيرها .

ازاء هذا الارتداد ، تضاعف التعاطف (البوذي ، الطاوي ، والكنفوشي) الذي

اقتصر شيوعه في الطبقات العليا من الشعب . وبلغ هذا التلاحم منتهاه في القرن السابع عشر .

اما (الشنتو) فانه ناهَضَ عبادة النجوم ، خلا الشمس ، واحياناً القمر ، باعتبار هذا المعتقد غريباً عن الوطن .

بدأ ذلك في القرن الرابع للميلاد ، حتى العصور الوسطى وإلى اليوم ، فانه معتصم بالروح الوطنية ، لا يستسلم لدعايات واغراآت . وكانت تمرُّ فترات تضعف فيها مدرسة وتقوى اخرى ، غير أن الطاوية لم تجد الأرض الخصبة لها في الجزيرة رغم بعض صِلاتها (بالشنتو) .

وإلى نهاية القرون الوسطى استمر النفوذ البوذي والشنتوي هو الأقوى في اليابان .

الفصل الرابع

المذهب الباطني

في منتهى القرن الثامن حين كانت مدينة (كِيوتو) عاصمة البلاد بزغ من مطاوي البوذية مسلك جديد غريب على البلد ، انه : المعتقد الباطني (Mikkyō مِكِّيو) العميق البذور ، خارج الجزيرة والعسير الفهم . نقله من الصين متعبد جليل يسمى (ساشو) . توفي هذا المتعبدُ بعد جهاد عقائدي حار ، وخلفه (ساغاتانُّو) الذي اغنى معبده الفخم في شمالي (كيوتو) وأصبح محجة البوذيين اليابانيين . عايش هذا المعبد الاجيال . يُخرج قوافل من الطلاب المثقفين الروحيين ، واطلق عليه اسم (أَنْرياكُوجي Enryakuji) كما اتسم خرِّيجوهُ بالتقوى والقداسة والفكر الخلّاق .

كان هذا المذهبُ في البدء متقارباً للْـ (شِينْغُن Shingon) ذلك المبدأ الذي ابتدعه احد اصدقاء (دانجيو) رئيس العقيدة الباطنية يومذاك والمدعو : الكاهن (كُوكاي Kukai) فقد درس هذا الكاهن الفلسفة الصينية والكنفوشية ثم الطاوية التي تعشّقها وملكت مشاعره . وفي عام (٨٠٦) انتقل إلى اليابان منادياً بهذا المذهب الحديث الـ : (Shingon شينغُن) هو مذهب بوذي الأصلُ يقدِّس (ساكْياموني) وهو البوذا ذو الجسم الوهمي الذي عيَّن للعالم بعضَ مبادىء الخلاص .

ولكن (البوذا الاله) المتجسد في الشريعة هو السرمدي الفائق الوصف . هذا المذهب هو خلاصة (المهايانية) الهندوكية وزبدتها . بعيدٌ عن التصارع والتنافس

مع أية شريعة . انه يُوآنِسُ الطبقات الابتدائية للإستنارة ، بانتظار الإنطلاق بعيداً . من تعاليمه : بما أن طبيعتنا وطبيعة البوذا هي واحدة ، فكل ذاتٍ تحمل في قرارتها بذرة من الأصل (بوذا) . إذا عُنِي بها تألقت . وليس البوذا إلا مجموعةً موسيقيةً عذبةً من الخواص المتمِّمة .

إن بوذية المهايانا المتفائلة هي التي دخلت اليابان وغزت عقيدة الشنتو وطوَّرتها ، واقامت الاحتفالات البهيجة وقد بشرت بالسلام والتقوى والخضوع للدولة ، وما ندري أهي حكمة وحذاقة في نشر ايمانهم هذا ، أم هو مبدأٌ أَصيلٌ في العقيدة الحديثة .

وهذه صورة عن نفسية الشعب الياباني في تلك الفترةِ الزمنيَّة :

قال شاعرهم (تاهيتو) : في أقدم تاريخٍ لليابان يُعتَبر شراب (الساكي) المقدس يحل كل مشكلات الحياة ، وقد عبَّر عن فكرته هذه بقصيدة طويلة نوجز منها :

« منذ القديم المجهول في التاريخْ
كان الحكماء السبعة يُنشدونْ :
وليكنْ (الساكي) شرابُكَ ايها الانسانْ
بدلاً من جلوسك مقوقعاً أو رصينا
فما دام لا مفرَّ لنا من الموتْ
فلنمرحْ طَوال هذا العمر القصيرْ .
وأية قيمة للؤلؤة متألِّقةً ليلاً
إزاءَ النشوةِ الغامرةِ العميقةْ
المنبعثةِ من شراب الساكي في النفوس الوديعة ؟ »

التوازن البشري :

إن التوازن الاجباري لِما يطلق عليه اليابانيون الـ (مَنْدارا ، Mandara) ليس إلا صورةً هندوسية للعالم الروحاني حيث تتواجد الآلهة والوانها ، وطبيعتها وصفاتها . تتجاوب مع العلاقة المتعادلة لقدراتها . انبعث هذا المسلك من (دَانيشي ـ نيورا ، Dainichi - Nyorai) أي (ماها ـ ڤاراكاما ، Maha - Veracama) ، وتعني الكلمة : (المُستنيرْ الأكبر) الذي هو

الوهة البوذا التاريخي ، وفيه خلاصة كل شيء . يتربَّع في منتصف الـ « مندارا » أو العالم الروحاني ، تحتضِنُه غرسة « اللوتس » ذات التويجات الثمانية . أربعةٌ منها تمثل أربعة (بوذيات) كل واحد مختص بإحدى الجهات الأربع ، والأربع الآخرون كل منها بين جهة واخرى . بحيث ينطلق الثمانية (بوذيات) إلى الجهات الثمانية . كل هؤلاء يمثلون العالم الروحاني المزدوج : نظرة البوذا للعالم ثم نظرة العالم إليه . هذا هو الفكر والبوذا والمعرفة وكلاهما واحد في حقيقته . ولا يغرب عنا ما لذلك المسلك من أثر . نَقله إلى اليابان المهاجرون الصينيون الذين استوطنوا لفترات طويلة في الاسكندرية ، في القرون الأولى للميلاد ، وطُبعوا بأثرٍ من مدرستها الأفلاطونية الحديثة » .

وهناك مدرسة بوذية يابانية ، هي : الـ (Kongôkai كنغوكَا) فانها تُعير الرموز تقديراً بالغاً ، وتعتبر بعض الأحرف السنسكريتية ، لها مدلولاتها الباطنية منها : (â, am, ah, âh ، آ ، أَم ، أَهـ ، آهـ) ومن رموزهم الألوان الخمسة : (اخضر احمر اصفر ازرق وابيض) التي عني بها مسلك الـْ (شنْغون Shingon) .

المدارس البوذية المختلفة العقائد :

كانت قد تأثرت الصين بالمذاهب الفارسيةِ كما أُلمحنا ، ونشأ من هذا التأثير مسلك الـ (أَميدا ، Amida) إلى جانب الـ (نارا) الميتافيزيكي و (والشنغون) المعقد المترفِّع . نُقل المذهب إلى اليابان ونال شعبية واسعة واطلق عليه اسم : البوذا ذو الروح الخالدة ، أو الضياء الذي لن يخبو اسمه عندهم (أَميتابْها Amitabha) .

كان إيمان هؤلاء بأن المزيد منهم يستغرق في محبة البوذا ، متأملاً بحياة لا نهاية لها ، بحضرة البوذا ، الكامل السعادة ، في جنته الغربية : الأرض الظاهرة أو (سوكاڤاتي) وهناك تنبت غرسة اللُّتس ، لتستقبل نفسَ المُؤمِن بالمسلك . وقد نَسَجَ أولئك المريدون أساطيرَ حول تلك الأرض الطاهرة .

كانت الفترة التي تألَّق بها هذا المسلك ، من غير أن ينتمي لمذهب معين في نهاية القرن العاشر حتى منتصف الثاني عشر ولم تزل حتى اليوم آثار فنّ الـ (أَميدا) محتفظةً برونقها . منها : شجر الكَرزْ المزهر ، والصنوبر الفاخر التي ترمز إلى استمرارية البقاء ، وإلى التجدُّد المتواصل لليابان القديمة .

في العام (١٣٣٦) بلغ التصوُّر بهذا المسلك لرسم لوحة تمثل فخامة البوذا ، وجبروته ، منتصباً وراء الجبال ، كأنما هو شمس العدالة والرأفة ينير سبيل البؤساء الذين يمثلون سواد الشعب الياباني التعيس انه : (إياماتو Yamato) ، وحَسْبنا هنا التلميح إلى مسالك مختلفة ، في أقاصيص تكشف مضمون رسالتها : في منتصف القرن الثاني عشر ، قتل بعض المواطنين أحد الآباء ، فترك هذا لابنه هذه الوصيَّة : « إياك أن تبحث عن الانتقام ، وليكنْ كل بحثك عن الخير والصلاح من أجل والدك القتيل » .

وفي اوائل القرن الثالث عشر ، نشأ يتيمٌ على مبادىء روحانية الـ (أميدا) ، ملتمساً أرض الطهارة الغربية . تزوج وُرزق ابناء . كان يرتدي اللباس المدني ولا يتقشف . كل تصريحاته تدور حول المسلك وضرورة العناية القصوى بالأخلاق . وما كان ليطلب من المريدين أن يتغنوا باسم (أميدا) قط ، إذ أَن أميدا بذاته وبغير تَوَسُّلٍ ، يُطهِّرُ القلوب ويقيها من ارتكاب المعاصي ، لان في عُرف الـ (أميدا) : المعصيةُ هي نوع من طبيعة مَرضية في النفس .

ونادى بعض المتعبِّدين بالسخط والثبور على العقائد السائدة المتناقضة ، التي سببت انهيار البلاد وشيوع البأساء في الناس . ولحسن حظ هؤلاء ، حدث لدى اجتياح المنغول لبلادهم وتراجع الجيوش اليابانية ، حدث اعصار هائل مدَّمر ، ردَّ الغزاة على اعقابهم ، فتنفَّس المواطنون الصُعداء ، واغتنمها أصحابُ هذه الشيعة فرصةً مناسبة فادَّعوا أن بصلواتهم وابتهالهم عصَف هذا الإعصار المنقذ . ومنذ ذلك الحين ، حوالي (١٢٨٠) للميلاد تصعَّد في كافة انحاء اليابان ، سعير دافق للحفاظ على الوطن واعتناق المسلك الذي يجمع الشمل ، ويخلق التضامن والنخوة في المواطنين ، صيانةً للبلاد وتراثها . كانت حِدَّة هذا التعصب الوطني تشمل المناطق الغربية للبلاد ، حيث التعرض المباشر للأعداء . أما الشرقية منها ، فلم تؤخذ بكل هذه العصبية ، بدليل فتح صدرها للمذهب الباطني الجديد : (ألزن Le Zen) .

وأعقب المؤرخ سليمان مظهر ، أن أهل اليابان كانوا يظنون أن الدنيا هُم ، وأن هناك سماءً وأرضاً تحت الأرض ، وكلُّه مأهول . وان مذهب (الشنتو) مؤلف من كلمة (رِشِنْ) : الروح الخيِّرة ، ومن (طَاوْ : الطريق) . يعتقدون بأن الروح تسري في كل

مخلوق في الكون ، من أصغر الجزيئات إلى اضخم الأجرام السماوية . وإن عبادتهم من موق وتقديم القرابين لها ، كانت عن خوف منها . وحين دخلت البوذية بلادهم ، البسوها طابعهم المرح في الحياة ، وأضافوا الزعم بوجود قديسين وشياطين ، وعلى رأس هؤلاء : (أوني) ذو القرون والأنياب .

وأكمل المؤلف : إن أحد حكماء اليابان (هاياشي) نقد البوذيَّة والمسيحيَّة معاً ، عازياً للأولى نفورَها من الدنيا وطيباتها ، وخلق روح الوهن في النفوس التي يغذيها مبدأ : (الشنتو) الوطني . أما المسيحية فاعتبرها وهماً وأخيلة على طراز العقائد القديمة البائدة . ركز افكاره ومشاعره على الكنفوشية ، حيث تحمل النظامية في الحياة اليومية ، وتقدّس الطاعة ومحبة الوالدين ، وذوي السلطان في البلاد . وما فتئت هذه العقيدة تتمتع بنفوذ مرموقٍ حتى اليوم في جزر اليابان .

أما الشعب الياباني فكانت لهُ نزعة ملحّة إلى رؤية الزهور وتقديسها . لكن بدخول البوذية وتعدد فُرقها آمن بعض الشعب بوجود شيطان اسمه : (أوني) ، له قرون وانياب وأنف أفطس ، يُغري النساء ، ويسكن في الشمال الشرقي من البلاد .

لقد اعترف الشعب بنفوذ الكهنوت واحترموه باعتباره الصلة بين الأرض والسماء . لكن هذا الكهنوت ما لبث أن تغلب عليه التكاسل والفجور والانغماس بالسياسة اليومية ، فأخذوا يموِّهون على الشعب في ابتياعهم صكوك اطالة العمر ، لقاء مبالغ معيَّنة .

وروت قصة الحضارة في الصفحة (٧٢) من الجزء الخامس أن الرهبان كانوا آنذاك في ذروة مجدهم وتعهُّرهم . بينما الشعب في جحيم من الفاقة والتشرد والجهل والمرض . وانهم كانوا يشترون الغِلمان ويُزِّينونهم ، ويستعملونهم عن شهوة سافلة .

مسلك الـ « زن :Zen »

ليس بعيداً هذا المسلك عن مشابهِهِ الصيني ، المسمّى بالسنسكريتيّة (تشان ، Tch'an) ، والشائع خاصةً في جنوبي الصين ، قبل عبوره اليابان بمئتي سنة ، حين دخلت البوذية عن طريق كوريا ، إلى اليابان في منتصف القرن السادس للميلاد . كان حكماء البلاد يحسبون مسلك « الزن » غير واضح ، يصعب فهمه والجواب عليه ، بلسان أئمّة

المذهب ، لا يشرح بالكلمات ، فهي اعجز من أن توضحه . انه تيار فكريٌ روحاني ، يُحَسُّ به في الاستغراق بالتأمل . هل هذا غير الطريقة الصوفية والباطن في الديانات السماوية اللاحقة ؟ انما هو غير واضح الأصول ، لسببٍ أو لآخر .

هذا الاستغراق ، او النشوة الروحية ، بلغة مُقدِّسي : « الخمرة الديونيسية » أسموه الـ (ساتوري) ومضمونه أن الحكمة العليا تحقق فينا معارفها السليمة . انها عقيدة نكرانٍ لاستمرارية « الأنا » . ودار حوار بين حكيمين ، قال احدهما : ما هي الأنا التي أملك ؟؟ اجابه الآخر : وأي شأن لك بهذه « الأنا » ؟؟ .

أما مذهب « الزن » فخلاصته : إن البوذا في جوارح كل انسان يسأل عنه . والغاية منه الارتفاع بالإنسان إلى مستوى البوذا . ومسلك الزن يُقرُّ بأن الطهارة والجمال متلفّعان بحقٍ ، في ضباب طبيعيٍّ من صدق البصر والبصيرة ، مزِّقْ هذا الضباب تكشفْ حقيقةَ الاشياء .

« كان مهدَ هذه العقيدة اليابان ، والمنطقة الشرقية منها ، وذلك بنهاية القرن الثاني عشر للميلاد . وكانت العقيدة حين ولادتها في الجزيرة ، موضوعَ عنا: البوذية اليابانية . وكانت منتشره في الصين منذ القرن السادس ، وبلغت اوج ازدهارها في مدينة « (تونكين) بدءاً من القرن التاسع حتى الحادي عشر ، حيث كانت نهاية مطافها في اليابان .

في العام (١٢٢٨) تمكن الكاهن (دُوجن Dôgen) ، من صبغ العقيدة بالروح الوطنية العالية ، وأسس عدة معابد لها . تركَّزت مبادئها على أربعة قوانين : ١ ـ الحقيقة تكمن بعيدة عما يُكتبَ عنها ، ٢ ـ يجب ألا نطمئنَّ إلى ما يُقال ويكتَب . ٣ ـ تتَّجه « الزن » مباشرة للروح . ٤ ـ على كل انسان أن يمعن في قرارة نفسه لكي يجد فيها (البوذيَّ : Bodhi بودهِي) . يتّبع هذا المسلك طريقة غير معتمدةٍ على المنطق ، بل المسير على مسلك الأعمال النقية والبسيطة . وفي هذا المثل تعبير عن طريقة (الزن) في الحياة : التقى كاهن أحد رؤسائهِ فسألهُ : « ما العمل لكي نتخلَّص من ثيابنا ومن غذاء جسومنا ؟ اجابهُ : في أن نلبس وأن نأكل . قال الكاهن : لا أفهم ما تقول : اجاب الرئيس بداهةً : إذا كنت لا تفهم ، فاسترْ نفسَكَ بلباس وكُلْ » .

يعتبر هؤلاء انه من خلال السْمسارا Samsara) الروح ، وتقمصاتها يتم دخول الجنَّة . كما يؤكدون أن الكشف لا يتم بالتعقُّل والتأمل والانجذاب ، بل بالعقل المتزَّن الرصين ، ويسمُّونه (ساتوري ، Satori) ، وكلا الكلمتان تحويْ المضمون نفسه . يقولون : يجب أن نعيش وأن نتصرف بِوعيٍ ، إذا كنَّا نجهل سبب كينونة وجودنا وفاعليّتنا .

يقول شعر ياباني : « ايها الإنسان انك فزَّاعةٌ ضائعة في حقول الأرز » . وجدانك يمنعك من الاقتراب منها ، في حين انها مفيدةٌ لك .

وللزنِّ معابدٌ في ظاهر الطبيعة منعزلة . يعنون بالشعر والتصوير ، ويمارسون التأمل العميق الصامت .

إن (الزنِّ والتْشِنْغ) مبدأ واحد أصلاً ، مقتبس من الطاويَّة . عندهما الحقيقة هي صفة البوذا في كل انسان . جدوى العبادة : التأمل ودراسة داخل الذات ، لحضور الاستنارة المفاجئة . ناهضَ هذا المسلك في اليابان كما في الصين ، كلُ ما يمتُّ بصلة إلى العنجهية والبذخ ، في عصرٍ كانت فيه اليابان تشكو الحرمان ، وناهض الـ(شنتونَ) وطقوسَها وقطع كل صلة بينه وبين التسليم بالسحر وفاعليّته .

يقول المؤرِّخ (ج . بُوهوت J. Buhot) : « الفضل الأكبر لمسلك « الزن » في خلق الروح اليابانية ، مجاريةً لحضارة العصر الحديث » . وليس مذهب الـ(شا ـ نو ـ يُو ، Cha - no - yu) الياباني الذي نقل غرسة الشاي ومارسها في الوطن ، الا امتداداً لمسلك الزن ، مع قليل من التطور . وقد توافد الى المسلك كثير من معتنقي المذاهب الاخرى وكثير من المدنيين الصُفر ، الذين آمنوا بأن ثقافة العقل تنبع من ثقافة النفس اولاً .

وبالأسف فان القرن الرابع عشر ، كان طالعَ شؤْمٍ على اليابان ، إذ تفاقمت الهزات الإجتماعية ، فأدَّت إلى ثورات داخلية مدِّمرة . ولكن بعد القرن السادس عشر وبعد توغُّل الاستعمار الغربي في البلاد ناقلاً إليها بذور المسيحية الغربية ، استقر الوضع الداخلي فيها .

وكان العام (١٤٤٣) موعداً لهبوب عاصفة عنيفة ، قذفت بإحدى السُفن البرتغالية التي اكتشَفت رأس الرجاء الصالح عام (١٤٩٨) وتعَّرفت إلى الصين عام (١٥١٠) . أُرست هذه السفينة على المرفأ الياباني الجنوبي (كيُوشُو ، Kyûshu) فاسْتُقبلت بحفاوة ورعت الدولةُ ركَّابها . كان هذا التاريخ بدءاً لِتطلُّع الغرب بِنَهَمٍ ومخالب تقطر بالدم ، إلى موطن الشمس ، ومغرس الطيبة والسلام .

الفصل الخامس

الديانات المختلفة في اليابان

في العصور المتأخرة (١٦٠٢ ـ ١٩٣٧) كان مذهب الـ (تشان، Tch'an) المخالف احياناً لمسلك « الزِن » ، مزيجاً من عناصر فلسفية (يوغية وطاوية) . وفي نهاية العصور الوسطى ، اشتعلت جذوة الكنفوشية المتطورة ، وشاعت وتأصلت في جزيرة الشمس ، بفضل الفيلسوف (تشُو ـ هي Tchou - hi) (١١٣٠ ـ ١٢٠٠) الذي ألبسها نسيجاً من الميتفيزياء ، فتجسدت فيها الطاوية بأجلى مظهر لها . وعُرفت بالكنفوشية الجديدة ، التي ما طال عليها الأمد ، حتى توافقت مع مسلك (الزِن) .

وفي الزمن المحدد بين (١٨٥٣ ـ ١٨٦٨) تحَرَّش الاسطول الأميركي بما يحمل من ساسة وعسكريين باليابان ، منادين ظاهراً بإعتاقها من عُزلتها . وفي الحق ، كانت المطامع الاستعمارية هي الحافزة والمخططة والمنفذة . فسنُّوا قانوناً جديداً منعوا اعتراف الدولة بأي دين خلا (الشنتو) ، الذي ما برح يَعمل بحرية . وأصبح الكهان موظفين في الدولة . والإله الواحد الذي اقرته الدولة في تلك الفترة هو : (الأمبراطور) نفسه . أما الكُهَّان البوذيون فأطلق عليهم اسم : حراس المقابر . ومذهب الـ (شنتو) حسب احصاء عام (١٩٢٧) كان منقسماً إلى ثلاث عشرة فرقة ، لكل منها نزعة خاصة . منها المقيدون بالطقوس السابقة ، وآخرون معنيُّون بالفضائل وانمائها ، وغيرهم مقتنع في شيء من الإيهام بإلهٍ واحد .

والأساطيل المستعمرة من بريطانيين واميركيين أخذت تحمل المبشرين البروتستنت غير عابئة بكنائس وكهنوت من أي لون كان ، في بادىء امرهم ، وحتى عام (١٩٤٠) .

ونهاية الحديث عن اليابانيين ، انهم ككل الشعوب يتقبلون الدعايات الدينية . وهم منفتحون في آخر عهدهم . وميزة الوطنية ظلت في نفوسهم الغالبة ، مع حنين إلى هذا أو ذاك من معتقداتهم السابقة ، على أن الطيبة والشفقة ملازمتان لهم في أي حال كانوا ، وأي مذهب أعتنقوا .

خلاصة البحث :

الموقع الجغرافي لليابان يجعلها بالنسبة لنا ، ولحضارتنا القديمة والمعاصرة ، بعيدة جداً ، ومعرفة حقيقة أوضاعها الدينية وغيرها ، كانت تحت غيوم من الإبهام والشك ، حتى مطلع القرن الأول للميلاد ، وزادت وضوحاً في القرن السادس بدخول الحضارة الصينية إليها ، عن طريق (كوريا) .

أفصح لنا المحققون أن عبادتهم كانت للاله (آنو) ، وانهم آمنوا بذوات عليا هي (الكامْوي ، Kamui) ، وعبدوا ما شاع عندهم من حيوانات ، وخاصةً الجبَّارةَ منها .

الشنتو :

من المذاهب المنتشرة والأصيلة كانت الـ (شنتو) وكان هنالك معتقدات ظاهرة متعددة ، ومعتقدات باطنيّة تؤمن بأن القوة الفاعلة في الجسد هي الروح ، وانها هي التي تثقّف العقل . وليس الأمر بالعكس ، كما يزعمه قادة المذاهب الظاهرة . أما الـ (شنتو) التي لا تختلف كثيراً عن الطاويّة ، فكانت الديانة الرئيسية للبوذية اليابانية . هذه البوذية دخلت الجزيرة من الصين بعصر متأخر .

لهم اساطيرهم ولها تأثيرها في الشعب ، وفي تفكيره . وما تفتحت عقيدة الـ(شنتو) الا بعد دخول البوذية والكنفوشية واعتناقها بعض مقوماتها .

وجد الباحثون آثاراً تعود إلى العصر البرونزي من حجر صقيل ، ومرايا وتماثيل ، وأواني من الفخار في نواح مختلفة من اليابان .

كانت البلاد حتى نهاية القرون الوسطى ، نهباً للتيارات المختلفة التي وردتها من فارس والهند والصين، خلا ما احتفظوا به من تراث روحيٍّ قديم ، وكانت هنالك صراعات ومنافسات حادة ، هي دخيلة في الأصل على ذلك الشعب المسالم الطيب . غير

أن الفاقة والحرمان وقلة موارد البلاد ، صبغها بطابع البؤس والفقر . لكن هذه الحال الاقتصادية لم تمنع السكان من ممارسة تلك المعتقدات ، وبخاصة ما يوحي منها بالارتياح للنفوس المعذَّبة . أخيراً ولظرفٍ طارىء دخيل ، اضطر القادة للمناداة بالأمبراطور إلهاً ، توحيداً للبلاد ، وشلاًّ لليد الغربيَّة العابثة . ومن معتقداتهم الباطنية مسلك الـ (زِن Zen) . كان هذا المسلك مُناهضاً لكل المسالك ، غير أنه اخيراً تلاءم مع الكنفوشية الجديدة ، وتابع انطلاقته على هَديها .

اخيراً ضعفت شوكة الدين ووهَى ذلك الهيكُل الأقدس الذي كان ارجوحةً في تيار المذاهب المختلفة ، وغدا الكهان أو معظمهم موظفين في البلاط .

وبدخول الاستعمار الأنكلو أميركي لهذه الجزيرة ، هزلت جِدَّة الدين ، وتوقفت الثورات الوطنية ، وأُلقيتْ في تُربة الجزيرة بذوُر المسيحية ، محمولةً على أكُفِّ الدُول ذات المصالح المادية والروحية معاً .

المراجع العامة لديانات اليابان

أ ـ بالعربية ؛

أ ـ عباس محمود العقاد ـ كتاب الله ـ ص (٨٨ ـ ٩١) سنة (١٩٦٤)

ب ـ هامرتون ـ تاريخ العالم ص (٤٣١ ـ ٤٤٣) ـ وزارة التربية المصرية .

سليمان مظهر ـ قصة الديانات ـ ص (٢١٧ ـ ٢٧١) ط/١ مصر .

ب ـ بالاجنبية :

1 - Ency - clopédie Générale (La Rousse): Tome III p (543- 545) (1968).

2 - Histoire générales des Religions (1960): Tome III P (363 - 403) par: Jean Buhot.

3 - la Mystique: (Collest que sais - Je), Paris (1970) P: (43 - 46): Louis Gardet.

4 - L'Esotérisme: (Collest que sais - Je) Paris (1965) P (77 - 82) Lue Benoist.

5 - Le Bouddhisme: (Collect. que sais - Je) Paris (1966) P (112 - 115) Henri Arvon.

6 - Histoire de La civilisation: (1962) Tome I, ch, (28), P: (228 - 236) Will Durant.

7 - Hist. générale des Religions (1960) Tome IV P (46 - 57) - (195 - 223) Edmond Rochedien.

8 - Les Grandes Religions du Monde, Ed Rochedien (1966) Tome IX P: (17 - 19) (46 -48) (57 - 61) (72 - 79) (121 - 126) (195 - 201).

الباب الرابع عشر

الفصل الأول

معتقدات آسيا الوسطى والصين والتيبت

1 ـ آسيا الوسطى :

يحسن بنا إلقاء نظرة عجلى على موقع المناطق التي سنتحدث عن تاريخها الروحي ، وعما يحيط بها من معتقدات ، وما يتوجب عليها اقتصادياً وسياسياً من الارتباطات مع جيرانها ، وتأثير ذلك على النزعات الروحية في البلاد . الموقع الجغرافي لآسيا الوسطى ، تلك المنطقة التي سنتناول الحديث عن معتقداتها الروحية هو : من الشمال الشرقي ، هضبات ايران حتى صحراء (غوبي) ، ومن الشمال سيبيريا . كانت تلك البلاد منذ القدم ممَراً لقوافل التجار ، بين الشرقَين الأقصى والأدنى . من هنالك انطلقت الهجُراتُ المتعددة شطر المغرب من قبائل : (الهون والترك والمنغول) . والديانات التي تسرَّبت إلى المنطقة ، أما بواسطة التجار المتنوعي الجنسيات ، أو بحكم الجيرة وانتقال السكّان من البلاد وإليها أسبابه كسبُ المعاش . هذه الديانات كانت : المزدكية والمانوية والبوذية والنسطورية والإسلام والمسيحية . ولكثرة هذه التيارات الروحية ، حدثت المنافسات العديدة ، وما انقطعت ، لان الأيدي الأجنبية لا تلبث تصعِّدها لصالحها الخاص ، مادياً وروحياً وسياسياً . وحسبُ هذه الرقعة أن تكون ملتقى قوافل الحضارتين المتنافستين الكبريين : الصينية والهندية . مناخ المنطقة الطبيعي قاس وقاري بسبب انفتاحها

على الصحارى السيبارية . في وسط البلاد ، تكثر البحيرات والواحات ، امتداداً إلى (بحر الخزر وبحيرة أرال) . هنالك تقع بلاد التركستان حالياً ، بما فيها التركستان الصينية .

بعد فتوح الاسكندر الكبير ، انتقل الفكر الهليني إلى تلك الربوع ودام من (٢٥٥ ق م إلى ٢٢٦) . وبعدهُ استطاع ارباب الفكر الديني هناك أن يشركوا بين الهلّينية والفارسية ، وأن يحتضن بعضهم (المهايانا) الهندية . هذا الشعب هو العنصر الشرقي الأعمق بين المهاجرين (الهندو أوربيين) ، وهو المؤلَّف من التبعيات المنغولية والتركستانية معاً . لم يسعد هذا الشعب بتشرُّع يسنُّ لهم شريعة مخطوطة ، انما كل ما هنالك عادات وطقوس متبعة وجدٌّ فرعية . كان شأن هذا الشعب كشأن كل شعب مغلوب على امره ، في الأرض جمعاء : يتبع الأقوى والأسلط .

الديانة الأصيلة : كان سكان هذه البلاد قبل الميلاد يقطنون الصحارى السيبيرية الشرقية ، ولم يعثر لهم على بينات تثبت ما كانوا يُؤمنون به رسمياً . وفي استيطانهم هنا ، ركنوا اولاً إلى الهندية والفارسية ، ثم تشعبت المعتقدات مع الزمن . وقد حظي الباحثون وعلماءُ الآثار على بعض ادلة تثبت إيمان بعض هؤلاء : بالروح وبالقوى السحرية ، والبعض الآخر بقوىَ الطبيعة : جبل ، شمس ، شَجَر ونَسر مثلاً ، واحياناً يقدس بعضهم النار المستمدة من الفارسية . لإرضاء السماء ، كانت تقدم لها وللقوى المتواجدة فيها الضحايا على رؤوس الجبال .

كان سكان جبال (ألْتايي) التُرك ، يُخصُون للحياة خمسة أنفُس : الوظيفة التنفسية ، الحيوية الخارجية والقائدة ، الحيوية المقاومة للأمراض ، الانعكاسات التي لم تسعد بها الحيوانات ، واخيراً الروح الخالدة بعد الوفاة التي يمكن عودتها للتجسد . وكان شعب (البوريات) فيهم يعتقد بأن روح الطفل بعد وفاته تضمحل ، وروح الشقيِّ المجرم تلبث تائهة ضائعة بعد موته . وبعض ارواح الموتى تبقى حية لحاجةِ الإنسان إليها .

وشاعت الدَرْوشةُ والصوفيَّة واليوغية والطاوية ، ومورست بالرقص المقدس . كذلك شاع السِحر واجتذب إليه جمعاً غفيراً من أهالي المنغول والتركستان . وقد كان للسماء أو لساكنيها أو للقدرة العليا فيها : (الذات العليا) عميق التأثير في سواد الشعبين المنغولي

والتركستاني فأسموه (تانغري) و (أولقْهن) بالاجنبية : (Ulghen, Tengri) .

في منطقة الـ (سَارَنْدْ ، Serende) هنالك ، قبل اجتياح المنغـول لهذه البـلاد ، كان الهندواوريبيون قـد غزوا البـلاد نفسها ، وزرعـوا فيها بعض طقـوسهم الدينيـة . ثم عقب ذلك تَفتُّحُ على المذهب (الزرادشتي والماني والميتري) ، وتبعتها البوذية بفرعيها : المهـايـانـا والهينيانا والمسيحيـة النسطورية أولاً، كذلـك البوذيـة (اللامـائية Lamaïsme) . واخيـراً فَتحت البلاد ذراعيها للإسلام .

يمكننا تلخيص مدِّ التيارات الروحية المنغولية التركستانية التي دخلتَ آسيـا الوسطى قبـل الهجرة الهنـدو أوروبية حتى العصر الحـاضر، بـأنها متشـابكـة بـين كـل ديـانـةٍ انتشرت على حدود هذه البلاد ، شرقاً وجنوباً وغرباً . والطرق التجارية الكبرى التي فرضت عبورها في قلب آسيا الوسطى ، اضطرَّت اهـاليها إلى اتجـاهات فكـرية مختلفـة ، لعدم وجـود ديانـة رسمية سابقة وثابتة ومخطوطـة . لكن الإنفتاح لـلإسلام فـرض عليهم الطمـأنينة النفسيـة والفكرية معاً .

المسلك في التيبت :

بين البلدان التي نعمت بالتبشير البوذي هي (التيبت) ، تلك البلاد الجبلية المنعزلة التي تعلو زُهاء خمسة آلاف متر عن سطح البحـر . تركـزت فيها العقيـدة (التنتريـة) التي يغلب عليهـا السِحر والـطقوس الـرمزيـة ، وهي من بقايـا معتقدات شعـوب الـ (Boen ألبووَن) .

تنقـل الاساطـير ان ظهور البـوذية في التيبت بـدأ في القرن السـابع للميـلاد ، بعهد الملك : (سْترُنْغ ـ تسان ـ غام ـ پو، Strong - Tsan - Gam Po) الذي تـزوج من امـرأتـين احداهما (نايالية) والثانية (صينية) وكانتا العامل الأكبر في انتشار المذهب بتلك الأرجاء .

في منتصف القـرن السابـع نشط النساك الهنـود في بثِّ دعوتهم تلك ، في متـاهـات التيبت ، بفضل المبشِّر الأكبر (پدمازمبهاڤا ـ Padmasambhava) مؤسس المذهب الـلاّمي الأحمر . وهو اليوم في نظرهم بمصافّ الآلهة .

وفي منتصف القرن العاشر حمـل ناسـك خطير من الهنـد المدعـو : (بنغالي آتيسـا ،

(Bangali Atıça) العقيـدة الباطنيـة المسمّـاة (Kalaçkra، كـلاسَكـرا) أو دولاب الـزمن. سمحت هذه العقيدة للنسّاك بالزواج ، وكان محـظوراً عليهم من قبل . لكن هـذا المذهب الأحمر (نظراً للباس نُسّاكه القُبعات الحمراء) ما لبث أن تزعزع بتـطور مفاجىء ، قـام به جماعة المـذهب الأصفر ، في القـرن الرابـع عشر للميلاد ، بـواسطة زعميهم المـدعو : (Tsung - Ka - pa تسونغ - كـا - پَا) لكنَّ هـذا قد منـع زواجَ النساك ونـظم جماعتـه مما جعله ، أبا المذهب في عرفهم .

قفزت عقيدة ذوي القبعات الصفراء خارج حدود البلاد ، إلى منغوليا وتركـزت فيها وما تزال بدءاً من القرن السادس عشر ، مؤمنة بتجسيـد البوذا الخـامس المسمى : (البوذا الحيُّ) أو (Maitreya) وهو الرئيس الروحي لبلاد المنغول .

وبعد التطور الأخـير في القرن الـرابع عشر ، لم يعـد يحصل أي تغيـير أو اجتهاد في النظام التنتري المنسَّق .

اللامية :

لكن الشكل الخاص الذي اتخذته البوذية في بلاد التيبت ، كان يحمل اسم (اللاّمية) وهو مشتق من كلمة (لاما) وهـو لقب فخري يُمنـح لكبار النسـاك . وما لبث أن أصبح لقب كل ناسك فيهم . وكان ما يزال عـلى رأس المذهب الـلامي منذ عـام (١٥٧٥) زعيمان . احدهما : (الدلاي لاما) وهو تجسد (البودِّيزاتڤا) والثاني : (تاشي لاما) ، تجسـد البوذا (أميتابا) . أما الدلاي لاما فيسكن في مدينـة (لاهاسّا) ممارساً السلطة الزمنيـة بعكس رفيقـه الذي يمـارس الطقـوس الروحيـة ويلتزم المعتصم الأعظم (Ta - shi - lhum - po ، تا - شي - لهوم - پو) كان الأول اداة بيد الاستعمار البريطاني ، أما الثاني الروحاني فقـد لجأ إلى الصين واحتضنته .

كان هؤلاء يؤمنون بتقمص الإله في جسد إنسان ، ناقـلاً معه كـل قدراتـه الروحيـة العُليـا . ولكي يسعد التيبتيـون بـالـظفـر في لقيـا هـذا الإلـه الصغـير الجـديـد ، عليهم بـالبحث الدقيق . يقوم بهذا البحث نُسّاك مختصـون ، تساعـدهم العوامـل الطبيعيـة : من نفحات طيبة إلى انحناءات شجر ، إلى تغريد طيور ، ومساق غيوم ، وما شاكل . كلها تتجه شطر المكان الذي يضم هذا المولود الجديـد . وحين يحـظى النُساك بـالمكان ، يحـاورون المولـود

بـأسئلة متنوعـة وملموسة، وحـين يتم جـوابـه عليهـا صحيحـةً ، ينقلونـه عـلى الفـور إلى مُعتَصمهم ، منادين به إلهاً جديداً . وبعد الاحتفالات المقدسة ينادون بـه : دالاي لاما ، ويخفونه عن الصينيين حرصاً على سلامته .

لقـد زارت باحثة بريـطانيـة (Eva Rosh) تلك البـلاد وحضرت بنفسهـا طـريقـة البحث عن الاله الصغير الجديد ، وألفت كُتيِّباً موضوعه : (الـدلاي لاما) . كـما جاءنـا الكاتب البريطاني (لدويل تومـاس) بمؤلفه حـول اللاميـة (ص ١٢) قال : إن الـلاما ، حين يُتوفَّى يتَّجه تلقائياً شطر المنطقة التي اتجد فيها المـولود الجـديد بـالتقمص ، بحث عنهُ اولو الشأن ، وما زالوا .

ولم يتـوانَ هؤلاء عن النـزوع إلى البـاطن العميق . ذلـك البـاطن الـذي مـا بـرح الغربيون يعتبرونه تجديفاً على الحقيقة . معتـقـدين كُلياً بـالتقمص من جسد إنسـان لجسد إنسان جديد . ولهم عبادات ورقصات ذات مغازٍ لم يُحسن الأخصَّائيون في إلقاءِ أيةِ ومضـةِ ضياء عليها . لكن المؤلف (H.Arvon) اسماها بغـير حق : طياشـة . وما بـرح في الصين والتركستان وسيبيريا بعض من اللاميين يمارسون معتقدهم بحرية كاملة . وفي باكين نفسها لهم هيكـل فخم هو (Yong - ho - Kong) ، يـونغ ـ هـو كُنْـغ) ، دُعِيَ بـاسِمهم الهيكـل اللامي .

لنا مع هذا الباطن ، على مشارف حملايا ، تفصيل لاحق .

الفصل الثاني

الصين

II ـ الصين القديمة :

لا بدَّ لنا من لمحة عابرة على تاريخ هذه الدولـة العظمى المـترامية الأطـراف القديمـة العريقةِ الحضارة . سنعتمد الاساطير الصينية ، وهو اعتماد لا نرتاح كل الراحة إليـه ، غير انه يضيء بعض الزوايا عن الماضي السحيق ، وأن يكن لا يبعث إلى الاطمئنـان العميق : استخلص علماء الآثـار الأمـور التـاليـة : إن السكـان القـدامى منذالعصر البليـوليتي ، المتـواجدِينَ عـلى ضفاف انهر الصـين الكبرى ، اختلطوا بسكـان مدينـة (سـان ـ كيـمان) الحالية وكانت تدعى (Kachgar ، كاشْغار) توسعوا في الضـواحي ، وعمروا البـلاد حتى

غدت تدعى : بلاد ما بين النهرين الصينية . ولا غرو فالطبيعة قد وهبت كلا المنطقتين اروع ما تختزن من مفاتن ، ومن خيرات طبيعية . تنقصها يد عاملة واعية وجادة . وقد وُجدتْ هنا وهنالك تلك اليد المنشودة . وازدهرت المنطقة وتبسط نفوذها وعمَّ عمرانها . كان حوض النهر الأصفر الكبير ، ملتقى لتجمُّعات بشرية ضخمة ، متسربة من جنوبي القارة ، ومن اندونيسيا وسواها . وقد اعتقد المؤرخون بعد تنقيبٍ وامعان بأن حضارة الصين هذه ، كما الحضارة السومَريّة كلاهما من مصدر واحد مشترك هو : الحضارة الأندوسيّة (حوض نهر الاندوس في الهند الشمالية الغربية) وبعثور الباحثين على اواني فخارية في وادي (النهر الأصفر شمالي البلاد) تعود إلى العصر النيوليتي ، وتتشابه بالآثار البرونزية التي عثر عليها في عام (١٨٨٤) بمدينة (داريوس) الفارسية ، ومعادها إلى ما بين الألف الخامس والثالث ق . م . من هنا ، اصبح جد محتمل ، رضاعة الحضارتين السومرية والصينية القديمتين ، من صَدرٍ واحد هو الهندوس ، لان هذه المنطقة تقع على الطريق التجاري العام ، بين الحضارتين المعنيتين اللتين كان قد سبقهما تفتح الحضارة الهندوسية في المشرق . درس هذه الأوضاع والعلاقات بين الدول المذكورة العالم الاجتماعي (دُوركْهيم) وأغنى البحوث بنظريات قيِّمة حولها .

طقوسها وطبيعة اهلها : بين الأعوام (١٠٥٠ - ١٤٥٠) قبل الميلاد ، بعد عهد (تشانغ) ، كان الشعب يمارس تقديس العِظام وتأليه السَلَف . وكان الاعتبار مفروضاً لكل ميت ، تقديراً له ، لأن بعد الوفاة يتحول المتوفّىَ إلى روح صرف ، لها سلطة كبرى على سلالتها ، وهي الموجهة لها في تصرفاتها وإذا خالف الاحياء هذا الاعتبار يتعرضون إلى المجاعة أو المرض أو الموت .

وعلى الأهل أن يقدموا القربان لدى كل وفاة ، وان يصحبوا الجثمان بكل ادواته ملفوفاً برداء ، حيث يوارى الترابَ ، بعمق اثني عشر متراً تحت سطح الأرض ، وبعرض عشرين متراً مربعاً، مصحوباً ، إذا كان المتوفّى ملكاً ، بجنوده الخاصة وحشمه ، وقد يبلغ عددهم الثلاثمائة ونيف .

تكون ارواح هؤلاء المتوفين تحت إشراف الاله (تي ، Ti) وخاضعة لجبروته . اما المتوفون العاديون فتقدّم لهم ذبائح بشرية احياناً ، وغالباً حيوانية وخمورٌ وبَشَرٌ من الرُعاة الدخلاء .

دامت هـذه العـادات حتى القـرن السـادس (ق. م.) حيث اطـل عهـد الـوعي الأكمل ، بظهور كنفوشيوس ولا وتسي تنغ .

آلهتهم : أقدم ما عُـرف من عباداتهم : هـو الطبيعـة ، وحين تجف الانهار تقـدم لها الضحـايا الحيـوانية فتُحـرق ويلقى رمادهـا في النهـر ، ليعـود الـدفق والخصب . وكـانت الأرض : الملكة والزوجة (Dragon دراغون) . وهنالك إلـهُ الريـح رسول الألـه الأعظم (تي ، Ti) الـه الأعالي والمشرف عـلى مصائـر البشر جميعاً . وعنـدهم آلهة وآلهـات كثـيرة غيرها .

الروح : رغم اللَّبس في معتقدات الصين القديمـة ، فالـواضح انهم كـانوا يؤمنـون بقوى خارقة تتضمن كل ظاهرة في الطبيعة ، وباستمرارية بقاء أرواح السلف .

أما غاية الشعب من الايمان بآلهته فكانت : ١ ـ تحبب واستعطاف بتقديم القربان . ٢ ـ الاستنارة بما لديها من معارف تنير سبيل المستقبل ، خاصة الحـروب ونتائجهـا واسقاط المطر .

لم يؤمنوا بعمق في ما وراء الطبيعة ، لذلك عَسُر دخول الديانات الحـديثة للصـين . وقد زعموا أن أول الخلائق يسمى (بان كـو) منذ مليـوني سنة ونيف ، وأن البشريـة هي الحشرات التي كانت عالقة على جسده ، والرياح والسحب : انفاسه ، والأرض : لحمه . (قصة الحضارة ص ١٤) .

إن الحكماء لدى الصينيين هـم القديسون ولا قديس غيرهم .

ولما كان اعتـماد سكان الصـين على الـدخل الـزراعي وعـلى نشـاط الفـلاحـين، وكـان النظام العالمي منذ تحضر الانسان يحمل تمييزاً بخطوطهِ العـريضة ، بـين طبقة وأخـرى من الشعب ، فلم تكن الصين شاذة على هذا النظام ، بل كرَّسته في القـديم وظهرت الـطبقية حتى في المعتقدات الدينية . لكن السلطة العليا في الدولة تمكنت من فـرض الطقـوس التي تشاؤها هي ، مقرةً للدولة طقوساً مشتركة عامة ، إلى جانب الطقوس القروية المتعددة .

إلتفتَ القـروي الصيني إلى نفسـه وعيـالـه فلم يجـد غـير الأرض . مبعثـاً لخـيراتـه وطمأنينة عياله ، فقدسها تقـديساً ، وكـانت (الالهة الأرض) ، تميـز في عنايتهـا بين ذكـر

وانثى حباً بجنسها أولاً ، ثم لأن دور النساء كان عظيم النفع للمجتمع العام ، إذ انهنَّ يقمن بجمع حاصلات الحبوب ، ويربين دود الحرير ، وهذان الموسمان مُعتبران جداً في القرية الصينية . وكانت الهة الأرض تعتمد اله السماء لان كلاً منهما مكمل للآخر ، في ضمان رفاهية الشعب ، وتأمين مداخيله وضمان استقراره . لهذه الاعتبارات نَفَى الصينيون كل ميتافيزيا ، ومارسوا الطقوس الظاهرة ذات النفع المباشر ، وثبت لهم أن هذا النفع لا يكمل ويستمر ، إذا لم يتوحد المصدران الرئيسيان ، الأرض المؤنثة المدعوّة (أيين) والسماء المذكَّرة : (اپانغ . Yin, Yang) .

وردتْ فكرة في كتاب (ديانات الصين) للمؤرخ (Marcel granet م . غرانت) موجزها : « ان الشباب الصيني في عبورهم أي نهرٍ يرمز إلى ضمان كل اخصاب ، وان العودة للتجسد ، هي عبارة رفرفة النفوس بعد الوفاة ، فوق المجاري الدافئة مشيرةً إلى تتابع الفصول » .

الديانة الصينية والطبقات :الاقطاعيُّ هو صاحب السلطة المطلقة في منطقته . والنظامية في الحياة تصدر من السماء ، على رأسها : الصدق والطاعة ، المجسدتان على الأرض . وسلطة هذا الاقطاعي تنزل عليه من السماء . وبالاجمال فالسلطة للرجل في تصريف الأمور الحياتية . وللملك الذي يستمد سلطته من السماء له وزير على الأرض يضمن احياء الفضائل في نفوس البشر .

لما كان الملك ابنَ السماء ، وكان المسيطر على الامبراطورية : فلاحين واقطاعيين ، غدا طبيعياً ، أن يكون المحرك الأول للشريعة ، هو الإنسان السماوي المتحكم بالزمن وبالتقويم الموسمي . ذلك التقويم له اعتبار كبير في القرى الصينية ، لانه المولِّد لخيرات البلاد ، والدافق لانهارها ، والكاشف عن شمسها ومُسبِّب النضج والحصاد . يعود كل الفضل في ذلك إلى « ابن السماء » ، الملك الذي يرث القداسة السماوية لخمسة اجيال متعاقبة في سلالته .

أول وأقدم هؤلاء الملوك المتألهين هو : (هوانغ - تي) امبراطور الأرض الصفراء ، وهو الذي ابتدع الصاعقة والسلاح . وكان (إياو Yao) قاهر الشمس وخالقَ الشفقة البنوية والاخلاق . واخيراً جاء الامبراطور (إيوُ Yu) في مطلع الألف الثاني ق . م وفي

وقتٍ كانت فيه الصين بأوج عصرها الذهبي. نظم هذا الأمبراطور المياه والشعوب، وجمع حوله حكماء بارزين، كانوا مثال العقلانية الاصيلة في الصين جمعاء. إستضاء بحكمتهم البليغة منَ خلفَه من اباطرة، حتى بروز الحكيم الرائد الأكبر (كونفوشيوس)، الذي استخلص كل هذه الحكم، وخلق وابدع ما شاء له الخلق والإبداع وصيَّب الحكمة.

يقول المؤرخ الفرنسي (م. أورسال، Masson Qursel) « إن تفكير الصينيين كان دائماً إنسانياً متفائلاً عكس الهنود. آلهتهم نماذج للاخلاص الانساني، عاهلهم (إيُو) مُنْشيء النظام الملكي، وقد ابتعدوا عن الخرافات. لكن لديهم رمزيّة مرتكزة على القواعد الحسابية، شأن (الفيثاغورية). يعترفون إجمالاً بأن تمام الوحدة، هو في: الزوج الانساني (رجل وامرأة) وما الأرض والسماء إلا مثالاً لهما. ثم هُم يَثِقون بأن الذين لا يأتون مآثر جليلة لا يستحقون الخلود؛ وأرواحهم تفنى مع أجسادهم. وان اليوغيين خالدون لزهدهم في الدنيا ». وتابع المؤرخ « على كل عاهل أن يكون وسيلة اتصال، أو سبب انفصال بين الأرض والسماء. وأن مفتاح التنبوءات هو كتاب (يُو كِنْغ Yu King) الشهير.

قال رئيس البعثات إلى الصين، الازهري: (محمد تَواضُع): أول عبادات أهل الصين في القديم البعيد: « كُوِي » أي روح الاسلاف يتبعها عبادة (شين) روح القوى المعنوية التي تملك الخير والشر. كما عبدوا السماء، ولها اسماء خمسة: القبة الزرقاء، الإلهة، الفضاء، مسيِّر الطبيعيات، وأصول الكون. وحين يشذ الملك عن قاعدة الخلق الرفيع، تخلعه السماء نفسها رغم انه ابنها. وفلسفتهم ازدواجية: سماء وأرض - ماء ونار - شمس وقمر الخ... أما الاستاذ (مظهر) فيقول: « آمن الصينيون بأول ذات ظهر للوجود في ليل الإنسان هو (بان كو) وله رأسُ تنِّينٍ وجسم أفعى، تمت هندسته للعالم بمحتوياته في مدة ثماني عشرة الف سنة وذلك منذ مليونين وربع مليون سنة. وارجع بعض هؤلاء عمر الأرض إلى بليارات السنين. وبنزول الآلهة الملوك ومنهم الملك الأخير (فوشّي) حوالي (٢٨٣٨) عام ق. م، رقُّوا البشر واوحوا إليهم بالمعارف لاكتشاف المساكن والملابس وقضاء الحاجات بيُسر أكثر، بعد أن كانوا يرتدون جلود الحيوانات ويسكنون الكهوف، وبأيديهم وحدها يحضرون الطعام واللحوم ».

تلـك هي احدى الأساطير الصينية ، تعـطي فكرة مـوجزة عن مـدى وصدق خيـال هؤلاء الناس . كان ذلك قبل ولادة الحكماء الذين طمسـوا من عقول السـواد الأعظم كـل اسطورة . وعاد المؤلف نفسه ليذكر : « إن إله الآلهة كان يُسمى (تيان) أي السماء وبعده (شـانغ تي) القـوة المسيـطرة عـلى المخلوقـات . وامتـدت عبـادتهم إلى الملوك والاسـلاف والحكماء » .

الفصل الثالث

كونفوشيوس

استنـد مؤرخنا مـظهر إلى كبـار مؤرخي الإسلام من فـرس وعـرب ، وعـلى رأسهم البَيروني في كتابهِ النادرِ ، الـذي احتفظت بنسخـة عنه، المكتبـة الأهلية في بـاريس حامـلاً الرقم (٦٠٨٠) .

إن اسم هـذا الحكيم ، الصيني الأصيل (كـونغ ـ فـو ـ تْسُو) وهـو عملاق حكـماء الصين ، وأول من جهر بعناد ووعي بالقيم الإنسانية الكريمة وبِـرَفض المباذل والمـوبقات . كـان كثيرَ الشبـه بحكماء اليـونان المتصوفين. رغم انـه مولـود في بيت عـريق فـانـه تنكـر لطبقته ، وعمل جاهـداً لاشاعـة السلام والخـير والاخوة البشريـة . صُدم بعقبـات جمةٍ في حياته حتى عامه الخمسين ، حيث بسمت له الأيـام ، وتقلد مراكـز بارزة . واعتقـد اخيراً بقداسة الآلهة انفسهم ، ثم انطلقت تعاليمه شرقـاً وغربـاً ، ولكن بعد وفـاته بقـرون . لم يعرف عنه انه ترك مأثورات خطية قط ، سوى أن الباحثين وجدوا بعد معاناة ، آثاراً تعـبر عن آرائه ، لعلها بخطه أو بخط بعض اتباعه .

كان التآخي الفكري بين كونفوشيوس وسقراط عـلى أعمق ما يكـون ، هذا نـبراس الفضيلة في هضبـات أثينـا ، وذلـك منـارتهـا السـاطعـةُ عـلى شـاطيء المحيط الهـادىء الكبـير . عاشا بفترة زمنية متقاربة : هذا دامت اقامتـه على الأرض بـين (٥٥١ ـ ٤٧٩) عام ق . م وسقراط بين (٤٧٠ ـ ٣٩٩) عاماً ق . م .

نشطت الكَتَبة حول كونفوشيوس ، وكلهم حكماء . تركوا آثار خـطِّية خـالدة منهـا (شو ـ كنغ ، Chou - King) والكتاب التاريخي (شي ـ كنْغ ، Che - King) وهو اغـاني

حبّ و (يي - كنغ ، Yi - King) وهو أعمق هـذه الكتب وأقربهـا إلى الفكر الكنفـوشي . يتضمن منشورات إلهية ، وجد فيها الحكيم الكبير سرَّ كل النتائج . خـلاصة هـذا الكتاب هي : يجب علينا احترام الآلهة ومراعـاة العدالـة الاجتماعيـة . هذا التعبـير تبنّاه بعـد قرن (سقراط) فقال : « لا شيء يجعل الإنسان كاملاً إلا إنسانيته » .

معتقده : للمؤلف الفرنسي (بوتييه) كتاب عن الصين يقول في صفحته (١٣٦) مـا يلي : « كان يعتقد كونفوشيوس بأن للروح غلافاً جسدياً يخالف الجسد العادي ، ولا يقبل الفَناء وأن الأرواح تحيط بنا وبإمكانها أن تتجسد » .

هذا كلام كونفوشيوس على ذمة المؤرخ ، فإذا امعنا في أعماق فكرة الحكيم عن مصير الروح وخلودها وتلبسها هذا الجسـد المخالف لجسـدنا المـادي ، واحاطتهـا بنا ، وامكـانية عودتها للتجسد ، ألا نتذكر بَداهـة علم الروح المعـاصر ، ونقدِرُ اللُّحمـة بين مـا فكر بـه حكيم الصين منذ زهاء خمسة وعشرين قرناً ، وما يعالجه ويتعمَّق فيه اليـوم علماء الروح في الدول النامية جمعاء ؟

لم يكن في مفهوم الحكيم الخطير التنويم المغناطيسي ولم يعرف (الأكْتوبْـلازم) ، ولا (الهالة) ، ولا الجسد الاثيري ولا المستويات الثلاثة التي تعلو أرضنا ، ومع كل ذلك فقـد صرح بحـزم : إن الروح خـالدة ويمكن عـودتهـا للحيـاة (بـالتقمص) وهي في خفـوقهـا بالفضاء الرحب ، عالياً أو دانياً من الأرض ، متلبسـة بجسم ما ، وهـذا التلبس ضروري لحفظ النـظام الكوني ، حيث لا يمكن للحـواس الخمس أن تؤدي وظـائفهـا إلا بـأعضـاء خاصة بكل منها . والجسد الأثيري يحمل تلك الأعضاء كلهـا ، ذلك دليـل على أن افكـار كبار الحكماء لا يحصرها مكان ولا زمان ، انها فوق نظامنا الأرضي .

ومبعوث الأزهر للصين الذي ورد ذكره ، تأكد له أن ما يقصده كنفـوشيوس بكلمـة سماء هو : الله معتمداً كتاب سلسلة التاريخ (للسيرافي) ومروج الذهب (للمسعودي) .

حياته :

أسهب الاستاذ (مظهر) في تفصيل حياة هذا الحكيم . نوجز إسهـابه بهـذه السطور مـارس الحكيم في بـدء حيـاتـه التعليـم بغيـة كسب المعـاش ، وبعـد وفـاة والـدتـه

التي مـزقت جوارحـهُ حزنـاً ، طلَّق زوجته لاسبـاب عائليـة ، وانصرف لدراسـة التـاريـخ والفلسفة ، ثم عاد للتدريس . كل تعاليمه شفوية ، ولا يشير إلى قدِّيس في تعاليمه .

من هـذه التعاليم القيمـة يقول المؤرخ : «ان الحـاكم المستبـد أخـطر عـلى الـرعيـة من النِمْـر المفترس . أنا لا أستبيح قتل دودة القز لأصنع من نسيجها رداء . واللبن من حق الرضيـع في أكلهِ فـلا آكله . . ولا أصطاد سمكـاً ولا طائـراً » . . وتابـع المرجـع نفسه : قـال عنه تلاميذه ما كان أنانيا ولا مكابراً ولا داعيا لعقيدة بخشونة ، ولا يُعنى بـالجدل قط . أبـطل الظلم حين غدا قاضياً ، وكان وزيراً ، فعالج أسباب الفقر وتغلَّب على كثير منها .

من أقـوال كنفوشيـوس : « إذا رأيتَ الصواب ولم تفعله فـأنت جبـان . والجبن شرُّ الـرذائل . كـما أن المعرفـة هي أغنى كنـوز الـدنيـا . كـبرى الفضـائـل : أن لا تفعـل بغـيرك مـا لا تحب أن يفعله غيرك بك . الحياة السعيدة تـأتي بالمعـرفة الصحيحـة ، والمعرفـة الصحيحة تُخرِجُ العائلة الصالحة والحكومة العادلة ، وتخلق عالم محبةٍ وعدالة وسلام » .

فالمذهب الكنفوشي أسسه هذا الحكيم الكبير ، وسهـر على تـطبيق تعاليمـه عملياً ، حين غدا قادراً على ذلك . وتنكرت تعاليمه لكل ما يناهض الحكمة والعقـل السليم ، وما له صلة بالأساطير والماورائيات .

من تعاليمه :

كان يدين كنفوشيوس بمبدأ : إن الإنسان خيِّرٌ بطبعه ، ولا يحتاج إلى المرهبات التي جاءت بها الأديان . حاجته إلى تعليم سليم يجعله يسلك سلوكاً حميداً .

وكـان كنفوشيـوس يعتبر عنـاصر فوق الـطبيعة مـوجـودة في عبَـادَةِ السلف ، الـذي استطال تقديسه في الصين القديمة ، وكثرت الاحتفالات به للتثبت من عطف البنوة .

بعد وفاته ، اقامت له كل منطقة في ضـواحي الصين تمثـالاً ، وقُدِّمت لـه الضحايـا مرتين في العام ، وفُرض الحجُّ إلى مستقره الأول .

على أن تاريـخ الحضارة يشـير في الجزء الثـالث (ص ٢٥٦) إلى أن كنفوشيـوس دعا لعبادة السماء ، وقد اعتبرته اباطرة الصين بعـد السماء ، ورفعـوا له التـماثيل ، وكـان يُعْتَبر بديلاً من الإلـه . أما هـو فكان يعتقـد بوجـود قوة عـالية عـظمى مسيطرة عـلى العالم هي

(شانغ تي نوا) . وليست السماء الهاً في عُرفه ، انما هي ارادةُ الله ونظام العالم . لقد سفَّه كل الخرافات والسحر ، وما تُؤوِّلهُ عقول الصينين الساذجة ، منها : قد انتشرت في جنوبي الصين عادةُ انتحار الفتيات تعمداً ، بغية احتياز آبائهن القسط الأوفر من الخير والسعادة في حياتهم الأرضية . وكثير على غِرارها . وكان لهؤلاء إيمان راسخ بملاقاةِ أسلافهم بعد الوفاة . أين ؟ وكيف ؟ ما همَّهم البحث عن ذلك .

أما الكنفوشية الحديثة فهي مزيج من الأصيلة ، ثم من التشانية الباطنية ، ومن البوذية والطاوية معاً . أسس هذه المدرسة (هان ـ يُو Han - Yu) عام (٧٦٨ ـ ٨٢٤) للميلاد بموآزرة زميله : (لي ـ نْغاوُ Li - Ngao) فكان الـ (يِنْ Yin والـ : يَنْغ Yang) ، وكان دواليك حركةٌ فسكونٌ وباتحادهما تتولد العناصر التالية : المياه والحطب والنار والمعادن والتراب . وهما يشكلان القمةَ العُليا فيها جميعاً .

في هذا المعتقد ، الطريق الوحيد لنيل السعادة هو : ان يتصرف الإنسان في حياته اليومية تصرفاً بسيطاً ، يتناسب مع الطَبيعة دونما تكلف وتعقيد .

وبفضل تعليمات المبدأ الباطني الصيني (تْشان Tch'an) عم مبدأ الـ(Zen) الباطني بعض انحاء اليابان . وليس في المكتبة العالمية الغربية من تلك الومضات الروحية الباطنية غير اليسير . واستمرت البوذية ذات النفوذ الأعمّ في اليابان ، حتى القرن الرابع عشر حيث وفدت إليها الكنفوشية الجديدة المتطورة (سوْنغ Song) فتغلغلت في كوريا واليابان معاً .

إن مؤسس الفرقة البوذية في الصين المسماة (هوايِن Houa - Yen) هو العالم (Fa - Tsang فا ـ تْسَنْغ) القائل : « إن العالم اجمع متجزِّىءُ من البوذا » ، لـذا اصبح مستطاعاً وجـودُ الالهـام في بعضهم » . لكن (شـاو يـونـغ Chao - Yong) الـذي عـاش (١٠١١ ـ ١٠٧٧) للميلاد ، يزعم أن العصر الذهبي للأرض قد فات ، وأن العالم آخذ بالانحدار ، وأن الوضع القديم سيتجدد بحيث أن كل دَورٍ مدته (١٢٩,٠٠٠) سنة ، وان عصرنا هو نهاية هذا الدور . ويضيف : « يعتقد الصينيون بتجسد البوذا في اشخاص متعددين في العوالم البالغ عددها عشرة مليارات ، والأرض احداها » .

عايش الحكيمُ الطاويةَ وحبَّذَ بعض تعاليمها الخاضعة للعقل الواعي . كان في اعتباره وفي قمة تعاليمه ، أن كل شعور وكل اغنية سماوية لا تُحيي الخير والطيبة في الإنسان ، هي

تافهة . وعلى هذه التعاليم درج عفوياً ، حكيم اليونان الأول « سقرا ط » .

عرف كنفوشيوس أن تعاليمه لا تتحقق إذا هو لم يدعمها بسياسة حازِمة ، فأعتنق السياسة ، وناضلَ من أجل مبادئه . وكان يقول : « يجب معرفة كُنهِ الإنسانية لِنُحقق الإنسان ، ومعرفة كُنه العدالة لِتَتَقرَّأ العدل ، ويجب أن تكون معرفتنا تلك في غاية العمق » .

ومن قوله : « لكي نجعل المسميات صحيحة يجب قيام نظام اجتماعي للناس ، محترِماً نظامهم الميتافيزي » . هذه التعاريف الافلاطونية والنصائح السقراطية والتطلعات الفيثاغورية ، تجعل من هذا الرائد الصيني ، المعلم الأول لحكماء الصين واليونان معاً ، كما كان فيثاغورس قبله بقليل ، صاحب المدرسة المعروفة بهذا المبدأ الخلقيِّ والإجتماعي الرفيع . والدليل على تقارب وتعاليم الحكيمين الأخيرين ، هو ما نصَّ عليه كتاب (يي - كنغ . Yi - King) الصيني ، الذي تبنّاه حكيمها الخالد : كنفوشيوس . ولو لم يتطرَّف حكيم اليونان هذا بالأرقام ، لكان الرأيان واحدا .

بعد وفاة الحكيم ، استمرت تعاليمه قائمة بفضل تلميذه (مَنْشيس) الذي حذاه في الأفكار والنشاط . كان همه أن يعيش الناس على الأرض سعداء ، وما يعنيه شيء أكثر من ذلك .

ثم ما لبث أن حكم البلاد طاغيةٌ هو (تْشِينْ - هونغ - تي) فسخط على الحكماء والمصلحين ، وجمع كل ما كتبوه على شرائح الغزّار واحرقه . دام الحريق ثلاثة أشهر ، لولا بعض الكتب القيمة التي خُـزِنَتْ عنه ، وسَلِمت من ألسنة النار . بعد وفاة هذا الطاغية ، انبعثت تعاليم كنفوشيوس مجدداً بحرارة وعظمة . وفي عام (٥٥٥) للميلاد صدر مرسوم باقامة معبد للمعلم الحكيم في جميع الولايات . وظلت ذِكراه على ألسنةِ الشعب الصيني حتى عام (١٠١٣) حيث مُنح لقب اقدس القديسين ، واحكم الاساتذة الأقدمين . وبخشوعٍ ينحني الأباطرة امام تمثاله . واصبحت الكنفوشية عقيدة كاملة في الصين جمعاء وحتى اليوم . عددُ الذين يقدسونه ويعتنِقون مبادئه في العصر الحاضر يبلغون زهاء (٢٥٠) مليون إنسان .

الفصل الرابع

الطاوية واسرارها في الصين

يَعتبر مُعتنقو هذا المذهب انه عايش الإنسان منذ بدأ يعقل . إذاً ، هو قبل الكنفوشية بأزمنة . لكن هناك تعاليم وتوصيات مُتماثلة في كلا العقيدتين . قد يكون الحكيم استقاها بوعيٍ منه ، أو باللاوعي من الطاوِّية القديمة . والطاوية بعكس الكنفوشية تعتمد الحوار الصوفي ، مقرةً بانه لا حكمة بين البشر وهي مطابقة للمطلق . بذلك يكون وجود الفرد بعيد الامتداد عن حدِّه الأرضي . إنه روحياً متصلٌ بالماورائيات بنظر الحكيم : (لي - تسو ، Lie - Tseu) فأن (الطاو) يعني ؛ الطبيعة في تطور دائم . هي العبور من العبودية إلى الحرية ، فالقدرةِ فالتفوق الخلّاق . ؟اك هي عقيدة (الطاو) : الحس المستمر على الخلق والابداع وَالاصغاء إلى النغم الكوني المُشبع بالصفاء والطيبة . من هنا تنبع ألوهة الإنسان وخلوده ، حين يغدو ذلك الإنسان الأمثل .

وروى العديد من المؤرخين عن الطاوية أنها كانت قبل حكيمها العظيم (لاوتسي تونغ) تؤمن بأرواح شريرة تهاجم منازلهم ، وكانوا يتوقَّونها بحذرٍ ، في بناء جدران وممرات متعرجة حول مساكنهم . وفي ظهور هذا المعلم الحكيم بطلت تلك المعتقدات .

وقيل اَن (لاوتسي) التقى (كنفوشيوس) يوماً وكانا معاصرَين ، ولكل نظرته في الحياة ، وفي البُنيةِ العقليةِ والنفسية للناس . قال لاوتسي : اراك تنشر العدالة والإنسانية ، وتحثُّ على التحلي بهما . فهل رأيت حمامة سوداء استحمَّت طيلة يومها بالماء الصافي ، وابيضَّت ريشةٌ من لونها الفاحم ؟؟ هي سوداء بالطبيعة وتبقى سوداء ، وهكذا النفوس البشرية : منها مطبوع على الخير ويلبثُ خيراً ، ومنها على عكس ذلك .

قال (لاوتسي) هذه العبارة للحكيم الأول ، ولزم الصمتَ كلاهما حيَالَها . لكننا نحن اليوم نُقيِّم هذه العبارة ونُجري الاختبارات المتعددة في قارات متعددة على الناشئين ، فنجد للبيئة وللتعليم آثاراً عميقة في نفسية الابناء ، كما اننا نجد خصالاً كثيرة عميقة الجذور في تلك النفوس . يدلنا هذا على أن المسلك الوسط بينهما هو الأصح ، وأن التفاوت الزمني بيننا نحن اليوم ، وبين هذين الحكيمين يفرض علينا اكبارهما ، وغفران

هـذا التصلب الكـلّي بـرأيهـا . أليس لـرجـال الفكـر آراء متنـاقضـةٌ حتى اليـوم ؟ يقـول (هامَرْتون ، J. A. Hamerton) في الجزء الثاني من تاريخ العالم بلسـان (لاوتسي تونـغْ) انـه : « لا بد لكـل حي من أن ينتهي امره بحكم قـانون وجـوده . وإن كل من يـأمل أن يعيش مخلداً في الدنيا ، أو أن يكون بمنجاة من الردى ، فهو مخدوع في ما يأمل به » .

إن الطاوية تعدّ كل العـالَم المرئي صـورةً ظاهـرية لحقيقـة جازمـة ، تفعل فعلهـا في القـوانين الـطبيعيـة ، وهي الحقيقـة التي يجب أن لا تغيب عن الافهـام . في حـين كـانت البوذية الدخيلة قبل تطورها ، تعد كل شيء ماديٍّ وَهْماً أو « مايا ، Maya » .

يقول المرجع نفسه : إن (الطاو) هو نهج الطبيعة ، هو ذلك الفيض المنتظم ، ومن الحماقة أن نقاوم حياة الكون يتقبل حيـاة الكون في مجـرياتهـا . يجب بذل الجهـد لتحصيل المعرفة وتشجيع الإصلاح . وعلى الإنسان أن يتقبل حياة المـطلق في سريـانها ، حتى لكأنها حياته هو ، كما عليه أن يترك نفسه محمولـةً بتيار نهر الـوجود الغـلاّب ، ولا يحاول مقـاومة قوى القانون الطبيعي .

ما كان (لاوتسي) ذلك المصلح شأن كنفوشيوس . فالطموح عنده افـظع الجرائم ، انـه يُنمي في النفس رقة الحـاشية ، متشبهـاً بالمـاء الرقيق الـذي يهدم عـلى رقّته اعـظم السـدود . والقنـاعـة عنـده شرف ، والسعي وراء المجـد : عُقم وَبَلَةٌ . وهـو متّفق مـع كنفوشيوس في أن منهج الحياة هو الخير ، وأن اتباعَ الطبيعة واجبٌ في نظره لانها هي نفَسنا الحق .

كان يقول : إذا هجر الناس الحكمة والصلاح ، وأمسكوا عن الاحتيال ، بحثاً عن لكسب . ساد الحب الصادق وعمت الـرحمة ، واختفى النّهـابون . يـرى وجوب الـرضى الكامل في الاتصال بالمطلق والفناء فيه ، عندما ينتهي إلى فقد كـل احساس بـوجود فـارق بينهم وبين المعبود .

وقد تبعه في ارائـه هذه تليمـذه (جوانـغْ دزه) . اعترف هـذا التلميذ بـأن الإنسان يستطيع بالتأمل أن يصل إلى حالة (أثـيريّة) ، تم يسمـو إلى المكان الذي ليس فيه ماض ولا حاضر ، ثم يجتازه إلى حيث لا موت ولا حياة ، شأن البوذية .

تناولت الفلسفة الطاوية اقلامٌ عدة ، وفسروها على هواهم ، فمن قائل : إن حقيقة

(الـطاو) هي الـطريق والحيـاة والعقـل ، وقـال بعضهم انها : الله والعلة الأولى ، وقـال بعض آخر ، انها الطبيعة والمطلق الشامل . (هيغل: محاضرات في تاريخ الفلسفة) .

أما لاوتسي نفسه فقال في كتابه : (طاو ـ تـه جنغ) بـالفصل الخامس والعشرين : « إن الـطاو هـو شيء قبـل السـماوات والأرض ، لا يتغـيـر . يـدور ويـدور ولا يتعب ، وبايجاز : إن العدم هو المصدر الحق للابداع . وليس هذا العدم فراغـاً ، انما هـو مستودع ضخم من امكـانات هي عـلى اهبة الـظهور ، أمـا العقل البشري فهـو المرآة التي تعكس اللحظةَ التي يتم فيها الايـداع ، انها لحظة الانتقـال من العدم إلى الـوجود » في رأيـه : إن الوجود يخرج من العدم ، كما أن العدم يخرج من الوجود .

إن الفيزياء المعاصرة تشير إلى كثير من هذا في حقول التوتر ، وما يحـدث من تناقض داخلي بين قُطبَين مثلاً : تناقض بين البروتون والنيوترون ، وبين النواة والالكترون ، وبـين ذرة وذرة ، في توتر الجاذبية . يرى لاوتسي أن اللّب والقشرة شيء واحد في جوهره . هـذا الجوهر هو سرّ عجيب وعميق ، لا تعبر عنه الكلمات ، يمكن رؤية هذا الجوهر بواسطة نور القلب لا العقـل ، نور الـوجدانيـة الحق ، حيث تختفي كل الجـزئيات والفـروقـات . ان « الطاو » في عُرفه هو أصل كل الأشياء والأشكال ، وهو غامض لا شكـل له . وجـد قبل وجود الزمان والخلق . يدرَك بواسطة الحدس لا الوعي .

كـان جماعتـه يهـزأون من المـوت ، ويعتـبرون الحيـاة الهـانئـة هي في التجـاوب مـع الطبيعة . المهم لديهم اطالة الحياة قدر المستطاع ، مع التأكيد على استمـرارية بقـاء الذات عـلى شكلها وأن الإنسـان حين يغـدو خالـداً بجسده ، يمكنـه الـطيران والتحليق واجتيـاز الحـدود . وقد آمنـوا بسلطان السحر والتعـاويذ التي يمـارسهـا كهنتهم . كـان معـظمهم نباتيّون ، همهم الأول اطالة البقاء على الأرض . وأكد تاريخ الحضارة على أن غاية الطاوية الحصـول على السـلام الـذاتي عـلى الأرض وحسب ، وتلك فِطْرَة في الصينيـين إجمـالاً أوضح المرجع نفسه بلسان لاوتسي : « إذا انت لم تقاتل الناس ، فأن احداً على الأرض لا يستطيع أن يقاتلك » وقال : « قابل الاساءة بالاحسان . . . أنا خيِّر للاخيار وانا خـيِّرٌ لغير الأخيار . بذلـك يغدو جميـع الناس خـيرين وانا مخلص لهؤلاء ومخلص لغـير هؤلاء ، ففي الليونة قوىً جبارةٌ هائلة . » أليستْ هذه بوارقَ من تعاليم السيد المسيح ؟

هذا ما كان ينادي به لاوتسي ، وما تقوم عليه تعاليمه . وكانت من معتقده : قوى حيوية هي : (تي ينْ Tien وتَان Tan) وستةٌ وثلاثون الف إلـهٍ في غرفة (Cinabre ، سينابْر) مقاومةً للحشرات الثلاث الفتاكة : مرضٌ ، شيخوخة وموت . ويجب تنظيف تلك الغرفة بتغذية هذه الآلهة . مُهَّمتها كلُّها تغذية جسدنا وعقلنا معاً . وتغذية العقل تحصل في معاطاتنا مع تلك الآلهة برؤى داخليةٍ تُوحِّدنا باطنياً مع (الطاو) . ولِنحوزَ هذا التوحُّد ، علينا بالحرص على حياة صالحة وقدسية طاهرة ، في أعمالنا اليومية ، منها : الامتناع عن الخمر واللحم ، وعن انواع خمس من الحبوب . (لم يسمِّها المرجع) .

وشاع بعد لاوتسي السحر ومتفرعاته ، ثم غدت العقيدة في تطورها تعاليمَ لحفظِ الصحة واستمرارية الحيوية والنشاط في الإنسان ، وصولاً إلى إطالة عمره قَدْرَ المستطاع . ما زلنا مع المؤرخ المترجم(لافون) . لقد رُوي عن تلاقي الحكماء الثلاثة : (بوذا وكنفوشيوس ولاوتسي تنغ) إنه كان يتوسطهم جرة مليئة بالماء . سئل الأول عما في الجرة فذاقه وقال : مَرارةٌ ، وقال الثاني : حلاَوةٌ ، واجاب الثالث إنه الماء .

نستدل من هذه الرواية على طبيعة كلٍ من الحكماء الثلاثة ، وعلى نظرته للحياة الدنيا ، ثم على محور فلسفته . اعتبرت الطاوية بلسان حكيمها (لاوتسي) البدءَ لجميع الأشياء ، وقد نبذت العقلَ والاعتصامَ بالتقشف والعزلة والتأمل ، وادعت بأن العلم أصبح طريقاً لنشر الرذائل ،، وأن شر الحكومات ، حكومة الفلاُسفة ، لانها تقوم على النظريات والأوهام التي لا تتحقق . حكيمها (لاوتسي) ، كان يَذكر القدرة العليا الخلاقة بعكس زميله الحكيم (كونفوشيوس) . لاوتسي يقول أن طريق (الطاو) توصل إلى الخالق ، والعلم لا يوصل ولا يشير إليه ، والالغاز التي ضاع عنها الباحثون ، انما تعني تلك القدرة العليا . ونظرة هذا الحكيم إلى المسلك الفردي للإنسان ، لا تختلف عن نظرة الحكيم الأسبق . انه ينادي بالسلام . ويحذِّر من أنَّ قتل المجرمين لا يقضي على الجريمة . وكرَّر وجوب الرفق بالمعاملة ومقابلة الاساءة بالاحسان ، ليصلح المجتمع ، وتنتهي المشاحنات . وقال مبرهناً على ذلك : « أن الماء وهي ألين الأشياء ، ولا شيء أقوى ،اعنفُ منها في مقابلة هذه الأشياء ، إذ هي لدى اندفاعها تحطِّم اضخم السدود » .

وكان يصر في تعاليمه على أن الطبيعة هي أعظم مرشد للإنسان ، وأن الرجل

الصالح لا يكره احداً ، وكلما كثرت الشرائع كثر عدد اللصوص والمجرمين . وأضاف : « إن الناس سعداء في طيبتهم ، ولدى انتشار المعارف تعقّدت الحياة ، وضاعت الطهارة الفكرية والروحية » . كان يؤْثر الاعتزالَ في احضان الطبيعة ، حيث لا كتبٌ ولا مصلحون ، ولا موظفون يرتشون .

ما صادفه (لاوتسي) في مجتمعه الرائد منذ زهاء خمسة وعشرين قرناً ، ما زالت جراثيمُهُ حيَّةً في صدر المجتمع البشري . وما زادها التخصُّص الرفيع بسائر العلوم والفنون ، إلا تعقيداً وتصارعاً دامياً . فكما أن كنفوشيوس لم يظفر بأنقاذ الناس من الشرور ، على فائق صفائه ، وانسانيته ، كذلك فشل (لاوتسي) فنقم على العلم والعلماء ، والحكمة والحكماء . وان الطبيعة التي نشدها لم تُنِر ظلمةً في عين بائس ، ولا ساقت قطرةً إلى فمٍ متعطش للماء والغذاء . فلْسنا في التنكر للعلم والحكمة تُسعِد الإنسان ، انما إسعادُهُ في توزيع جذوات الخير بين كل النفوس العاقلة ، وفي قتل الانانية الطاغية . ولعل كنفوشيوس كان يتطلع إلى كل ذلك لكنّ فاعليته المحدُودة كانت حائلاً دون تحقيق مآربه .

ليس الشر في الحقيقةِ حَذَراً لا يمكن معالجته ، وتخفيف وطأته ، لتسلم دَوحة الإنسانية من البتر المحتم ، ولا هو غائب عن الخَلق . الناس كلهم طيبون ، تسهل قيادتهم إلى طريق سويٍّ ، مقوَّم ، يضمن سعادة الإنسان . هنالك خير وشر ، فمتى اقترنت الحكمة بالعلم والوعي الشامل ، وأدركنا أن الاساءة للعدالة ، وأن التمييز العنصري والطبقيّ والديني وسواه ، كما أن الاساءة إلى الكرامة والتعليم والترفيه ، حين ندرك جذور هذه المسببات ، لتلك الاساءات ، ونحسن معالجتها بجدّية ، والقضاء عليها ، عندها تعزف الموسيقى الكونية اعذب الحانها ، وتنطلق ميتافيزيا الأديان ، مبشرةً بتصافح إلهَيْ السماءِ والأرض ، وتلاقي الجَنَّتين على مستوى كوني واحد .

بعد وفاة لاوتسي اخذ اتباعهُ يتقلّصون ويرتدون إلى الميتافيزيا والسحر والاعتراف بالأرواح الشريرة ، واشادة الهياكل التي حذَّر منها حكيمهم ، والانسياق وراء المادة التي كان يرى فيها طريق الموبقات .

الفصل الخامس

III البوذية في الصين

لم يقدَّر للديانة البوذية أن تعيش طويلاً ، وبكل النواحي من الأرض الهندية الشاسعة ، لكنها استطاعت بفضل حكمائها المثابرين وتجّارها ، أن ينقلوها إلى دول مجاورة كثيرة ، مرَّ بنا ذكر بعضها . والآن لدى اطلالة فجر التاريخ المسيحي ، كانت قبضات السواعد البوذية تطرق ابواب الصين من بعض معابرها .

قيل عن اسطورة أغرتْ احد حكام الصين ، الامبراطور (مينغ) في العام (٦٥) للميلاد فأدخل إلى مدينة (Ho - Nan ، هو ـ نان) بعض بحوثٍ بوذية ، ولكن الأكثر شيوعاً ، ان الديانات الفارسية لهذا المذهب دفعت به خارجاً حتى الصين . لعل ذلك صحيح . واعتقد أن انتقال الأفكار احياناً لا تعوزه الدعايات المغرضة ، بل هناك تجاذب روحي ، وانفعالات نفسية ، تسوق الإنسان لاعتناق مذهب ما ، حين يُهْمَس به ولو همساً ، والدعايات بعدها ، تأخذ مكانها .

من أسباب انتشار البوذية في الصين ، ما ترجمه الأغراب والصينيون أنفسهم ، من كتبهم المقدسة التي لاقت صدى بالغاً . ولا يفوتنا أن القرون الأربعة التي مرت على وفاة القادة الروحيين للصين ، والطغيان الذي حاق الشعب اجمع ، واختلاف العقائد فيها بين قديمة تحتضر ، وحديثة مختلفة النزعات نابضة ناشطة متصارعة ، كل هذه العوامل ، مع ما تحمل البوذية من بذور مشابهة لهذه أو تلك من الديانات الصينية الحديثة ، جعل الأرض الصينية خصبة جداً لتقبّل البوذية ، بما طرأ عليها من تطوُّر وتبسيط .

بعد عهد قصير ، شرعت البعثات تتوالى بين الدولتَين ، فتُزار الهياكل البوذية المقدّسة، وتتعمق مفاهيم هذا الدين . وتنفتح مغالق البلدَين الواسعَين ، بعضاً على بعض .

كان الفارق الواضح بين البوذية الهندية والصينية هو في أن الأولى تبشِّر : (بالخلاص) والثانية : (بالبشارة) . الأُولى لا علاقة لها ولا اعتبار عندها لقوى خارجية ، بينما الصين ، تعتبر وجود قوىً خارقة في ذوات معينين . وقد مشى في دمهم هذا

الاعتبار ، بصفته اعتقاد قديم ، لم تطمسهُ العقائد الحديثة ومر العصور . وتعددت وتنوعت في ظاهرها المدارس البوذية في الصين ، لكنها استمرت محتفظة بالمضمون الاجمالي . فأجتازت الصينَ إلى كوريا فاليابان ، وتغلغلت في منغوليا .

لدى هذا الانتشار الواسع للديانة البوذية، كان لا بد لها مِنْ خلقِ مدارس تتلاءَم مع ميول الشعوب وتطلعاتهم ، ومع ما توارثوهُ من تقاليد وطقوس ، وما تتحكم به اوضاعهم الجغرافية والمادية . اعظم هذه المدارس كانت :

١ ـ مدرسة الأرض الطاهرة ، واسمها في اليابانية : (جادو ، Jado) وهي منسوبة إلى البوذية المَهايانية المتأثرة كل التأثير بالإيرانية . انها تعتمد « النور الكلي » بأسماء : (أميتابها ، Amitabha) أي العظمة المتناهية و(أميتأيوس Amitâyus) وتعني : استمرارية البقاء غير المحدودة ، وهي تتجه شطر « جنة المغرب » تلك الجنَّة التي وُعد بها الصينيون قبلاً منذ القرن الثاني للمسيح . وبعدئذٍ في منتصف القرن الرابع شيَّد (هُواي ـ يُوانْغْ Houei - Yuang) على رأس جبل (كيانسي) معبداً فخماً غدا مرتكز العقيدة لهذه المدرسة ، في الصين .

٢ ـ المدرسة (الفَيرلنديّة) وفي اليابانية (كَاغون ، Kegon) بدأت نشاطها في مطلع القرن الخامس ، وتحددت تعاليمها في القرن السابع ، حيث يمر البوذا على معبدها العام ، فيعبِّر عن شريعته ، ويوضحها في وجوهها الخمسة ، بعمق أكثر فأكثر . هذه العقيدة تقدم اعتبارها للرئيس الأول البوذا (منجوكري) .

٣ ـ المدرسة ذات الرسائل الثلاث ، وفي اليابانية (سَنْرون ، Sanron) : الرسالتان الأوليان : مِن (ناغَرْجُونا ، Nâgârjuna) والثالثة أرياديفا Ariadéva) . تعاليمها تقوم على فراغ كل جوهر . وقد بدأ نشاطها في القرن الخامس للميلاد .

٤ ـ مدرسة تحقيق الصدق ، وفي اليابانية (جُوجُتْسُو Jujutsu) تقوم على التأكيد بأن الحقيقة فكرة غير معطاة ، وأن الفراغ مجرد . نشأت في القرن الخامس أيضاً .

٥ ـ مدرسة (تيان تَ آ ـ T'ien - T'ai) وفي اليابانية (تَنْدَا Tandai) هذه المدرسة حملت اسم المعبد المجاور لميناء (تشو ـ كِينغ (اسمها : (تَنْغ ـ يُو) ، تأسست في النصف الثاني للقرن السادس ، وما زالت حتى اليوم تمارس نشاطها الروحي محتفظة بالمبادىء المثلى

للبوذية ، وهي ليست مناهضة لبعض المسالك الخيالية ولا للحقيقيَّة ، ولقد تطورت مع الزمن .

٦ ـ مدرسة (تشان ـ Tch'an) ، باليابانية (زنّ Zen) انها تعني الكتمان والتضامن ، مبنية على أسس يوغية وتأملات بوذية. أول مؤسس لهذه المدرسة في الصين هو (بودَيْدْراما) عام (٥٣٠) حيث انتقل من الهند إلى مدينة (كانتون) جنوبي الصين ، وشرع يبشر بعقيدته ، ويقال انه لبث تسع سنوات واقفاً ، ملاصقاً وجهه الحائط يتأمل . تعتبر العقيدة أن الخلاص متوقف على الوعي الداخلي في الإنسان وكل وعيٍ خارجي مزيف . وقد بذرت هذه المدرسة في الصين بشجاعة واستمرارية القيمَ الروحانية والتأملات العميقة . انها الصوفية الشرقية في معناها الكامل . وانها تفتح القلوب للمعارف الباطنية وأن (الطاو ـ Tao) هو الحافز الداخلي لتقييم الأشياء ، وصحة معرفتها ، و (البوذا) يقود ويخلص . ولا يكمل هذا الخلاص الا بخَلقنا في جو الطمأنينة المتناهية الصامتة . وقد امتزجت مدرسة (Yin - Yang ، إينْ ـ إيانْغ) بالكنفوشية ، وهي ذكر وانثى ، سماء وأرض . ثم كانت الألوان الخمسة بما فيها الأسود ، المجانسة للعناصر الخمسة .

٧ ـ مدرسة الـ (يوغا او التَنْترا) وفي اليابانية (شِنْغون Shingon) تعمَّمت في بلاد التيبت والصين منذ القرن الثامن . انها تمجد السحر وتتعاطى الرياضة اليوغية . يقدم المؤرخ المصري (احمد شلبي) موجزاً معتبراً عن البوذية في الصين فيقول : « لقد صبغ الصينيون البوذية بثقافتهم وحياتهم فجعلوا آلهتها (٣٣) إلهاً ، واقاموا لها المعابد المزخرفة ، وركّزوا تمثالاً (لِبوذا) وعَبَدوه ، وقدموا له القرابين التي كان هو نفسه ينكرها . أحبوا هذه الديانة لانهم تنسَّموا فيها روح طبائعهم الخيِّرة ، والمحبة للعمل ، وهي الحاثَّة على الرحمة ، والمسلِّطة على الشهوات ، تلك هي المبادىء التي كان قد زَرَعها حكماء الصين بدءاً بكنفوشيوس ، في نفوس الجماهير المتعدِّدي النزعات » . وتابع المرجعُ معتمداً كلامَ المؤرخ : (بارِّي ، Berry) فقال : « ما كان لدى الصينين كتب مقدسة او منزلة ، كل ما هنالك احاديث تُروى ، اتخذت طابعاً قدسياً وغدت شبيهة بالحديث النبوِّي لدى المسلمين » .

الفصل السادس

مدى تأثير البوذية في العقلية الصينية

لم تنتشر البوذية في الصين بمطلع نشوئها في الهند ، الا بعد أن تعدّت الحدود إلى (سيلان والنيبال وكشمير) وسواها ، وأن حكمة الدعاة البوذيين قرَّبت الفوارق بين عقيدتهم والعقائد السائدة في الصين ، وجعلتها اكثر تبسطاً وروحانية ، واعمق في انسانيتها . بهذه المبادىء نادى الدعاة البوذيون الأولون في الصين ، فَتَلقّفها الشعب الصيني في أقصى الجنوب وتناقلتها الالسنة والأفئدة إلى كل نواحي البلاد ، برغبة داخلية وحماسة فائقة . ولا غرو فهذا المعتقد لم ينادِ بشيء مغاير لتقاليد الصينيين ، بل كان بالعكس ، مؤكداً الطيبة والإنسانية القائمة على المحبة والرأفة واحترام الآخرين ، وعلى نبذ التعصب الطبقي نبذاً وعلى امكانية تطور العقيدة حسب ما يقتضيه الظرف المحلي ، والعقلية السائدة فيه ، ضمن حدود مرسومه . أما الفوارق في بعض التقاليد العقائدية من الطقوس للإكليروس ، وزخرفة الهياكل واقامة التماثيل ، فما كان لها الأثر العميق ، والتأثير على ذلك السيل الجارف للمبدأ البوذي ، في أيٍ من تلك الأرجاء الشاسعة ، على رغم ما كان هنالك من تيارات دينية أصيلة وقديمة، ظل الآلاف منهم يعتنقونها إلى اليوم. في حين لم يبقَ في الهند من المؤيدين للبوذية بعد القرون الأولى للمسيح الا رُبْعُ السكان . غير أن اليابان احتضنتها بحرارة ، والمنغول والتيبت قَدَرتْها ، واعتنقتها بعد تطوير عميق في اصولها .

أن هذا التوافق الذي تحدثنا عنه بين البوذية والعقائد الصينية المختلفة ، لم يفسرّ بجملته توافُقاً بل بعكس ذلك . ففي العام (٦٢٤) في أول اسرة مالكة بعهد الامبراطور (طانغْ - فُو - يي ، T'ang - Fou - Yi) ، تقدم اليه بعض الكنفوشيين موضحين ضرورة محاربة البوذية للأسباب التالية :

أ - انها غريبة على الوطن . ب - تعتمد كُهاناً فقراء وكسالى ، يرتدون ملابس تحميهم من دفع الرسوم المفروضة عليهم للدولة . ج - ليس في هذه الجماعات ما يحقق الصدق والرأفة البنويَّة مما يسبب التشكيك في المعتقد الصيني الأصيل . ذلك خلا عما تزرعهُ البوذية من افكار للسلف ، وتخلُّف عن القيام بالواجب الرسمي . بالجملة فأن هذه

العقيـدة تفسد الصينيِّينَ وتعطل جـو حريَّـة الثواب والعقـاب التي يحققها (ابن السـماء)، اعني كنفوشيوس ، أو أي رائد روحي غيره . وكان لهذا النقد صدىً في بعض الأوسـاط ، لكن البوذية ما لبثت في اوجها بدارية رائديها الحكماء ، . وتوحُّـدها بـالمعتقدات الأصيلة في الصين .

الفصل السابع

IV ـ الديانات الدخيلة واثرها

كـانت طُرقُ المـواصلات البحـرية منهـا خاصـة ، تربط الصـين بأمم كثيرة ، وكان لانتاج الحرير الهائل في البلاد ، قدرة مغناطيسيـة تجتذب التجـار من أبعد البلدان غـرباً ، إلى الصـين لاستـيراده . من هنـا اخـذت تـطل بعض المعتقـدات الفـارسيـة القـديمـة ، والزرادشتية والمانوية وسواها . لكن الحدث الأهمَّ كان غداة طبَّق فضاء الشرق الأوسط ، غبار خيول الجحـافل العـربية ، منـادية بـالإسلام دينـاً ، ومُجبرة اصحـابَ الديـانات غـير السماوِّية ، وذات الكتب المستوحاة ، أن يتخلوا عن ربوعهم ، أو أن يدفعـوا جزيـة ، أو أن يعتنقـوا الإسـلام . هـذه السلطة الجـازمـة لم تبقِ في الشرق الأوسطِ مُنـاهِضـاً للدين الجديد ، فاضطر المتمسكون بديانتهم السابقة الرافضون لدفع الجزية ، إلى مغادَرةِ بلادهم شرقاً . وكانت الصين الممتدة الأطراف ملجـأً لمعظم هؤلاء .

نـزل المشردون الصـين ، نـاقلين معهم ديـانـاتهم المختلفـة ، والمنـافيـة في كثـير من أصولها ، للمبادىء الصينية . ولكن زاد في تقبلها ما حدث فيها من تطور سطحيّ فأعتنقها بعضهـم ، إما ايماناً بصحتها او تدليساً لكسب مادي ، او حنقاً على مبدأ كـانوا قـد اعتنقوه فعافُوهُ لسببٍ ما .

لقد اسهم في انتشار بعض الـديانـات الـدخيلـة اعتناق عـدد من الأباطـرة الصينيين لبعضها . ففي العام (٦٣١) للميـلاد وفدَ احـد السَحرة المـزدكيين إلى الأمـبراطور (سي ـ نْغَّانْ ـ فُو ، Si - Ngan - fou)فأستقبله عاهلهـا (تانْسـون) واستقبلت البلاد بعـدهُ في عام (٦٧٧) ملك فارس اللاجيء (فيروز الثالث) فاستقر مطمئناً وتتـابعت القوافـل المشردة ، من بينها مَن يؤمن بالنسطورية والمانوية .

وفي هاتين الديانتين وميض من (الأفستها ، Avestha) غير مستهجنٍ على الصينيين ، فغرستْ هنالك بذور تلك الديانات بدءاً من مطلع القرن الثامن للميلاد .

وتلى هذه الهجرات القسرّية مبشرون مسلمون وتجار وعلماء ، استوطنوا وافادوا عقيدتهم . حتى كان العام (٨٧٩)حين دبَّت الفوضى في نواحي الصين ، وعمّ التقاتل ، ودخل الجوع والحرمان من نوافذ المنازل ، وخاصة في مدينة (تشا ـ كِيانْغ ـ Tché - Kiang) التي سجل فيها التاريخ وفي جوارها مجزرة رهيبة استشهد فيها ميئتا ألف بريء . بين يهودي ومسيحي ومسلم وساحر . لكن الإسلام استطاع أن يثبت في منطقتي (كانسو ـ يونان) ، وما زال ثابتاً . وقد دلت الإحصاءات الأخيرة على وجود زهاء (٢٥,٠٠٠) مسلم في العاصمة وحدها . ودخلت المسيحية الصين بواسطة المبشرين اليسوعيين ، ثم البروتستانت في مطلع العام التاسع عشر .

قبل أن نطوي صفحة التاريخ الديني الصيني ، يظل غائباً عن بحثنا مصير الكنفوشية في العصور اللاحقة لمولد المسيح .

يقول المؤرخ (أُورسَال P. Masson Oursel) ما يلي : في عام (٩٠٧) للميلاد بدأ يتجدد بحرارة واستمرارية نفوذ الكنفوشية إزاء البوذية المسيطرة ، وزعيمها الحكيم كنفوشيوس لم يدَّع انه إلهٌ مُتجلٍ ، أو قدرة خارقةٌ نزلت بين البشر ، انه انسان ، إعترف بذلك هو ومريدوه الأولون ، وظلت شريعته في حرارَتِها حتى القرن الثامن عشر للميلاد ، تضؤل وتتوقد حسب الاغراض الساسية احياناً ، أو الطارئة . وكل حكيم يخلفه ، كان يعتبر نفسه انساناً وحسب . ديانتهُ هي ديانة الثقافة والمدنية ، لا تعبأ بالسفاسف والقشور ، لذلك أصبح كنفوشيوس في العصور الوسطى بنظر مجمل أهل الصين ، له التقدير والاحترام الذي كان سكانها يمنحونه للالهة والعمالقة أمثال (ياوو ـ شُوان ، Yao - Chouen) .

استعداد الشعب الصيني لتقبّل الأفكار الدينية :

منذ القدم كان سكان الصين يعبدون ، كما مر بنا ، السماء والأرض ، ذلك الزوج الواجب الوجود . وقد حدد كنفوشيوس السماء بأنها مستقر العقول الفاعلة ، لا موطن آلهة قط . وإن الأرض ليست بمعناها الصحيح زوجةً للسماء . إنما هي المنتجة للغلال . وإن

الرحمة الصينيـة تقدر العقـول النيرة أكـثر من تقديـرها لـلالهة . وكـانت الروح الكنفـوشية حسب تعبير المؤرِّخ (أ . شاڤـانّ ، Edgard Chavanne) متوافقـة كل المـوافقـة للتعـاليم (Vahmérisme القاهْمارِّية) اليونانية ، وأعني بهذه التعاليم « أن كـل ميتافيـزيا حقيقيـة في أصلها ، وليست الآلهة التي رتَّل صلواته على مذابحها الاقدمـون واللاحقـون ، إلا ابطالاً تقدَّسوا وعبدُوا عن رهبة» وبـالتوارث وحبِّ التقليـد واحترام السلف والقنـاعة بعصمتـه، أُلبس الابطالُ لونَ معاطف الهة نـازلة من السـماء . وسكنى السماء يعني حجب البطل عن الـرؤية . ثم أن الخـوارق التي كانت تحـدث في الـطبيعـة الأم ، تسنـد كلهـا إلى قـدراتـه اللامحدودة . والـزمن في أنهارهِ ولياليـه كثَّف ذلك الإيمـان ، واطلع شمس الالـوهـة التي نعبد ، والتي كان افقها بل رحمها ذلك الخوف الرهيب ، بـزمنٍ كان فيـه الإنسان اعـزل ، أمام قوى الطبيعةِ جمعاء . إن الفكرة الأصيلة لدى الصينين لا تعترف اطلاقـاً بـ (نيرڤـانا) البوذية ، بل كان اعتقادهم امتداداً متناهياً للحياة السعيدة . والبـاطينيون من أهـل الصين يعتبرون حياتهم تتمة للحياة الكليـة كما تمثلتهـا البرهمـانية المتجـددة . وان خاصـة الديـانة الصينية توضَّحت في عبادة الأسلاف ، فليس هنالك جنة ولا جحيم ، لولا مـا نقله إليهم الكهنـة الاغـراب . في عـرفهم أن لهم حق استثـمار الأرض ، والتمتـع بخـيراتهـا احيـاءً وامواتاً . وإن من حق الـولد لـوالده أن يـتزوج ، وأن ينسل ، لكي يبقى مـطمئناً وظـافراً بوجود عناصر تغذو رُفاتَهُ ، لأن الأحيـاء مضطرون لخدمة اسـلافهم ، اضطرارَهُم لخـدمة انفسهم ، وواثقـون من استمراريـة الحياة بعـد الوفـاة . ولما كـان الميت فاقـد القدرة عـلى تحصيل معاشه ، فعلى خَلَفه تأمين ذلك له ، وإلا اعتُبر الخلف شريراً وتعرَّض للمخاطر .

ولا يحق لنا القول بأن الصينيين لا يعتـرفون بـإلهٍ قط، إذ هنـاك مؤشرات تـدل على هذا الاعتراف . ولكن ليس عن ايمان حق ، بل هو على ألسنـة الشعراء ، وفي نفـوس قلةٍ من ذوي المذاهب النَكرات . ثم هـو يتجلى بعـظمته في الفلكلور الصيني ، دون أن يمتلك النفوس . كـل طقس عندهم هو لِنفسِهِ بنفسه ، وليس كما لـدى الهنود: المـطلق، وليس الصينيُّ مأخوذاً بطبعه في كل ما يمتُّ بصلة إلى الميتافيزيـاء ، رغم الطاويـة السائـدة في كثير من المناطق ، والطقوس هم اوجدوهـا ليشيع الفـرح والارتياح في نفس الفـرد والجماعـة. هذا كل ما يتوخَّونه منها ، ولا صلة لها بالماورائيات .

لم تُخلق في الصينيـين القدرة عـلى سن شرائع اجتـماعيـة أو فلسفيـة تشمـل الجميـع

وتتعدى البلاد ، شأن المخططات الغربية في الاستثمار والاستعمار ؛ ولا كانت لهم ديانة عامة واحدة ، تخلق فيهم العزيمة الموحدة والإبداع والانفتاح ، انما قنعوا بفلسفتهم الأصيلة والدخيلة المتعددة الأغراض ، التي تبعث في الفرد والجماعة ، القناعة والطيبة والمَرح . لعلهم في يقظتهم الحاضرة ، على ما يطالعهم من عقبات ، ويمارسون من انظمة سياسية مختلفة النزعات ، لعلهم يرسون على شاطيء أغنى فكراً ووعياً وتطلعاً ، إلى أبعدَ من الفرد والجماعة ، إلى خَلقِ تاريخ ، وإبداع واختراع ، ويسهمون في شل القوى الاستعمارية الاستغلالية الطاغية ، وفي توطيد سلام عام وثابت ، وتعزيز الاخوة والمساواة في العالم . وليس ذلك بعجيب على شعب ظفر بتلك الأرض الشاسعة المعطاء ، وبذلك العدّ البشري الضخم ، وبآستعدادٍ فطريٍّ لان يتقدم وُيجلِّي .

الفصل الثامن

٧ ـ البوذا والفلسفة الصينية اليابانية

تركزت فلسفة الشرق الأقصى منذ القرن الخامس للميلاد حتى الثالث عشر على هيئة البوذية . وقد بلغت تشعباتها زهاء الف فرقة ، وشملت اليابان وكوريا بعد الصين في ترامي اطرافها . وكان الصراع العقائدي في ازمنة مختلفة بينها وبين الطاوية والكنفوشية .

فالنظام الاعظم للطاوية (تا ـ لي، Ta - li) يتّحد بالمسلك الـ (طاوي) ، مسلكِ السماء والأرض ، (تاوُ ـ لي ، Tao - li) وترمز إلى (Wou - Wei و Wou - sin ، يُو ـ سِنْ و يُو ـ واي) أي تصرَّفْ طبيعياً وعِشْ طبيعياً ، وتابعْ حياتك اليومية بتواضع ، وثقة بالنفس ، تدركْ الاستنارة ، حيث جوهر الاشياء وبطلان الجزئيات . اما الكنفوشية فقد قُيضَّ لها عالمان (Li - Ngao وHan - Yu ، لي ـ نغاوُا وهَان ـ يُو) فنسَّقا وطوَّرا عقيدة : (تشان T'chan) ومزجاها بالباطنية البوذية تحت شعار : (Yang ، يانغ) اعني الشمس و (Yin) أي القمر . وقد صرَّح العالم الصيني (Tchang - Tsai تشانْغ ـ تْساي) بأن كل شيء ينجم عن (كي ـ ki) وأن الإنسان والاشياء هي اجزاء من كلٍّ واحد .

وآخِر عالِمٍ كنفوشي متطوِّر كان (تشو ـ هي ، Tchou - Hi) ، (١١٣٠ ـ ١٢٠٠)

ب . م . و (مَنْسيُوسْ ، Mencius) . وقد اعتبرت الكلمة (لي ، Li) انها وجدت قبل أي شيء في الخلق ، وانها الموصلة للسماء بالأرض وبكل شيء ، وانها النهائي المتسامي لـ (T'ai - K'i ، تَا ـ كي) . اما الـ (كي ، K'i) فهي المادة التي تحمل الاشياء للوجود ، ولا تنفصل عن الـ (li ، لي) . دامت هذه العقيدة في ارجاء الصين حتى اجتاحتها الشيوعية في القرن العشرين . أكدَّ العالِم (منسيوس) حول طبيعة الإنسان ، انه يجب وجود الصلاح في كِلَيْ الـ (لي ، li) والـ (كي Ki) . وفي اليابان كانت الشيعة المنتشرة وهي الـ (هوسّو ، Hôssô) لمؤسسها (دوشو ، Dôchô) عام (٦٦٠) ب . م ، كان يوعِز بإحراق جثة المتوفي ، معتمداً على أن الذات الإنسانية المؤلفة من التراب والماء والنار والهواء ، عليها بعد الوفاة أن تعود تماماً إلى أصلها . لكن لدى دخول البوذية (سكياموني) ، أي البوذيِّ الخالد ، بطلت كل بدعة من هذا النوع ، ليدخل إلى النفوس مبدأ الرفق بالأبناء والحب الأخوي . وكانت في مطلع القرن الثامن للميلاد مدرسة (Mitsong ، ميتْسونغ) أو مدرسة الأسرار لتُحيي الحفلات الدينية . كان لها تأثير عميق في الصين . وفي القرن الحادي عشر قدَّس الشعب الثلاثة الكبار معاً : بوذا ولاوتسي وكنفوشيوس . واستمر هذا التقديس للثلاثة معاً .

ما نستخلصهُ من عبادات اسيا الوسطى والتيبت والصين :

آسيا الوسطى : إن الموقع الجغرافي لهذه البلاد المترامية الاطراف ، بين جبال ايران وصحراء (غوبي) وسيبريا ، حتّم عليها في القديم ، أن تكون صلة بين الشرقين الأقصى والأدنى : بين الصين وما بين النهرين بالتحديد الأعم . لذلك فقد تسربت إليها مختلف المعتقدات من الشرق والغرب . فكانت البوذية بفروعها ، والهندوكية إلى جانب العبادات الطبيعية السابقة . ثم كانت الفارسية بفروعها . يعتبر هذا الشعب العنصر الشرقي الأصيل بين القبائل (الهندواروبية) ، تَغلَّب عليه التركستانية والمنغولية .

ديانتهم القديمة كانت الشمس والجبل والشجر الخ . . ثم قدَّسوا النار وآمنوا بالروح السحرية . متّخذين معتقدات شتى ، منها أخيراً (اللامية) في التيبت وهي فرع من البوذيَّة . مارسوا (اليوغية والطاوية) . بالرقص المقدس . أسمى هذانِ الشعبان المنغولي والتركستاني القدرةَ العظمى في الوجود بـ (تنغْري و أولْغن) .

لكن الصين بما اتخذت من عبادات طبيعية سابقاً ، ومن عبادة السَلَفِ للسماء والأرض ، وترابطهما بواسطة السلطة الكهنوتية ، كان كله وصولاً إلى تأمين غلال وخصب ، لتأمين حياة مسالمة رضية هانئة ، لا أبعد من ذلك . وكان الملك أو الامبراطور هو الصلة الوثقى بين الأرض والسماء ، وقد اتّسم بالعِبادة .

حين ازدهرت الحضارة الصينية ونشطت التجارة وتعددت القوافل الغربية من النواحي الغربية والجنوبية للبلاد ، كان لا بد من انتقال بذور مختلفة من الديانات إلى الصين . فكانت الفارسيَّة في الحدود الغربية من البلاد . وكانت البوذية التي تطوَّرت وتطورت حتى غدت السيدة في كثير من ارجاء الصين ، وبالاخص الجنوبية منها . وذلك لحكمة دُعاتها ولاستطاعتهم تطوير هذا المعتقد ، بما يتلاءم والصالح الصيني روحاً ومادة .

نافستِ البوذيةَ الكنفوشيةُ لزعيمها الحكيم الكبير (كنفوشيوس) ، وهي ما برحت حتى اليوم تعدُّ قرابة مئتي مليون نسمة ونيِّف ، كما كانت الطاوية لمهذِّبها الرائد الباطني الخطير (لاوتسي تونغ) ، الذي جمعه بكنفوشيوس وبوذا قرن واحد .

الطاوية ديانة باطنية تعيد كل شيء إلى الـ (طاو) أي الطريق السماوية . من هنا يتبين لنا تضادُّ مع الكنفوشية والبوذية والنيرفانية ، اللتينِ لا تعيران كبير اهتمام للميتافيزياء .

إن الامبراطور في الصين غدا الإنسانَ السماويَّ ، ودونه الكهان ثم الشعب . أقدمُ امبراطورٍ متألّه كان (هوانغ تي) . كان تفكير الصينيين بشهادة كبار المؤرخين صَريحاً : مُسالماً وانسانياً ، على عكس الهنود الذين نبذوا مفاتن الدنيا .

وكان للاساطير الصينية تأثير عميق على أهالي الصين وجوارها في آنٍ واحد . كلُّها تحوم في فلك الآلهة والخليقة ، حتى دخلت الديانات الرئيسية الغربية والكنفوشيَّة ، فطبعت نفوس الشعب بمُجمله بِطابعها المعروف .

وعلينا أن نتأكَّد من أن المذاهب البوذية في تعددها بالصين ، لم تظفر بهذا القبول الواسع ، لو لم تتأقلم وتخضع لطقوس ومعتقدات أُصيلة في البلاد .

يبقى أن نُلمح إلى الزعيمين الكبيرين : (كنفوشيوس ولاوتسي) ، فأن تاريخهما

وآثارهما مَدعاةً للاعتزاز الحق . هذا ، مثّل التياراتِ الباطنيةَ السابقة ، وأضاء شموعها في الأرض الصفراء ، وذاك بنى حضارةً قوامُها التحابُّ والتعاطف والمسالمة والـطيبةُ الأصيلة . غير عابىءٍ بالميتافيزياء التي ما برحت تشغل وترهق العقول . وبعد الفتح الإسلامي لفارسَ وضواحيها ، اضطرَّ بعضُ سكانها لِمغـادرة بلادهم إلى الصـين الرحبـة الأرجاء . فـانتقلت معهم عبـادة : زرادشت ، ومـاني وأهـرمـزد . ثم دفق الإسـلام حتى بلغ العـاصمـة (باكين) ، وما برح . ودخل مع المستعمر الغربي مبشرون مسيحيون ، ما زال لهم انتداب في بعض ضواحي الصين الشرقية ، بواسطة ما لديهم من نفوذٍ معنويّ وماديٍّ ضخم .

المراجع العامة لديانات الصين واسيا الوسطى والتيبت

أ ـ بالعربية :

١ ـ عباس محمود العقاد ـ كتاب الله ـ ص (٨٥ ـ ٨٨) سنة (١٩٦٤) .

٢ ـ سليمان مظهر ـ قصة الديانات ـ (طبعة اولى) ـ ص (١٧٢ ـ ٢٤٣) .

٣ ـ البيروني (تحقيق ما للهند) مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس رقم (٦٠٨٠) .

٤ ـ مقارنة الاديان ط (٢) عام (١٩٦٦) مصر ص (١٧٦ ـ ١٨٥) ـ (١٩٢ ـ ٢٠٣) .

٥ ـ ترجمة ذوقان قرقوط ـ المذاهب الكبرى في التاريخ ـ ص (٩ ـ ٤٧) بيروت سنة (١٩٧٢) .

٦ ـ ترجمة زكي نجيب محمود ـ قصة الحضارة ـ القاهرة ص (٣٠ ـ ٢٥٦ ـ ٣٠٦) جـ (٤٢) ص

ب ـ بالاجنبية :

1 - Paul Masson Oursel, Hist - générale des religions tome 3, P (331 - 334) - (345 - 359). (1960)

2 - Louis Gardet , La Mystique (Collect, que sais - je). Paris (970), P: (140 - 148).

3 - Luc Benoist, L'Esotérisme (Collect, que sais - je). Paris (965), P (73 - 77).

4 - Henri Arvon , Le Bouddhisme (Collect, que sais - je). Paris (966) P (104 - 111).

5 - Paul Masson Oursel, Le Yoga (Collect, que sais - je), Paris (963) P: (51 - 74).

6 - Odile Kalten mark, Encycl .Général (La Rousse) Tome 3, P: (540 - 543) (1968)

7 - Robert Laffont, Hist. de L'Humanité, livre 3 . p. (381 - 412). (1969)



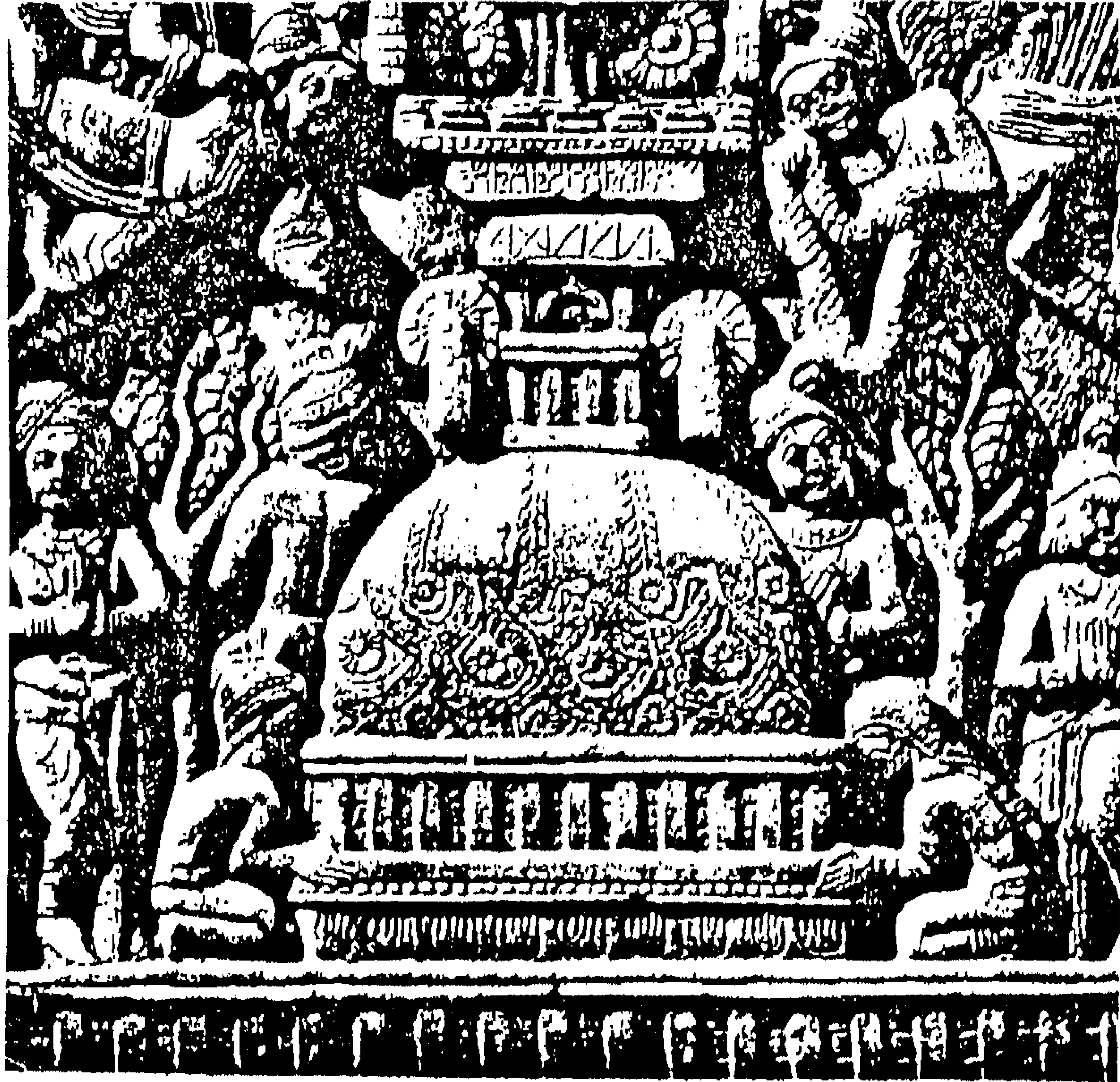
الإله فشنو محاط بالأفعى الناعية



تمثال للآله براهمان



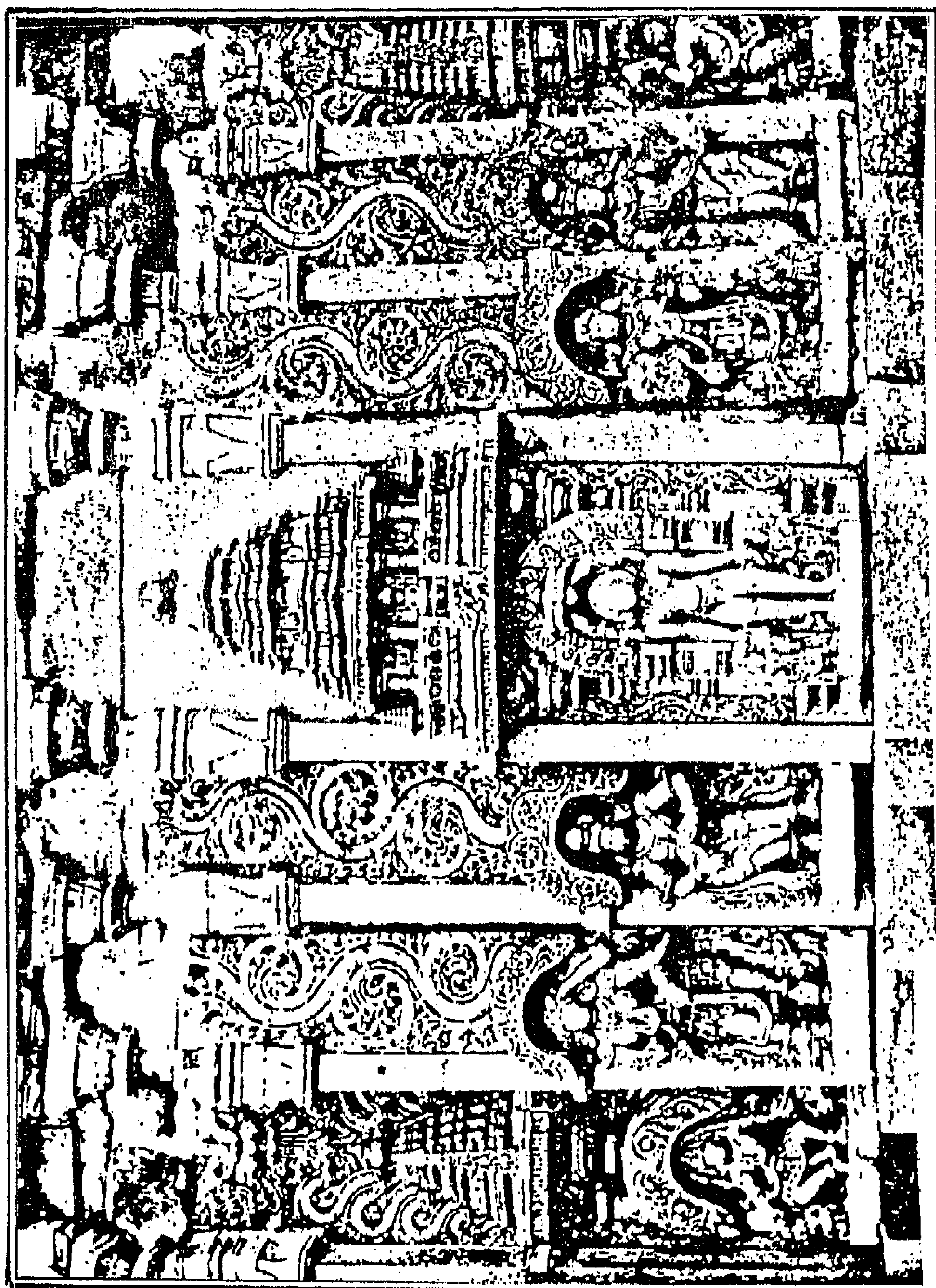
لوحة من « الرامايانا » الهندية ، من سلسلة لوحات



مولد البوذا وحوله الملائكة



أتباع الاله شيفا يصلّون أمام تمثاله



مدخل أحد المعابد الجانبية الفخمة ، وقد حفرت التماثيل على أوجهه المصنوعة من الرخام



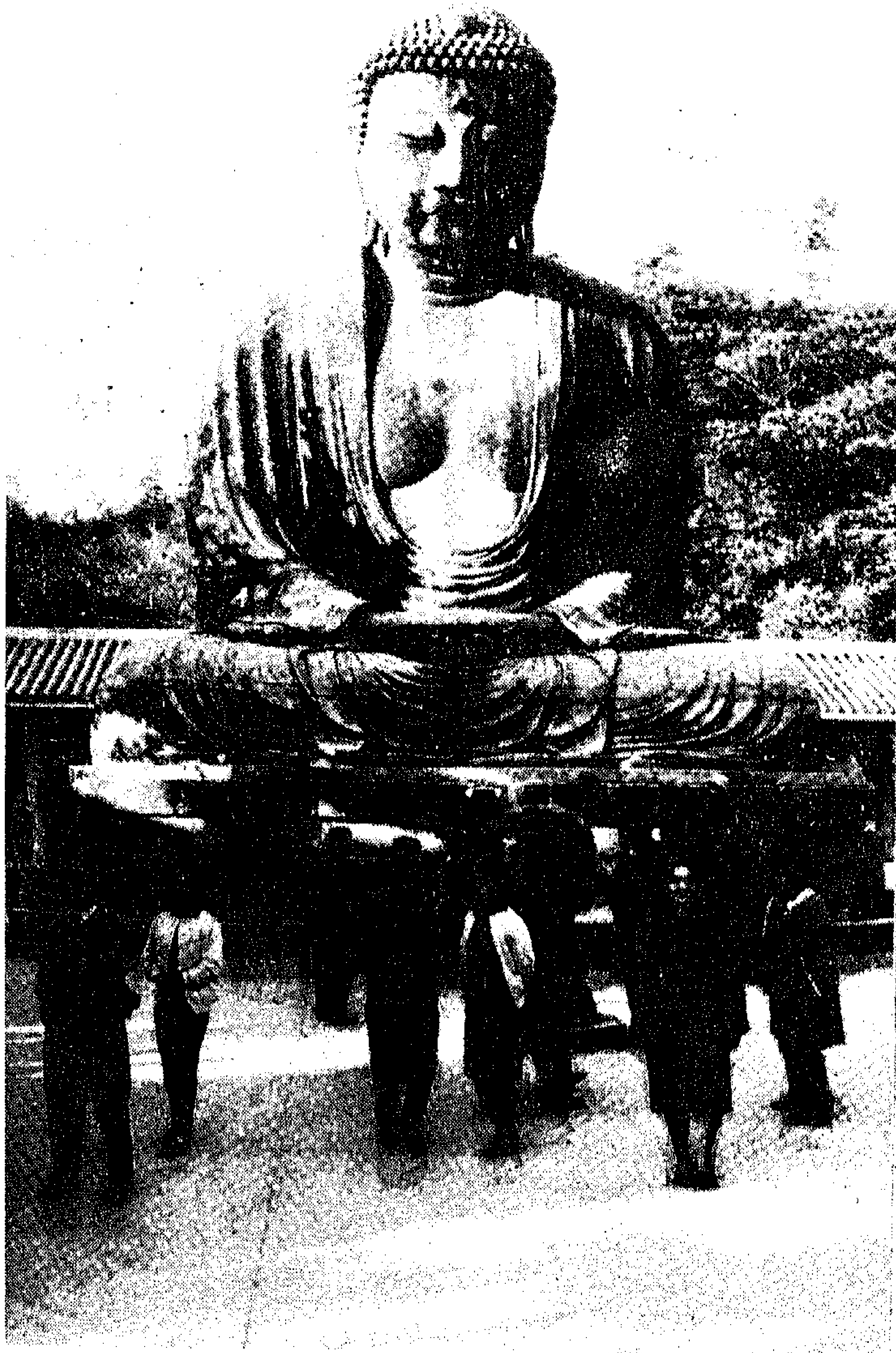
رقصة مقدسة . . لإرضاء آلة الخير . في بنارس



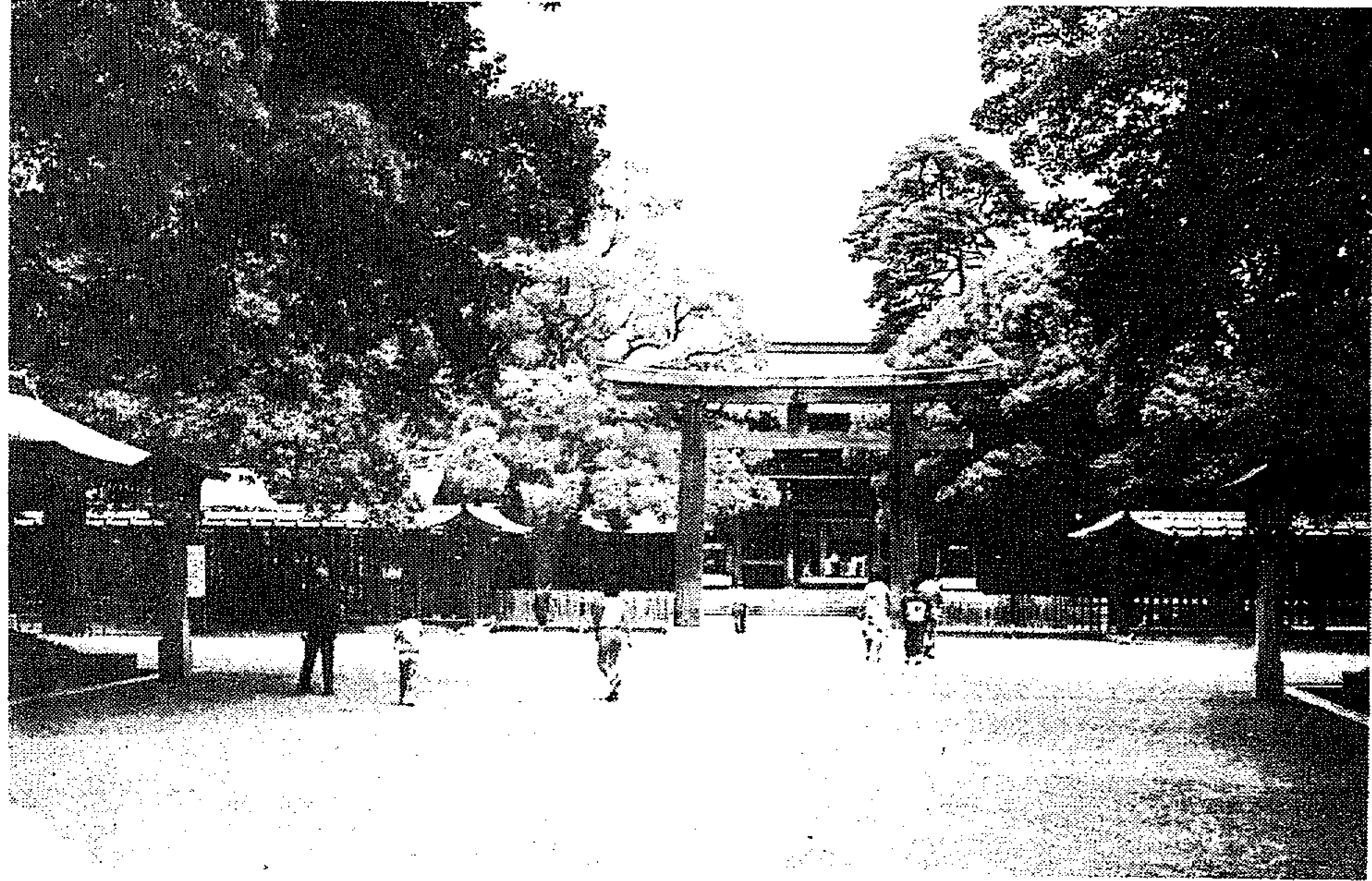
شيفا وزوجته



الحكيم كونفوشيوس . . في أواخر أيام حياته . .



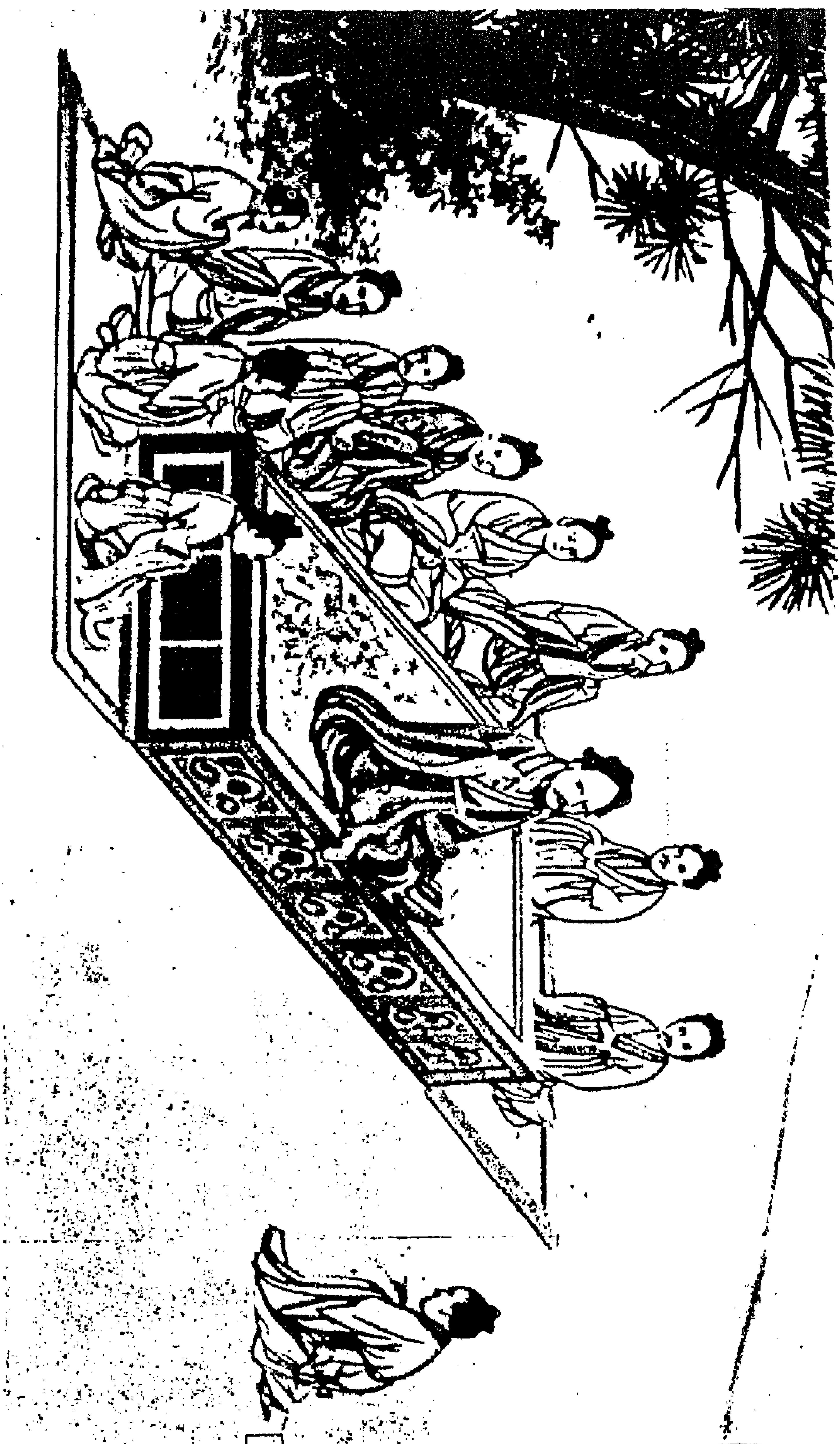
بوذا والهالة الذهبيه



توري أو بداية الدخول لمزار ديني للشنتو في طوكيو



براهمة يتطهرون في نهر (الغانج)



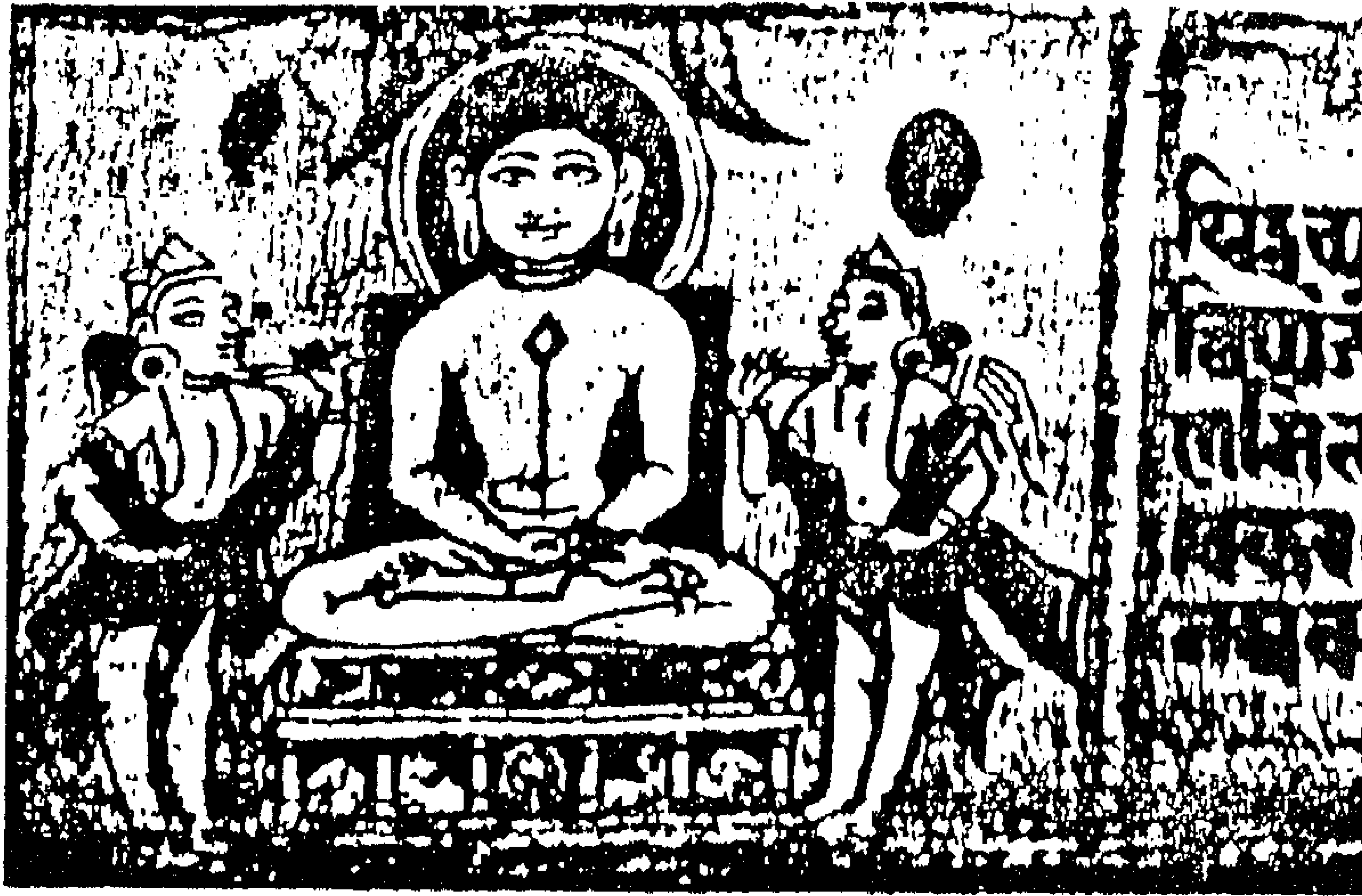
كونفوشيوس يعلم اتباعه



الثالوث الطاوي المقدس



أفخم معبد في اليابان للاله بوذا



لوحة لماهافيرا الفاتح مرسومة على القماش



الآلهة نو كواشي منقذة الأرض التي أقامت أعمدة السماء . .



ايزاناجي وازانا مي على قوس قزح



تمثال منحوت في الصخر للقديس الجيني جوتامشغارا



البوذا شابا



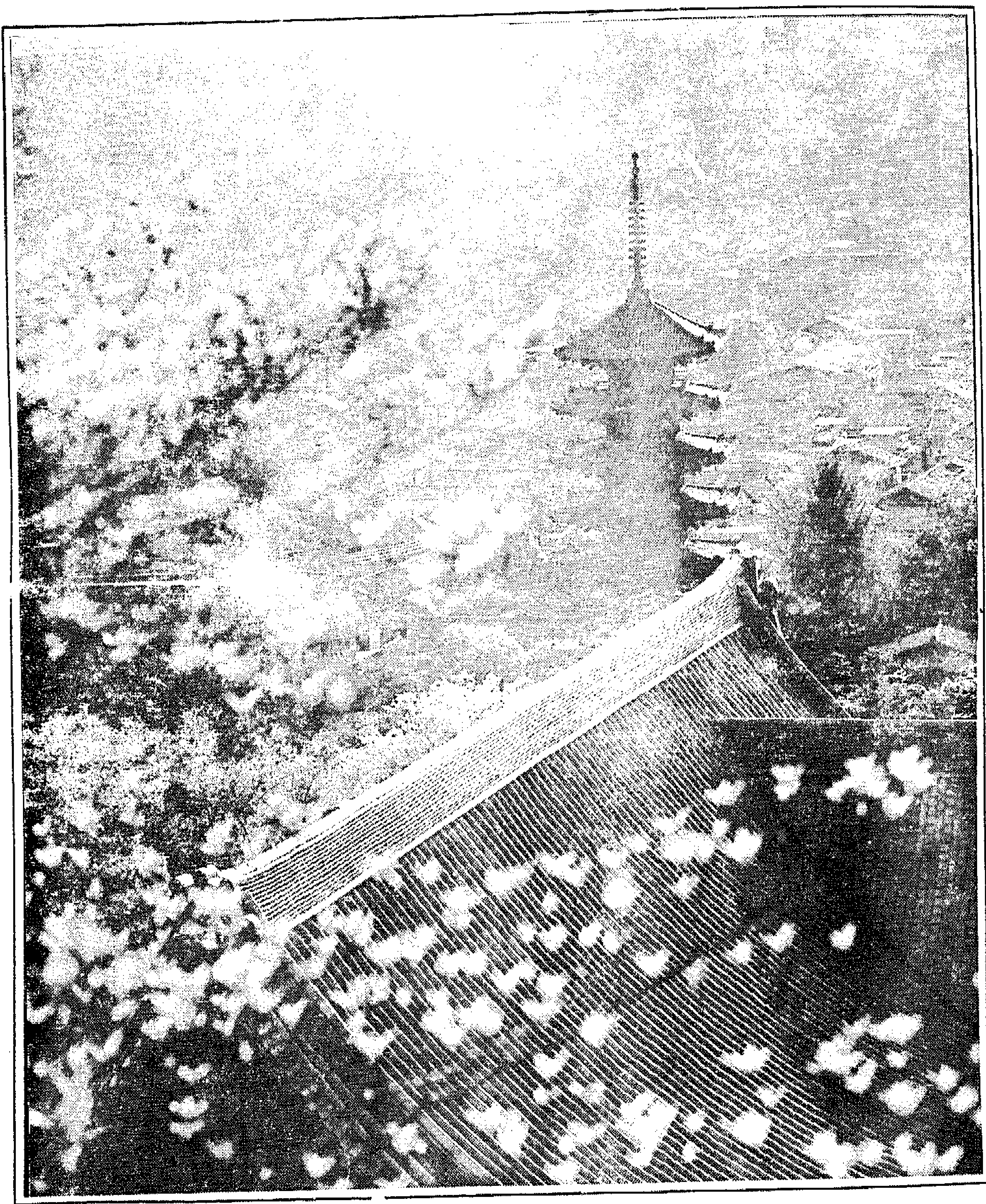
لاوتسي صاحب العقيدة الطاوية



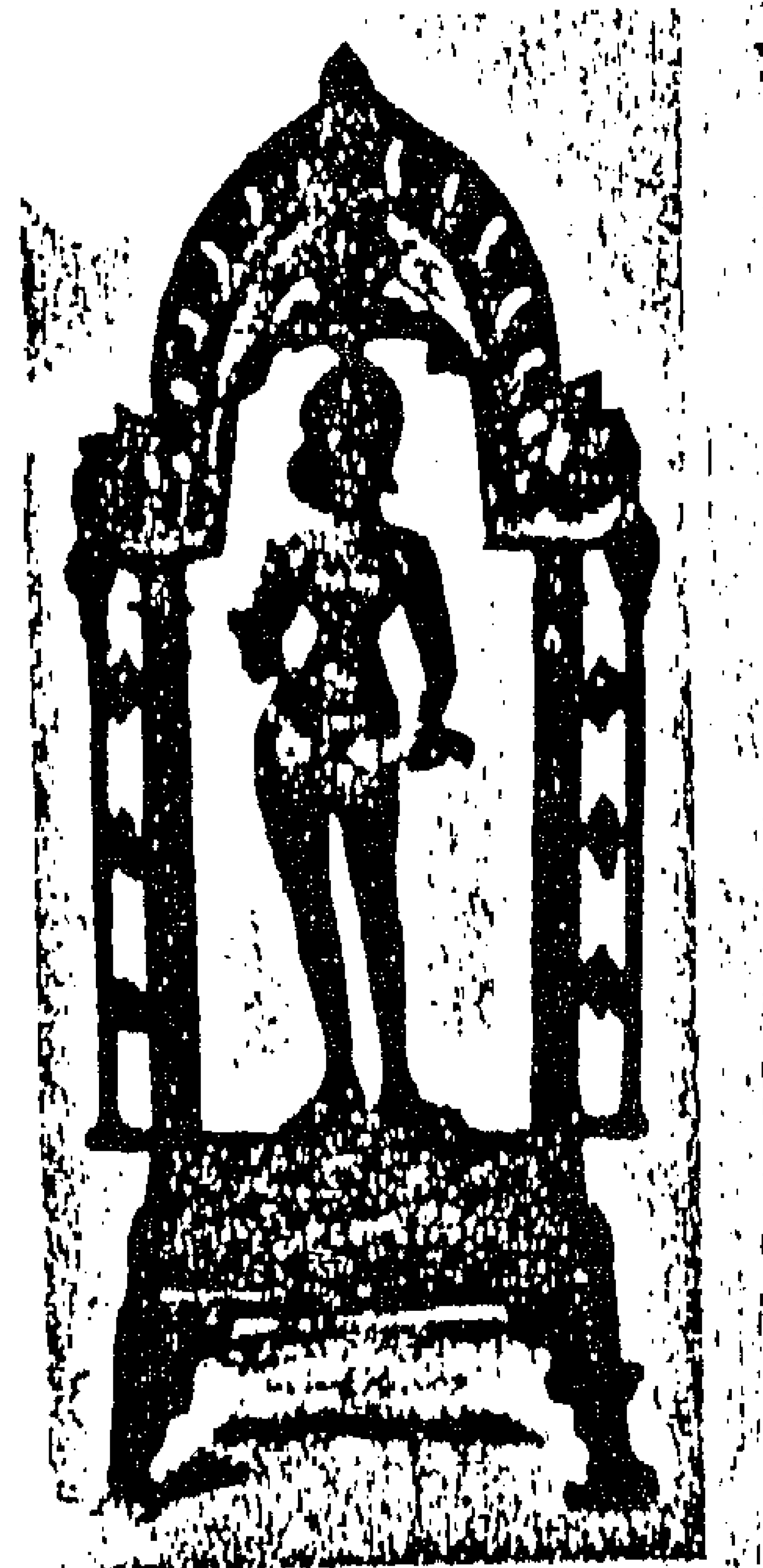
كاهن طاوي



تمثال بوذي خشبي



معبد اوكنجي



تمثال من البرونز لاحدى ربّات الجينيّة .



فقير هندي يمارس عملية التعذيب النفسي فيقف رافعاً ذراعه بهذا الشكل فلا يخفضه أبداً . . .

الباب الخامس عشر

الفصل الأول

ديانة وميتولوجيا الشعوب : الهندو - أوروبية

بدء الهجرة :

إن قوافل الشعوب المهاجرة عن أوروبا ، والزاحفة إليها ، من ضواحي الهند ، سُمِّيتْ قديماً « بالهِندو -أوروبيين » وكان ذلك في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد .

لا يعنينا الآن من هذه الهجرات، طابعها الاجتماعي والسياسي، بل الروحي وحسب. دخل هؤلاء أوروبًا مسالمين . توغلوا في أرضها جمعاء ، وكان يعوز الشعوب المقيمة فيها معرفة لغتهم ، كما كان يعوزهم التعرف إلى لغات المناطق التي تواجدوا فيها ، ابتداء من بلاد الـ « سلاف » إلى الجرمن ، فالسلت ، فروما ، فاليونان « والأرخبيل » . تعايشوا مع الزمن ، وتأثر كلٌ بالآخر عقائدياً ، فكانت تلك أولى بذور الروحانية الشرقية في الغرب . تقبَّلتها مجموعات قليلة ، وتبنَّتها منفصلة عن دياناتهم الشائعة المادية . وحين كانت القرون المتأخرة ، وجد الشعراء والروائيون فيها منهلاً سائغاً غذوا بمعينه « رومنطيقيتهم » وخيالهم ، بعد أن تعرفوا إلى لغة أولئك بالسنسكريتية .

الميثيولوجيا :

أشهر ما قبس عنهم الأوروبيون عصر ذاك: «الميثيولوجيا الشمسية وميثيولوجيا

الآعاصير » . كل ذلك قد نضج بجهود البحاثين الكبار وفي طليعتهم : (I. Khun M. Müller ـ م . مولّر و أُدلْبَرْ كُهُون) وبالمدارس الخاصة بدراسة الديانة الهندية وديانات المناطق المتعددة في أنحاء « أورُوبا » قبل أن يوجد هنالك دين بالمعنى الكامل والمنظم .

اصطلح الاخصائيون حديثاً بَدءاً من عام (١٩١٨) على عبارات وأسماء أعلام وطقوس دينية ومدينة ، فيها كثير من الشبه بين الغرب والشرق ، بما فيها ايران القديمة . وأكثر ما اتّضح ذلك ، في الديانة السكندينافيّة . بينما الروحانيات ، الهليانية كانت من ينبوع مختلف .

من التشابُه الملموس مجموعات من الآلهة ذات أعمال ومهمات متنوعة منها في الهند ، حققه العالم (أ. كريْستانْسِنْ A. Christensen) عام (١٩٢٦) و (أ. برغّانى - A. Ber gaigne) فكانت الآلهة مُطلَقي الصلاحيات أشهرهم (مِتْراوَفْارونا) للتنظيم الكوني والسلوك ، والقوة والحرب ضد الشيطان . وكانت الـ (أفَسْتا Avesta) « لـزرادخت » الفارسي ، تقسم الكهنوت الإلهي ، وتسند إليه مهمات وصفات منها : الأبدي والخيّر والمتعالي . وهكذا وجدت في الكهنوت ، الإيطاليوتي أسماء وصفات مختلفة لآلهتهم ، متوافقة مع ما سبق ، منها : جوبيتر ـ مارسْ ـ كيرنْيمَ ـ Jupiter – Mars – Quiriniem) ولكل من هؤلاء مهمته الحربية والتنظيمية والمسلكية، كذلك هي الحال في « اسكندناڤيا » حيث المثلّث الإلهي : (أودْهِنّ ـ ثورّ ـ فرايَـرْ ، Odhinne – Thorr – Freyer) ولهم المهمات والصفات عينها .

وهناك برهان آخر هو : اسطورة السَحَر واخته الظلمة وابنها الشمس وكانت الاسطورة مروية في الهندية والايطاليونية مع قليل من التبديل في اللفظ والصور وحسب .

الطقوس الدينية :

كانت الطقوس الدينية بين الشرق والغرب آنذاك على تقارب بيّن . منها : الأضاحي التي تقدم للاله (فا) هي عادةً : خنزير وثور وخروف ، أو حيوانات ثلاثة من جنس آخر . والأضاحي نفسها كانت تقدم للإله (أندرا) وكانت في الشعبينَ تُقدم بقرة حبلى ، منزوعة الجنين قبل تضحيتها . السر في ذلك ، ما برح لغزاً على التاريخ . فإذا قُتلت البقرة الأم ، مَن يضمن سلامة جنينها ، إذا كانت الغاية في هذا التصرف ، حفظه

من الموت ؟؟ وعلى غاية في الشبهْ. كذلك طرائق تقديم الأضاحي ، وتصرف الكاهن المختص ، وتشابه المعتقدات واللفظ اللاتيني والسنسكريتي والإيراني .

الإلهة الأم :

في العصر الجليدي الذي كسح شبه الجزيرة الأوروبية . كان الدانوبيون يمارسون الزراعة وكانت لديهم قواطع للاعشاب والسنابل . ومن المرجَّح أن هؤلاء هم ناقلو الحضارة لأوروبا من شرقي المتوسط . عبدوا الالهة (الأم) . عَثر عليها الباحثون ، في تمثال من الطين ، بدائي الصنع . كما آمنوا بالأشباح وبمصاص الدماء المنبعث من القبور . وُجد هذا الأثر في مقبرة (كليسيڤاك) في سيبيريا ، وفكرته مستمدة من (الرَّبة الأم الكبرى) عند الإيجيين .

يعود هذا المعتقد إلى منتصف العهد البرونزي ، حيث شاعت عبادة الشمس ورموزها الكثيرة في أوروبا . وكان من تعويذات اولئك القبائل ، حملهم لِعَجَلَةٍ ذهبية صغيرة رمزاً للشمس ، انتشرت هذه العادة في : ايرلندا ورومانيا . أما في اسكندينافيا فكان تمثال لِحصان يجر عربة فوقها قرص ، هو : الشمس . وكان رؤساء العائلات هناك يقومون بالطقوس الدينية لخلو الكهنوت ، دامت هذه الطقوس في اسكندينافيا حتى دخول المسيحية .

الكائنات الوضَّاءة :

أما السواد الأوروبي فكانت عبادته : الكائنات الوضاءة ، وهي قوى ما فوق الطبيعة ، نورانية العنصر . وما كان في تلك الديانة أثر لعبادة إلهٍ أو لتوقي شيطان قط . لقد اعتمدوا احراق جثث موتاهم املاً بتحطيم الروابط بينها وبين الأرض ، ولم يعرفوا عبادة السلف ولا صلاة ، ولا قرابين ، ولا سِحر عندهم . اعتقادهم بالقدَر والقضاء ، وهما غير مُجَسَّدَين .

اولئك هم القبائل الزاحفة من المشرق والعابرة إلى أواسط أوروبا وشماليها ، عبر وادي نهريَ : الدنيسْترْ والدانُوب .

إن ذلك التقارب والتشابه في الطقوس والألفاظ والمعتقد بين الشرق والغرب جعل له مع الأيام أثراً عمَّ أوروبا الجنوبية والغربية معاً ، يبدو واضحاً وسنوليه من توضيح أشمل لاحقاً .

الفصل الثاني

الجرمن : (— Les germains)

حديثنا عن الشعب الجرمني يعود إلى عصر الحجر المصقول ، أي لما بين الألفين والثلاثة الآف سنة (ق . م) . يومذاك ، لم تكن لتعرف للشعبين الجرماني واسكندينافي لغة ما ، يتداولونها ، لِفُقدانِ الأدلة عليها . ولكن الشعبين من أصل جرماني واحد .

ما يعنينا في الموضوع ، ديانة هؤلاء ، في تلك الحقبة السحيقة ، إكتشف الباحثون في مدينة (تْرَنْدْهولْم ، Trundholm) بجزيرة (سيلانSeeland) قرصاً مذهباً محمولاً على عجلة يجرها حصان واحد . وقد اعتبر هؤلاء الباحثون أن القرص المذهب يرمز إلى « الشمس » أما وضعه على عجلة فلكي يتسنَّى نقله من ضاحية إلى أخرى ، تباركاً بالشمس . وظهرت أدلة على عبادتهم للشجرة وللينبوع ، كما اكتشفت آثار تدل على تقديس التوأم من النبات خاصة ، وقد أشير إليه بشكل رجل يحمل بيده مطرقة . لعله أحد معبوداتهم .

استدلَّ باحث يوناني في القرن الرابع قبل الميلاد يدعَى (پيتياس Pytheas) على معلومات كثيرة غير موثوق بصحتها ، تتعلق بالمعتقد الجرماني . وبعده عثر على مخطوطات باللغة اللاتينية ، وعلى حجارة مقدَّسة كان الجنود الجرمانيون في المعسكرات الرومانية يُعيرونها كل القداسة ولم تُبقِ الأحداث . . . المتتالية من أثر محسوس لما تتضمن هذه المخطوطات القديمة . ولكن في القرن السابع بعد الميلاد ، أخذت المعلومات حول هذه المعتقدات تتبلور ، ويتّضح الأصيل من الدخيل فيها إلى بلاد الجرمن .

مما ثبت للمحققين أن الجرمن : المانـاً واسكندينافيين ، كانوا يعيرون كل اعتبار للحجارة المقدسة في شمالي البلاد ، كما في جنوبها ، متأثرين بالقبائل (الهندوجرمانية) وقد رافقت هذه التصورات تلك الشعوب حتى العصور المتوسطة ، إذ إننا كنا نرى في بلاد « النيروج » لغاية القرن الثامن عشر ، جماعة تدهن بعض الحجارة بالسمن ،

وبعضهم يغسلها بالبيرة ، كما كان الألمان يعتقدون بها : وسيلة للخصب والاقبال ، ومُسكّنة للعواصف ، وكانوا يطلقون عليها اسم (البوارق) .

كانت إحدى القبائل الهندو جرمانيّة تقدس السيوف ، وقبائل غيرها تعتبر السلاح اصدق قَسَم عندها . وعايش هذا المعتقد الشعب الجرماني حتى اليوم ، إذ نرى ضبّاطهم يقسمون بسيوفهم تحت ظل العَلَم الوطني .

عناصر الطبيعة :

بدا لِعُلماء التاريخ على كثير من الوضوح تقدير الشعوب الجرمانية لعناصر الطبيعة الرئيسية : كالنار والماء والأرض ثم الشمس . بِهَدْيٍ من القبائل الهندو جرمانية التي كانت تعايشهم ثم اضمحلت بامتزاجها كُلياً بهم :

أ ـ النار كانت كائناً رئيسياً عندهم ، وكان المتزوجون مفروضاً عليهم أن يَدُوروا حول الموقد المستعر ثلاث مرات قبل حصول الاقتران ، تباركاً بالنار .

ب ـ الماء : كانت تقدس بأشكالها المختلفة منها : الينابيع . ولكي تتجاوب الشعوب الجرمانية مؤخراً مع الدعوة المسيحية ، كان المبشرون يغذون تلك المشاعر في هؤلاء الشعوب ، فيبنون كنائسهم بجوار الينابيع التي انبجسب بفضل القديسين المسيحين ، على زعمهم .

وكانت تقدم التضحيات للأنهر ، باعتبارها اداة عبادة ، في جميع ضواحي البلاد الجرمانية . ولعظيم قداسة المياه لدى هؤلاء الشعوب ، كانوا يغطسون كل مولود جديد بها .

ج ـ والأرض ما كانت لتعبد كأحد العناصر : « التراب » انما كانت قيمتها لمنافعها للجنس البشري بما تهب من محاصيل . ونادراً ما عبدوا الهضاب والمشارف .

د ـ أما عبادة الشمس فقد دلت عليها بصراحة اثار مختلفة ومناطق متفرقة من بلاد الجرمن ، أكّد ذلك : القيصر حين صرح : « إن الجرمن يقدسون الشمس والقمر والنار » وكل مستند بدا لعلماء التاريخ ، مشكوكٌ فيه ، لضعف الأدلة المقنعة علمياً ، رغم أن عادات متأصلة في تلك الشعوب ، يمارسونها حتى اليوم في أقصى الشمال والجنوب من

البلاد الجرمانية القديمة ، تُلمِّحُ إلى شيء من هذه المعتقدات .

هـ ـ والشجرة كانت موضوع عبادة كما اسلفنا ، وكانت تقدم لها الذبائح . ولم يقتصر على الشجرة المورقة بل حتى على الأرومة منها . وليست الإلهة : (أُدنْس Adins) في الشمال لتعني غير (Ans أنس) أي جسر الخشب فكل ما يشتقُّ من الشجر معبود عندهم .

وجاء في تصريح المؤرخ اللاَّتيني : (Tacite) بأن الجرمن كانوا يعلقون في الغابات ويحملون إلى الحروب تماثيل صغيرة وايقونات لحيوانات مفترسة ، فاعتبرها المؤرخ أحد معبودات تلك الشعوب ، مؤكداً بذلك ما نسب إليهم المؤرخ « پلوتارك » من عبادة للبقرة والدب . تَفَشَّت وتعددت تلك العبادات حتى بلغت « الأفعى » .

كان المؤرخ « تاسيت » يقول : « في المرأة شيء من الألوهة والنبوة عند الجرمن بل أكثر من ذلك : انها إلهة . وتابع المؤرخ : « يعتقدون بأرواح الموتى ، منها سابحة في الفضاء ، واخرى تتداخل في مشاكل البشر وتسبب المخاوف ، وأن المتوفين من الملوك تصبح أرواحهم إلهية » .

تعدُّد الآلهة :

في العصور المتقدمة قليلاً كثرت وتنوعت اسماء الالهة عند الجرمن . من بينها (Teiwaz تيواز) إلهُ السماء القديم المستقدم وَزيو (Ziu وتير Tyr وَودان Wodan) إله العلوم والسِحر والشِعر والحروب . وبعد الفتح الروماني غدا « جوبيتر وماركور » (عطارد) في عداد إلهة « الجرمن » .

وعايشت الخرافة العصور الجرمنية وتملَّكت اذهان الشعب . لا ندري اهي الأفكار المتواردة صدفة أم كانت صلات ومهاجرات إلى غير الشرق ، لمصر مثلاً ، حيث نرى صورة مشابهة لخرافة « اوزيس واوزيرس » في بلاد الجرمن ، هي خرافة (بالْدر ، Balder) الإله الذي يُقتل ويستعيد الحياة بين فصل وآخر من السنة ، للخصب والإقبال .

قال المؤرخ (آدم دي بْريم Adam de Brême)عَن إحدى كاهنات (فراي Frey)

إن إله الإخصاب بعد شيوع المسيحية في (أسوج) كان يُنقل تمثاله على عجلة متجوِّلةٍ بين المزارع بقصد إحلال الإقبال في المواسم .

الأضاحي :

لم يكن للصلوات أي أعتبار في معتقد الجرمن ، الإعتبار كله للأضاحي على أنواعها . من أفضل ما كان يضحّى من حيوانات هو : الحصان والخنزير الحلوب . وطريقة تقديم الأضاحي تختلف بين منطقة وأخرى من أنحاء البلاد الجرمانية . منهم من يقدم الرأس ويأكل سائر الأعضاء ، ومنهم من يجمع دم الضحية لِيدهَنَ به تماثيل الآلهة والهياكل .

أكثر ما كان يقدَّم من ذبائح في العصور القديمة بتلك الربوع هو : الجنس البشريُّ نفسه، وبخاصة أسرى الحروب من المناطق. منهم مَنْ كان يقدم الأسير العاشر ومنهم الأول. وكانت تقدم بعض الذبائح لأسباب تافهةٍ إلى الآلهة وأخص منهم (Wodam ودام) . وكانت الضحايا بين تسع وتسعين ضحية في حفلة واحدة ، كلها من الجنس البشري مضاف إليها بعض الحيوانات الأليفة .

إن الدور البالغ جداً هناك هو السلطة المعطاة عفويا للكهنة . فهم وحدَهُم لهم الحق في العقوبات الجسدية لِتثبيت الأمن بالقوة . وفي مناطق كثيرة تعلو سلطة الكاهن على سلطة الأمير نفسه ، والكهنوت يُتوارث من سلف لخلف ، ولا يحق لأية سلطة في الدولة أن تعزل الكاهن الأكبر . يقول «Tacite» : « إن الكهنة تعتبر القدَر وتؤمنُ بِسلطانه ، وتعتمده في حل مشاكل الناس وتزعم أنه يجلب الخيرَ والشرَّ من دون الآلهة » .

قبل أن تتنسّم الأفكار المسيحية في شمالي البلاد ، كانت شعوبها تؤمن بشيء من الغموض : بحياةٍ بعد الموت . إذا لم تكن لكل انسان فللملوك خاصةً ، وكانوا يطلقون على دنيا تلك الأرواح اسم (Walhalla وَالْهَلاّ) ولا شك بأنها تعني عالم المسرات والنعيم ومعادُ الإقتصار في هذا الموضوع فقدانُ المراجع الموضِّحة أو الرامزة إلى شبه دليل لدى الباحثين .

الفصل الثالث

البالت والسلاف : Les Baltes et les Slaves

على الرغم من المكتشفات الكثيرة التي وجدت في الأراضي الروسية وجيرانها ، لم يظهر أي توضيح يشير بقليل أو كثير إلى المعتقد البالتسلافي . وما كانت محاولات « تاسيت » بثمرة علمياً ، في هذا الشأن ، وبهذه الشعوب المعنية ، حتى كان القرن الحادي عشر الميلادي وكان المؤرخ الفرنسي (Adam de Brême آدم دي بريم) الذي استطاع أن يستقطر من هنا وهناك بعض المعلومات الثابتة . ومع كرِّ السنين ، حتى القرن السابع عشر ، وما بعدُه بقليل ، توفرت معلومات يطمئنُّ إليها العلم الصحيح .

المعلومات المتوفِّرة :

أ ـ من أبرز المؤرخين الذين عنوا بتاريخ هذه الحقبة والمنطقة معاً كان المؤرخ : (Helmold هالمولد) فقد أكد أن تلك الشعوب كانت تقدس الحجارة والصخور وتعبدها . وأكدت معلومات أخرى ، انهم كانوا يقسمون بالسلاح ، شأن الجرمن ، فيَعتبرون حدود العبادة : السيف والنشاب والترس .

وكانوا يملكون درعاً كبيرة يحذرون من لمسها ، إلا حين تدعوهم المعارك فيتناقلونها ليؤمن لهم النصر .

ب ـ أما عناصر الطبيعة فقد اجمع المؤرخون على أن تلك الشعوب البالتسلافية كانت تعبد النار ، والمياه على أشكالها : من ينابيع ومصبات وبحيرات وانهار ، إلى السماء والأرض والشجر . وكانت تتفاوت مقاييس اعتبار عنصر عن آخر من منطقة لمنطقة . نقل إلينا حديثاً هذه المعلومات المبشرون اليسوعيون ، بأمانة علمية . قالوا : «إن الروس عبدوا الهواء والرياح والأرض معاً ، وان الليتوانيين كانوا يودِّعون عروستهم قائلين لها : أيتها الشعلة الصغيرة المقدسة ، مَنْ الذي سيصونك بكثير من العناية ؟ » .

وكانت عبادة السماء ، تشمل الشمس والقمر والنجوم واحياناً الصواعق لدى البولنديين .

ج ـ عبادة الشجرة كانت ترمز أحياناً إلى عبادة الأرواح المتغلغلة في الغابة ، فيحرم قطع أغصانها . وكثيراً ما يحذر من الولوج خلال أشجارها حيث يلتقي الأرواح .

د ـ أما عبادة الحيوانات فكانت شائعة ، وفي مقدمتها « الأفعى » يعتبرونها روحاً عائلياً في المنزل . أو هي روح أحد الأسلاف . يقدمون لها المآكل ويؤمنون سلامتها ، إذ بسلامتها تتأمن لهم السعادة . ومن معبوداتهم الخيول . فلا يسمحون بأن يعلو الجواد أحد سوى الكاهن . ولعلهم كانوا يرمزون بهذا الجواد إلى ذات إلهية ، هي موضوع العبادة ، حسب تعبير المؤرخ : (SaxoleGrammairien سكسو الغرمّاطيقي) . ومن الطقوس الشائعة في بلاد « البالتسلاف » تقديم الغذاء لموتاهم ، وأحياناً يقدمون لهم انساناً ما أو حيواناً . ليس هذا العمل عن رهبة من الموتى ، أو خشية اذيتهم ، بل خدمة لهم وحسب وكانوا يستديرون حول المتوفى ثلاث مرات متتابعة ، ويضعونه في اتجاه معاكس لدورة الشمس ، كما هي الحال لدى « الهندو اوروبيين » . كان حدس هؤلاء يقودهم إلى الإعتقاد بأن روح السلف ستظهر لهم بشكل حيوان ، وغالباً ما تكون بشكل أفعى .

آلهتهم : يقول « تاسيت » إن هذه الشعوب كانت في طليعة آلهتها : (الالهة الأم) . وكانت بمثابة الشيطان المسمى (باكولُوس — Pacollus) وعبدوا إلهاً هو (كُورش Curche) يرمز إلى الخصب والإقبال ، حيث ينتهي في الخريف ، ويتجدد في العام المقبل ، وعبدو إله الحبوب (لَنغوذرغُوس Langosargus) وإله الحيوان (سيمپسات Semepsates) كما عُبد أخيراً في مدينة « كياڤ » وجوارها الإلهان (تُور Thor وپارُو Peru) وسواهما من آلهة السماء والصواعق . كان (دازبوغ Däzbog) إله الشمس ، كما كان عند الروس : (Malalas مَلالَاس) إله النار .

تحـدث المؤرخ Saxo عن التمثـال الحجـري الـذي وجـد في حفـرة هنـالـك عـام (١٩٢١) رمز .نه منتصب ، كان في وسط هيكل ، وقد دمر الهيكـل . والتمثال يرتدي ثياباً حتى الركبتين ، وله اربعة رؤوس ، تعني الجهات الأربع . وقد اكتشف تمثال حجري آخر ذو ثلاثة رؤوس يعني بها : السماء والأرض والجحيم .

يعتقد المؤرخ (هالمولْد Helmold) أن هذه الشعوب كانت تعبد إله السماء المهيمن ، على كل الآلهة بلا منازع ، وكانوا يعتقدون بوجود إله « الشر » ويسمونه (ديابول Diabol) وتعني

الكلمة : «الأسْـوَد» رمز الشيطان . معظم هذه الآلهة قد عرفتنا بها اساطيرهم (كْنِتلِنْغا Knytlinga) ولعل هذا الإله المهيمن ، وذاك الأسود هما إلها فارس (نور وظلام) جاء بهما للغرب الهندو اوروبيون .

وقد حدثنا المؤرخ العربي : (المسعودي) عن طقوس هذه الشعوب ، وأكّدها المؤرخ (Saxo سَكْسو) مضيفاً أن الكاهن لا يحق له أن يتنفس ضمن الهيكل في الهواء الطلق ، إنما عليه لدى التنفس العميق ، أن يقف ازاء باب الهيكل عند تقديم الضحية ، ولا يسمح لسواه بالدخول لجوار ضحيته .

وأكد المؤرخون شيوع تقديم القرابين للالهة ، من الغنائم وأسـلاب الحروب منها : الأواني الذهبية والفضية والخناجر المرصعة .

أما الأضاحي فكانت سابقاً من الحيوانات والأسماك ، وعلى رأسها الخنازير ، لوفرتها ، حتى الدجاج ، والبيض ، ومشتقات الحليب ، وفي عصر متقدم شاعت تقدمة الضحايا من الجنس البشري ، ومن أسرى الحروب بالذات .

كثيراً ما كان يقدم للنار الأكول : الفارس وجواده معاً . وذكر البابا « هونوريوس الثالث عام (١٢١٨) أن الشعوب الشمالية كانت تغطس سيوفها وسهامها بدم أسراها ، عوضاً عن احراقهم ، وكان بعضهم يحرق ، حتى الفتيات ، حيث يتبرجن بالزهور ، ويقدمن ضحية للنار .

كانت هذه الشعوب تؤمن بسلطان الفأل (الحظ) ويمارسونه ، شأن الشعوب الجرمانية . ولهم اقاصيص حول الحظوظ ، تحمل الكثير من الفكاهة والطرافة ، منها : بعد موسم عيد الخريف تقف الابنة الكبرى في المنزل على كرسي ، ممسكة في يسراها بغصن زيزفون، وفي اليمنى تحمل كوباً مليئاً من البيرا . تشرب الكوب ثم تملؤه ثانية ، وتفرغهُ على الأرض . فإذا افلحت واستطاعت أن تذري قطع الحلوى الموجودة في جيبها ، دون أن تفقد توازنها ، يعتبر أهل المنزل أن موسم القِنَّب والكتان للعام الآتي ، سيكون في غاية اقباله .

وغالباً ما كان يدير حفلات الحظوظ هذه ، الكاهن بنفسه ، ليُسبغ عليها روح القداسة وليهيمن على عقول الشعب بشعوذاته .

هل بدا لنا فارق رئيسي في ما كان يؤمن به الشعبان « الجرمني والبالتسلافي » إن في المعتقدات أو في الطقوس ؟؟ كانت الفوارق ظاهرة في اسماء الاعلام للآلهة وحسب ، أما رموزها فواحدة . كذلك كانت مهمة الكهنوت والإيمان بـالحظ ، وتقديم الضحايا والقرابين . ولا عجب فالبيئة الطبيعية متشابهة في ظواهرها وحيوانها ونباتها ، والتأثير الخارجي هو نفسه في كِلا المنطقتين . أما اعتبارهما معاً لسلطان الفأل على المصير ، فذلك يعود لتأثيرات نفسية ، تشعرهم بضعفهم ازاء الأحداث اليومية المتوقعة ، فيلجأون لبصيرة الفأل إشاعةً للطمأنينة .

الفصل الرابع

شعوب السهوب الشمالية

شعوب هذه المنطقة المترامية الأطراف ، الممتدة من شمالي الصين مروراً بالصحاري القاحلة حتى القوقاز فالبحر الأسود غرباً ، لها معتقدات متنوعة ، منها ما هو نابع من صميم البيئة ، ومنها ما حملته لها القوافل المتنقلة بين الشرق والغرب ، لدى مرورها العابر ، في ارجائها الرحبة .

كان للمُكتشفاتِ التي عُـثِرَ عليها في المقـابر الـروسية الجنـوبية، أثـر بالـغ الأهمية في اضفاء نور واضح على كثير من معتقدات تلك الشعوب . كما كان للدور البارز الذي قام به المؤرخ اليوناني « هيرودوث » ولما يحمـل من حقائق مُسنـدةٍ على بينـات واضحة ، ذات فـائدة تاريخية كبرى .

الشعب السيتي :

الشعب السيتي هو الذي يقطن شرقي البحر الأسود ، وكانت المكتشفات قد حظيت بالكثير من المعلومات ، عما يتعلق بمعتقداته . يقول هيرودوت : « ان الآلهة التي كان « السيتيون » يقدمونها على الجميع هي : (هستيا) ثم (زيوس وزوجته جَا) يتبعهما : « أبـولون وأفـروديت » . لكنهم يطلقـون على هـذه الآلهـة اسـماء مختلفـة في تعـاريفهم ، وبلغتهم الأم . وما كان هذا الشعب ليقيم وزناً للهياكل ولا للتماثيل الإلهية ، خلا الإلهة « أراس » أي (أفـروديت) ، فقـد تميـزت عن سـواهـا بتمثـال خـاص . وكـذلـك الإلـه (زيـوس) لـه هيكـل

خاص به. وقد كانت الإلهة « تابيتي » أي « هستيا » نفسها هي عينها ، إلهة النار عند الفرس .

الذبائح :

أما الأضاحي فكانت تقدم للآلهة كل عام ، من أنواع الحيوان ، وللإلهة « أراس » بشكل خاص وأعم . كانوا يقدمون من الجنس البشري ، واحداً من كل مئة اسير حرب ، فيغطسون بدمه سيوفهم ، ويمثلون بالضحايا . لبعض تلك القبائل إيمانٌ بقدسية السيوف . شأن جيرانهم الغربيين .

لقد اثبتت الكشوفات أن شعوب «السيتي» كانوا يؤمنون بخلود الروح، لأنهم كانوا يدهنون موتاهم بالمغرة الحمراء ، وكان يحاط رئيس القبيلة المتوفّى بخدمه وخيوله ، كما كان يفعله الشعب « الغولي » في القرن الخامس ق . م . وقد وصف هيرودوت ملكاً متوفياً فرسم الصورة التالية :

« حين يوضع الملك المتوفى على الفراش ، في قبره المهيأ له ، وهو حفرة كبيرة مربعة ، يغرسون حول الميت حراباً عليها قطع خشبية ، مغطاة بحصير من الخيزران ، وفي الفراغ من القبر يخنقون إحدى سرايا الملك ، ويدفنونها بجواره مع السقّاء ، والطباخ والفارس والسكرتير ، وخيولهم ، ومع كثير من الأواني الذهبية الثمينة .

عند اضطرار هذه الشعوب لتقديم الأضاحي الحيوانية حرقاً ، يجردون اللحوم عن عظامها ، ويوقدون العظام ، فتلعج النار ويحرقون الأضحية .وذلك لعدم وفرة الحطب في المنطقة ، على ما يُعتقد .

تُقدم الأضاحي من كل أنواع الحيوان والطير والحشرات ، وقلما من أنواع الأفاعي ، ومن الجمال ، لأن لها ميزة خاصة ولعلها تحمل وميض قداسة .

يصرح هيرودوت بأن شعب الـ (Massagètes مسّاجيت) يقدِّم الضحية للشمس وحدها . ومعظم اضاحيهم لها من الخيول . وقد عثر على مجموعات من عظام الكلاب ، في روسيا الجنوبية ، مما يشير إلى وجود ميزة خاصة وقيمة لهذا الجنس من الحيوان ، لدى الرُعاة من الشعب السيتي .

طقوسهم :

للعرّافة شأن كبير في معتقدات هذه الشعوب ، كما هو شأنها لدى الشعوب المتاخمة غربي وشمالي البلاد . خَبَر هذه الحال « هيرودوت » وترك لنا صورة معبرة عنها ، قال :

« كان العرافون السيتيون يستعملون قضباناً من شجر الصفصاف ، لكشف فأل الجماهير . يحملون حزماً من هذه القضبان ثم يذرونها ، ثم يأخذون بجمع بعضها على التراب ، لكشف الفأل . هذه الطريقة متوارثة من السلف ، وشائعة في بلادهم . كما اثبت الباحثون شيوعها حتى اليوم في قبائل « الشامان » شمالي سيبيريا وجنوبيها » .

ومن طقوسهم الدينية الظاهرة :

يسكب في إناء كبير من الفخار خمر ممزوجة بدم من الرجل المتعاهد على الإيمان، ثم تغطس السيوف والسهام بهذا الإناء . بعدها تتلى الصلاة ، ويشرب المتعاهدون السائل ، ثم يسقونه للحضور » .

هذه المعتقدات والطقوس الدينية كانت منتشرة في تلك الأصقاع ، من جدار الصين الأكبر ، حتى شواطىء البحر الأسود . وكان يتخلل ذلك ، فوارق سطحية واستبدال في اسماء الإعلام بين منطقة وأخرى . وكان رائد المؤرخين الأصدق مكتشفات (بازيريك (Pasyryk)، مع الآثار التي وجدت في روسيا الجنوبية . وان قوى الطبيعة هي الآلهة ذات الشأن ، في عزفهم ، وليس هناك إلهٌ واحد ، فارض عبادته على الجميع ، أو موحٍ إليهم بها .

الفصل الخامس

شعوب شبه الجزيرة الإيبرية : (اسبانيا)

كان للشعوب المجاورة والمتاخمة لهذه المنطقة ، تأثير بالغ على معتقداتها وطقوسها ، خاصة المناطق الشرقية والشمالية منها ، لقد تأثرت بالطابع « السلتي » المتاخم . أما سواها فغلب عليه الطابع الفينيقي واليوناني ، نظراً لنشاط التجارة فيما بينهم واستمرارية تعايشهم معاً .

آلهتهم :

بالرغم من تدفق الينابيع والأنهار في البلاد ، لم يلحظ بشكل محسوس ، أية عبادة أو تقديس للمياه في كل تلك المناطق . كان الإله المفضل عندهم هو : الإله الشافي ، وباعث الخيرات للعالم . وكان في مجمعهم الإلهي : (غاليرا Galéra) بشكل أبي الهول، أي رأس امرأة وجسد أسد وجناحا نسر . ولعل المقصود من هذا الرمز : الحنان والشجاعة والقدرة : (بيشا Bicha) المشابهة لأبي الهول ، لكنها تمثل شكل ثور . ومنها شكل أسد وخنزير برّي أو أليف . اكتشف العديد من تلك الآثار في وادي نهر « التاج » . وقد وجدت آثار تشير إلى قداسة التماثيل المتواجدة على طرق الرعاة ، مما يدل على إيمان هؤلاء بإلهٍ للزراعة ، لحفظ السوائم وتكاثرها . وفي الناحيتينِ الغربية والشمالية الغربية الجبلية يعبد الإله (أُندوڤِلكُوس Endovellicus) أما الإلهة (أَتيا سينا ، Ataécina) التي كانت تحرس الزراعة فغدت في عرفهم الهة الجحيم .

ما كان للالهة ذلك التقدير العميق ، في نفوس شعوب شبه الجزيرة الايبرية ، وما كانوا ليعرفوها إلا بواسطة الكهان الذين لا ينشطون إلى تعليم ما بعد الطبيعة ، وتعليم حسن السلوك ، والدعوة إلى الصلاح ، بل همهم من الألهة : النجدة المستعجلة لدى الضيق ، والشعور بجدوى هذه النجدة .

وفي المناطق الجبلية ، أخص منها الشمال الغربي ، تَشيع عبادة « القمر » حيث تبدو السماء في ملء صفائها وزرقتها ، كأنما هي مستقَرٌ لآلهتهم المفضّلة . وفي بعض من مناطق البلاد، كانوا يقصبون لحوم الموتى ويلقونها للعُقبان ـ شأن بلاد فارس القديمة ـ لترفعها على اجنحتها إلى السماء .

وبتأثير الحضارات المجاورة، تعددت آلهة هذه البلاد وتنوعت ، منها : إله شمسي ، وآخر للحروب : (مارس Mars) . وللزراعة والمواشي ، والمحاصيل ، والوقاية ، آلهتها المختصة ، خلا ما هنالك من تماثيل ورموز ، منتصبة في السهول والهضاب والغابات ، لحراسة الرعاة والسائمة . كما قبس « الإيبريون » من « الهنود الجرمانيين » عبادة النجوم ، واستمرت هذه العبادة طويلاً في المناطق الشمالية من البلاد .

الذبائح :

كان القربان ينوب احياناً عن التضحيات . أما الأضاحي نفسها فهي كما في المناطق السابقة : حيوانات اليفة وأسرى حروب . يقوم بتقديم الأضحية الكاهن ، حول جمع من الناس عراة ، معظمهم محاربون . والغاية من هذه الذبائح المستمرة ، ارضاءُ الالهة واغراؤها ، لصيانة المحاصيل وتوافرها ، واستمرارية الإخصاب والإقبال . ما يلفت الإنتباه ندورةُ وجود محاريب في اماكن كثيفة السكان . تواجدها : على قمم الجبال ، أو اكواخ على حفافي السواقي والأنهر ، وهي كلها للإله الأعظم : (Endovellicus أندوڤلّيكُوس) .

وجُمل ما يقال في معتقدات شبه الجزيرة الإيبرية ، انها مستوردة اجمالاً وانه ليس في معتقدهم خط ديني موحد ، أو شبه موحد . كل منطقة من الجهات الأربع ، لها آلهتها وتصوراتها ، ولها العوامل الخارجية الموحية والفاعلة في نفوس سكانها . ليس الإله في عرفهم هو تلك القوة القادرة على كل شيء ، أو هو الخالق لكل شيء ، نظرتهم نظرة حارس ومحروس ، وواهب وموهوب ، مهما تنّوعتْ اسماء تلك الالهة .

الفصل السادس

شعوب السلت : (Les celtes)

معتقدها :

المنطقة السلتية كانت تشمل « وادي الدانوب شرقاً فبلاد الغول وايرلندا وبريطانيا » . معتقداتها الدينية متنوعة ، وعلى كثير من الغموض واللّبس ، لولا بعض الآثار الأدبية الإيرلندية القديمة ، والآثار «الغولية» التي انبثقت منها بعض ومضات توضح هذه المعتقدات . ومن الطبيعي أن تتأثر عقلية هذه المنطقة دينياً وغير ديني ، بحضارة البحر المتوسط العريقة ، الباهرة السطوع . كما أن هذه الشعوب على امتداد مساحتها نجدها متماسكة ، متقاربة التجانس العقائدي .

الباطن الدرويدي :

أما (الدرويد Druides) تلك الجماعة الباطنية المتداخلة فكرياً في كل منطقة

(سلتيّـة) ، فلها الفضـل الأعم في توحيـد هذه الشعـوب وتعاضـدهـا . انها تؤمن بخلود الروح . ثم هي تنادي بإيمان مشترك ، عكس ما رأيناه في شبه الجزيرة الإيبـريّة . والآلهـة المعتبرة في مجمعهم الإلهي هي : آلهة (يونا لاتينية) .

من معتقداتهم : إيمانهم بقداسة « السلف » ، وبابطال المعارك . فهذا أحد العوامل التي كانت توحد بين تلك القبائل المتفرقة . ولا يفوتنا الأثـر العميق الذي طبعـه في نفوس هذه الجماهير ، تقاطر القبائل الهندو أوروبية على اصقاعها ، وخاصة الشرقيـة منها . وكـان لا بد من وجود آثار لعبادة الجماجم الطوطم في السـابق البعيد . ظهـرت بقايـاها في قبـائل « الغول » حيث اكتشفت جماجم متعـددة منفصلة عن اجسادهـا ، مشيرة في مـواضعها إلى روح القـداسة التي كـانت تكتنفها . وفي « ايـرلندا » كـان يتحتم على كـل بالـغ أن يتقدم بجمجمة بشرية قبل نضوج شبابه .

العِبادة :

على أن عبادة الـطوطم في تلك الربـوع ، قد حققتهـا المكتشفات الأثـرية ، في كـل صوب من بلاد « السلت » . وكان أحد علماء الأحافير البارزين : (Suloman Reinach ، س . ريـنـاش) من الأوائل الـذين وضعوا لـوائح لِـما اكتُشِفَ من آثـار تشـير إلى تقـديس الحيـوان منهـا : الحصـان : (Rudiobos) ، والإلـه : (سـرنـونـوس Cernunnos) يحمل قرنيْ وعل . وكثير غيرها . غير أن المجتمع السلتي كان يعتبر بطل الفُرقة مقدمـاً على كل طوطم ، وعلى كل ما يمكن أن يرمز إليه .

ما ميزات ذلك البطل ، لكي يستحق العبادة ؟؟ بطل « السلتيين » ليس إنساناً غـير طبيعي ، انسانَ أساطير ، إنه الإنسان الأجرأ والأقـوى ، والأكثر تضحيـات ومغامـرات في سبيل شعبهِ وكرامته . كان يدعى : (لارش larch) وفي اللاتينية (لاكوُس ، Laicus) . وفي (إيرلندا) فإن الإبطال هم المحاربون المتفـانون وعم السَحَـرة معاً . يملكـون القوَّتَـين المادية والروحية . وليس بين الالهة والابطال فوارق ذات شأن . قد يغدو البطل إلهاً ، وقد يتجسَّـد الإلـه بـطلاً كـما في البـطل (مَنغـان Mongan) فقـد أصبحَ الإلـه : (مَنَنّـان Manannan) وهلّمَّ . . .

وبعد التحقيق الذي قام به المؤرخ (م . ل . سْجِسْتَدْت M. L. Sjoestedt) وثق بأن الشعب السلتي لا يعتقد بما بعد الحياة وبما فوق الأرض . فالآلهة كلها على الأرض ، هي والناس سواء . غير انها خالدة وقد حظي علماء الآثار في (أنترمونت Entremont) على منبع نهر (الرون) بأدلةٍ اقنعتهم بأن مناطق البحر المتوسط السلتية متأثرة جداً بالحضارة الهلينية العائدة إلى القرن الثاني قبل الميلاد . وقد يُمنح إله واحد عشرات الصفات ، كما في الإله : (Mars) وهو : (المريخ) إله الحرب ، وقد حظي بتسعة وخمسين لقباً . ومعظم آلهة الشعوب السلتية هي آلهة قبائل ومجموعات شعبية . كما أن لهم إلهة ذات ثلاثة رؤوس ، وذات ثلاثة وجوه . ولعل الإلهة (دامونا Damona) أي (البقرة العظمى) والالهات الأمهات ، المشاركة بين الينابيع والغابات ، منها للإخصاب البشري والحيواني ، وأخرى للتدمير وانزال الكوارث . غير أن معظم الإلهات هي شرعية وعامة ، بينما الآلهةُ ، قبائليَّة وحسب .

الآلهة :

من أشهر آلهتهم (سوسيلُوس Sucillus) هو الإله القائد والأب والمرضع ومنقذ القبيلة والمحارب . والإلهة (نتتوزُولتا Nantosuleta) إلهة الأرض تؤمِّنُ الاخصاب . ويتبعها آلهة رومانية يونانية هلينية متعددة مثل : (Mars و Mercure) أي الزهرة والمريخ .

وإذا تساءلنا عن مكان تواجد تلك الالهة على الأرض ، يجيبنا السلتي : « انها بشر متفوق يعيش تحت الأرض ، وتحت التلال وفي المغاور العميقة ، وتحت سطح الماء . انها في هذا العالم المخفي تبدو تارةً ضحوكة وطوراً عبوسة . تشبه حياتها حياة كل إنسان ، غير أنها لا تفنى .

والخلاصة هي أن هذه الشعوب التي تغلغلت فيها الباطنية « الدرويدية » قد تجاذبتها تيارات روحية مختلفة مُستوردة من هنا وهناك، طبعت كل قبيلة بطابعها العقائدي الديني الذي تغلب عليه الروح المادية ، مهما تنوعت وتعددت أسماء الآلهة . كانت آلهتهم معتبرة لحفظ سلامتهم وإقبال مواسمهم ، وإخصابها وإخصابهم معاً .

اعيادهم :

لما كانت هذه الشعوب تعيش حياة زراعية قروية في معظم مناطقها ، كانت اعيادها ، بحكم وضعها البيئي فصلية . أشهر هذه الأعياد مواعيدها في أول تشرين الثاني وأول أيار من كل عام ، حيث تتوقف الأعمال الزراعية وتقام الاحتفالات الشعبية . وهناك عيدان آخران (ليمبول L'Imbole ولوگنَزاد Lugnasad) في أول شباط وأول آب . ودور الالهة في هذه الأعياد رعايتها ، وصيانة المواسم واقبالها .

اما اقامة هذه الأعياد ، فمكانها المناطق التي تكثر فيها السكان ومدافن الابطال . وما الهيكل السلتي إلا مدفن كل بطل ، لذلك نرى للهيكل قداسته العظمى ، ولا علاقة له بالروحانيات .

الطقوس والقربان :

لم يشذَّ السلتيون عن جيرانهم فيما يعود إلى الطقوس الدينية وتقديم القربان والأضاحي . في جزيرة ايرلندا يندر تقديم الآضاحي البشرية ، حيث تنوب عنها الحيوانية . أما في بلاد « الغول » فالأضاحي من النوعين . أكد ذلك المؤرِّخان (د . دي سيسيل D. de Sicile)و (بوزيدونيُوس Posidonius) بطريقة الخنق أو الإحراق. شاهد هذا الأخير بعينه تطاير الرؤوس عن اجسامها ، في الحفلات الدينية. ودائما هم الأسرى الذين يقعون فريسة هذه الطقوس . لكن ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد ، توقفت هذه العادة الشرسة وخاصة في أواسط بلاد الغول .

دَور الباطن الدِرْوِيديّ :

لقد تناولنا عقيدة « الدرويد » بكثير من الإيجاز آنفاً ، ولما كان لها التأثير العميق والشامل على الشعب السلتي ، وبخاصة الايرلندي والبريطاني ، فأننا نعود لنؤكد أن هذه المؤسسة كانت السبب الرئيسي في تلاحم ابناء البلاد ، وقد شغلت السياسة والمعتقد والاقتصاد . كتب عنهم المؤرخ « Pilne » بإسهاب ، مؤكداً عظيم دورهم في تلك الحقبة ، قبل شُيوع المسيحية . يعتبرون انفسهم : « رجال الله » وانهم الصلة المباشرة بين الناس والآلهة . يتكلمون بأسمائهم ، ويشرعون حسب ما يوحى إليهم . مهمتهم دينية

وسياسية وشرعية . مما يبرهن على عظيم قيمتهم . والرومان حين غزوا بريطانيا فاتحين ، كان أول عمل قاموا به هو : تدمير المحراب « الدرويديّ المُسمَّى : (مانا Mana) وهو المقرُّ الديني والسياسي معاً لاولئك المواطنين . لقد كانوا مُعلِّمي الشبيبة السلتية ، ومُوجِّهي حضارتَها وكانت تعاليمهم شفوية ، تناقلت الشعراء مغازيها ، ولقَّنتها للأعصر الآتية . وكانت مدارسهم شبيهة بالمدارس الإيطالية الرهبانية .

انهم جماعة ذوو عقائد باطنية ، يؤمنون بالتقمص ، وتعاليمهم خفية ، شغلت المؤرخين ، وتناولتها اقلامهم بالحدس والتخمين . انها ذلك السيَّال الروحي الذي انبثق من الفرعونية القديمة : من « آتون » ، ومن الهندية والفارسية واليونانية : (الديونيسيّة والأُورفية والفيثاغورية) . حاقها الغموض لعدم وجود ادلة تشير إلى ما يعتقدون . ولكن بما انهم يؤمنون بتقمص الأرواح ، ويدعون للتآلف والاتحاد ، ويعملون على بزوغ حضارة ارقى في مجتمعهم المتأخر ، فليسوا إذاً ذلك الشعب السطحي ، الذي يحمل خرافات الأجيال ويطوف بها من رقعة لرقعة سادراً على الغبراء . كان لهم خطُّهم السياسيُّ والشرعي والديني ، لكنه كان غامضاً عن بصائر المؤرخين وأبصارهم وما يزال . فلا حرج على هؤلاء إذا هم ضلوا عنه ، لكن السكوت عنه كان أقرب إلى الصواب ، وأوفى إلى التجرُّد العلمي السليم . يؤمن « الدرويديون » بالتقمص ، وهم يستوحون عِلماً لدُنيّا ، ويؤمنون بخلود الروح ومقاضاتها وبمدبِّرٍ أول وأسمى للخلق وباحتقار مباهج الدنيا ومطامع الإنسان ، وإلاّ فما لهم والتقمص والتوحيد والزهد ، في بيئة لم تتنسَّمْ بعدُ نفحةً منه .

هل كان غريباً على « الدرويد » اعتناق هكذا معتقدات ؟؟ أما اتَّصل بهم جماعة من : الهندو أوروبيين واليونان ثم الرومان وبذروا في صعيد أفكارهم ذلك الإيمان ؟ ومثلما تنقل النسمات نفحات الطيب من خمائل الربيع ، إلى الأماكن البعيدة ، هكذا تنتقل الأفكار السامية بواسطة النشاط البشرِّي من قطب إلى قطب .

لقد اعترف كثير من مؤرخي تلك الحقبة بأن الشعب الغولي كان يستقبل الموت باسماً ، إيماناً منه بأن روحه لن تموت ، وسيجد دنيا ثانية ، يتابع بها مسيرته حتى نهاية الخلق . ولم يشأ المؤرخون المعنيون أن يعيروا اهتمامهم لمعنى التقمص ، ولمضمونه الخلقي والإجتماعي ، فعبروا جسره مكتفين بالإيماءة العابرة إليه . وكان الفتح الروماني الباطش ،

الذي قضى على كل شعاع فكر وَقّاد ، في تلك الربوع وفي روما نفسها ، شأنه في كـل بلاد إجتاحَها غرباً وشرقاً ، قبل تأصل المسيحية في صميمه .

الفصل السابع

جزيرة كريت وجزر بحر إيجه

آلهتهم وطقوسهم :

أن أصل سكان جزيرة كريت من الأغريق المهاجرين وذلـك حوالي القـرن الخمسين قبل الميلاد وقد توثقت منذ القدم علاقاتهـا مع مصر قبـل أُسرها المعـروفة ، حيث ظهـرت فيها آثار تعود إلى الألف الرابع (ق . م) تنسيقها مصري واضح .

أشهر آلهتهم : الإلهة الأنثى (أُمُّ الأرض العجوز) وهي ذات صلة بالأفعى ، وترمز إلى عضو التناسل . تشبه عبادتهم عبادة : الأم العـظمى السورية : ويرمـز إليها : بـأسد وحمامة وجَدْي : لكن عادة تقديم الذبائح هي شبه معدومة ولا يُقدِّم الإنســان ذبيحة عـلى الإطلاق بل الحيوان وهو نادر . وقرابينها المفضلة هي ثمار حقولهم .

ذُكر اسم (زيوس) بانه مولود في جزيرة كريت ، ولا أكثر .

وفي مـطلع الألف الثاني (ق . م) حـدث تطور في معتقـد سكان الجـزيرة فكـانت الالوهة العليـا مشخَّصة بـامرأة يحتضنهـا شاب ، وبعـدها آلهـة وإلهات لكـلٍ منها مُهمَّتـه الخاصة .

في المركز الالهي كانت (الأم العظمى) تتحدّ بـ : سيبال وايزيس واسترتـا . وشعار الإلـه الذكَـر : الفأس ذو الحـدَّينَ وهو (تاشُوب ، Téshoube) الـذي أصبـح هـو نفسـه (زيوس) .

لم يكن لهم هياكل عامة قط ، بل هناك معابد صغرى وممارسـات دينية . عبـدت في الكهوف : الركائز وما يظهر على سـطوح المغاور من (الهَوابِـط Stalactites) كـما عُبدت الأشجار وشاعت عبـادة الأفعى ، لانها تحرس عـالم الموتى تحت الـتراب وتُعنىٰ بما فـوقه من

جذور ، بقتلها للحشرات الفتاكة . وكانت الأفعى تستقبل بالحفاوة ، ويقدم لها الحليب وكسرات الخبز .

على أن تاريخ (قصة الخلق) يضيف : إنهم يعبدون بالإضافة إلى الأفعى : الشمس والقمر والثور ، وكل شيء يقع عليه بصرهم ، ويؤمنون بأن الرياح تحمل أرواحاً خيِّرة وشريرة . وهم يعبدون عضو التذكير للاخصاب ، ويؤمنون بالجن . يقيم الطقوس كاهنات انشوات وكثيراً ما تُرى الإلهات عاريات في الحقول ، يُسهِمنَ في جني الثمار والمحاصيل . وكان الأهلون احياناً يخدعون موتاهم بتقديم تماثيل من الصلصال بدل الحيوانات .

من حقنا أن نشير إلى أن كثيراً من الروايات المنقولة عن تاريخ هذه الرقعة، مستقى من الأساطير اليونانية القديمة وجوارها ، لذلك فان الحقيقة المتمارسة في العبادة هنالك ، غير موثوق بصحة بعضها .

من مظاهر العبادة لدى أولئك الجماعات اتخاذ أوان مختلفة : منها بشكل ابريق، وآخر له صورة أفعى ، مليءَ بالسائل المقدس ، ثم يليه الغصن المقدس ، والفأس ذات الحدين. (شِعار «حَداد» إله ما بين النهرين). ومن الطبيعي أن تستورد هذه الجزر معظم معتقداتها من خارج أرضها ، لأن الفكر البشري غير محصور في أرض ، ولا في شعب ، ولا في زمان . أما الحفلات الدينية التي كانت تقام في ظل الشجر ، فلا تعني عبادة هذا الشعب لها ، بل « للإلهة العظمى » . غير أن عبادة الحيوان والمُسوخ وليدة خيال الشعراء في اساطيرهم المختلفة ، بالرغم من أن التماثيل المكتشفة كانت تُظهر صور الآلهة بأشكال : إنسانية حيناً وحيناً حيوانية ، والمعتقد أن المقصود من هذه الرموز وأن الحافز النفسي والفني للنحاتين المهرة ، طوال تلك الفترة ، كان ايناس البشر بأن الإلهة أو الإله الواحد هو الخالق للإنسان والحيوان، والحافظ له والقائم على صيرورته، وصولاً إلى بعث الطمأنينة والإستقرار في نفوس العباد ، وإحياءً لأملٍ سعيد بتواجد قدرة عليا حارسة للخلق. صورت الأساطير لشعوب هذه الجزيرة آلهة مؤنثة واخرى مذكرة .فمنذ الألف الثاني قبل الميلاد و « الأرض الأم » اعني إلهة الإنتاج والخصب ، تبدو دائماً مرتدية ، وأبداً عارية ، غير أن صدرها مكشوف للعيان ولقبها المتعارف : « العذراء الناعمة » إنها أم وعذراء في آن ، وتظهر لنا في النقوش مرة بين أسدين أليفين ، ومرة وسط زورق يمخر في

اليم ، وأحيانًا : حمامة أو أفعى أو شجرة مقدسة . من هنا يتبين مدى امتداد خيال الأساطير ، حول تلك المعتقدات ، أو هو الإيمان بشمول عظمة الإلهة والإله .

لكن الآلهة الذكور ، فغالباً ما يرمز إليهم ، بصورة ثور ، أو أي إله نصف إنسان ونصف حيوان . أنه الإله القنّاص والمحارب . وقد صرحت موسوعة « الديانات الكبرى في الصفحة (٤٥٢) بما يلي :

« كل شيء في هذه المعتقدات يحملنا على الإعتقاد بأن الله هو نفسه ذلك الذات الأسمى « الكريتي » .

مَهمَّة الألوهة :

كانت الآلهات في الجزر هذه ، قبل أن تكون الآلهةُ بأزمنة ، ولم يتبين للاخصائيين السبب الأصيل لهذا الجنوح . مع ذلك يتوجب على الإنسان تجاه آلهته أن يظهر ما يختزن من نشاط عملي في : الصيد والحرب والملاحة ، لتقابل الالهة هذا النشاط الإنساني بحفظ الجنس البشري . وتجدد حيويته بتجدد الطبيعة كل عام على الدوام . وليس من أثر واضح لدى هؤلاء لِعبادة الشمس والنجوم ، بالرغم من المواصلات المستمرة بينهم وبين الشرق الأوسط عدا آثار قليلة ظهر منها في (ميسان Mycènes) وهو : حلقة ذهبيّة عليها رسم للشمس والقمر والفضاء .

الأضاحي :

في الديانة « الكريتوميسانية » كان يقدَّم القربان سوائل في إناء خاص الـ(Rhyton ريتون) والإبريق السائل هو : دمُ الحيوان المضحيِّ . وأعظم الأضاحي هو الثور . تستلقي إحدى الكاهنات دم الضحية في الإبريق بحفلة جامِعة . من أبرز اماكن هذه الحفلات : (Hajia Triada ، هاجيا ترِيادا)في كريت ، وقد يقدم بديلاً عن الضحية إحدى الأواني أو الأسلحة .

الحفلات الدينية :

كان طابع الحفلات الدينية على العموم: البهجة ، والرقص ، والموسيقى . وكان الدين والفن متمازجَين طيلة تلك الحقبة . وغالباً ما تقام تلك الحفلات وسط الغابات

حيث « الشجر المقدس » واخص منه الزيتون الذي تستظل به الفتيات اثناء الرقص والتراتيل الدينية الشجية .

تشييع الموتى والمدافن :

قبل العصر « الميساني » أي (عصر المعادن) ظهرت آثار تدل على احراق المتوفين والاحتفاظ برمادهم ، وكان يرمز هذا الإحراق إلى اتلاف الجسد كلياً ، والحفاظ على الروح . أما أماكن الدفن ونوعها فتختلف من منطقة لأخرى . كانت قديماً في المغاور ، ثم انتقلت إلى أماكن يحفرها الإنسان ،مستودعاً للعظام ، واخيراً غدت قبوراً بأشكالها المختلفة المتعارفة .

وكل ما يقدم من قرابين وأضاحي للموتى هو في الحقيقة « للأم العظمى » هذه الإلهة الأم المدبرة للطبيعة منذ انبثاقها ، في مطلع الربيع ، حتى عودتها ثانية في العام المقبل ، معتبرة الإنسان كهذا النبات في حيوات متتابعة . لعلهُ إيمان بعَودة التجسد للإنسان ، كما يعود النبات من بذرته ، أو هي استمرارية الكينونة بالتناسل المتواصل . غير أن معظم المؤرخين اعتبروا أن المتوفَّى في معتقد سكان هذه الجزر ، لا يضمحل أبداً بل يتجلد ويتجدد ، وهذا ما يعنيه التقمُّص .

كان مضمون معتقدهم هذا كمضمون المعتقد المصري القديم القائل بأن الملك بعد وفاته يغدو إلهاً . ولكن في تلك الجزر المعزولة عن اليابسة والمتفرقة في عرض بحرِ « إيجه » . ما كان لهم مملكة موحدة ذات ملك ذي سلطان . لذا ، قلما أعار الشعب اهتمامه لمصير مليكه : أأضحى إلهاً حافظاً إستمرٌ في حلقةِ الإنسانِ ، أم ترفَّع عن هذه الحلقة ؟؟

الآثار :

الحضارة التي انبثقت من شواطيء اليونان ، فبحر إيجافقبرص ، تعود إلى العصر الپاليوليتي ، لكن ما عثر عليه علماء الأحافير وما حققه ، وتثبَّت منه المؤرخون فيرجع إلى العصر النيوليتي ، وبدء العصر البرونزي أي إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد . وأعظم ما اكتشف من هذه الآثار كان في : (تساليا وسبرتا ، وجزيرة كريت) . كانت مادة هذه

الآثار ، ومعظمها تماثيل لِنساء عـاريـات، من الفخّار والحجر المقصوب والرخام .

في العصر البرونزي ، بدت التماثيل النسائية عامودية الشكل ، وبعضها يحمـلُ رأساً ضخماً ، وقد وجد كثير من هذه التماثيل في المدافن . فأفترض الأخصائيون وجودها لتنـوب عن الاحياء التي هي صورة عنهم . أمـا في الجزر « المستديرة » في بحر إيجا كـما في جزيـرة كريت فقد ظفر علماء الأحافير بأحتضان تماثيل عريقـة في قدمهـا لامرأةٍ وطفلهـا ، وتماثيـل صغيرة لِموسيقيين بيدهم عود أو قيثار . وفي جزيرة كريت ، في (هاجيا تريادا ، Hajia Triada) اكتشفت آثار دلت على ممارسة تلك الشعـوب للطقوس الـدينية المتعلقـة بتقديم الأضـاحي ، وبـوجـود إلهـة عـظمى ، ذات سلطان عـلى الأرض وفي السـماء . إستشفَّ المؤرخون من هذا ، ان ذلك الإنسان كان يؤمن بخلود الـروح، وبالبعث الأخير .

هل كان عسيراً على شعب مستنير بإيمان سماوي ، أن ينقـل أفكاره هـذه أو بعضها إلى ما وراء « الدانوب » فتعيش هنالـك . كما عـاشت في أُثينا نفسهـا ، لتتبلور في الشعب السَلْتي وبالجماعـات الدرويـدية بـالذات . ولا أظن مصـدر هذا المعتقـد نابعـاً من المنطقـة الإيجية نفسها ، إنما هو عاصف ، اجتاز المتوسط من شواطيء النيـل ، بل من الشـرقَين : الأوسط والأقصى ، تعزيزاً للقيم الإنسانية ، وحدّاً من سَورة الأنا الجمـوح ، ودلالةً عـلى مهيمن أعلى .

وقـد لفتت انتباه المؤرخـين وعلماء الآثار ، ظـاهرة وجـدوها في قـبرص مع التـماثيل الصغيرة والأواني المتعددة والمتنوعة في رموزها ودلالاتها ، بمكان استنتجـوا انه مقـر عبادة الظاهرةُ هي : على الجدار الخارجي للمقر المقدس ، رسم لشخص على حافة إناء ، ينصت إلى مـا يجري داخـلاً . هذا الأثـر ، بعد التعمق من دراسـة مضمونـه ، جعـل البـاحثـين يعترفون بأن هنالك تنظيماً دينيّاً باطنياً دقيقـاً ، وان هذا الشخص عـلى سطح الإنـاء المعلق يشير إلى أمور باطنية لها اتباعها في ظهراني أهل الجزيـرة . كما لـوحظ في بعض المناطق من الجزر، مغاور عميقة ومظلمة تمارس فيهـا أنواع خـاصة من العبـادات، أسماهـا المؤرخون المعاصرون عرفانيّةً ، ولم يظفروا بأدلة توضح مكنونها .

مقر العبادة ونوعها :

مـا كان ليعنىٰ أهـل جزيـرة كريت بـالمحاريب انمـا كانت تمـارس العبادة في المنـازل

والقصور والمغاور . وكانت بعض هذه المغاور في العصر النيوليتي (خمسة آلاف سنة ق . م) مدافن ، وبعضها مقراً للعبادة وهي التي يتراخى من سطحها الـ (الهَوابِط Stalactites — Stalagmites) التي يعتبرها الناس مشيراً إلى الألوهة . من أشهر هذه المغاور (إيدا كَمَريس Ida — Camarès) . وكان يعتقد بأن في مغاور (پسيكْرو Psychro) مولدَ الاله الكريتي : « زيوس » حسب تعريف الأساطير اليونانية .

الفصل الثامن

الديانة الميسانية

إن ميسان (Mycènes) قرية في شمال اليونان انشأت العاهل « أغا ممنون » واستولَتْ على اليونان في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، بعد ان كانت خاضعة للنفوذ الكريتي . وغدت لها حضارة مميزه من اهمها دينياً : كانت الإلهة تمثل عاريةً حاملة بيديها الحمائم بعكس الإلهة الكريتية المتسترة . وكانت سلطة الآلِهة تتعدّى عند الميسانيين سلطان الإلهات . فَلِلأرواح الشريرة في معتقد الميسانيين القدرة على اذية البشر وخلق الرزايا والاهوال . لذا نجدهم يعمدون على تقديم الضحايا من الجنسين الحيواني والانساني . في حين أن الحضارة الكريتية كانت قد أبطلت نهائيا الأضاحي البشرية . المرجع (النشيد الثالث والعشرون من الإلياذه) .

اخيراً ليس لدى الميسانيين أي اثر يشير إلى إيمانهم بخلود الروح بل على نقيض ذلك فان مدافنهم تحوي العديد من القرابين والسوائل لتعيد انتعاشهم في القبور ، لا املا بالعودة الى الحياة بشكل أو بآخر . والحياة في القبور مظلمة ومادّية صرفاً ، هي من نسيج الأساطير والأوهام . ولنصغ إلى هذه الاسطورة فهي أمثولة تظهر مدى تبصرٌ هذا الشعب :

إستراح الملك (باتّوس Battos) وحيداً في قبرهِ قرب الساحة العامة . رافقته السعادة اثناء وجوده بين الناس وأصبح بطلاً موقراً . اما الملوك الاخرونَ المنحدرون إلى (هاديس Hadès) فتتساقط عليهم الاناشيد تساقط الندى . . . » .

إلى هنـا ارتقت حضارة هـذه القريـة بعدمـا بلغت اوجـاً رفيعـاً في الـظَفَـر والسمـو والتوسع ، فأي الاثار نقشتهـا على صخـرة الزمـان العتيدة ؟؟ من دراستنـا آتياً للحضـارة اليونانية ، نجيب صادقين .

ملخص معتقدات الشعوب الهندو اوربيين

هاجرت هذه الشعوب زاحفة إلى إيران قبيـل الألف الثاني قبـل الميلاد ، قبس عنهم الأوروبيون . الميثولوجيا الشمسية وميثيولوجيا الأعاصير ، قبل أن يكون هنالك دين بالمعنى القريب .

أشهـر الهتهم : ميـترا وڤـارونـا وانـدرا ، تُقـدَّم لهـا الأضـاحي بـواسـطة الكهـان المختصين . وعرفت اسماء آلهة متعددة للكهنوت الايطاليوتي والسكنديناڤي منهـا : جوبيـتر وأودن . ولكل منها مهماته الحربية والتنظيمية الخاصة .

في العصر الجليـدي الجليـدي عبـد الـدانـوبيـون (الإلهـة الأم) ، كـما آمنـوا بـالأشبـاح في سيبيريا . وكانت قوى ما فوق الطبيعة تدعى : بالكـائنات الـوضاءة معبـودة معظم سكـان أوروبا يومذاك ، معتمدين احراق جثث موتاهم .

آمن هؤلاء بقـرص الشمس وبالسيـوف ، كما اعتـبروا الأرض والنار والماء وخاصـةً عبادة الشمس ، وهناك عبادات للافعي والبقرة وسواها . من اضاحيهم الحصان والخنزيـر وغيرها . وشعوب الشمال كانوا آمنوا بالحجارة وعبدوها وعبدوا النار والمياه على أشكالها . كما عبدوا الأفعى والإلهة الأم معتقدين بإلهَين : إله السماء وإله الشمس .

وشعـوب السهوب الشـمالية الشرقيـة آمنوا بـ : زيـوس وهيستيا وافـروديت وغيرهـا: وقدمت لها الأضاحي وبخاصةٍ أسرى الحروب . كانـت الشمس في طليعة الالهة لديهم .

في شبه جزيرة ايبيريا كان للشعب مجمع إليهي (ڠاليرا Galéra) يرمز إلى الشجاعـة والحنو والقوة . وذبائحهم هي نفسها : حيوانات وأسرى حروب .

ومنـطقة (السلت) تـأثرت بحضـارة البحر المتـوسط وتواجـدت هنـالـك جمـاعـاتُ (الـدرويد) البـاطينيون ، منتشرين في كـل صوب حتى الجـزر الـبريـطانيـة . عبـد هؤلاء

الـطوطم والأفعى . والبطل الصحيح عندهم يستحق العبـادة ، وكـان الابـطال السَحـرة يملكون القوى المادية والروحية معاً . لهم اعياد مـوسمية مختلفـة يُقدِّمـون لهم الذبـائح كـما لغيرهم . هذا ظاهر مسلك « الدّرِويد » أما باطنه الثابتُ فَعرفانيٌ توحيديٌّ أًصيل .

وعلى شواطيء بحر إيجه ، تنسَّم الشعب الكريتي وجيرتـه معتقدات مصر القـديمة ، وعبدوا (أم الأرض العجوز) رامزةً إلى الأفعى وعضو الجنس . وتـطورت العبادة فكـانت الأم العـظمى وزيوس وسـواه . وأحيانـاً يرمـزون إلى الإلـه بشكـل حيـوان ، شـأن مصر وظهرت ادلة تشير إلى إحراق الموتى .

وكانت الديانة الميسانية تؤمن بـ (أغـاممنون) . والإلهـة تبدو لهم عـاريةً عكس إلهـة كريت المتحفِّظة . قدَّموا الأضاحي زُلْفَى لآلهتهم خشيةً من آلهة الشر .

المراجع العامة لديانات الهندو - أوروبيين

أ - بالعربية :

١ - تاريخ العالم : هامرتون - الجزء الثاني الفصل السابع والعشرون الندنويون ص (١٩٦ - ١٩٨) الفصل السابع والثلاثون ص (٤٤١ - ٤٤٩) باشراف وزارة التربية المصرية .

٢ - ول ديورانت ترجمة زكي نجيب محمود - قصة الحضارة سنة (١٩٥٦) القاهرة الجزء الثالث الفصل الخامس ص (٢٨ - ٤٣) . الجزء الخامس - فصل (أول) ص (٢٨) وما بعدها .

٣ - تاريخ البشرية : Wool - Hawkes القسم الثاني - كريت وآلهتها ص (٦١٣) وما بعدها (١٩٦٩) .

ب - بالأجنبية :

1 – Histoire générale des Religions: Tome II (375 – 381) (1950).

2 – Histoire de la civilisation: Durant, Ch: 1, P(28 – 35) (1962).

المراجع الخاصة

ج - بالاجنبية :

1- Dieux Ind - Européens et Phéniciens: C. Autran - Paris (1945).

2 – Les dieux des Indo – Européens: G. Dumézil – Paris (1952).

3 – La Religion Indo – Européenne: C. Picard – Paris (1948).

4 – Les Druides: F. Le Roux – Paris (1961).

5 – Les Religions des Celtes: P. M. Duval – Paris (1958).

6 – Les Religions des Celtes, Germains et des Anciens Slaves – Y. Vendryés – Paris (1948).

7 – Les Dieux Gaulois: P. M. Duval – Paris (1957).

الباب السادس عشر

الفصل الأول

ديانة اسرائيل

منذ تسنم الوعي الإنساني والتطور العلمي الصاعد ، صـدر الحضارة المعـاصرة شرع الاخصائيون يتدارسون المراجع الدينية ، والبراهين التـاريخية والانـتربولـوجية ، امـلاً بـالـوصـول إلى اعماق الفكـر الـديني الإسرائيـلي . صـادفـوا التنـاقضـات ، والباطن الرهيب ، والانصياع للشريعة ، لكنهم رغم ما طالعهم ، ما برحت في الديانـة لجج هي إلى اليوم ، موطن تساؤل وارتياب .

ولا غرو ، فان ذلـك التيار الـروحي المنبثق من وسط الحضارة الكلدانيـة الزاهيـة ، المتعددة الآلهة والنـزوات العقائـدية ، التيـار الذي عـايش الكنعانيـة وفعل وانفعـل فيها ، وعايش الفرعونية المتأخرة ، وتداخل مع الكهنوت الأموني الحاكم ، وعرف مناقب الأتـونيَّة الرفيعة ، واضطُهد ، وجـاع ، وعانى وتشرد في الصحـاري ، لا غرو أن تلفحنـا عواصف التـأمـل العميق ، والضيــاع في بيـداء هــذه العقيـدة ، التي تنــاولت الأفكـار المختلفـة والمتناقضة . هَضم بعضهم بعضها واستساغهُ ، فجاءَ متمرداً على الشريعة الموسويَّة ، واعتمد آخـرون خط ابـراهيم ومـوسى ، فـاستكـانـوا ، وانجـرف غـيرهم في بــاطنيـة الهيــاكـل « الهليوپوليتية » و« الأخناتونية » فندَّ من الركب معتزلاً . ألمح إلى ذلك : (الاصحاح ١٩ من صموئيل) .

ما تزال تلك التيارات ، على هزيل سَورتها ، ازاء السياسة الدولية الحاضرة ، تتقاذف سفينة الفكر الديني الاسرائيلي ، بينهم : شهود يهوه ، والكبَّالية ، والأسَّينية ، وخاصة الشاعر اليهودي الكبير « هنري هايني » في القرن التاسع عشر ق . م (عن فرويد ترجمة جورج طرابيشي طبعه ثالثة ص ٤١) .

ازاء هذا التناقض وجدتني خدمة للحقيقة التاريخية ملزماً بدراسة المراجع المتنوعة ، ليكون بحثي على المستوى المرضي للعلم والحق معاً .

وجدت في مطالعاتي للنصوص الدينية منها الكتاب المقدس ، بعض الفوارق عنها في التاريخ العام ، فالأولى تناولت الأحداث بأسلوب أسطوري ، ولا بأس من الاعتماد على كِلَا المرجعين .

ابراهيم واليهود :

يحدثنا الشهرستاني فيقول : « إن النور المستقر في « آدم » قد انشعب بعد وفاته إلى « ابراهيم » ثم انشعب النور نفسه شعبةً إلى « بني اسرائيل » واخرى إلى « اسماعيل » . على المبدأ الأول تركزت « القدس » وعلى الثاني « مكّة » . وكانت تتالى الصحف، منَزلَةً على « ابراهيم » ومَن سبقه مِن الانبياء» .

ولد إبراهيم بمدينة « أُور » الكلدانية ، ورزق ولداً اسماه « إسحاق » ثم رزق ولداً اسماه « يعقوب » أو « اسرائيل » ومنه خرجت وتكاثرت هذه الطائفة . يذكر « سفر التكوين » أن ابناء « اسرائيل » كانوا يعدون إثني عشر صبياً ، وكان لكل منهم قبيلته . كلهم سعدوا بتكاثر النسل ، على حد تعبير الاسطورة . وليس من مستند غير هذا السفر ، فيما إذا كانت القبائل الاسرائيلية الإثنتا عشرة، هي من سبط واحد ، معاده يعقوب أو « اسرائيل » ، أو هي وليدة الخيال والاغراض ، كما هي حال كل اسطورة ، يصبح هذا اول لَبْسٍ في تاريخ اسرائيل ، نظراً لما يولونه من تقدير للعِرقيَّة العنصرية وما يزالون . وقد اوجز تاريخ العالم رسالة ابراهيم بقوله :

« إن عبادة إبراهيم هي عبادة شعب مدينة (أُور Our) . الَّه جماعته القمر واسموه (التيراه Térah) وكان الإلهُ (نانار Nanar) الأقوى لديهم . وإن جذور هذه الديانة معادها

(السُومرّية) . وتاريخ مغادرة إبراهيم للمدينة كان في حوالي العام (١٩٢٠) ق . م » . وفي كلام للكتاب المقدس مضمونة : « يا إبراهيم أنا ألُوهيم (إله الآلهة) أرغب في إقامة صلة وثقى بيننا معاً ، شرط أن تعترف بي إلهاً أنت ونسلك » . . أضاف المرجع بجزئه الثاني (ص ٢٢) ما يلي :

أصل اليهود ومعتقدهم:

إن أصل اليهود انفسهم بدوٌ ورُحَّلٌ ، يعبدون الحجارة ، ويخشون الجن ، كما عبدوا الثيران والغنم والأرواح التي تقطن الكهوف . ثم جاء موسى وسعى جاداً أن يجبر شعبه على التخلّي عن عبادة (العجل) الذهبي ، الذي اقتبسوه من المصريين . وقد اشار سفر الخروج في (٢٨ ـ ٢٥ ـ٣٢) أن اليهود كانوا يمارسون الرقص عراة حول عجلهم . واستمرت عبادة الافعى في ظهرانيهم حتى العام (٧٢٠) ق . م . بعهد النبي (حزقيال) . وكانت مقدسة في نظرهم لانها ترمز إلى الجنس المذكر وللشهامة ، وتجسّد الحكمة الأبدية . مارس هؤلاء السحر حتى اعتبروا (موسى وهارونَ) بعض السجرة . ثم أخيرا غدا (يهوه) الإله الأوحد الوطني لديهم .

إن يهوه هذا كان اليهود قد اقتبسوا عبادته من جيرانهم الكنعانيين ، بدليل أن الباحثين المعاصرين اكتشفوا عام (١٩٣١) أواني في فلسطين تحمل اسم اله كنعانيٍّ (ياهُو، ياه ، Yahu. Yah) يعود هذا الأثر إلى العصر البرونزي ، أي لثلاثة الآف سنة ق . م . وأصبح هذا الإله مع شيء من التحريف اللفظي إله اليهود الأوحد ». (المرجع نفسه).

يقول موسى عن الإله يهوه : انه ذلك الرجل الأبدي المحارب . وقال داود : « إن يهوه يُعلِّم ساعدي كيف يقاتلان » وصرَّح يهوه بالذات : سأدمِّر كل الشعوب التي تقف بوجه اليهود .

كان (يهوه) يصفح عمَّن يتضرَّع إليه ، ويقوم بموجب وصاياه العشر ، التي سنعرِّفها لاحقاً . وسخط هذا الاله على جماعة اليهود ، الذين استمروا في عبادة العجل وانذرهم بالإبادة .

وقبل (عيسو) لم يفكر واحد من اليهود بعبادة (يهوه) إلهاً . على أن موسى قد صرح بجلاء : « مَن هو شبيه بك بين الالهة أيها الأبدي ؟ واعترف

(سليمان) : بان «إلهنا عظيم ، وهو فوق كل الآلهة » . ويقصد به يهوه . وقد عبّر عن نفسية الصهاينة اليهود ، احد شعرائهم بقوله :

« إذا أنا نسيتك يا (قدس) فلتنسَ يمناي نفسَها . وإذا أنا لم أتذكرك كل حين ، ليلتصقْ لساني في قمة فمي وليبق ملتصقاً يا (قدس) إذا لم أُقدمك على كل ملذاتي » ولم يطُل مكوث الاسرائيليين في أرض كنعان حتى حصل قحط أتلف الكثير من مواشيهم فأضطروا نزولاً عند ضغط الفاقة ، أن يبارحوا الديار إلى مصر ، حيث الخصب ، والماء الدافق ملء ضفتي النيل . وكانت مصر تحت إمرة الأسرة الثامنة عشرة ، والهيكسوس هم أسياد البلاد . تقّبلوا اللاجئين بالترحاب ، وعاش هؤلاء في ظهرانيهم زمناً .

بعدها ساءت حال الاسرائيليين في مصر ، واتّهمهم بعض المؤرخين بإثارة الفتن ، وبثّ الجراثيم في مياه الشرب ، ونشر البعوض ناقل الجراثيم ، لأغراض سياسية . كان في هذه الأثناء مولد (موسى وشُعَيب Hobab) ، فحاكت المراجع الدينية بمولده وطفولته روايةً مغزاها : لتفاقم اخطار اسرائيل على مصر اوعز العرّافون للملك (منفتاح بن رعمسيس) الكبير ، أن يقتل كل مولود جديد لهم . بين هؤلاء المواليد موسى . حرصاً على سلامته وضعته امه في سلة وألقته في النيل ، فتقاذف السلة حتى ظفرت بها زوجة الملك . فربت الطفل وحين نشأ تعرف على أهله . كيف ؟؟ على ذمة الرواية .

شبَ موسى وتفاقمتْ بزمانه الاضطهادات فاضطُر أن يقتل مصرياً، فطُرد وهرب مع بعض عشيرته الواثقين به إلى شاطىء خليج (العقبة) على البحر الأحمر ، حيث تزوج من ابنة شُعَيب ، كاهن المِدْيانيين . اتصل بالراهب شعيب واستمدّ منه بعض الأنوار السماوية . على أن القرآن الكريم يلمح إلى اقترانه بابنة شعيب نفسه . بعدئذ تابع موسى طريقهُ عَبر « صحراء التيه » فرأى ناراً في عوسجة ، وصوتاً يناديه يا موسى انني أنا ربّ العالمين . فارتدَّ لمصر ، وجمع سائر عشيرته ليعود بعدها إلى فلسطين أرض ميعاده . كان مضطهداً وملاحقاً في عودته . على شاطيء البحر الأحمر ، ضرب بعصاه المياه فأنشطرت فمرَّ مع ركبه . ومضطهدوهُ ابْتَلعهُم البحر . (سفر الخروج) . وجاءت موسى الوصايا العشر المعروفة مبنية على أسس اخلاقية اجتماعية وتوحيدّيه .

على أن تاريخ البشرية قد أفصح بالمعلومات الجريئة التالية : « إن الديانة التي خطط

لها موسى ، ليست في الحقيقة توحيدية بالمعنى الصحيح للتوحيد . جهر بالتوحيد املاً باجتذاب صحبه من المحيط المصري المتعدد المعتقدات اولاً ، ثم بنظرته الثاقبة أوجس من عدم تآلف جماعته مع الشعب الكنعاني الذي سيعايشونه . فعمل على أن يقنع صحبه بأن الإله يهوه : هو واحد أحد ، صاحب السلطان المطلق على الأرض والسماء». وأكمل : « إن يهوه إلهَ إسرائيل ، عدو ألد لكل شعوب الأرض ، ولكل الآلهة . ذلك هو إلهُ ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وهو الذي امركم بمغادرة مصر ، وهو القائل : « فليباركُكم الرب يهوه وليمنحكم السعادة وطول البقاء » . وتابع المؤرخ مشيراً وناقداً : « تدعو الوصايا العشر إلى الكفِّ عن التقتيل ، بينما هي تُحلّه في المعارك . وتدعو إلى عدم الاقتراب من المرأة المتأهلة ، وما هذه الدعوة وليدة العفة والشرف بقدر ما هي خشية من تفكك الرابطة العائلية بقانون الميراث». وتدعو الوصايا العشرُ إلى عدم السرقة ، لكنها تجيز للاسرائيليين الاستيلاء على ثروات الكنعانيين » .

ويقول المرجع نفسه بلسان البروفسور (دياكونوف ، Diakonof) ما يلي : « لا حقيقة لوجود موسى ، انه نتيجة تخيلات الاسرائيليين ، وتلك النار ، لا صحة تاريخية لها قط ، وتقديس الأفعى لانها تعيش في عالم الموتى ، وحيث تنبت المزروعات كافة . إسمها في التكوين (ناهاش ، Nahash) أما خرافة قصة موسى ، فقد نبعت بعد خمسة قرون من خروج اسرائيل من مصر ، لأن سفر التكوين لم يُعرف قبل تلك الفترة بأمد طويل .

لكن المؤرخ (ادوار شوار Ed. schuré) يسهب في الأدلة على وجود موسى ، معتبراً اياه احد كبار العرفانيين وهذا ما نقتطفه عنه :

« كلمة موسى تعني : الناجي واسمه السابق : (هوزارسيف) وأن سفر التكوين هو ينبوع الأسرار والعلوم الروحانية سابقاً ولاحقاً . وكشف الحقائق قد انبثق منذ انبثاق الوعي الإنساني في إيران ومصر والهند . ذلك الكشف هو الأفكار الأصيلة للعقيدة الباطنية في كل زمان ومكان » . ثم يضيف المرجع نفسه : « لقد قُيِّض لموسى أن يلتقي في صحراء سيناء بذلك الحكيم الذائع الشهرة « شُعيب » وشعيب هذا كان مختزن العلوم منذ القدم ، وذا ذاكرة متوقدة جمعت كنوز المعارف » .

نقل المؤرخ نفسه عن سفر الخروج قوله : « في تلك المسيرة الطويلة الزاخرة بالبشر والماشية ، وقف موسى يقاضي الناس بشيء من العنف . إذا بالحكيم الخطير « شعيب » يهيب به باسم الاله الأحد لكي يقدم لقومه النصائح ، ويزيح غلواءه ويأمرهم بأن ينتخبوا من بينهم الرجال المزودّين بالفضائل ، والرافضين لكل ربح مادي غير شريف ، ويهديهم الطريق الآمن ، وما يقتضيه عمله . ويعرفهم بالله الأحد ، وينظمهم فرقاً ، يرأس كلاً منها ذلك المنتخب صاحب الفضائل وتقوى الله . كان كلام شعيب كأنّه وحي منزل ، استقبله موسى بالرضى والقبول . ثم قاد القوافل متوغلاً في الصحراء . بعد فترة زمنية وقف طالباً من شعبه السهر والصوم ريثما يعود من الجبل حاملاً الشريعة منقوشةً على صفيحة من الحجر . إنصاع لأمره القوم وانطلق ، لكنه لم يعد إذْ كان منافسوه كثر ، وكانوا يؤمنون بـ(استاروت) منقذاً لا بموسى . وهكذا قيل : « إن بني اسرائيل خانوا إلههم فلْتُبدِّدهم الرياح الأربع . وقيل أنه اسلم الروح بين أهله » .

وقبل أن ينطفىء ذلك المشعل كان موسى قد وضع بين أيدي أخِصّائه امانة مقدسة هي : (تابوت العهد) . نقل تصميمه عن الهياكل المصرية التابعة للاله (اوزيرس) .

لهذا التابوت اربعة اجنحة مذهبة بشكل (ابي الهول) ، تشبه الحيوانات الرمزية الاربعة التي اشار إليها النبي (حزقيال) احدها ذو رأس أسد ، والثاني رأس ثور ، والثالث رأس نسر ، والرابع رأس انسان ، مشخصة فيها العناصر الطبيعية الأربعة : تراب وماء وهواء ونار وضمن التابوت سفر (باراشيت Bereshit) باللغة الهيروغليفية ، وعصا موسى السحرية ، وكتاب العهد أو (شريعة موسى) .

أما ما يدعونا إلى الإيجاس والريبة فهو تلك الارشادات التي قدمها شعيب لموسى ، وذلك الانصياع العفوي لها ، كأن شعيباً هو النبي الموحَى إليه لا موسى . إذ كيف يمكن أن يكون موسى نبياً ويعوزه مرشد هاد ، يحذره بهذا الكلام : « إذا فعلت ذلك بارادة من الله ، فان شعبك واصل بأرتياح حيث هو عازم » . عن سفر الخروج (٢٤ ـ ١٣ و XVIII) . نستشف من هذا القول مدى تبصر الراهب (شعيب) ومدى عمق توحيده ومراعاته لمشاعر الناس ، واحساسه بما يُثقل كواهلهم . في حين أن النبيَّ : كليم الله ، كان مأخوذاً بجبروته ، ولعل هذه الخلة المتأصلة في نفسه ، كانت سبب اختفائه أو مقتله

إذا شئت ، أو لعل الباطن التوحيدي العامَّ على حق في تقديره البالغ لشعيب ، راهب مِدْيَن .

عبرَ ولوج بني اسرائيل الصحراء وتوغلهم فيها كانت تتصارع قبائلهم فيما بينها ، مِمّا دعا الشهرستاني إلى القول : « في مستهل الطريق بينما كان الشعب اليهودي يتخبط في التيه ، جائعاً عارياً ومشرداً ، نفختْ في رأسه فكرة الصراع بين حق وباطل ، وتزويرٍ لحقائق إلهية خفيت عن العامة . . . تلك الملابسَات جعلت اليهود شِيعاً . من هذه الشيع جماعة اتهمت موسى بقتل اخيه « هارون » ، لأن هذا الأخ كان محبوباً من القبائل وخطيباً مُفوَّهاً . حاول فضح مخططات اخيه موسى . فاعتقد بعضهم بأنه اختفى وسيعود . وقائلون : مات وسينبعث لينقذ جماعته . « الملل والنِحل » .

انتهى موسى في الصحراء ، وخلفه « يوشع » الجبار واستمر ضياع بين اسرائيل مدة اربعين عاماً قيل انهم ظفروا « بالمنّ والسلوى » سَداً لرمقهم . أما اتباع موسى فكانوا يتّقون اسم يهوه إجلالاً له مكتفين بالإشارة إليه . ويعتقد اليهود بأن يهوه هو الذي دفن موسى في « موآب » .

اخيراً وصل التائهون أرض ميعادهم ، وركز يوشع في حنكته وجبروته وطغيانه سلطان مملكته تدريجياً في بَرِّ كنعان جنوباً فشمالاً . وكان بعده الملك داود ، وكان ابنه سليمان الحكيم ، وتلاهما احتلال السامرة . ثم نهب وتدمير هيكل القدس . عام (٥٨٦ ق . م) من قبل جنود (نبوخذ نصر) . عقب ذلك نُفي الاسرائيليوّنَ إلى بابل ، متمسكين بعقيدتهم الأم « بيت يهوه » معتبرين نكبتهم عقوبةً لهم على عصيانهم شريعة موسى .

الفصل الثاني
الثالوث الأقدس

ركز الديانةَ الاسرائيلية الثالوثُ الالهي الأقدس على (يهوه ، الشعب الاسرائيلي ، والأرض المقدسة) .

تقوم ديانة اسرائيل على تعاليم واقاصيص جمعها حكماؤهم ونظموها وطوروها مع

الزمن واعطوها اسم الكتاب المقدس .

الكتاب المقدس يحوي : التوراة وأقوال الانبياء ، ومخطوطات الكَتَبة :

أولاً : للتوراة القيمة المتميزة . تحوي خمسة كتب منسوبة كلها لموسى . منها كتاب بدء الخليقة ، وهو وصف للبشرية الأولى ، ولحياة الكهنوت ، وابراهيم واسحاق ويعقوب . وتحدث كتاب الخليقة عن بدء الخلق والطوفان ونوح ، ولم يكن على المستوى العلمي التاريخي المرجو .

ثانياً : الكتب الأربعة الباقية هي : سفر الخروج ، واللاّوية والـ (دوُتكرونوم ، Deuteronome) . اجل ما يحتوي سفر التكوين : الوصايا العشر بمضامينها . انها :

١ ـ أنا الهك « يهوه » الذي اخرجك من مقر عبوديتك « مصر » .

٢ ـ لا إله إلا أنا ، ومَحذورٌ عليكم الرسوم والتماثيل لإلهٍ في السماء أو على الأرض أو تحتها . أنا وحدي الهكم « يهوه » وأنا اله حقود ، يتتبّع الناكثين حتى السلالة الرابعة . كما احفظ الذرّة ممن يحبني ويتتبع اوامري .

٣ ـ لا تقسم بأسمي كذباً ، « فيهوه » لا يبرىء الكاذبين .

٤ ـ تذكَّر يوم « السبت » وقدِّسه وآقضِ في ايام اسبوعك الستة كل حاجاتك ، ويوم السبت هو « ليهوه » . على الجميع محظور أي عملٍ يوم السبت ، لان يهوه استمر في خلق العالم ستة أيام ، وفي السابع أي (السبت) استراح . لذا هذا النهار مقدس عندي . واعلن نداسته .

٥ ـ إحترمْ اباك وامك ، ليطول على الأرض عمرك بارادة الهك يهوه .

٦ ـ لا تقتل اطلاقاً والعظمة هنا في كلمة إطلاقاً ، فلم يستثنِ ولا أجاز القتل لِسبب ما .

٧ ـ لا تشهد زوراً .

٨ ـ لا تسرق ابداً .

٩ ـ لا تقدم على شهادة زور .

١٠ ـ لا تشتهِ امرأة قريبك ، ولا خَدمهُ ولا كل ما يملك .

وقيل ان التوراة كـانت منسيَّةً من قبـل الاسرائيليين حتى جـاء (أُسْدْراس Esdras) بعد العودة من المنفى لبابل فأحياهـا ؛ لأن هذا النبي تسلم مهمـة تثقيف شعبه ، وابتهـل لربه يهوه أن يمنحه الاستنـارة والاستبصار ، ليعيـد جمع مـا تبعثر وضـاع ، من مخطوطـات اسرائيل وشريعتها . اعـتزل اربعين يـوماً ، يكتب فيهـا نهاراً وليلاً ، حتى جـاء بما تمنـاه . وقيل أنه متوافق مع ما عُثِر عليه من النصوص القديمة .

« كتاب الانبياء »

يتضمن معلومـات تاريخيـة قيّمة عن أوضـاع الاسرائيليـين في أرض كنعـان ، حتى المنفى لِبـابل ، وبعـده كتاب « الحكـماء » ثم كتـاب « صمـوئيـل » الـذي يـروي معـركـة « شاوول » و « داود » ثم كتب « الملوك » ، ومحتواها واخبار الملك سليـمان ومنافسـة مملكتي « اسرائيل ويهوذا » الجنوبية والشمالية ، من أرض كنعـان . أما صمـوئيل فكـان مثالاً حيـاً للعمـل والنشاط الفـردي ، في حثه الـرجال والنسـاء على العمـل المستمـر ، كـلٌ في حقله فيكسبون رضى الاله يهوه ، لكن الشعب استغرق في سباته وشهـواته وتفسّخـه ، مما حـدا بالانبياء أن يزيدوا التوسلات ليهوه ، كي يعيد الهداية لشعبه . وقد كثرت الرؤى عنـدهم ، ومغـزاهـا يَؤول : للهـدايـة وطـرح المعـاصي والإنـذار في يـوم الميعـاد . من هؤلاء كـان « حزقيال » ورؤياه ، « وامليخا » ذلك النبي البطل الذي قال فيه المؤرخ (رينان Renan) « لو لم يكن بالديانـات هذا الـرجل ، لكـان سلك التاريـخ الديني ، سبيـلاً آخر » المؤرخ (أ . جاكوب Ed. Jacob) والعهد القديم ص (٧٣) .

يـلي الشريعة المـوسويـة والانبياء مـآثر الكتـاب ومن بينهم : « مزمـور داود » : مَلِيء بالامثال والحكم ، بأسلوب شيق تلَّقفته العامة واستظهرت اناشيده .

اسرائيل سامية الأصل :

يُعتبر تاريخياً دينياً ، الاسرائيليون من العرق السامي ، نـزلوا أرض كنعـان الساميـة ـ الاصل . كما أن حضنهم الدافِئ الأول كان (أُور) . وكانت مياه دجلة والفرات تترقرق في كل ضاحية ، فتوحي التقديس ، والعبادة لما توليـه من منافـع للشعب السامي هنـاك . ثم كانت الآلهة المتعددة منها : إلـه الشمس « شَمَس » وإله العـواصف « حداد » الـذي اتخذه

الساميون الهاً بقاسيون . وجبل لبنان وحرمون . هذه البيئة السامية التي ترعرع فيها ونشأ وهرم الاسرائيليون طبعت في نفوس السواد منهم ، تأثيرات جمةً ، جعلت بعضهم يرتدّ عن عبادة يهوه ، إلى الإله بعل إلهِ (عاموره) .

حملت تلك الديانات بذوراً للتوحيد ، كانت فاعلة في نفوس الاسرائيليين ، ومشابهة بعض الشيء لشعائر إلههم الجديد يهوه . عدا ما تصرّف به الحاكمون المجتاحون ، من اعمال بناء هياكل مهدمة ، واحياء تراثات دينية بغية كسب عواطف الشعب ، وحسن استكانته لنير العبودية المادّية . فكان الدين ، هو ذلك السحر الذي به استُقطبت معظم مناطق الشرق الادنى ، ولم يُؤْتَ بدينٍ فرضاً . حتى الاسرائيلية فانها لا تدعو لدينها قط ، باعتبار الشعب الاسرائيلي مولوداً كله من صلب جد واحد هو (يعقوب) فلا يتقبلون غريباً . وما كانت التيارات المتتالية والمتناقضة التي عاشت في صميمها اسرائيل ، إلا دوافع الهبت في الكثير منهم ، وبخاصة الانبياء والحكماء والقضاة ، الحاجة الملحة إلى توحيد الكلمة ، وتنظيم الشريعة وتنسيقها في هدف الوصول إلى استمرارية بقائها مع الشعب والأرض ، رغم ما تعرضت له من نكبات وتشريد وتقتيل .

سؤال هنا يطرح نفسه : لماذا كل هذه المضايقات للشعب الاسرائيلي بالذات ؟؟ ألانه موحِّد في بيئة لا تقر التوحيد ؟؟ أم لأنه جاء دخيلاً على كنعان ومصر ؟ أم لأنه يحمل من الشكاسة والانعزالية والأثرة ما ينفّر منه مُعايشيه ؟

هذه الشكاوى تطبع الأثر السيء في نفوس جيران اسرائيل . وما يعمق الأثر ويفرض العداء هو الغَيرة . غَيرةٌ على المادة التي يتهافت الاسرائيلي على اقتنائها وابتزازها بأي الأشكال . وغيرةٌ من معتقد غامضٍ ما استطاع أن يتفهمه ابناء ذلك الزمان ، ورغبة بأنصهارهم في بوتقة واحدة صلبة ، لا تسمح لغريب أن ينصهر فيها أياً كان ، وغيرة من الطاعة العمياء التي تكتنف معظم الاسرائيليين للكهنوت الاسرائيلي ، الموجه بحكمة وباصرار ، لاعتناق شريعة موسى ، واتباع تعاليم المرشدين . في حين كان الكهنوت المصري مناقضاً بعضه بعضاً ، والبابلي لا يعير العناية الكاملة للروحانيات ، وكل آلهته حارسة لغلاله ولنفسه ولماشيته . ولكل منطقة بل لكل بلدة آلهتها الخاصة . وقد جاء اله اسرائيل بتوصيات ، ويفرض أمور لا يرتاح لرفضها أو لفرضها عليه معايشوه ، وأخص

التصرفات العنيفة والحاقدة التي تذكّر هؤلاء بإلهة الشر : « سات » .

كل هذا كان حافزاً نفسياً معادياً لاسرائيل ، كما كان دافعاً مـادياً ملمـوساً لمقـاومتها لأنها منافسة قادرة وحاذقة ومثابـرة ، وتعبد إلهـاً واحداً بـانياً ومُـدمراً معـاً هو يهـوه ، محطم الاصنام وملغي الرموز والتمائم . مَنْ يهوه ؟

الفصل الثالث

يهوه إله سيناء

لا يملك هـذا الاله شيئـاً من خواص إلـه الفلاسفـة . انـه سيـد التـاريخ ويعـرف بأعماله ، وهي : الوحدانية والعدالة والمحبـة . وقد غـدا الإله الأكـبر للاسرائيليـين ، وهو خالق العالم. قال فيه « حزقيال » : (انه روح خارج عن كل قوانين الطبيعـة وعن تصرف الاقدار) . اسمه مشتق من فِعل (هـ . ي . هـ H. J. H) أي الذات . انه ذلك الذي كان وهو كائن ، وسيكون . قال عنه الكتاب المقدس : انـه يتكلم ويصغي ويرى ويشعـر ويضحك ويتألم ، وله اعضاء . لا شيء يشابهه . ينزل من السماء ليزور برج بـابل . وهـو الذي اقفل باب الفُلك خلف « نوح » . عرشه متعـال عن الخليقة . انـه «أيل » وألـوهيم وهـو الأول والأخير . بلغت اسماؤه في الكتاب المقـدس : (٢٧٩) اسماً . يتجـلّى في صُور الخليقة فينزل بين الناس ، ويكشف نفسه كما فعل مع « ابراهيم » . أو يسمع صوته كما في « سيناء » . قيل أن موسى رآه بأم العـين . ولا تتحقق رؤيته الا للمخلصـين له والـواثقين من الوهته . هو وحده الخالق : لا أصنام ولا نجـوم ولا بشر يُعبَد سـواه . والرمـوز باطلة أمام عرشه . لا يولد ، ولا يكبر ، ولا يموت . هو اله المحبة والسخط والقداسة والحكمـة والتآلف . وغالباً ما يكون محاطـاً باتبـاعه ، يستشـيرهـم ويفتح البـاب المذهَّب ليتجـلى على الأرض المقدسة ويصبح الهيكل المقر الرئيسي لإله ابراهيم ، ويعود المشردون ويشمل الامم السلام .

أما الشعوب المعاندة له ، فتُمسح وتلتهمها النيران .

قال الاله « يهـوه » لابراهيم : (انـا الشودّي ، El shoddai) أي الإلـه القادر عـلى كل شيء « امشِ امامي وكن كاملاً . أريد أن أجعل علاقة بيني وبينـك وسأجعلك تعـظم

كثيراً . سأرزقك ثماراً يانعة ، وسأنجب من نسلك امة وملوكاً » (سفر التكوين XVII ، ٢ ـ ٦) . يهوه الذي نزل إلى الأرض بعد الطوفان لينهد ما شيده الإنسان (التكوين ه ، XI) وتحدث سفر التكوين عن تجليات متعددة هنا وهناك ليهوه . كما شوهدت رؤى مختلفة لانبيائهم ، وليست التجليات الا تثبيتاً لوجود « يهوه » وارشاداً على الطريق المستقيم . والرؤى هواجس تنتاب النائم أو الحالم أو المتأمل من ارباب التقى والزهد ، تكثر بكثرة المعاصي .

إن صفات الإله يهوه تتشابه مع صفات الإنسان ، انه في السماء يجلس على العرش محاطاً بالملائكة الذين يقومون بخدمته . قال رجال الدين أن صفاته افتراضٌ محض . انه روح الكون السارية فيه كله ، وهي غير منظورة ولا محسوس بها ، انها تمد الكون بالحركة والحياة . متعالية ، وحالّة في كل أجزاء الوجود . وإن الحضرة الالهية الكونية المسماة بـ (السكينا ـ السكن) تتواجد في الأشخاص والأماكن المقدسة ، وفي ساعات الدرس والصلاة . وقد نهى الإله يهوه أحباره عن ذكر اسمه ، إلا في الضرورة القصوى ، كيلا يدنس أو يتخذ اداة للسحر . يستبدلون اسمه بـ (ادوناي) أو الرب أو الواحد المقدس أو أبانا الذي في السماء . ومُعجزاته تتم على يد كبار احباره .

آمن اتباع يهوه بأن الانسان مكون من جسد وروح . الجسد (اي الحواس) هو الدافع إلى الرذيلة . والروح مسوقة للفضيلة ، والشريرة منها جاءت من الشيطان ومن الأرواح الخبيثة الكامنة بكل مكان . معتبرين التناسل مسبباً عن الشهوات الأرضية الخاطئة فقالوا : « لو لم يأثم آباؤنا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا » .

إن الخطيئة عندهم من فطرة الإنسان ، وغير متوارثة . والحسنات والسيئات كفّارة عن ذنوب هذه الحياة بالذات . وغير الآثم بحقٍ ، لا يموت ابداً ، لأن الموت دَين على البشرية الآثمة .

بعض المراسم :

لكل من النار والسماء عندهم طبقات سبع ، والنار هي (شاول أو جهنم) وكل امرىءٍ يستقر في المستوى الذي توجبه عليه أعماله في دنياه هذه . يمارسون الصلاة يومياً وبعضهم بكل ساعة .

أهم ما عندهم النظافة البدنية . وقد فرض عليهم الصيام في مواسم معينة وكانوا يقاومون التنسُّك وينصحون بالمتع في الحياة . اشهر اعيادهم : الفصح المجيد في (١٤ نيسان) وهو ذكرى فرارهم من مصر ، وعيد العنصرة ، بعد اسبوع من الفصح . وعيد رأس السنة بهلال الشهر العبري ، احياءً لذكرى نزول التوراة ، واعياد غيرها . قال احد احبارهم : لو حرص اليهود على (سبت) واحد لَجاء ابن داود من قبره .

لدى اضطهاد اليهود من مسيحيّي اوروبا ، جعلوا من كل منزل كنيساً ، واوجزوا الصلاة والشعائر . ومنعت في المنفى الترانيم ، هذا مثال لها بعد عودتها :

« لدى ظهور ملكوتك تتشقق الجبال . . عن أناشيد تعظم جلالَكَ .

وتضحك الجزائر متهلّلة بابتسامتها إليك . .

أيها الواحد الأحدْ كل المصلين يمجدون لاهوتك . .

وحين يَرنُّ نغمهم في أقصى البلاد .

ينادون بك : إلهاً متوجاً عليهم أجمعينْ » .

ولم يعدمْ القربان وتقدمة الأرواح البشرية في مطلع الاسرائيلي فـ.ـاكم ابراهيم يحاول تقديم ابنه للمذبح لكن الإله كان يحاول تجربته ـ بهذا الشكل الإنساني ـ فاستعاد الولد . (التكوين XX, II) . بعدها بطل تقديم الذبائح البشرية .

على كل اسرائيلي ، حسب نص العهد القديم ، أن يقول اثناء تقديم الذبيحة : « كان ابي آراميا شارداً ونزل مصر . تناسلوا وكثروا . عاملنا المصريون بعنف وارهاق واحتقار . ابتهلنا إلى يهوه إله آبائنا فاستجاب ورثى لوضعنا المزري . أوحى إلينا بالخروج من مصر . بعد اهوال ومعجزات ، وصلنا الأرض التي يدفق منها السمن والعسل » .

أما هذا القربان الذي يقدم للإله يهوه فغايته كسب رضى الإله وتحنينه على شعبه ، ودحر خصومه . وليس « يهوه » جديداً على الإنسان ، هو نفسه إله ابراهيم واسحاق ويعقوب . وهو مسير الأقدار ، والقاهر الذي سيضع اعداء اسرائيل تحت قدميها .

بيت المقدس :

كان في بلدة القدس محراب متواضع ، وحين تتالت الهجرات الكنعانية عن ربوع فلسطين ، واستتب الحكم لاسرائيل تدريجياً جعلوا من القدس عاصمتهم ، ومن المحراب

المتواضع هيكلاً للإله يهوه .

قام بهذهِ المنجزات الملك « داود » واكملها ابنه « سليمان الحكيم » يومذاك قام الكُتّاب والحكماء فألفوا كتب الملوك المحتوية ما يأتي :

١ـ طلب الاله من الملك بناية هيكل له وشخَّصه للملك .

٢ ـ كلف الملك الاخصائيين في البناء ، ومن بينهم ملك صور حيرام .

٣ ـ عني الملك في بناء الهيكل ، حسب ما شخصه له الاله « يهوه » .

٤ ـ بملء عنجهيته ، تربع الاله في صدر الهيكل ، يستقبل الملك والكهنة والشعب .

الهيكل :

طلب الملك أن يقدم لبناء هذا الهيكل ما تيسر لدى الشعب من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، وحجارة كريمة للزخرفة من الداخل . فقُدِّم الكثير ، وسمي آنذاك : « بيت الأبد » وكان له شكل خاص يفرقه عن الكنيسة ، وفيه (تابوت العهد) المُرصَّع . وبعد سبع سنوات من انجاز بنائه وتأثيثه ، أصبح المقر السِّياديَّ للإله (يهوه) .

كان قياس الهيكل : اربعين ذراعاً عمقاً وعشرين عرضاً وثلاثين ارتفاعاً . وفي قدس الأقداس ، ضمن الهيكل وضع تابوت يضم تجسد الاله غير المحدود . وفي الهيكل طاولة عليها الخبز المقدس ، يبدلونه يومياً . ومكان رحب للكهنوت « وشمعدان » ذو سبع شعب ثم « مذبح العطور » . وامام الباب الأثري على مدخل الهيكل ، مذبح لإحراق الضحايا ، حيث يشاهد تصاعد دخانها عالياً . بعد تدمير هذا الهيكل ظل تصميمه مرتسماً في خاطر النبي « حزقيال » فأعيد بناؤه بفضل « أُور وبابل » وتحت سلطة هيرودت . وإن المؤرخ « يوسف » بعد أن تأمله تأكد من صدق مطابقته لما كان عليه .

في الهيكل نفسه يقدم الشعب العُشر وبواكير التمر والنذور، ويوم السبت تقام في الهيكل الصلوات والاحتفالات . كذلك هو أول يوم من الشهر القمري . وفي منتصف نيسان تقدم الضحايا الحيوانية قرباناً . وتقديمها بهذا اليوم اشارة إلى العيد الكنعاني القديم للزراعة ، وتذكرة بيوم الخروج من مصر . ومثلهُ تشرين الأول . وحين كان (أُوزِّيا

Ouzzia) يحرق البخور موضع الكاهن ، بلاه الإلـه يهوه بـالجذام . .II Chron, 20 ، 16).
XXVI.)

أكد تاريخ العالم أن سليمان قد انفق على انشاء معبده الذي ظهر كامتداد المنحدرات الصخـريـة ، الكثـير من الـذهب والفضـة . نقـل طـراز المعـابـد المصريـة ، عن طـريق الفينيقيين، ثم اضاف إليه من العمارة والزينة والزخرفة الاشورية والبابليـة ، فخرج طـرازاً فريداً ، يجمع بين هذه الألوان جميعاً . .

ظـل مقراً (ليهـوه) مدى اربعـة قرون . ولم يكن معبـداً بالمعنى المعـروف، بل كان يحـوي اجزاء كثيـرة ، منها : أبْهـاءٌ لاستقبال الـزوار ، واجنحة لِسُكنى الملك ، ومقـاصـير للمحظوظات من الزوجات .

وكانت أُولى واجبات سليمان ، أن ينفذ امر الرب ، حسب تعليماته لـداود ، فيصنع له بيتاً ثابتاً ، بدلاً من الخيمة التي ينتقل فيها . وكـان بناء الهيكـل أهم حادث في ملحمـة اليهود . كان نفسه مركزاً روحياً لهم ، كما هو بيت (ليهوه) . وكان له شأن الانتقال بدين اليهود ، من دين بدائي ، تتعدد فيه الآلهة ، إلى عقيدة تنادي بالـوحدانيـة ، بعد أن كـان قد سمح سليمان ببناء مقاصير لـلآلهة ، وسمح بعبادتهـا إلى جانب (يهـوه) ، مما أغضب الرب . وما بناه سليمان من قصور كان مخالفاً لإرادة الرب ، لأنه لم يكن عـلى جانب عميق من التقوى ، شأن ابيه .

كان في الهيكل جناح خاص (بتـابوت العهـد) والشرائـع ،.هذا التـابوت يعـد من المحرَّمات ، فلا يسمح لأحد بِأن يلمسه .

بدء الخلق :

قـال ابن قُتيبـة : قـرأت في أول سفـر من التـوارة ، أن أول مـا خلق الله السـماء والأرض . كانت الأرض خربة خاوية وظلمة ، وروح الله على وجه المـاء ، قال تعـالى : ليكن (النور) فكان نـوراً . فسُربه واسـماه نهاراً ، كما اسمى الـظلمة ليـلاً . بعدئـذ امر الإلـه بجمع المياه فكانت البحور ، وأمر السمك والطير لتتحرك ، فكان ما أراد ، ثم قـال : إن آدم لا يصلح لِأن يكون وحده ، فأخذ ضلعاً منه ، وكانت (حواء) من لحمـه ودمه . من أجل ذلك يترك الشاب أبويه ويتبـع امرأتـه لأنها جزء منـه . ثم قال الله : اثمـروا واكثروا

واملأوا الأرض . . وتسلطوا على أبواب البحور ، والطير والأنعام والنبـات . وكان صبـاح اليوم السادس اكمال اعماله . ثم استراح في اليوم السابع : (السبت) من خليقته .

بعهد الملك (منسّا) أقيمت الشعائر الدينية للإلهة « عشتروت » كما قـدمت الذبـائح للإله « شَمَسٌ » إلـه الشمس ، محتفظاً بـالموميـات المقدسـة . هذا جنـوبي البلاد ، أمـا في شماليها فقد صُنع عجل من الذهب للإله يهوه ، على النمط الذي اتخذه السـوريون لـلإله « حداد » هذا الشذوذ والتقليد أمرٌ طبيعي قبل ترسيخ العقائد جمعاء ، لأن الطبائع البشرية والأفكار ، ونوعية تقبُّل كل جديد ، هي متفاوتـة بين امرىء وآخر ، فـلا يضير ذلـك أيَّ معتقد . وهناك باحثٌ لبناني يُعِدُّ كتاباً حول دولة اسرائيل . ينسف فيه منجزاتهم العُمرانيَّة على أرض فلسطين ويعيدها إلى مكان آخر جنوبيّ التخوم .

الفصل الرابع

انبياء اسرائيل ومهامها

حين اتسعت مملكة اسرائيل وعمَّ فيها البذخ ، وتفجَّرت محـاقن الشهوات ، كـان لا بدَّ من وازع يمسك بزمام الشعب ، ويكبـح جماح نـزواته ، فكـانت الانبياء ، حـاملة لواء هذا النضال الشاق . بعضهم انعتق من المجتمع هارباً وزاهداً متقشفاً ، والآخـرون انبروا لميدان النضال الديني والإجتماعي الذي هيَّأتهُ النعم والطمأنينة بعد مرير الكوارث .

فالنبي هو ناقل الصوت السماوي إلى عبـاد الله ، وفي مقدمـة الانبياء المنـاضلين كان « أمليخـا » ظهـر عليـه يهوه صـارخـاً بنـزق : « هـا انـذا اضـع كـلامي عـلى شفتيـك ، محـوِّلاً ايـاك هـذا النهـار أن تمـرح وتنعم وتغني ، وأن تنهض بـالشـعب والمـملكـة » (امليخا ١ ـ ٤ ـ ١٠) وقال يهوه لِـ « حزقيال » في هذه الفترة العصيبة : « يا حزقيـال تبلغ هذا الأمر واشوِ قطعةً من عجين الشعير على برازٍ بشري ، انذاراً بعبودية اسرائيـل ، حيث ستـأكل في المنفى الخبز المُدنَّس » . لكن حـزقيال إلتمس من الهـه استبدال الـبراز بـزبـل البقر . عن (حزقيـال : VI . ١٢ ـ ١٥) ثم عاد امليخـا لينذر بتـدمير الهيكـل ، كاسـراً إبريق الفخار في وجه الفَجَرة المتمردين . والنبيان : (أخنوخ وإيليّا) : لهما مرتبـة الألوهـة

في الكتاب المقدس . لقد حُملا حَيَّين إلى السماء . وايليا هو صانع المعجزات ومحيي الأموات ، أنزل السحاب بعد قحل مهلك . أما اخنوخ فهو نفسه اخناتون المصري ، عابد وموحِّد أتون . « وأشيعا » أخذ يطوف في شوارع القدس عارياً منددأ بالمتهتّكين .

كان النبي (أوزيا) يصرح: لا يفيد الإنسان دوام الصلوات ، وتقديم الطقوس ، والقرابين . كلها لا توازي صدق السريرة . والنبي « عاموس » كان ينشد :

أنا أكره . . أنا أمقت أعيادكمْ . .
ولا استطيع أن اتحسس احتفالاتكمْ .
تقدِّمون لي الضحايا والقرابينْ .
أنا لا أريدها . . ، لا أنظر إليها . .
لا أرغب بأضاحيكم الحيوانيةِ السمينةْ
أسمِعوني غمغمات اناشيدكم
ولا تُسمعوني رنة اوتار اعوادكمْ
ولتتفجَّرْ ينابيع الحقيقة تفجُّر المياهْ
ولتزمجر العدالة كثور دائم الخوار » .

وله تعابير رائعة يمثل فيها اسراف الاسرائيليين في المآكل والمشرب والتبرج والفجور ، ثم هو ينذرهم بويل محيق وهو الذي وضع للشعب مضمون ما تعنية كلمتا الاله « يهوه »: عدالة ومحبة . واكثر من آزرَهُ في هده المهمة كان اشعيا وراميا وحزقيال . دعوا للفضيلة بكل مضامينها ، لكن اصواتهم كانت تبتلعها اعماق الصحراء . من الأناشيد الداعية إلى التزام الفضيلة ما يأتي :

« العدالة في نموها المستمر شأن البلح
وكالأرز اللبناني تتشامخ
مغروسة في بيت يهوه،
في الفسحة من بيت الله تزهر
وقبيل الخريف تعطي شهي الثمر

كلها مشحونة بالنسغ والأخضرار » .

وهذا مقطع موجه إلى الأشرار :

« بأم عيني طالعت من يزرع الجور
كيف يحصد العناء . . .
في سعير جهنم يحترقون
ومع زفير انوفهم يضمحلون

كان هذا موقف الانبياء اليهود ، بصلابته وجرأته ، وما كان ليكم افواههم وازع ، دون ايصال الرسالة المقدسة التي زخرها بنفوسهم الاله (يهوه)، بغية توعية ذلك الشعب المتميع المتخاذل والسكير .

الملائكة والشياطين :

كما كانت الانبياء على الأرض صلة الإنسان بربه ، كان في السماء ملائكة عن جانبيه ، يستشيرهم في المعضلات ، وكان هنالك شياطين باغون ، مفسدون ، يقطنون جهنم المؤلّفة من سبع طبقات .

ومن خواص الملائكة أن بعضهم يموت ، والآخرون يخلدون . ولكل منهم مهامه ، ولا حاجة لهم بالتناسل. يحيطون بالبشر، ويحرسونهم. من هؤلاء: جبريل : سيد النار ، وريديا : سيد المطر ، ورحاب : سيد البحر ، ودوما سيد الموت ، وصموئيل : سيد على الملائكة كافةً .

أما الشيطان ، فانه يشخص الشراسة والعدوان ، وغريزته ، : التدمير والإفساد . حوله لفيف من الذوات الشريرة يعاونونه على إيقاد نار الفتن والموبقات ، والمغريات الخليعة .

لقد قيل أن الإله يهوه . كان قد خلق الشياطين مساء « الجمعة » فجأة ، لكنه لم يتمكن من استكمال اجسام لأرواحهم ، لدنوّ يوم السبت ، حيث يحرّم الاتيان بأي عمل ، من أية يد : بشرية أو سماوية . بعض هؤلاء مركب من طين ، وثان من ماء ونار ، وثالث من هواء .

كانت مهام هذه الأرواح السماوية ، مشابهة كلياً لمهامّ صغار آلهة : سومر وبابل، واشور ، لم يختلف غير الأسماء . ذلك دليل قاطع على أثر البيئة في صميم المعتقد الاسرائيلي . ما كانت المادية تتقلّص من الفكر الروحاني ، ولعلها ملازمة له ، في الاسرائيلية وما بعدها ، لأن الروح يعوزها جسد يحفظها ، وآلات حِسٍّ تعبر بها عن رأيها ، ومعتقدها وسريرتها .

الخَلق وطريق الخلاص :

تُرى هل سبق خلق الأرواح السماوية ، خلق البشر ؟؟ لِنَرَ .

يقول (شوراقي ، Chouraqui) :(بكلمة من الله كانت الخليقة بواسطة القوانين الستة التي تنظم السمفونية العالمية . ويقول الكتاب المقدس : ستة عناصر تنظم الخلق : المياه والهواء والنار والظلام والنور والحكمة . لقد صدرت الخليقة عن يهوه بعمل ارادي يحرك ولا يتحرك) .

لله سبع سموات . انه متعال وموجود في قلوب اتباعه . وجوده يثبت وحدة الكون . وللخليقة بدء والهدف منه ترسيخ مملكة الله ، كما لها نهاية ، وحساب اخير . ومن يضطهد الله ومسيحه وشعب اسرائيل يسحق ويدمر . يوم خلق الكون كان المسيح موجوداً، وحاضراً على الخلق. وهو روح الله ، وابن « داود » ومنقذ العالم . ولا ينقذ المرء غير العدالة والمحبة ومحبة الإله . وطالما ، بكلمة واحدة كانت الخليقة ، اذاً فالملائكة والبشر خُلقا معاً . وطريق الخلاص هي :

أ ـ كل هفوة تصدر عن انسان ، يضطرب لها الله ، وكل من يفني نفساً او ينقذها كأنه بنظر الاله ، افنى أو انقذ العالم .

ب ـ كل نفس واعية عظمة الخالق ، وهذا هو الوجود الأقدس لها .

ج ـ في الصلاة والعمل الصالح ، غنىً عن تقدمة الذبائح . ومواعيد الصلاة هي : في الصباح والظهيرة والمساء ، على أن تكون جماعية من العَشرة فما فوق .

د ـ الطهارة واجبة على كل انسان وعلى الحكماء اعلان منع الدعارة .

هـ ـ على كل إسرائيلي أن يتقيّد تقيداً اعمى ، بما تنص التوراة .

المسيح والعالم الآخر :

المسيح في عرف المعتقد الاسرائيلي ، هو الفكر المطلق في خضم الابدية . سمي كذلك لأنه ممسوح بزيت البركة . كان قبل الخليقة ابن « داود » اعني « سليمان » هو روح الله ونور الأمم . طفا على سطح الماء ، قبل أن تكون مخلوقات .

نرى من هذا التوضيح ، أن المسيح هو سليمان نفسه ، وما شاء المؤرخون والناسخون آن يؤمنوا بالتقمص .فأكتفوا بالمشابهة : (شوراقي ، Chouraqui ص ٥٤) لكن الباطنيين في الإسلام ، ومنهم « الدروز » يؤكدون التقمص ، ويعتبرون كلا الروحين الأقدسين هما « العقل الأعظم » .

والعالم الآخر يتألف من : جنة ، ومطهر وجحيم . وكل عمل سالف ، يسوق صاحبه إلى حيث يستحق من هذه الحلقات . فالخطيئة تحمل عقوبتها معها . وهذا قول لأشعيا من الاصحاح « ٢٧ » : سيعاقب الرب بسيفه القاسي الحيَّة العارية ويقتل « التنين » . وقال دانيال (اصحاح ١٢) » : كثير من الراقدين في التراب يستيقظون . منهم إلى الأبدية والنعيم ، ومنهم للإزدراء الأبدي .

وقال أحد أنبيائهم : « من يطمع بمتع هذهِ الدنيا ، يخسر ملذات الآخرة ، حيث تتجسد العدالة والشفقة والمحبة » .

الفرق الاسرائيلية :

شأن كل عقيدة ، كان تشعب الفكر الديني الاسرائيلي . وقلما كان للمادة تأثير في هذا التشعب . منهم من أوغل في الزهد والتقشف ، والتأمل الروحاني ، ومنهم على نقيضه : مادي صرفاً . يقول الشهرستاني : « من أشهر الفرق الاسرائيلية كانت » : أ ـ الكوستانية وتعني الصادقة . تعترف بالحساب ، وبالجحيم حيث اللهب الكاوي والزمهرير ، وتوبيخ الضمير ، كما تعترف بالجنة وطيباتها » .

ب ـ الدوستانية : تنفي كل بعث وجزاء ، وتجزم في بطلان كل مصير ، لكل إنسان ، موقنة بأن الحياة الدنيا هي نهاية مطاف البشر ، وأن الأعمال تأتي ثمارها على الأرض : خيراً أو وَبالاً .

ثم أضاف مؤرخنا الكبير : « تعترف نصوص « التوراة » بأن علماً « لَدُنياً » تسرب إلى تلك الجماعات ، لم تشتمل عليه التوراة » .

وأردف المؤرخ نفسه « بين الفرق اليهودية ، واحدة تسمى « العنانية » لصاحبها : (عنان بن داود) . خالفت اليهود ، في المآكل والطقوس وانصرفوا عن الترف والبذخ . وحين ظهر « يسوع » صدقوه واستمعوا المواعظه وعايشوه ، في حين انكره وسفّه دعوته سائر اليهود » .

لعل هذه الفرقة هي نفسها الاسّينية التي سنطالع معتقداتها بتوضيح لاحقاً . وقال : (شوراقي ، Chouraqui) : في العقيدة الاسرائيلية تناقضات ، وشيع مختلفة منها : « الفريسيون » الذين يمنحون حق نقل التوراة وتأويلها إلى حكمائهم الروحيين مع حق فلسفة الحساب الاخير والجنة والنار وبعث الموتى وملكوت الله .

ثم « الصدوقيون » المعارضون لأولئك ، والمنكرون قيمة الشريعة الشفوية ، وحقيقة البعث والحساب الاخير . ثم هناك « الأسينيون » فانهم مُنقطعون عن الناس ، نزلوا شاطىء (بحر الميت) ، واعتصموا بالصلاة والصفاء والطهر ، وعقيدتهم باطنية .

الفصل الخامس

العهد القديم

ليس العهد القديم كتاباً بذاته ، انه مَطاوٍ ثلاثة : التوراة الشريعة (الاسفار) ، وسفر الانبياء ، وسفر المخطوطات . العهد القديم هو تاريخ نبوي ، والنبوءة فيه هي الخط الأحمر الذي نراه هنا وهناك ، في مضمونه ، انه انتصار النور على الظلمة ، والخير على الشر .

أشهر المخطوطات هي : مواضيع (اشعيا) من (مغارِ قمران) وهي الأقدم عهداً من الجميع . (وبردي ناش القرن الثاني ق . م) . ثم مجموعة مخطوطات ، لها في القاهرة معرض خاص . أخيراً المخطوطات الكبرى لعائلة (بن آشر). وتاريخها نهاية القرن التاسع . تُرجم

العهد القديم إلى اليونانية في القرن الثالث ق . م . بمساعي إثنيْ وسبعين عالماً يهودياً ، في مدة إثْنَي وسبعين يوماً بعدها تعددت تراجمه إلى السرياني فاللاتيني ثم العربي .

يشير العهد القديم إلى وجوب اتخاذ طريقة خاصة للصلاة هي : تلاوة الأناشيد بعد نهاية الأعمال ، لكي توقظ الالحانُ القوى الخفية والسحرية ، ولتجعل الصلاة مقبولة من لدن يهوه . وفي حفلات الأعراس والأتراح يتلى « نشيد الأناشيد » لانه الوسيلة الفضلى للاتصال الفردي والجماعي بالاله .

يحوي العهد القديم (٣٩) كتاباً ، جمعت في خمسة مطاوٍ معاً : أ ـ بَدءُ الخليقة ب ـ البطارقة وبدء تاريخ اسرائيل . ج ـ المكوث في مصر حتى الخروج منها . د ـ المكوث في سيناء . هـ ـ سفر اسرائيل حتى دخول ارض الميعاد .

كتاب الملوك :

خصَّ هذا الكتاب بأفضلية الانبياء الثلاثة : ايليا واليعازار ثم أشعيا الذي لعبَ دوراً فاعلاً في الحرب . وقد عرفت قيمة الانبياء بعد وقوع المحنة والتشرد إلى بابل .

والانبياء ظهروا على ثلاث مراحل :

١ ـ انبياء القرن الثامن : هم القدامى الذين مهدوا الطريق التي سار عليها الشعب . منهم : صموئيل المشرف على الموتى ، وايليا واليعازار .

٢ ـ انبياء ما بعد مملكة (يهوذا) اشهرهم (سوفوني) الذي قال : لا يأتي يهوه خيراً ولا شراً . المقصود من هذا القول إن يهوه متسامٍ عنِ البشر ، لا يعنى بنفسه في أمورهم . وما أدري إلى أي من الملائكة يِكلُ امرَ عباده .

٣ ـ انبياء المنفى : منهم حزقيال كان يواسي رفاقه في الأسر ويشجعهم ، ويعدهم إلى بعث مظفر . رؤاه اكدت عمق قوته ولُقب : براعي النفوس .

٤ ـ دانيال : إشتهرت حكمته بشرح وتفسير الأحلام . حَلَّ الرموز المنقوشة على الجدار الأكبر ، ورفض الإفصاح عن طبيعة الملك « نبوخذ نصر » ، فساقه إلى أتون ، وإلى مربَضِ الأسود . وعاد دانيال للظهور بين الناس في اليوم التالي .

٥ ـ انبياء ما بعد المنفى : منهم زكريا . كان كاهناً ونبياً معاً . له ثماني رؤىً بكتابٍ خاص . سعى جاهداً لإبعاد النكبات عن « القدس » .

المزامير :

انها انواع مختلفة من الشعر العبري ، بل هي مجموعة اناشيد عرفت منذ عهد داود وربما قبله ، واستمرت حتى العهد (الكابي) عام (١٦٥ ق . م) تتضمّن تأملات دينية عميقة من كتب الحكمة تُتْلى لله يومياً . من هذه الأناشيد ، ما يعظم الخليقة ، والشريعة ، وباعثها .

والنبي (أيوب) الصبور ، هو أحد كَتَبة العهد القديم . كان رمزاً للطهارة ، والتقى ، والتجلد والتسليم . أما نشيدُ الأناشيد فهو كُتيِّب حيويٌّ ذو الصور الشعرية الرائعة . هو صدى لحب راعيةٍ وراعٍ . يلمح إلى سليمان الحكيم . إذ أن هذا الحب ـ كما فسره الحكماء والقضاة الإسرائيليون ـ هو رمز للحبيبَين : الله وشعبه .

سفر الجامعة :

إنه كتابٌ أثارَ حوله جدلاً طويلاً ، وحاداً ، لأنه يناقض نص الشريعة والانبياء ، حتى الحكماء منهم . تعاليمه مشابهة « للأبيقوريَّة و« الرواقية » . بعيدٌ عن الوضوح ، يتضمن توصيات باطنيَّة عميقة ، وقف الفقهاء وعلماء التاريخ ، ازاءها ، وجهاً لوجه وهم صمٌّ بكمٌ عن تفسير واحدة منها . يصرح هذا السفر مُوضحاً أن العالم محكوم بقوة عاقلة وعادلة ، وأن مخافة الله تقود إلى الأعمال الخيِّرة وإلى السعادة ، وأن الشرَّ سيعاقب عليه .

الحكماء :

هم المثقفون من الطبقة المحيطة بالملك . يلقون على مسمعه معلومات ، يتوجب عليه ممارستها . ومع الأيام غدا هؤلاء الحكماء ، ديمقراطيين شعبيين . ركيزة معارفهم هي : العلوم ، والأخلاق ، والفلسفة الدينية . ومن اناشيد المزامير ومدلولاته :

« مَنْذا بِوُسعهِ أن يتسلق جبل يهوه
وان يستقرّ في ذلك المقام الأقدسْ

انتَ (ليهوه) الذي منحته ما يجول بخاطرهْ
وأنت لم ترفض البشارة على شفتيهْ »

(Edmond Jacob . أد . يعقوب) .

النكبة :

يوم شرع يتضاءل في نفوس الاسرائيليين جوهر الروحانيات ، وينساق الشعب إلى المزالق المادية الرخيصة ، سقطت مملكة يهوذا تحت نير الاحتلال ، والقدس نُهبت ، وشعبها غدا مسوقاً بسياط الفاتحين . والمملكة هذه تقاسمها النفوذ المصري الأشوري .

لم يكن العاهل الأشوري « نبوخذ نصَّر » منفذاً لإرادة الإله يهوه ، أعني : العدالة السماوية . انها نيران متقدة انطلقت لتحرق قصور « صهيون » . هو الذي شدّ بسواعد الخصوم وهو القائل بصدر يغلي حقداً على شعبه المختار : « سأشهر المعركة معكم ، يا اعداء اسرائيل وسأضرب سكان هذا البلد (القدس) وحيوانها . سأفنيهم بالطاعون ، وسألقيهم بيد اعدائهم بغير شفقة . لقد ادرت عنهم وجهي (أُمليخا XXI، ٥ ـ ١٠). ولكن الأنبياء ، في هذا الافق الصاخب ، والنهب والتدمير والتشريد ، كان يحدوهم أمل عميق مُبشرٌ بفرجٍ قريب ، فتنادوا لإحيائهم الشعب ، والعودةِ إلى دين يهوه وطاعته واستغفاره . وهذا نشيد لِ (أُشعيا) XI ، ١ ـ ١٠) فيه كل التعبير والتفاؤل :

« غُصُنٌ ناضر سيفرخ من أُرومة « يَسَّا Yessé »
فَسيلة ستنمو من جذورها
عليها سيستريح فكر يهوهْ
الفكر الحكيم المميز ، فكر النصيحة والقوهْ
فِكرُ العلم ومعرفة الله . . .
حيث الذئب سَيُساكِنُ النعجهْ
والنمر يهجع بجانب الجواد . . .
والعِجلة والدب يرعيان متلاصقَين
ومثلما المياه تغمر لجج البحارْ
هكذا ستغدو الأرض مشبعةً بمعرفة الله »

حلت هذه النكبة على الشعب الاسرائيلي ، في عام (٥٨٦) ق . م . لكن الانبياء والحكماء نقلوا معهم للشعب تلك النار السماوية ، التي أضاءت تاريخهم زهاء خمسة عشر قرناً . مرتقبين العودة لِدار القداسة والسلام : « لِلقدس » .

الفصل السادس

التلمود

إنه مستندٌ (للهاغادا) قائم اولاً على المواساة والتحلي بالصبر والإعتصام بمحبة يهوه والعمل بمقتضى تعاليمه ، ثم هو مرشد للشعب الإسرائيلي المنفي ، ومنهض لعزيمته .

هناك اقفل الله (يهوه) صلته بشعبه الخاص ، فعلى الشعب أن يبحث عنه . وهناك استبدل اسم يهوه بـ (هاماكوم Hamakom) وهو ضابط كل شيء . وبهذا التوسل المتواضع يهتفُ كل يوم كهانُ اسرائيل : « لتكن مشيئتكَ كمشيئتكَ ، ليجعل « هو » مشيئتكَ كَمشيئتهِ . أخضِعْ ارادتَك لإرادته لكي يُخضع هو إرادةَ الآخرين لارادتِكَ أنت » .

قلنا أن التلمود هو مستند ، ولكن كيف تمَّ تدوينه ، وممّ يتألف ، وما دور الحكماء فيه ؟

كانت بابل مقر حكماء اسرائيل وحاخاماتها . اجتمعوا وقرروا أن يضمُّوا في كتاب واحد كل ما قيل من تعاليم تناقلتها الناس شفوياً ، وكل ما قيل من وصايا ، وألّفَ من شرائع ادبية ودينية ومدنية ، لم يسبق أن نوهت عنها التوراة . كان ذلك خشية ضياع هذا التراث . حين تم تدوين كل هذه النصوص. أعطوها اسم : « التلمود » وهي لا تمتُ لموسى بصلةٍ . وتعني الكلمة : التعليم . ألفَّه الكهنة المقيمون في (بابل وفلسطين) . وكانت لهم قصص قبل التلمود تُدعى « الجمارا » ثم الهجدة، وفي التلمود قَصص وزراعة وتجارة وطب وتاريخ . حدث فيه بعض التعديل مجاراةً للعصور الآتية .

التلمود مؤلف : من (اسْمِشْنا) القوانين السياسية والمدنية والدينية ٢ - (جمارا) اشرح ايضاحات فسرها هؤلاء الحاخامات المتفقهين . معتبرين أن الله يهوه أعطى موسى

الشريعة على « طور سيناء » وارسل على يده التلمود شفاهاً ٣ ـ (الهلكا) أي كلمات الله الأزلية الموحاة لموسى شفوياً .

وقال التلمود : « إن الله حين خلق ارواح عباده ، وضعها كلها في مخزن ، في صدر السماء ، وكلما حملت امرأة ينبثق للشمس روح في جنين ، حتى إذا حان الموت ألقي في « شيول » أي أرض الظلمات . أما أرواح اليهود فهي جزيآت من روح « يهوه » . وإن اليهودي إذا اجرم وتوفي ، فان روحه تنتقل إلى حيوان فنبات ، شأن معتقد قدامى البراهمة ، ثم تعود للجحيم ، ثم ترتد لجمادٍ فحيوان ، فوثني بدافع الشفقة . اخيراً ، بعد ذلك الطواف آلاف السنين ، وبعد تمام تطهير الروح ، تعود متجسدةً في يهوديّ(المرجع مطهر) . يقول المؤرخ المترجم : « لافون » : اعتقد الإسرائيليون سابقاً بأن يهوه يحاسب البشر على الأرض ، ولاهمّ لهم بما بعد الحياة . وان الانبياء هم متنبئون وحسب . يبدأ عهدُهُمْ من صموئيل حتى أمليخا بين (١٠٧٥ ـ و ٤٠٠) ق.م .

اليهودية الهلّينية :

كان الفيلسوف اليوناني اليهودي « فيلون » قمة الفكر الفلسفيّ الديني في زمانه . من أقواله : الكلمة هي وسطٌ بين الله والعالم . ومن هذه الكلمة « لوغس » انبثقت كل فكرة في الناس . كان يحذر من سلطانِ الحواس ، داعياً إلى العفة ، بواسطة المعارف الروحية ، التي تدفع حاملها إلى عالم النور . أما التوبة فتعريفها : العودة لله . إنها مقبولة من لدُنه .

حدّد (فيلون) الإنسان بالنسبة لعمله فقال بلسان الشريعة : المرء حر في ما يعمل ، شأن المعتزلة في الإسلام .

اليهودية الافلاطونية :

قال « إسحاق إسرائيلي » احد كبار حكماء اليهود، أولاً : لقد خلق الله العالم لكي يظهر لهم طيبته وحكمته . خلق في البدء « العقل » ، ومنه انبثقت البشريه في عالمها : العقلي والحسي ، والحقيقة هي في أن تبلغ النفس البشرية ، غاية السمو حتى تندمجَ « بالنفس الكلية » .

ثانياً : النفس مستقلة عن الجسم ، انها شرارة من روح الله . نهايتها في عودتها إلى ينبوعها الأول ، حيث تمتزج بالنور الالهي الذي انبثقت منه . وإذا لم تكن متحررة من علائقها المادية ، فانها تعود تتطهر على الأرض .

أي فارق بين معتقد « إسحاق إسرائيلي »، الذي تحدث بلسان الكتاب المقدس الحديث ، وبين ما وصل إليه علماء الروح المحدثون ، في اوروبا واميركا ؟؟ كلاهما اعتقد بعقل كلي مدبّر ، وبعودة النفس إلى مصدرها النوارني الأصيل . وفي حال عدم صفائها كُلياً ، تعود للتجسد في إنسان ، حتى يتم تطهيرها . وقلنا في انسانٍ ، حيث ليس في غيره طهارة . هذا ما يقصدهُ الحكيم الكبير . ثم هذا بالضبط ما نادى به المعتقد الباطني العالمي .

الفكر اليهودي المعاصر :

لقد تأثر المفكر اليهودي (مندسْهون ، Mandesshon) بالفيلسوف الالماني (ليبنز ، Leibnitz) فأعلن بأسم الشريعة خلودَ النفس ، وحدّد الحرية بأنها معرفة الخير وأن العلم هو الديانة ، وهو حكمة الله المنتشرة في عباده .

و (تيودور هِرتزل) كان صحافياً مُجَرِّياً . وغدا مؤسس الدولة الإسرائيلية . قال أن الحقيقة لا تفهم إلا بالنسبة إلى الله ، وأن المرء هو « عين الكون » . ناهض السامية التي هي اصلُ للإسرائيلية تاريخياً . وبمساعيه وُجدتْ دولةُ إسرائيل اغتصاباً .

فَـ (هرتزل) هذا المتوفى عام (١٩٠٤) كان قد عقد مؤتمراً في مدينة (بال Bâle) السويسرية عام (١٨٩٧) م ضم نخبة من رجال القانون والفقه ، والفكر الاسرائيلي ، غايته الرئيسية اتحادُ وتوعية «صِهيون». نجم عن هذا المؤتمر : كتاب « پروتوكول » حكماء صهيون . يحوي تعاليم التلمود ، والمثابرة على إحياء ثعبان يهوذا الرمزي ، وتوجيهات ومقررات ، بلغت أربعاً وعشرين توصيةً ، وصولاً بالعالم إلى دولة « عالمية » تهيمن عليها اسرائيل .

ما تعاليم التلمود ؟؟

نص المؤتمر على عشرة بنود ، إدعى انها من « التلمود » ومقدار صحة هذه النسبة :

يعلمها المتضلعون من الفقه الاسرائيلي . من هذه البنود :

١ - يسوع الناصري في الجحيم

٢ - الكنائس النصرانية قاذورات

٣ - الخارجون عن الدين اليهودي ، خنازير نجسه

٤ - الشفقة ممنوعة على غير اليهودي

٥ - مسموح غش الأجنبي ، وسرقة ماله بالربا الفاحش . الخ المرجع : (كتاب البروتوكولات ص ٣٣ وما يليها) « ثُعبان » يهوذا رمزٌ يقصد منه :

استمراريةُ التغلغل في الدول كافةً ، كما حدث منذ اليونان والرومان حتى اسبانيا عام (١٥٥٢) لفرنسا (١٧٩٠) للندن (١٨١٤) لبرلين (١٨٧١) واخيراً لبطرس برج (١٨٨١) ، املاً بتحقيق مطامع صهيون ، بِغَزوِ العالم سلماً (البروتوكولات ص ٥٢) .

المقررات :

من التوصيات الأربع والعشرين نذكر تحاشياً للإطالة بعضها :

١ - يكمن الحق في القوة ، ويجب أن يكون شعارنا : العُنف .

٢ - اتخاذ الصحافة سبيلاً لتوجيه الناس ، ونحن نكمن وراءها . .

٣ - نتبنى الشيوعية متظاهرين بمساندة العُمال . . .

٤ - الماسونية تخدم اغراضنا .

٥ - تنظيم الاحتكارات من صناعية إلى سواها . .

٦ - العمل على عدم تحالف القوى الحاكمة . .

٧ - إلهاءُ الجماهير عن السياسة .

٨ - مضاعفة خلايا الماسونية .

٩ - فصل الشعب عن السلطة وكراهيته لها .

أخيراً تشير التوصيات ، بعد أن يصبح (بابا صهيون) « بابا العالم » في صفحة (١٦٤) ، تشير إلى التنظيم الدقيق : المالي والاجتماعي . (البروتوكولات ص ٦١ - ١٠٧) .

إن كتاب « بروتوكولات صهيون » الذي نتحدث عن مضمونه ، هو بين يديّ ، وطريقة الوصول إلى جمعه ونشره خفية تطلّبتْ مجهوداً كبيراً في حينه ، نوجزه :

كان المستر « ڤكتور ماردسين » المراسل لجريدة « مورنغ بوست » البريطانية من ورسيا القيصرية ، هو أول من ترجم هذا الكتاب عن الروسية . قال : « إن هذه البروتوكولات هي جزء من مقررات مؤتمر « بال » المنعقد في عام (١٨٩٧ م) اختلستها سيدة فرنسية ، من زعيم يهودي ، ووصلت للقيصر ، فأرتاع لها ، ثم أمر بترجمتها عام (١٩٠٢) وبعدها تمكّنتُ أنا من نقلها وإشاعتها » . هذا كلام المراسل بالحرف .

وتثبيتاً لحقيقة هذا المؤتمر ، فقد كشف رئيس الولايات المتحدة الاميركية الفيزيولوجي والفيلسوف : « بنيامين فرنكلن » عن نوايا الاسرائيليين ، وعمّا تأكد له منهم ، ومن انحراف مسلكهم . قبل أن ينعقد هذا المؤتمر ، عقد فرانكلن مؤتمرهُ عام (١٧٨٩) وأوضح فيه للشعب الاميركي ما يلي : « هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة ، ذلك هو : « اليهودية » . يزعزعون الخُلق . . . كوّنوا حكومة داخل حكومة . . . هم خطر على هذه البلاد . . يجب منعهم من الدخول لأميركا » . لقد فعلت. [illegible] نمنعها ، ودخلت السياسة إلى صميم الصرح الاسرائيلي الطاهر ، المنبثقة منه العدالةُ والمحبةُ ، المنتصب على شرفاته أقدسُ ما عرف الفكر الروحي من قيم وما نادى به من خير وصلاح وتعفف وزهد ، انبياؤه القُدامى امثال : ايليا ودانيال وأيوب وامليخا . بولوج السياسة إلى هذا الصرح ، تزعزعت دعائم الصدق والعدالة فيه ، وانطفأ نبراس المحبة ، لتستعر نيران الكراهية والبغضاء والعنف والترويع والاغتصاب ، بدليل الروح المتخلّفة خلقياً ودينياً، التي نصّتْ كتابَ البروتوكولات والتي مارست الاحتلال والقهر والتشريد .

هل من إطلالة خاطفةٍ « ليهوه » صارخاً في صِهيون : لستُ بربكم يا سفّاحون. ثم هل قُدِّرَ للاسرائيلية أن تستمر متماسكةً ؟ وماذا كان من تفسُّخها ؟؟ جوابنا في بحث لاحق ، بظهور فرقٍ مُغايرة ، منها :

الفصل السابع

شهود يهوه

الشُهود :

إن الإله « يهوه » الذي ظهر لموسى على طور سيناء وعبده الاسرائيليون ، امتدت عبادته ـ عند غير اسرائيل ـ لما بعد المسيحية في فرق متعددة اهمها : شهود « يهوه » . انه الاسم العلم لخالق السماء والأرض . تلك الديانة من جذورٍ اسرائيليةٍ وتطلعات مسيحية . تدعو كسائر الاديان إلى الخير والمحبة .

كان إيمانهم بالاله اسرائيل والعهدين القديم والجديد ، وبحرفيّة تعاليم الانبياء . ايماناً راسخاً ، ركزوا عليه كل مبادىء دعوتهم ، وطافوا وما يزالون ، مبشرين بهذه العقيدة .

قلما يختلف رأيهم في الاله ، وآدم ، وابليس ، ومهمات يسوع ، والقيامة ، عن الاسرائيلية والمسيحية . هذه ابرز عناصر دينهم .

وفي محاولتنا الاقتضاب ، نلقي نظرة موجزة معبرة ، عن هذه العناصر ، وعما له صلة مباشرة بها . اقتبسناه من كتاب « الحق الذي يقود إلى الحياة الابدية » .

١ ـ الله : على صورته عمل الإنسان (سفر التكوين ٩ : ٥ ـ ٦) . انه اله موسى « يهوه » وهي اللفظة التي ذكرها الكتاب المقدس . كان يكتب اسمه حروفاً متقطعة بالعبرية (ي ـ هـ و ـ هـ). ولم يرغب رجال الدين في ذكر الكلمة كاملة ، لعدم وجود طريقة تعرف بها الحركات الصوتية بالعبرية ، مع تلك الحروف الساكنة : (ي ـ هـ ـ و ـ هـ). وقيل : إن عدم ذكره تعظيماً له . هو خالق كل الاشياء ، وبإرادته كائنة كلها .

عند الشهود : الله يعني محبة . ولا يستعمل قوته الا لخير الذين يسلكون النهج الصواب (يوحنا : ٤ ـ ٨). انه العلة الأولى والعظمى ، خلق كل الاشياء ، بما فيها الأرض والسماء ، ثم وضع الزوجين الأولين (آدم وحواء) في جنة جميلة هي :

الفردوس ، وامرهما بأن يُكثرا ويملا الأرض . (التكوين ١ ـ: ١ و ٢٦ ثم يوحنا ١٧ : ١٧) .

الروح القدس ويسوع :

أما رأي الشهود في الروح القدس ويسوع ففيه اختلاف بَيِّن : الروح القدس « هو قوة الله الفعالة » وليس بشخصٍ ولا هو روح ، ولا شبه شخص ، ولا جسد أثيريّ . ليكون اقنوما ثالثاً . يقول الشهود إن الفِرق في الديانة المسيحية تعلم أن الله « ثالوث » رغم أن كلمة ثالوث لا وجود لها في الكتاب المقدس . وقد أُكد على ذلك وأصرَّ : مجمعُ الكنائس العالمي ، في الآونة الاخيرة مؤيداً عقيدة وجودِ اله واحد : الاب والابن والروح القدس ، أي ثلاثة اقانيم في اله واحد . وإن الدستور « الاثناسيوسي » ، في القرن الثامن للميلاد ، صرح بأن الثالوث نفس الجوهر . لا بداية لهم ، وهم على كل شيء قادرون . وما قال أن الثلاثة هم اله واحد بل من نفس الجوهر الإلهي .

لكن شهود يهوه يؤكدون أن كل هذا ، لا يتفق مع الكتاب المقدس ، ولا يطمئن إليه فكر سليم . ولكي يثبتوا حجتهم عادوا إلى دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة (الطبعة ١٩٦٧ المجلد ١٤ الصفحة ٣٠٦) فوجدوا : عقيدة الثالوث الأقدس لا يجري تعليمها في العهد القديم . كما وجدوا أن هذه العقيدة يعود تاريخها إلى نحو (٣٥٠) سنة بعد موت يسوع المسيح . وقد استند هؤلاء على ايمانهم بأن « يسوع » ليس هو الله بالذات . وحسب كلام الحواري الجليل « مرقس » : « لم يكن « يسوع » على الأرض معادِلاً « لأبيه » لانه قال أن هنالك أموراً لا يعرفها هو ولا ملائكته ، الا الله وحدَه » (مرقس ١٣ : ٣٢) . ثم استشهدوا بِقَول يسوع نفسه : « أبي أعظم مني » (يوحنا ١٤ : ٢٨) . وإن يسوع عبدالله وسيخضع له ساجداً ، كما ذكر ذلك الرسول « بولس » في اكو (٥ : ٢٨) . ماذا يرى الشهود في يسوع المسيح ؟ هل انكروا قدومه كاسرائيل ، أم اثبتوه ؟ وما مهمّاته طالما ليس الهاً ؟؟ هل للشهود حجّة أُدمغ من كلام يسوع نفسه أو من كلام انبياء الله ؟ والانبياء هم ناقلو النور الالهي المبثوث في موسى ، فكيف لا يصدقون ؟؟

قال يسوع « أنت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي ارسلته » .

(يوحنا ١٧ : ٣) ما قال يسوع : « الذي ابدعته من نورك بالذات ، ولا قال : ابنك . . »
وقال لوقا (١ : ٣٥) « مجيء يسوع من غير إبٍ بشري كآدم ليكون كاملاً ، مجرداً من الخطيئة ، لانقاذ البشر » .

اعتبر الشهود: المسيح من سلالة داود، وسيصبح حاكماً على الأرض جمعاء، وهو المخلص : (أشعيا ٩ : ٦ و٧) واعتقدوا بأن يسوع المسيح كان موجوداً روحاً سماوياً ، قبل أن تكون ارض ، وبواسطته كانت . وانه يحمل في السماء اسم : «الكلمة لوغس » (يوحنا ١ : ٣ - ١٠ - ١٤)، مستندين بذلك على تصريح يسوع : « مجّدني أنتَ أيها الرب ، عند ذاتك ، بالمجد الذي كان لي عندك ، قبل كون العالم » . (يوحنا ١٧ : ٥).

نصل بهذه التصريحات في « يسوع المسيح » بنظر الشهود ، إلى المسيح المنتظر لدى الاسرائيليين . فالمهام هي هي . كذلك هي هي ، بالنسبة للباطنية الاسلامية التوحيدية ، حيث هو في معتقدهم : العقل الأعظم ، أول الموجودات والقيِّم يوم الدين .

آدم : في معتقد الشهود؟؟

انه من تراب الأرض ، جبله الرب ونفخ في « أنفه » نسمةَ الحياة ، فصار « آدم » ، نفسا حيَّة وغدا انساناً كاملاً . جعل الجنس البشري يخسر الحياة بما ارتكبه . ومقابل هذه الخسارة ، وجب تقديم ذبيحة صالحة من الجنس البشري ليصفح عنه ، لأن كل إنسان ورث هذه الخطيئة عن جده آدم . ولما كان البشر قد اصبحوا كلهم خطاة ، فقد ارسل الرب « يهوه » ، ابنه الوحيد ، ليغسل بدمه خطيئتهم » (تيموتاوس ٢ : ٦ وافسيس ١ : ٧).

بواسطة يسوع غدا الانقاذ ممكناً للجنس البشري. فآدم بارتكابه مع «حواء» هذه الخطيئة ، اورثها تلقائياً إلى كل ذريته ، لانها انحدرت عنه ، بعد صدور الخطيئة ، فشاركته الاثم وطالها الموت ، وإلا لكان الإنسان خالداً على الأرض عائماً بخيراتها .

طالما أن الخطيئة قد نزلت على الأرض وتجاذبتها نفوس البشر ، كلٌّ قدر عنصره ، فهل مِن حافظ لهذه الخطايا ، وهل من موِّزع لها ليستمر بقاؤها وتزداد تأصلاً في النفوس ؟
نعم هناك أرواح شريرة على رأسها إبليس . ما هوِّياتها ؟؟

ابليس :

يقول النبي موسى في تكـوين (٦ : ٢ و ٤): « إن هناك عـدداً من الملائكـة (خلائق روحـانية) تـركوا السـماء ، ابتغاء شهـوات الأرض ، ففسدوا وعـاثوا فيهـا ، حتى حصل الـطوفان . وبعـده عادوا إلى الحَيِّـز الروحي في منـطقة مـظلمة في السماء ، وحُجـزوا فيهـا . لهم سلطة خطرة عـلى الجنس البشري ، يمارسـونها حتى اليوم ، بتـوجيه ابيهم « إبليس » رئيس الشياطين : التنّين العظيم . وإن السحـر والتنويم والعـرافة كلهـا ، من هذه الخلائق الشريرة » .

وإبليس هـو فوق الـطبيعة البشريـة ، انه روحـاني . تكلم بلسان الحيـة التي أغوت حواء وأغرتهـا . وإن الرؤيـا (١٢ : ٩ ـ ٢) و ٢ كورنثـوس (١١ : ٣). تفتح امـامنا نـافذة نطل منها على يسوع ، مُصرِّحاً بما خلاصته : اعترف يسوع بوجود أرواح شريرة على رأسها ابليس أبو الكذب . تمرد إبليس على الله مدعياً الربوبية لنفسه ، وساق حواء وآدم بواسطة الحية إلى اكل الثمرة المحرمة ، وارتكاب الخطيئة . في رأى الشهود أن إبليس الشيطان هو ذُاتـه « الحية القـديمة » أي الشخص الـذي أدخل التمرد إلى الكون. انـه يعمـل جـاهـداً لتضليل الشعوب .

الموتى :

طالما أن لكل حي نهاية ، ونهايته الموت ، فما موقف الشهود من الموتى ؟؟

يقـول معتقدهم : « يعلِّم الكتـاب المقـدس أن المـوتى في قبـورهم هم في حـالـة لا وعي ، ولا حياة . والادعاء بمكالمتهم ضلال مبـين وبُهتان . في القـبر ، إذا كان من كـلام فللأرواح الشريـرة » . فالموتى يعودون تـراباً كـأصلهم ، يهلك المـرء وتهلك معـه افكـاره نهائياً . مزمور (١٤٦ : ٤).

هذا بيان صريح على عدم خلود الروح لدى الشهود . نهايتها القبر ، عـلى أن الرب يعيدها للحياة إذا كانت بارّة به ، وإلا فهي للعدم المحتوم . ولنسمع ما يقول الانبياء :

الروح والنفس :

« مـا يحدث لبني البشر يحـدث للبهيمة ، مَـوتُ هذا كَمَـوْتِ ذاك ، ونسمـةً (روح بالعبرية) واحدة للجميع . كان كـلاهما من الـتراب وإلى التراب كـلاهما يعـود » . (سفر

الجـامعـة ٣ : ١٩ ـ ٢٠) وقـال حـزقيـال : « إن الـنفس الـتي تخـطىء تمـوت » . (١٨ : ٤ ـ ٢٠).

يشبهون الروح في الجسد ، بالقـوة الكهربـائية في بـطارية سيـارة ، فهي عاجزة عن الكلام والتفكير والسماع . وانهم يفرقون الروح عن النفس إذ يقولون : إن النفس البشرية هي الشخص الحي ذاته ، أما الروح فهي مجرد قـوة الحياة التي تجعـل هذا الشخص قـادراً على أن يحيا . الروح لا شخصية لهـا ، بينما النفس لهـا شخصيتها ، لانها الإنسـان ذاته . وعنـد الموت ، تـرجع الـروح إلى الله ، والنفس مع جسـدها إلى أصلهـا الترابي . (سفـر الجامعة ١٢ : ٧) (المرجع السـابق ص ٣٨) . وإن الله سيعيد الـروح إلى جسدهـا الأول فتتلبّسه ، وتقيم على الأرض ، في نعيم سرمدي . انها موجودة ابداً ، وتنتقـل وقت الحَبَل من الآباء إلى الابناء . فيما إذا كانت مخلصة لله « يهوه » .

وقد حدد كتاب الأمثال النفس بقوله : « إن نفسك هي حقاً أنت ، بكـل صفاتـكَ الجسدية والعقلية » . (٢: ١٠).

لماذا نموت ؟

يقـول سفر التكـوين (٢ : ١٧) : أمر الله آدم وحـواء أن يمتنعا عن الأكـل من ثمر أحـدى اشجار الجنـة فعصياه وأكلا . وحيث أنه مـا كان متجـداً بعدُ لهـما ابناء ، إلا بعـد المعصيـة ، لذا فقـد جاء النسـل كله خاطئـاً ، تحت سلطان « الموت » الـذي هو قصـاص الخطيئة . (مزمور ٥١ : ٥).

وكيف يتأتّى لنا أن نحيا بعد أن صرنا رميماً؟؟ وهل سنحيا حقاً ؟؟

القيامة :

« يعد الخالق بأن التمتع بالحياة الابدية سيكون ممكناً عما قريب ، هنـا على الأرض » (اصحاح اشعيا ٢٥ : ٨).

قالت الرؤيا : سيكون مع يسوع في ملكوته السماوى (١٤٤) الف ملاك وكـاهن ، يأخذهم الله من بـين الجنس البشري (٥ : ١٠ و١٤ : ١ ـ ٤ ـ ٥). الأرض كلها ستغـدو حـديقة جميلة كبـيرة ، تحت السيطرة الحكيمـة ليسوع (مـزمـور ٨ : ٤) وقـال (متى ٢٥ :

٣١ و ٣٢) « متى جاء ابن الله . . .. تجتمع امامه الشعوب فيميز بعضهم من بعض ، كما يميز الراعي الخراف من الجداء » .

قالت امثال (١٠ : ٧ ورومية ٦ : ٢٣) : « من أسلف الصالحات ، مُقراً بالاله « يهوه » إلهاً واحداً احداً ، قام من القبر جسداً وروحاً ، خَلقاً سوياً ، وعاش مؤبَّداً في نعيم دائم ، أما الأشرار فانهم يضمحلون ، وإلى العدم يعودون . » هل أتى هذا الإيمان على مصير الروح ، ومفاتن الحياة الثانية ، يوم كانت انبياء اسرائيل ؟ وهل صرحوا بها لإرهاب شعب اسرائيل ، ووقف روح النزق والشهوة الجامحة ، والكفر ، الذي وقع في حبائله معظم الشعب الاسرائيلي قبل النفي لبابل ؟!؟

يوضح النبي « أرميا » هذا القول بالعبارة الموجزة الآتية : « منذ الآف السنين عاش رجال الايمان منتظرين بشوق يوم ابتداء حكم ملكوت الله » . . (١٠ : ١٠) .

ما يعني هذا الملكوت ؟؟

المصير :

« سيفرغ يسوع المسيح » المدفن العام للجنس البشري (الهاوية) من الموتى . بعضهم ينال قيامة إلى المجد السماوي ، كخلائق روحانية ، كما نالها « يسوع » (سفر رومية ٦ : ٥) أما غالبية الجنس البشري فيلبثون على الأرض يتمتعون بفردوسه المسترد (لوقا ٢٣ : ٤٣) تبقى هذه المتعة مع نِعمة خلود الإنسان بغير ما موت ، ما دام سائراً بموجب شرائع الله البارة (اشعيا ٢٥ : ٨) . وعلى الحياة الأرضية يتعارف الصالحون : أقارب واصدقاء ، حيث نظام عادل بغير موت ولا آلام .

الهاوية : ما الهاوية؟؟

معناها بالعبرية (شيول) وهي الجحيم . كل هذه الالفاظ قصد بها الكتاب المقدس : المدفن العام لكل الجنس البشري . أما جهنم أو « وادي هنوم » فهي (بُحيرة النار) وتعني الموت الثاني ، وليست عذاباً واعياً . هي الهلاك الأبدي . وكلمة « مطهر » و « تطهير » لم ترد قط في الكتاب المقدس ، ولا حاجة لذلك ، لأن الموتى هم في حالة عدم وعي ، فكيف يتطهّرون ؟؟

وبعد الاختبار الدقيق باحصاء « يهوه » و« يسوع » معاً ، ينال الخاطئ الموت الثاني أي الفناء مع الابالسة (رؤيا . ٢٠ : ٧ ـ ١٠ ـ ١٥) .

لن تعيش على الأرض ، خطيئة وخاطئون ، مدى الازمنة بل تسبيح باسم يهوه . نستخلص من كل ذلك :

١ ـ إن يهوه هو الإله الواحد الأحد ، وأن يسوع هو بدء الخليقة كان قبل أن وُجدت .

٢ ـ هنالك ملائكة وابالسة ، وآدم أبو البشر : موجد الخطيئة في الجنس البشري .

٣ ـ النفس هي الجسد نفسه وتموت بموته ، والروح تبقى عند الله ، وبين البشر ، بانتظار حلولها في جسد جديد يوم القيامة الكبرى فقط . انها قوة الحياة .

٤ ـ للإنسان حساب على اعماله : الصالحون تستردّ ارواحهم اجسامها ، وينعمون بحياة ابدية منعمة ، والاشرار إلى الاضمحلال جميعاً ، ولا غفران .

٥ ـ الحساب الأخير هنا على الأرض ، يقوم به الاله يهوه ويسوع ، بعدالة ومحبة وحزم .

الفصل الثامن

الكبالية

الكبالية :

تعني الكبالية بالعربية : « الاحاديث المنقولة » . تؤمن ايماناً عميقاً بالله يهوه وبالعلاقة المباشرة به ، والموجودات المرئية والغامضة منبثقة ، من قدرته الخلاقة . وما تركيب الخليقة إلا ومضاً من ألوهته . « ب . سبينوزا B. Spinoza . » تؤمن هذه العقيدة بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى . يشارك هؤلاء الرأيَ الفيلسوف سبينوزا ، قائلاً باستحالة كشف تناهي جلالته ، بالمنطق السليم ، بل في « البصيرة » وفي الأسرار العميقة الجذور ، إذ كل غموض روحي يتعدى كل الفلسفة .

انها عقيدة يهودية غامضة ، توغل في ما بعد الطبيعة ، عريقة في القدم ، قِدم الإنسان على الأرض ، تعتقد بأن الشريعة التي تسلمها موسى ، انتقلت منه ليوشع ،

فالانبياء ، حيث غرسها هؤلاء بذوراً روحانية الجنى ، في صدور الشيوخ الحكماء . تضم الكبالية : التراجم الباطنية للاسرائيليين . وما الكبّال في حقيقته الا الكشف اللفظي الذي تلقّاه موسى وحده بعد الشريعة المخطوطة ، من ربه يهوه . انه المعنى الصحيح لكل مفاهيم ورموز التوراة .

اعتبروا مجد الله متمثلاً في عرش ، تحدّث عنه (حزقيال) وهو خفي داخل «ستاركوني» خبيء ، كأنما هو : «المايا» ذات القدرة المتناهية . للوصول إلى هذا العرش ، يجب اختراق سبع غرف في القصور السبعة المقدسة ، ولهذه الغرف اثر عميق في المستوى الذي يبلغه الفرد من الطهارة .

آمن الكبّال بأن سفر الجزيرة (Yetsirah) يشرحُ خلق العالم بواسطة اثنين وثلاثين طريقة ، منها عشرة اسفار (Sephiroth) واثنان وعشرون حرفاً . كلها تمثل اسماء الالوهة ، وقدرتها هذه الـ (Sephiroth) كأنما هي شجرة ذات ثلاثة فروع ، مقطوعة في الفضاء ، البعيد ، وهي مقلوبة الوضع ، جذورها في السماء ، واغصانها تشمل الأرض ، كالندى البليل الأقدس .

الفرع الأول هو الرحمة والغفران ، والثاني : القسوة والعدالة ، والوسط منها يماثل شجرة آدم في الجنة ، وهي محور العالم حيث يقوم انجاز الخليقة .

إن الإتّحاد بالألوهة (Deuckuth) هدف للكبّال . وقد استطاعت هذه العقيدة الباطنية أن تجتاح معاقل المسيحية الأولى ، ثم المُعاصرة ، بعض الشيء ، وأن تتغلغل في عقائد فارس واليونان ، كما يتضح من الفصول المعنية بها .

تهدف الكبالية إلى معارف باطنية ، تعدت الادراك ، بواسطة التأمل والاشراق . (الكتاب المقدس ص ٩٠) وهذا التأمل هو اتحاد باطني بين ارادة الإنسان والله .

تمتد حياة الكبال بين القرن الأول قبل المسيح حتى القرن العاشر بعده . هي عرفانية التوراة والتلمود .

المَركبَا :

تناول المركبا انبياء الرؤى، ولم يهتدِ إلى تعريف واضح اليها إلا المؤرخ (شوراقي

Chouraqui) حين قال : « انها البرج السماوي المنتصب في أقصى السماء السابعة ، تحدث عنه « اخنوخ » : انه « عرش الله » . هذا التيار الباطني اليهودي الذي تشتمل عليه « المركبا » هو أبعد ما ارتسم بخاطر يوحنا المعمدان وحزقيال في رؤاهما .

يضيف المرجع : « لا يكفي التأمل المركّز على طبيعة الله ، في حال الذهول ، بل في عمق التحسس في تجليه على «المركبا » حيث محجة الفلسفة العرفانية .

العرفانية

عرّف هذه الفلسفة (Gnose) الروحيُّ الكبير (لايزْغانْغ Leisegang) فقال : « هي معرفة الحقيقة التي تتعدى الاحاسيس في مرآها الأزل الغامض ، وانها وثيقة الصلة بالوحدة الالهية وبالأرواح والملائكة » .

هذه العرفانية التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني والثالث بعد المسيح ، تفّرق بين الله المجهول والقريب والصالح ، وبين الخالق الذي وحَّدته اليهودية في إله اسرائيل .

بهذا المدلول ، عرَّف المؤرخ (شوراقي) العرفانّية . واني اراه تعريفاً لحقيقة تاريخ التوحيد في العالم . فالبدائيون نزلوا الكهوف والأدغال ، الذين عرفهم كبار رجال التاريخ بأنهم كانوا يتحسسون القوة الخفية الخلاّقة وان « اتون » مصر ، وهرمس ، واخناتون ، كلهم نادوا بوحدانية الخالق ، وعظيم قدرته ، وكانت اناشيدهم الدليل الحق على تفهمهم كنُه العرفانية هذه . وهل كان الاسينيون والمسيحيون الاوائل ، إلا من هذا الرعيل الميمون ؟ حين تزايد وعي الإنسان ، ولم تَعُدِ الفطرة وحدها هي المالك لزمام اهوائه وافكاره ، برزت العرفانية بمضمونها ، دون أن تلبس أي مدلول لها . أليست رؤى الانبياء القدامى زبدة العرفانية ؟؟

ولنسمع لهؤلاء العرفانيين ، « الكبَّال » رأيهم في الخالق والخلق والانبياء :

الخالق :

قال احد حكمائهم : « الله هو الحقيقة عينها ، اما الحقيقة فليست هي الله . انه متعال غير مجسد ، يتعدى جوهره الادراك البشري ، جوهره متماسك بالعالم . أليس هو القائل : « إن النفس التي تطير على اجنحة الملائكة ، (النفس الخيرة) قادرة على المضي

بين اشداق السباع ، وملِّ الافاعي الرقطاء دونما أذيةٍ ولا خوف » .

الخَلق :

كان اعتماد « الكبال » في النظرة إلى بدء الخلق ، على سِفر الظُّهور (Zahar) الذي يقول ، أن الله أول ما خلق : « المدى » ، تتوسطه شرارة أولية لها شكل « نقطة » . منها تفجر الضياء الذي حوى مادة العالم . وفي تأويل لسفر الظهور ، يوضح أن المسيح هو مؤسس العالم الحالي ، وليس الأول . إذ قد سبق عوالم وعوالم كان يحكمها ملوك « أدوم Edom) واضمحلوا . والعالم الأول مركب من انغام وحروف ذات طابع الهي ، ما كانت هناك مادة ما . تشكل العالم من (٤٤) حرفاً ازدان بها اسمه المقدس . وتشكلت من الأحرف اكاليل في الجهات الأربع ، تركُّز عليها العالم ، كالحلقة من الخاتم .

هذه اللفتة إلى عوالم سبقت عالمنا الحاضر ، اعترف بها الباطن الاسماعيلي ، كما ألمحَ إلى امكانية ذلك العالم « أيْنشتين » في كتابه (النسبيَّة) . فالكباليةُ هي السابقة إلى هذه اللفتة .

وما دمنا مع بدء الخلق فلنتعرف إلى مولد البشرية في هذا المعتقد العرفاني :

اثبت سفر الظهور (I ٢٣٣ b) ما يتقدم : تهبط الأرواح من الحديقةَ العليا (السماء) إلى السفلى مقرّ « آدم » ، ثم من هناك تتابع هبوطها حتى الأرض . اثناء الحمل تتلبس الروح شكلاً اثيرياً سابحاً فوق اجساد ذويه .

المسيح :

هو ابن داود ، قدومه يبشّر بالخلاص . وهو أول ما خلقه الله من موجودات ورفع ملائكته . إذاً فالمسيح ليس ابن الله ، بل أقرب الخلق إليه ، واحبهم له وأصفاهم وأولاهم . انه الصادق الحي مؤسس العالم .

الملائكة :

للملائكة دور خطير جداً ، في عقيدة الكبّال . هم ارواح إلهية تلبَّست اجساداً بشرية . اعظم الملائكة ثلاثة ، قدموا لابراهيم وبشّروه بمولوده اسحاق ، والرابع الذي هبط وانقذ « هاجر » من ضياعها في كبد الصحراء ، والخامس الذي بدا « ليعقوب »

وانجده للحصول على بركات الله .

أمّا تقدمة القربان لله ، فتجعل تماساً مباشراً به . وقد تحدثت عنه معظم الاسفار .

الاسفار :

اعظم الأسفار في عرف « الكبال » هي سفر الخروج وسفر الأسفار . مُستقى مُعظم العقيدة. يتخذون من النور ظاهرة مقدسة ، إذ تلتمع القوى العاقلة في الإنسان كما يتألق البهاء في السماء (حزقيال) : (٢ ـ VIII) وسفر (الجزيرة) هو كتاب الخلق ، يسوق النفوس للتمتع برؤية « المركّبا » (العرش الآلهي) أما (الظهور) فهو كتاب البهاء ، ملتقى الروحانيات في الأديان السماوية .

النجوم :

تقول العقيدة معتمدة على (الظهور Zohar) : إن للاجرام السماوية تأثيراً مباشراً على الإنسان . لكل نجم تأثير على عُضو . النجم « زُحل » يؤثر على الطحال ، والمشتري على الكبد ، والمريخ على الصفراء . وبما أن هذا التأثير ينجم عنه التزوير والكفر والقتل ، نجد التوراة تعتبرهُ شرّ الطوالع .

عرفنا من مضمون العقيدة أثر النجوم في الأجسام ، ولم يذكروا لها أثراً في النفوس ، ذلك دليل على عدم تأثيرها فيها .

النفوس : (الأرواح)

أشرنا إلى حلول النفس في جسد الوليد ، بعد أن تكون شكلاً اثيرياً في فضاء العائلة . عمرها على الأرض محدود ، لكن مصيرها إلى أين ؟؟ قال الـ (الظُهور) : انها تصعد خلال ابراج الملائكة ، لكي تعود إلى مستقرها الآلهي ، في ذلك الصفاء المتناهي . وقد يحدث للنفس ، هذا التصاعد من غير أن يموت المرء ، وذلك في حال الانجذاب والانخطاف «الصوفي العرفاني». يتم صعود النفوس في مراحل حتى السماء السابعة ، حيث

عرش المجد « المركبا » . ولكن لا يتسنّى لها هذا الصعود إلا بعد اكتمال صفائها ، وتطهيرها من ادران المادة . إذ هناك عقيدة تنافي التلمود . اعتنقها بعضهم ، عن طريق الشرق القديم ، وهي نقلة النفوس (التقمص) التي كانت ظاهرة غريبة في الكبّالية النظرية . وألمح كتاب (الظهور) عن نقلة النفس في (III ٢١٥ b و A٢١٦) تلك الظاهرة التي نادى بصحتها فلاسفة اليونان : فيثاغورس سقراط وافلاطون الخ . واعتنقتها الهندوكية ، واخيراً جهر بها مستنداً على دراسات علمية وتقصّ شاق : علماء الروح المعاصرون .

ما دام لكل عقيدة مُناهضون من صميمها ، كذلك الحال في الكبّالية :

١ ـ يعقوب فرانك مفكّر اسرائيلي : صرح برفضه كلّ شريعة وبدعة ، وقال : « خلق الإنسان لكي يسعد ويغنم مسرات الأرض . فعلى اليهودية بشيعها أن تتمتع بأنفتاح ، وحرية ، وتفكير في حياتها اليومية ، غير مرتقبة مجيء مسيحها » .

٢ ـ ان اليهودية بعد عام (١٨٨١) نقضت كثيراً من تعاليم ديانتها ، وعادت إلى روح التسلط والعنف ، بانبثاق الصهيونية ، تلك الفرقة القائمة على فلسفة « نيتشه » وفي هذه الحال استمر معظم الكبّاليين ملتزمين بتعاليمها ، مسترسلين في انخطافهم الروحي السليم . وجاء المفكر الكبير : برنيش فْسْكي ، Bernich Vsky) يعلن أن الإنسان هو نفسه عين الخليقة ، وأن ارادة الإنسان هي بالحق : إله الخليقة .

٣ ـ غير أن الماسونية . واشياع « الصليب الوردي » ، اتخذوا من معتقد « الكبّال » كثيراً من العبارات ، اضافوها إلى خطهم السرّي . والكبالية المسيحية لا تختلف عن اليهودية الا في مرجعها إلى يسوع وحده .

وقيل عن المُلهَم الالماني (إ . لوريا I. Luria) المولود عام (١٥٣٤) ، انه كان يسمع همهات النفوس في المياه الغالية ، ويسمع تحركات الشجر وذبذبات اللهب . ثم له الاتصال ـ بعُرفه ـ بإيليا ويسوع .

هناك جماعة من صُلب الكبال ، متطرفون في الانخطاف ز الحسّيديون ، Les Hassids) . يتحملون الاهانات والعذاب حتى الاستشهاد بفرح ، ذلك لمجد الله .

وعقيدتهم مزيج من أسرار اليهودية والمسيحية . أكثر تواجد هؤلاء في بولوينا ، بالقرن السابع عشر .

ومدرسة « صَفد » الكبالية ، تؤمن باعتزال الله بعد تجليه السابق ، تاركاً للبشر اختيار المصير . نجم عن ذلك إستِعارُ الشرِّ وتفشّي الخطيئة .

وتلك أخر حركة روحيه باطنية تسرّبت إلى معظم العائلات الاسرائيلية : إنها الاسيِّنية .

الفصل التاسع

الاسينيون

ما كان معروفاً غير نزر يسير عن الفرقة الاسرائيلية المسمّاة « بالاسِّينيَّة » حتى اكتشفت عام ١٩٦٨ م حول « البحر الميت ». لهم آثار جمّة وعلى غاية الاهمية . دلت هذه الآثار على أنه كان هناك فرقة يهودية تدعى « المعتصمون بالميثاق الجديد » تعتقد بأن رئيسها الملقب بـ « معلم العدالة » كان قد اختفى مع اسمه الصريح ، واختفاؤه ما برح غامضاً في يقينها . يعتبرونه صعد إلى السماء وسيعود اخر الزمان ، ليقيم الحق . إن معنى كلمة (اسَّان) : القديس ، الصامت الشافي . وزُّعوا مقتنياتهم فيما بينهم ، وفي انزوائهم اقاويل متضادة .

يذكرنا هذا الاختفاء والتأكيد على عودة المعلم حاكماً عادلاً ، بالمهدي المنتظر لدى الشيعة ، وبالمسيح عند اليهود ، وبالعقل الكلي ، في المذاهب التوحيدية الباطنية .

يقول : « ل . بَنْوا Luc Benoist) : « إن الآسينية هي إحدى الفرق اليهودية المتحدة في جمعية على الطراز « الفيثاغوري » . لها روحانيْة عميقة . عرف قديماً انه كانت ليسوع صلات حميمة معهم . اكتشفت لهم ست مئة صحيفة مخطوطة موضوعة في جرارٍ من الفخار ، تعود كتابتها إلى الفي سنة سابقة ، وجُدت في الشمال الغربي من البحر الميت . أوضحت هذه المخطوطات باطنية تلك الجماعة المسماة غالباً بـ « أبناء النور » . يصرفون حياة نُسكٍ وتقشف على شاطيء هذا البحر ، ويتمتعون بأخلاق سامية جداً . شعارهم الصدق والحق » .

لهذه الفرقة الباطنية تنظيم دقيق صارم ، إذ يقسمون جماعتهم روحياً إلى : الطلبة والمريدين والعارفين . كذلك قسم جماعتها : فيتاغورس وأورفوس (Orphée) وحذاهما الباطنيون الموحدون في الإسلام . تعاليمهم جدُّ مُتشابهة بتعاليم الحواريين .

يهوه :

يؤمن الأسينيون بيهوه : المنقذَ الحق . وفي زعمهم أن « ادونيس » هو « يهوه » نفسه . وان الإله يهوه يتدخل بكل شيء ، ويُعنى بمخلوقاته ، وان سيد القيامة جاء سابقاً ليسوع الذي حذاه في العقيدة والمرتبة .

و « لِيوحنا المعمدان » تقدير فائق لدى هؤلاء .

المسيح :

في عرف الديانة الاسيِّنية أن المسيح هو « هارون » نفسه واسرائيل ، والملك الذي سيجيء ويحكم الشعب المقدس . وسوف يتجسد المسيح في شخصية : « معلِّم العدالة » . (رسالة دمشق أ XII و ٢٣ XIII) . وإن « يسوع » ظل لفترة طويلة يعايش الاسينيين . وكثيراً ما وبَّخ رسله الفريسيين والصدوقيين ، أما هؤلاء ، فلم يذكرهم باساءة اطلاقاً ، بدليل الرضى والارتياح إليهم . لا يعتبرون في « العهد الجديد » إلا الكلمة : (لوغُس) وما سواها فقديم كله . المسيح عندهم متمم لديانة سابقة ، وليس مؤسسّاً لدين جديد ، كما في المسيحية الحاضرة .

من انبياء اسرائيل المفضلين في مفهومهم العقائدي : « لاوى واشعيا وأيوب وحزقيال وميشا واخنوخ » . وكُنا ألمحنا إلى أن الأسينيين جماعة نسك وتقشف وصدق لا أكثر . ألا يَجْدُرُ بنا أن نتناولهم بشيء من الوضوح ؟

الشعب الأسيني :

تسميتهم هذه تعني بالعبرِّيةِ « جماعة الله » ، أو المرشدون ، أو حزب الله . هم واحد من الاثنى عشر سبطا اسرائيلياً أنِفوا السُكْنَى في مضاجع الرذيلة ، مع اقوامهم ، فلجأوا إلى مغاورَ ومنازل في الشمال الغربي من شاطىء البحر الميت ، يصرفون فيها عمرهم بين : الصلاة والتأمل والخشوع ، ويغنمون قوتهم بالعمل اليومي ، متشاركين في

كـل ما يملكـون ويُنتجـون . معتـبرين انفسهم الاسرائيلين الاصليـين ، سـالكـين طـريق الهدى . وطهارة النفس . في مقدمة جماعتهم : ابناء « هـارون » يليهم ابناء (لاوي) ثم ابناء اسرائيل المتجهين شطر الكمال .

كل هذه المعلومات ، دلت عليها الصحف المكتشفة على الشاطىء المذكور .

ولتـوضيح هـذا الكشف ، نستعين بـالمرجـع (Laperrousaz ، لاپيرّوزاز) . في عام (١٩٤٧) م اكتشفَ احدُ الرُعـاة على الشـاطيء ، وعلى مسـافـة اثني عشر كلم ، جنـوبي « أريحا » مغاور عدَّة . اسم تلك المغاور : « خـربة قُمـران » . بعد تنقيب الخـبراء ظهرت لهم مغارة دقيقة الصنع ، تحوي مخـطوطات عـلى جِلدٍ ملتفٍّ اسطوانيـاً ومغلَّفٍ بالكتّـان ، موضوعاً في جِرارٍ من الفخـار ، يربـو عددهـا على الخمسـين جرةً . وفي السنـوات التاليـة حوالَي عام (١٩٦٧) . اكتُشفت مغاور اخرى ، ومخطوطات دقيقة وقيِّمة ، تجـاوزت الستَّ مئة ، باللغة السريانية ، وبعضها بـالآرامية والعـبرية . معـظم هذه المخـطوطات تعـود إلى انبياء اسرائيل : للهَدي ، ومعرفة الله ، ومخافته ، واتباع الفضائل .

من اركان معتقدهم الروحي : قوتـان متضادتـان متصارعتـان : ١ ـ سيد الأنـوار ، وهو ملاك الصدق يقابله ملاك الظلمات والاباطيل . يؤمنـون بالقَـدر وبإلـه اسرائيل نفسـه « يهوه » .

طقوسهم :

كـما هي حال زاهـد ، ناسـك ، كذلـك كانت حـال جماعـة الاسينيين . لا يـأبهون للذات الحيـاة وفي مقدمتهـا الجنس . يربّـون أولاد بعضهم بعضـاً ، منـذ صغـر الأولاد ، ويدربونهم عـلى الاعتصام بخـير العمل ، ونبـذ كل مـا يلطِّخ صفاء النفـوس ، ويفرِّقـون مقتنيـاتهم على الآخـرين من صحبهم ؛ ومحذور عليهم روحيـاً ، صنع أيّـة آلـة حـربيـة . والمعوَزون بوسعهم أن يتصرفوا بمال جارهم الموسر . أما الصدق فإنه الطغراء على صفحة توصياتهم . والأعمال اليومية التي يمارسونها قولاً وعملاً هي :

أ ـ الاعتصام بالعدالة والصدق والابتهال والعمل الشريف لتحصيل الرزق .

ب ـ الشجاعة إزاء الموت في مجابهة كل حدث خطير ، لايمانهم الراسخ بالمقدَّر .

ج ـ الإيمان بخلود الروح ، وانها جـاءت من الأثير اللطيف ، وسُجنت في الجسـد ،

وحين تتحرر من هذه العبودية ، ومن كل وشائجها المادية . لدى همود جسدها ترتفع إلى العالم السماوي ، حيث النعيم السرمدي .

د ـ الإنكباب على تلاوة الكتب السماوية وممارسة العبادة واكتساب المعارف الروحية .

إن هؤلاء الجماعات هم الوحيدون من نوعهم . في العالم اجمع ، استطاعوا لأمد طويل أن يعيشوا بغير جنس ولا مال .

الشبه واضح بين تصرفات هؤلاء وتصرف المتصوفين عموماً ، غير أن المتصوف ، يكون منفرداً أو تكون مجموعة متصوفين قليلة العدد هنا وهناك ، أما أن يكون شعب باسره يعدُّ بضعة آلافٍ ، ملتزماً بهذه التعليمات مطبقاً بصدق وبالإجماع اسمى ما تنادي به الاشتراكية ، بعد نيف والفي عام ، ممهورة بالطابع الروحي السليم ، فذلك حجة لمكارم الاخلاق على تأصلها في الجنس البشري ، وعلى أن بهارج الدنيا وفتوحات العلوم المادية في الاكتشاف والابتكار ، وقرب المواصلات ، لم يزد في تهذيب النفوس ، ولم يلجم الانانيات السليطة المدمرة .

ملخص ديانة اسرائيل

في هذه العقيدة ، قبل أن تترسخ وتتطور ، تناقضات ، وباطن رهيب وما يزال .

اعتمدت التوراة (العهد القديم) كتاباً سماوياً ، وابراهيم الخليل مؤسس الشريعة الأول .

سلبوا الكنعانيين معتقداتهم وبعض طقوسهم . حتى كانت الهجرة لمصر ، والمضايقات هناك ، وترحال موسى وجماعاته وضياعهم في صحراء التيه ونزول الوصايا العشر وموت موسى (قتلاً) .

آمنوا (بيهوه) إلهاً محارباً ، متعايشاً معهم ، وهو القائل : « سأدمر كل الشعوب التي تقف بوجه اليهود » .

دخل اليهود فلسطين ، وأسسوا مملكتهم بعد حروب طاحنة فيما بينهم ، وكان داود ومزاميره ، ثم سليمان وبيت المقدس . لهم ثالوث الهي مقدس هو : « يهوه ، والشعب

الاسرائيلي ، والأرض المقدسة » . كما لهم الكتاب المقدس ويحوي : التوراة وأقوال الانبياء ومخطوطات الكَتَبة . ثم أوجد حكماؤهم لهم : التلمود . نادوا بيهوه إلهاً واحداً احداً ، وبان الإنسان مكوَّن من جسد فانٍ ومن روح تستقر تحت التراب إلى يوم بعثها ، ومقاضاتها ، إمّا تسير إلى السماء وطبقاتها أو إلى جهنم .

فُرض عليهم الصيام في أيام خاصة من السنة . ولهم عيد رأس السنة العبري في ذكرى نزول التوراة ، كما لهم اعياد غيرها . لدى توطّد دولة اسرائيل ، شاع في شعبها الفسق والفساد على انواعها. فهب المصلحون فيهم ، وهم انبياء المستقبل ، وعظوا وهدوا ، وعبثاً افادوا . منهم عاموس واشعيا واميليخا . آمن اليهود بالملائكة ومَهامِّها الكريمة ، وبالشياطين ومعاصيها واغراءاتها ، وبالمسيح انه ممسوح بزيت البركة ، كان قبل الخليقة ، ولم يجيء بعد ولم يُصلَب . تأثرت اليهودية بالتيارات الفكرية المستجدّة ، فطور حكماؤها العقيدة بمقتضى الزمان . وكان منهم المؤمن بها ، والعامل على تطويرها ، وكان الرافضون على انواعهم ، واختلاف مدارسهم . منها :

أ ـ شهود يهوه : آمنوا بالروح القدس كقوة فعالة للاله يهوه . اعتصموا بتعاليم وحرفية الكتاب المقدس ، وبأن يسوع غير الله ، مستشهدين بكلامه : « ابي اعظم مني » . وهناك ثواب وعقاب .

ب ـ الكبالية : آمنت بيهوه إلهاً فائق القدرة ، وبالكون : ومضات من كيانه . ثمّ استهدفت معارف باطنية تعدت المدارك . وآمنت بالمسيح أول المخلوقات ، وبالملائكة وبالإسفار ، وبتأثير النجوم على أجساد البشر .

ج ـ الأسيّنية : اعتمدت يوحنا المعمدان ، ونقضت تعاليم اليهود ومفاتنهم ، وآمنت بيسوع مخلصاً وبيهوه الهاً حقاً واحداً . يعني اسمهم بالعبرية جماعة الله . تجمعوا اخويات على شاطيء البحر الميت . وكانوا زاهدين صابرين موحدين . أنس بهم يسوع واحبهم وقَدّروه . تميزوا بالصدق والحق والورع والإيمان بخلود الروح وبصحة القدر لها . ثم انصهروا في مذاهب شتى .

المراجع العامة للديانة الإسرائيلية ومذاهبها الكبرى

بالعربية :

١ ـ تاريخ العالم جـ(١) ص (٦٨٨ ـ ٦٨٩)

٢ ـ تاريخ البشرية ترجمة و . لافون جـ١ ص(٦١٥ ـ٦١٦) . (١٩٦٩) .

٣ ـ سليمان مظهر :

قصة الديانات ص (٣٢١ ـ ٣٨٢) .

٤ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ :

ص (١١٩ ـ ١٣٠) . (١٩٦٦).

٥ ـ (Wachtower) لتكن مشيئتك على الأرض :

طـ ١ عام (١٩٦١) ص (٢ ـ ٥٠) . (٧٨ ـ ١٢٤) .

٦ ـ (Wachtower) :

هل الكتاب المقدس حقاً كلمة الله ؟ طـ(١٩٧١) ص : (١١ ـ ٨٢) .

٧ ـ جريس ابراهيم عبدل :

قواعد السلوكية اليهودية ص (١٥ ـ ٣٣) و(٤٣ ـ ٦١) رقم (٢).

٨ ـ Wachtower : الحق الذي يقود إلى الحياة الابدية طـ(١٩٦٩) ص (٣ ـ ٥ ـ ١٢ ـ ٢٢).

٩ ـ العهدان : القديم والجديد .

بالاجنبية :

1 - Chouraqui: Hist. du Judaisme, 4ème édition, Paris (P:5 - 22) - (35 - 48) - (76 - 97) - (968).

2 - A. Chouraqui: La Pensée Juive; Paris, P: (7 - 28) - (45 - 126), Collect: que sais - je). (968).

3 - E. M.·Laperrousaz; Les Manuscrits de la Mer Morte; Paris (972) P: (5 - 52) (56 - 125): (Collect: que sais - je).

4 - Edmond Jacob: L'Ancien Testament; Paris: P: (27 - 59) - (92 - 124); (Collect que sais - je) (970).

5 - Henry Serouya: La Kabbale; Paris: P: (7 - 40) - (57 - 82) - (87 - 126), Collect que sais - je). (967).

6 - Encycl. Générale (la Rousse): Tome 3, P: (545 - 549) (1968).

7 - Traduction Mourrey: Hist. de la Civilisation; ch (12): P: (22 - 30) (1962).

8 - Ed. Schuré: Les grands Initiés; P: (203 - 263) (1960).

9 - Barrois: Hist. Générale des Religions; Tome 2, P: (338 - 370) (1960).

10 - M. Libert, G.Levitte et E. Touati: Hist. Générale des Religions Tome 4, P: (45 - 55) (1960).

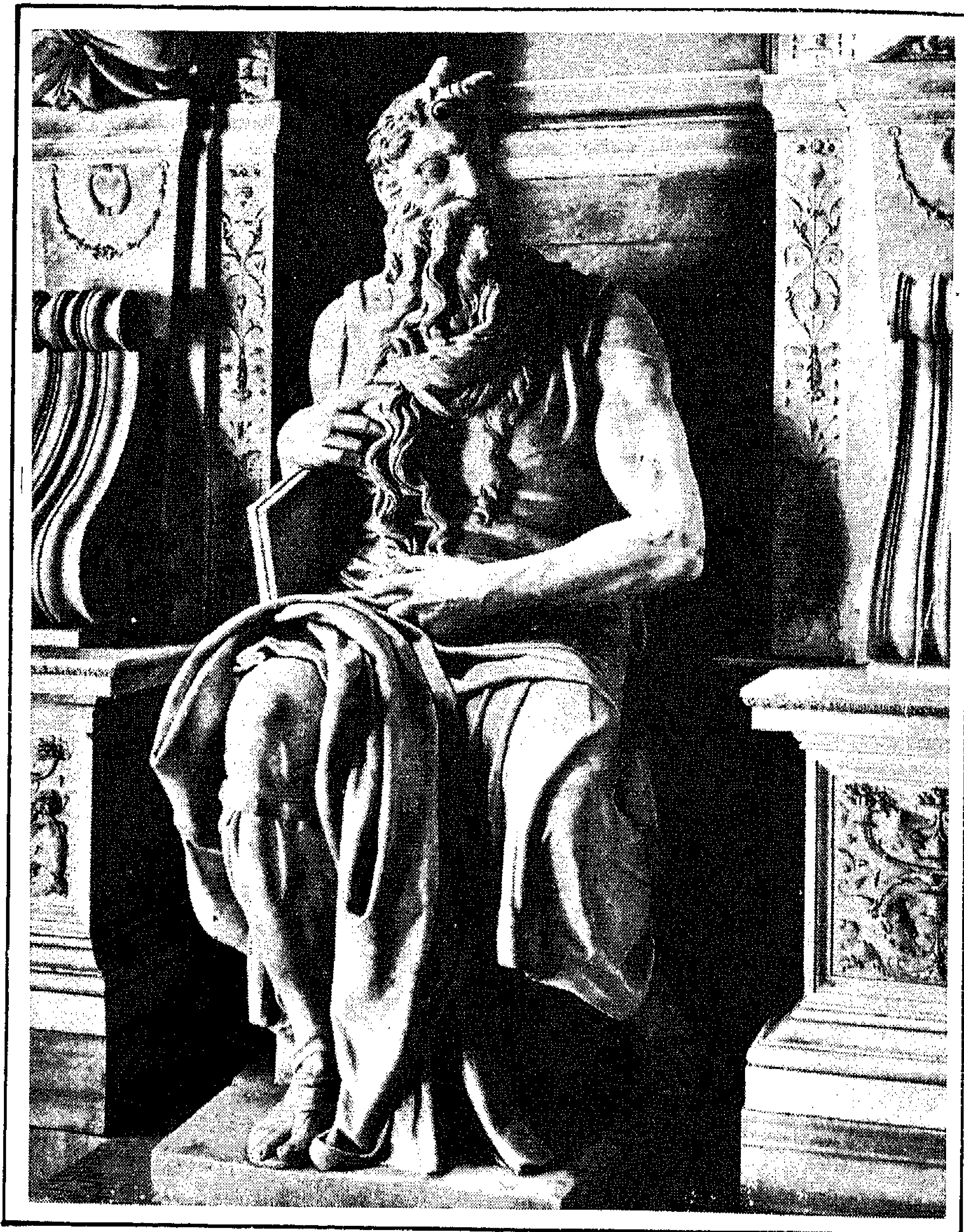
11 - Arthur Hertz berg - (Le Judaisme) Les grandes Religions du Monde tome V - P: (7 - 27) - (203 - 229) - (1966).



موسى في النيل



يوشع وجنديّ



موسى كما تخيله ميكال انجلو



نجمة اسرائيل



الشمعدان المقدّس



النبي أشعيا



النبي حزقيال

الباب السابع عشر

الفصل الأول

اليونـان

منبثق العقيدة في اليونـان القديمـة : معتقدات اليـونان القـديمة : منـذ العهد النيـوليتي العائـد إلى ستة آلاف عـام (ق . م) . ظهرت في نـواحي البلقـان حتى الجـزر جنوباً ، آثار الانسان ، وشرع ينشط ويعمر السهل والمرتفعات والجـزر . منذ ذلـك الزمن الغـابر ، بـدأت ومضات المعتقـد الديني تكحـل العيون . وأي دين هـذا الذي نـزل على هؤلاء ؟ الدين كان قبسـات من الشمال والجنـوب ، ومن أعماق الشرق وصحـاري مصر ، حملتها القوافل ، التي نزلت مستـوطنةً تلك البقـاع الآمنة البكـر . لا كتاب سـماويّ ، ولا شريعة معيَّنة، ولا فكرة خاصة فُرضت فرضاً على قُدامى اليونانيين. إنما كانت قد انبجست من أعمـاق ذلـك الشعب الآمن، المتنـوع الجنسيـات، أفكـار دينيـة مختلفـة، تتـلاءم مـع مشاعرهم ، وتبعث الانتعاش والطمأنينة في نفـوسهم . ولم يتعدَ مـدى إيغال تلك الأفكـار حياة الانسان على الأرض . همُّـه تأمين متطلبات عيشه وسلامته .

بعـد زهاء ثـلاثين قـرناً ، أخـذت تختمر في بـاطن اليونـانيين والأيجيـين عامـة أفكار وهـواجس ، حتى اكتشفت بعض المعـادن : (الـبرونـز والنحـــاس) وتكـاثـر السكـان ، وتنـوعت التيارات الفكـرية ، والتَّمـعَ وعي ذلـك الانســان حينذاك. يقـول مؤلف تـاريـخ البشريـة ، ان كـثرة المؤرخـين يـرون في مضمـون معتقـدات ذلــك الشعب : التـوحيـد

الازدواجي ، وان الواحد مشخَّص بأنثى مهيمنة على الذكر . وبعض المؤرخين خالف هذا الرأي ، ناسباً لليونانيين آلهة متعددة ، معتمدين على الظواهر الشائعة . أولى آلهتهم : الأم الكبرى التي اتحدت بـ (سيبال نوايزس واسترتا) . ثم إلهة الشجر ، سيدة الحيوانات الضارية ، تبدو في نَصبٍ على قمة الجبل ، تُحيط بها افاعٍ عديدة. في مقدمة هذه الالهة كذلك الإلهة الأفعى ، التي استعادت ذلك الاعتبار بسبب سكناها بين الموتى ، في القبور ، مجاورةً لجذور الشجر والخضار ، التي هي العنصر الأول في حياة البشر . كثيراً ما يقدمون لها الخبز والعسل ، ويتباركون في وجودها بجوارهم .

يتميز معتقد هؤلاء السكان ، بعدم وجود كهنة اطلاقاً ، ولا هياكل . هذا في الغابر السحيق . وعقب ذلك ، حسب تعبير الخرافات الشائعة ، عبادة (زيوس ZEUS وزوجته أوروبا EUROPE) أبوا مليكهم (مينوس MINOS) وآلهة الحروب والخصب. ولن يفوتنا أنّ لزيوس عدة زوجاتٍ ، ولا صلة بين معتقد اليونانيين سابقاً ومعتقدات جيرانهم في : - (مصر ، فينيقيا ، وما بين النهرين) . كان الرقصُ المحبَّب لديهم مستوحىً لعبادة (ديونيسوس DIONYSOS) إله الخمرة المقدّسة .

في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، اجتاح شرقي أوروبا قوافل متعددة : (الهندو أوروبيون) وتركزوا في مناطق شتى ، يحتمل أن يكون موطنهم الأم شواطىء بحر الخَزَر . وتوغّلوا في اوروبا الوسطى حتى - ايطاليا .

من طبيعة هؤلاء المجتاحين ، تعشقهم للزراعة الذي فاق ممارسة تربية الحيوانات ، خاصةً الخيول . كان والد الأسرة هو كاهنها في اليونان كما في ايطاليا ، وكانت لغتهم تميزهم عن سواهم من سكان البلاد . عبدوا السلف ، وعبدوا إلهاً خاصاً بكل قبيلة . لكن إلهَهُم الأسمى كان للجميع هو (زيوس) بأسمائه المختلفة . وكانت كما سبق إلهة الأرض الأم ، وإلهة الشجر ، والحيوانات المفترسة . أما الصلوات والأضاحي فما كانت لتقدم إلا لكبار الالهة . في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، عبر بعض الهند واوروبيين بحر (ايجا) واستقروا في جزره المتناثرة . أما في نفسها فقد استمرت الحضارة في تضاعفها وتشعبها ، حتى عمت البلاد بما فيها : (اثينا وطيبة ودلف) وذلك بين (١٦٠٠ - ١٤٠٠) سنة ق . م . كان اعتقادهم بإله الأرض زوج الهتها ، هو نفسه إله المياه المالحة ، على الشواطىء المجاورة كافةً وكان حارساً لمدينة (طيبة) خاصة . وفي العام (١٢٠٠)

ق . م اجتاحت قبائل (الدوريان) الأراضي المسّينية واعتمدت مدينـة (إسبرطـة) قاعـدةً لها .

وبرزت مخالب الفاتحين واستضـرَتْ نفوسهم ، واحييوا الاقطاع السياسي والمادي في البلاد اليونانية . هم نفسهم أبناء (أرغوس ARGOS) مدينة يونانية قديماً ـ احتلّها بعدئذٍ (إسبرطة) . على هذا التفـاوت في المشاعـر والطبقيـات ، كان المعتقـد واحداً في الأسيـاد والمسودين معاً ، كما هي اللغة الأم .

الهياكل : هذه الفترة الزمنيَّة بـين (١٢٠٠ ـ ٨٠٠) ق . م كانت عصبيـة مظلمـة على الشعب اليوناني. لكن (هوميروس) جاءنا بمشعال ثاقب في: (الألياذة والأوديسـا) كما عقبه : (هزيود HÉSIODE) شاعر الأعمال والأيام ، وكلا الشاعرين أغنى خزائن التاريخ بسوانح قيمة ، هتكت حجب الضياع ، على ما تحمل من جموح خيال،وخرافات. في نهاية العصر شرعت العامة تُقيم الهياكل في انحاء اليونان فكان (هيكـل هارا) أولاً في أولمبي ، وديلوس ، وكـان معبـد (ألـوزي ÉLEUSIS ، ودلفـوس DELPHES). في مقدمة تلك الآلهة : (ديونيسوس) الفائق الاعتبار لدى كاهنات (دلفـوس وديئوس) . يـومذاك كـان النشاط الديني محصوراً غالبا في (اثينا) شأن المدارس الفلسفية انكبرى . وجـاء في تاريـخ الحضـارة أن مدينـة : (دلفوس) الـواقعة عـلى منحدر جبـل (پـرنـاس Parnasse) .هي مقدَّسةٍ إذ أول ما بُني فيها معبد للإلهة : (جا GAIA) أم الأرض العجوز ثم بنى كذلـك معبد لـ أپولون قيل ان افعوانا مريعاً كان على عَلى مدخـل المدينـة ، وقد هـاجمه المـدعو (فابوس PHÉBUS) وقتله برمية سهم . منـذ ذلك الحـين شرع الناس يـؤلهون القـاتل ، بعد أن لقبّوه بـ (أپولّون) . وفي الجملة ، فأن ديانة اليونانيين كانت أقرب إلى السحر منها إلى الدين والأخلاقيـات ، وكانت آلهـة الأولمپ نفسُها أبعـد من أن تعطي القـدرة الفضلى للشرف والمكارم ، منها : للحشمة والخجل .

وكـان التيـار الخفي المنبعث من (الألـوزي) معـاكسـاً لتلك الأراجيـح المـاديـة ، المتحكمـة في المدارك والمشـاعر معـاً في اليونـان . كانت عبـادة إله واحـد ، وكان السلطان للعقل الكلي الذي يتولى محـاسبة البشر عـلى سابق أعـمالهم . كان اسم المعلم العـرفاني في تلك الجمعية (پاتاكيون Patakion) وانطلقت هذه التعـاليم المستمدة من مصر القـديمة إلى

الأورفية والفيثاغورية لتعايش الحضارات العالمية قديمةً وحديثة باسم : الباطن التوحيدي أو تما يسمى : بالمسلك الوسط .

الآلهة الأوائل : خلاصة ما توصل إليه المؤرخ (أ . فستُوجيار ، .A. y Festugière) في موسوعة : التاريخ العام للديانات قوله : بعد اجتياح الهند واروبيين للبلاد اليونانية جمعاء ، بحراً وبراً ، بدأت تنفتح بواكير معتقدات روحية ومادية معاً ، أشهر آلهتهم قبل الألف الأول السابق للميلاد كان : زيوس أبو الآلهة (أثنا وهارا ودَامترا Athéne , Hara et Demitre) وثبت أن هذه الأسماء المتَعددة كلُّها تعني الإله الأكبر الأحد ، وفا الخصائص والقدرات الفائقة نفسها ، مما يحمل بل يؤكد على أنها جميعها واحدة ، واختلاف الأسماء ناجم عن اختلاف المدن ، حيث لكلٍّ منها إلهه الخاص . ولا ريب في أن هذه العقيدة امتدادٌ للإيمان بإله مهيمن واحد ، وبإلهة الأرض ، اللذين ألمحنا إليهما فيما سبق .

على تعدد الآلهة . ووفرة الهياكل والعرافات فأن روح كل إله عندهم ، أكانوا كلهم واحداً أم كثرة ، هي خيِّرة بارَّة بالناس تسوق الخصب واليسر والسعادة للبلاد والمعابد في المدن العامرة الضخمة والغاصة بالعرافات على عكس ما هي عليه في القرى النائية فانها متواضعةٌ وأحياناً مُزرية . ماذا تحوي هذه المعابد ؟ وما غاية الإيمان بها ، وإلى أي مدى ؟ ؟

أوضح لنا ، بأسلوب وتحقيق علمي رصين المؤرخ اليوناني (پوزانياس) الذي رزق الحياة في القرن الثاني بعد الميلاد ، فقال ما مضمونه : للحجارة الطبيعيَّة في اليونان القديمة قدسية خاصة ، مردها على ظنه أن (كرونوس) والد الإله (زيوس) حين حاول ابتلاع ابنه ، ابتلع بديلاً عنه حجراً كانت زوجته (رايا RHEA) استبدلته به . ثم تقيَّأهُ ، فكان للحجر هذه القداسة ، وأصبحنا نشاهد بأم العين ، في كثير من الهياكل ، حجارة ، منها ما يرمز إلى أن (ابولّون أسند إليها قيثاره ، وأخرى اغتسل وتطهَّر عليها (اورست) ابن (اغاممنون) الملك الخرافي ، قائد حملة (طرواده) . وثالثة تنفح منها رائحة آدمية ، كأنما منها صنع الانسان الأول . » وهكذا كان إيمان اليونانيين الأوائل بحجارة طبيعية أو هابطة من السماء، مغموسة بزيت القداسة ، خاصة انها منذ العصور المعتمة تحمل في عرفهم منابع السحر . ولن يفوتنا الاعتبار العميق للشجر فهناك إلهة معلقة عليها، بقدس رمزها في

معظم معابدهم . وفي مدينة (إسبرطة) زعموا أن الإلهة (هيلانة) مولدة من شجرة الدلب ، وهذه رمزٌ لتلك . وذكر الكاتب اليوناني الأصل (بلوتارك PLUTARQUE) : أن ديونيسوس معبود اليونانيين ليس إلا ارومة لشجرة مغطاة بالورق الأخضر . كما أن عرافات هيكل (دلفوس) ، قد دفعهم إلى العبادة الباطنية لـلإله (ديونيسوس) لأنها وثقت بما ردّدته العامة في القرن السابع (ق . م) ، وهو أن ريحاً عاتيةً عصفت على شجرة (دلب) فكسرت جذعاً منها . وفي قلب الجذع بدت صورة للإله (ديونيسوس) . منذ ذلك الزمن ، بدت ملامح (الباطنية) في اليونان . وقد اعتبر الأستاذ (پاراتي ، Paraty) هذا الإله دخيلاً على اليونان. وعلى وفرة التقديس للطير خاصة، ولبعض الحيوانات، فإن العقيدة الطوطمية ، بعيدة جدا عن الحدود اليونانية كما هي عن مصر الفرعونية . كل هذه الأشياء من حيوان ونبات وجماد ، إنما ترمز إلى قدرة عليا فائقة ، تتصرف بقدر العباد ، وتمنحها الطمأنينة والسعادة على الأرض . وحين نشأت الباطنية مع (ديونيسوس) تعرف بعض الشعب اليوناني إلى عالم آخر هو أنعم وأبقى . أما السواد الأعظم فمدى تفكيره : « السعادة بثروة طائلة هي الإله ، بل هي أسمى من إله » . وقد أوضح هذا التعبير « بلوتارك » بقوله : فيها أي : (الثروة) مسكن الإله الأكبر .

كان الإيمان بالآلهة عميقاً لكنها ما كانت لتظهر للعيان إلا نادراً . الظاهر منها : صنيعها أو ملامح تشير إليها مثلاً : جاءت الإلهة (أثنا) وراء البطل (أخيل) وأمسكت بشعر رأسه . لم يرها أحد . لكنه أحس بوجودها في أعماقه ، وكإنما هو يرى توهُّج عينيها وعظيم رهبتها . انها الرؤيا بالعين الثالثة ، حسب تعبير العلم الروحي المعاصر . كان هذا الحضور الروحي يحدث مع معظم آلهة اليونان ولأكثر الناس ، وخاصة أبطال الحروب . لعل هذه الظاهرة كانت قد لامست أناملُها الوعي الانساني ، فتفجّر براكين خلق وإبداع في الفن ، والشعر ، وسائر العلوم ، مما جعل الفكر البشري حتى اليوم مديناً لها . وقد يكون بعضها بعيد الصلة بأية نزعة دينية كالخرافات المتداولة والمحببة والمشنّفة لآذان الجموع الغفيرة منهم ، أو تلك البوارق التي ركز علماؤنا عليها شتى العلوم المادية كما كان سواها امتداداً لدين التوحيد « الباطني » الذي ذرَّت أولى نجومه في حلكة الانسان البدائي في الغرب والشرق ، على ضوء دراستنا في مطلع هذا الكتاب .

تشير موسوعة (التاريخ العام للديانات) إلى أنه في البعيد البعيد من العصور قبل أن

تتسرب إلى اليونان تلك المعبودات المادية المختلفة ، وقبل أن تغرق في خضم الخرافات ، ويجمح خيال شعرائها وعرّافاتها في اضفاء رداء القداسة على هذا وذاك ، كان في اليونان وفي بلدة (هازيود) نفسها (تاسبياس Thespies) حجر يدعى (الحب Eros) وهو الذي حمل الشاعر على المناداة بالحب إلهاً . لكن عوامل كثيرة أُثقلت بها الأجيال عواتق الشعب اليوناني الأصيل ، فجاء أما مقتبساً أو خالقاً عن حاجة ملحة ، تلك الآلهة . واننا نلحظ في كل منها روح العطف والمحبة ، وإن لم تكن هي نفسها الحب بعينه .

لقد المعَ إلى القدرة العليا الروحية كلّ من (سَمانيك ، Samanique وبلوتارك PLUTARQUE) التي اعتمدها سكان اليونان خاصة في الزمن البعيد ، قبل اجتياح الهند واروبيين لأرضهم . ويوم تشيدت هياكل (دلفوس ، وديلوس وأولمبي Delphes, Dilos, Olympie) آمنت الكاهنات يومذاك بالألوهة العليا الواحدة ، الوهة بغير اسم ، تتغنى بها الرعاة بين الأدغال وعلى قمم الهضاب . وهل هذا الذات المجهول الاسم هو عينه (أتون) مصر ، وهو ذلك السر الرهيب ، الذي المحنا إليه في الديانة المصرية ، أم هو إله إسرائيل يهوَهْ الذي لا يلفظ اسمه ، والكلمة كناية عنه ؟ أم هو : « غيب الغيب ونور النور ، الذي تعتمِدُهُ لقيام الساعة وتركيز الحق في البشر : الباطنية التوحديَّة في اليهودية والمسيحية والإسلام .

بعث التوحيد : هناك كُوَّتانِ انبعث منهما وميضُ يقين ، بإيمان قدامى اليونانيي بإله واحد أحد : الأول هو ما كانت أبصار أولئك الناس تقع عليه وتشعر بعظمته أو ترهب منه ، أو هو ما يزرع في صدرهم بذور الأمل واليسر والأمن . هذه المظاهر المادية ، تحمل في مضمونها أبعاداً إلى ما وراء المادة المنظورة ، انها التطلعات العفوية الفطرية إلى القدرة العليا التي خلقت هذه المظاهر . واليقين الثاني هو ما رواه المؤرخ اليوناني (هيرودوت) نقلاً شفوياً عن عرافات معبد (دودون) له شخصياً ، وقد عرب كتابه (محمد خفاجة وأحمد بدوي) . قال المعربان : « طارت حمامتان سوداوان من (طِيبة) بمصر ، إحداهما اتجهت شطر ليبيا غرباً ، والثانية امّت اليونان وتركزت على غصن سنديانة ، معلنةً وجوب إنشاء ، هاتف لِـ (ازيوس) . لذا غدت السنديانة مقدسة » . وتابع هيرودوت : « أما كهنة (إزيوس) الطيبي المصري فيقولون : أن تجاراً فينيقيين اختطفوا امرأتين مقدَّستين من (طِيبة) الأولى باعوها (لليبيا) ، والثانية جاؤوا بها

اليونان ، وقد رُمز إلى الراهبتَين بحمامتَين ، لأن لغتهـما تختلف عن لغة اليـونان ، ولبـاسهما الأسود بلون ريش الحمام الأسود » ولما كنا قد أكدنا وجود التوحيـد في مصر الفرعـونية منـذ نشأتها ، فلا غرابة إذا انتقل التوحيد نفسـه ، بواسـطة هذه الـراهبة إلى اليـونان منـادية بـ (إزيوس) إلهاً أحداً. وسيان اكان هذا الإيمان بوحدانية الله ظاهراً أم باطناً ، عن رهبة أو عن قداسة ، فقـد استطاعت العـرافات المنـاداة بـ (إزيوس) إلهـاً ومصدراً لكـل وحي ، والهاماً لكل ساحر صادق .

هذه الرواية عن أبي التاريخ ، تؤكد رأي (سانيك و پلوتارك) حول المعتقد الأصيل لأهل اليونان .

نحن اليوم ، أو بعض منا ، يحمل إشارة ، يعتبرها مقـدسة ، لا لأنها من خشب أو معدن بل لأنها تعني قوة روحية حميمـة لنفوسنـا ، بعيدة عن المـادة وكثافتهـا ، وأعتقد بـأن الأرض التي انجبت أولئك العباقـرة ، آباء العلوم والفنـون وأسياد الـروحانيـات ، لا تُقِلُّ دروبُها مُغفَّلين بلهاء، يرون في الحيوان والطير والشجرة وما إليها قـوةً تسيِّر القَـدَر وتتحكم في العبـاد ، كذلـك كان المعنى للخصـوبة والأخصـاب ، في رمـز عضـوي الجنس وأسرار « ألوزيس » المتناهية القداسة عندالیونانیینْ .

من هذه الرموز المتعددة ، استدل المؤرخون على أن اليونـانيين مؤمنـون بالقـوة العليا التي تكمن وراء رموزهم تلك ، مهما عمت وتكاثرت ، ومـا وجد عـامتهم اثباتـاً لها إلا في مبدعاتها المرئيَّة المحسوسة .

طقوسهم : في اليونان القديمـة طقوس مختلفـة ، منها مـا يتعاطـونه في كـل بلد ، ومنها ما هـو مقدس وصـالح ، أو فـاسد . شـأنها في ذلك شـأن العالم أجمـع . تحمل تلك الـطقوس : المُضحِـك المُسلي : كـما تحمل السخف والعمق : رُب غصنٍ معلقـاً على بـاب أحد الهياكل ، يتناول ورقةً منه أحدُهُم فيرقب الفـرحَ أو الغنم بعدهـا . كما هي الحـال في عصرنا ، حين تحمل ذخيرةً أو تأكل تمراً من أيدي الحجيج . من أبرز ما عندهم قـولهم : « الأرض الشافية والمحيية » .

كـل مكان مقـدس عندهم يحتفظ دائـماً بقدسيـةٍ مـا . وكـل ينبـوع مقـدس محـظور الاغتسـال به ، أو قطع الشجر أو جمـع الثمر أو سـوق الماشيـة ، إلى المنطقـة المحيطة بـه .

ومن طقوسهم آن بعض الهياكل لا تفتح أبوابها إلا مرة واحدة في العام، منها للكهان ومنها للكاهنات . ومحظور دخول الهيكل قبل الغُسل ، وأخطر منه الدم . ويقال أن البطل (هكتور) لم يجرؤ على ولوج الهيكل ، لأن يديه كانتا ملطختين بالدم .

كما هو محظور الاقتراب من الموتى ، أو مضاجعة النفساء . وكل ولادة قسرية مذمومةٌ ، وعلى قدر تقدم عمر الجنين تعظم الجريمة، لكي تُغفَر الخطايا يقدم الخُطاة أضحيةً للإله ، أو وليمة تقام للصالحين. أما الأضحية فمحرم أكلها إنما تحرق وينثر رمادها في مهب الرياح. وان ما يأتيه الساحر من غرائب هي غير ما تنزله الإلهة . لكل منهما مميزاته ، والثانية هي الفضلى .

الفصل الثاني

الأولمب (OLYMPE)

تعرفنا عن كَثَبٍ إلى نفسية اليوناني ، وما انطبعت عليه من حب للمرح والرقص وكل المباهج منذ القدم . وليس الأولمب إلا صورةً حية ومرآة صادقةً تطل منها تلك النفس الطروب المعطاء . كان يقال : اليونان هي أرض الآلهة ، وهذا مؤشر ليس فقط على عدد آلهتها ، بل على انها (جنة) الأرض . وأعيادها وبهارجها وتناهي فتونها ، ورهافة أزميل ناحيتها كلها تدل على انها بحق أرض آلهة .

أيها كبرى الآلهة التي يحتضنها الأولمب ، ومتى اتجدت ، وما مهامها على الأرض ؟ ؟ أسئلة سبق لنا وأوضحنا بعضها ذا العلاقة بقدم الآلهة وبسموٍّ شأنها ، أما مهام كل منها فنشير إليها بومضات من هنا وهناك :

أشرنا إلى أن الإلهة الأم والزوج صاحب السلطان في الأعالي ، هما أقدم ما تصوره اليونانيون على زعم جمهرة المؤرخين .

من الإلهة الأم كانت الآلهات : (أثنا ودامتر وهارا وأرتاميز) وكانت كبرى مهام أرتاميز رعاية كل نفساء ، وحراسة طفلها . كما كانت إلهة الخصب. وكانت (دامتر) أم البذور . وأشهر آلهة الزراعة تصحبها الإلهة (أَثنَا) وتقاسمها تلك المهام . وكانت (هارا واثنا) الواقيتين لأبطال اليونان . وكانت لهذه الإلهَات رموز مختلفة منها : شجرة الزيتون

والأفعى والبومة . وإلهة الجمال ، والأنوثة الفاتنة كانت : (APHRODITE أفروديت) .

مهام الآلهة الذكور هي : كان الإله الأسمى يدعى (پوزايدون POSÉIDON) إله اليابسة والمياه ، ثم غدا إله البحار ، لكن (زيوس) كان إله الهند واروبيين أيضاً ، واعتبروه أسمى الآلهة . و(ديونيسوس) قدم من البحر وأسس مدرسة خاصة بالباطن . ثم (أپولون) فانه متولٍ تموين اثينا بكل حاجاتها . هذه الآلهة تتزاوج وتتنسل. وكلها وديعةٌ وطيِّبة ورائعة في نظر الشعب . أحصاها كلها (هومير) في نشيد (أپولّون ، Apollon) .

آلهة القرى : غير أن القرى المتفرقة كانت تخلق لها آلهة خاصة بها ، بحيث اننا نجد لكل منها أحياناً إلهاً أو أكثر ، لكنها آلهة محدودة الصلاحيات ، تقوم بحراسة القرية وأطفالها ، وأزواجها ومواشيها وغلالها . لذا نرى كل الآلهة محبوبة من الأهلين ، وكلها داعية للخير والبِشر والطمأنينة .

ومن الأدلَّة على مناقبية هذه الآلهة ما يلي : تقدم في الأعياد الذبائح للإله (زيوس) أولاً ، وأفضل الذبائح الثيران . يتقدم بفأسه قاتل الثيران إلى واحد منها ـ ويفجّ رأسه ويسرع بالهروب والاختفاء . يحاكم القاتل غيابياً ، فيحكم على الفأس بالقائها في البحر ، بحجة أن للثور حرمة وكرامة ، فهو الذي يشارك الانسان في شق التُربة لزرعها ، وفي حراثتها لزيادة الانتاج الزراعي، ولكن لا بد من هذه الذبيحة ، فتتكرر وتستعاد التمثيلية بتفاصيلها . من ذلك نستشف أحاسيس الآلهة تجاه البشر ، فالثور لأنه يقاسم الانسان مشاقه لا يستهان بقتله .

وهناك أعياد موسمية معتمدة للزراعة والحصاد . وربما أن (دامتر) هي إلهة الحقول وغلالها ، فكانت تقام الأعياد ، وتقدم الذبائح الحيوانية من ماعز وغنم وسواها عدا الأبقار . وكانت هي بذاتها قد أمرت بإقامة هيكل خاص بها . مقرها الرئيسي في الـ (ألوزي ، Elusie) لكن أعيادها تشمل معظم البلاد ، حيث تقدم الذبيحة صيفاً . تستمر البهجة والطقوس الدينية ثلاثة أيام . في فترة العيد محظور دخول الهيكل إلا على النساء المتأهلات حيث تكون الإبتهالات لزيادة الخصب في الحقول ، والأخصاب في النسل . في اليوم الثاني تصوم النساء وتصرف يومها متربعة على الأعشاب . وفي اليوم الثالث يقدم من الزيت والتين المجفف ، والخمر والعسل والحبوب إلى الإلهة دامتر .

يتكرر العيد خالياً من هذه الطقوس ، في شباط واذار من كل سنة ، تقدم فيه

ذبيحة من الماعز ، أو الغنم لإلهة أخرى . ويحدث العمل نفسه في مدينة أثينا للإلهة (أثنا) . وأخيراً تتلاقى الإلهتان في مكان فسيح بين (أثينا والوزي) فتباركان الحقول وتتصافحان :

وكلمة (الوزي) تعني اسم مدينة قديمة في اليونان للشمال الغربي من (أثينا) ما برحت تحتفظ بآثار هامة ، وذاعت شهرتها بما تضمنته من أسرار ومغيبات باطنية . كانت (دامتر Déméter) وزوجها (بوزايدون Poseidon) صاحبي السلطان الأشمل فيها . هذه المدينة عريقة في قدمها . تقول إحدى أساطيرها : في اقتران الزوجين انجد الحصان (أريون Arion) ثم الابنة : (Artémis ، أرتاميز) واستمرت هذه القربى بين الأخوين سرية جداً . لكن جماعة البطل (اخيل) هتكوا هذا الحجاب المقدس فسبّب هتكُهُ فشل (اخيل) في معاركه الطاحنة .

المعتقدات المستجدَّة: قبل أن نلج في سرادق الباطن اليوناني ، ابتداء من (د. نيسوس DIONYSOS) وقبل أن نُرهق القارىء الحصيف في العوم والغوص بواحة المعنى السري ، وبما فيه من رموز وغمزات وأرقام ، آثرت أن أضع قارئي الكريم ، في جوٍ تنسَّم منه العبير الفكري الذي اختزنته وإباحته أقطاب التاريخ ، حول تاريخ اليونان .

قال (بلوتارك) : « يعتقد أهل اليونان بقدسية الطير ، وبعض الحيوان ، والأسماك ، شأن مصر وسوريا ، معتبرين الطير أحد رسل الآلهة ، منها للفأل ومنها للشؤم . وقال (R . Fracelière ، فراساليار) : اليونانيون شاعت عندهم النبوآت ، وعبدوا النجوم ، وعزوا مشاكل الناس وعللهم وفلاحهم لسلطانها عليهم . تأثروا بالأحلام وصدقوا العرافات ، وآمنوا بصحة الحدس ، وبانجذابٍ عالمي كوني ، وبوجود قدرة عليا مهيمنة على العالم ، تثبت وجودها ، بما توحيه من حقائق لذوي النفوس المتفوقة حساً ورقياً » .

ويقول عباس محمود العقاد : « عبد اليونانيون : السلف والطوطم وعضوي الجنس ، وآمنوا بالطلاسم والسحر والشعوذة والنجوم ، مضاف إليها عبادة آلهة (الأولمب) .

وتقول المثولوجيا اليونانية بلسان : (پ . غريمال، Pierre Grimal) : «في البدء كان الليل : نيكس Nyse) وأخوه (أرابErèbe) وجهي الظلام . شطر (آرابُ) الليلَ

الذي تكوّر نصفين كالبيضة ، فخرج بـدل الـمحّ الـ (أروس L'Erose) : أي الحُبّ حاملاً قـوة ذات طبيعة روحيـة صدرت منهـا المواليـد . وآمن اليونانيـون بسلطان الكـواكب على البشر ، وبالظواهر الطبيعية والجنس وبآلهة تشاركهم في المعارك ، غير مبالية بـازهاق بـاطل أو بنصرة حقٍ ، والألياذة أكبر دليل .

ويضيف المؤلف تثبيتاً لرأيه في الآلهة ، وقناعةً منه بتصديق سـواد اليونـانيين لمـا تشير إليه الخرافات العديدة : « اقترن الإله الأكبر (زيوس) بالإلهة (ماتيس) وتعني الكلمـة : (الحكمة) . حمل بعضهم هذا النبأ لـزيوس : إذا ولـدت لكما ابنـة فستنجب صبياً يسـود العـالم . ثـارت لهذا النبأ عـاصفة الأنـانية في صـدر (زيوس) فـابتلع زوجته حـرصاً على سيادته موعِزاً لِـ (هَفايستوس) إله النار والصواعق أن يشق رأسه بفـأس . عندهـا قفزت من الجمجمة طفلة شاكةً بالسلاح . هذه الطفلة أصبحت (اثنا) الإلهـة المحاربـة ، وهي أخت (هرمس) وهذا هو ابن (زيوس ومـايا) » . ويكمـل المؤلف : « تزوج (زيـوس) من نسـاء عديـدات . معظمهن يـرمز إلى معـانٍ خـاصـة منهـا (تـاميـز) وتعني الشـريعـة المجسَّدة » .

يقـول (سليمان مـظهر) : « تكـاد أن تكون آلهـة الاغريق صـورة عن البشر فهي تعشق ، وتكره ، وتعاني ، وتغار ، وهناك أنصاف آلهة : هم أبطال الحروب » .

شك وانحراف : وفي الجملة فإن كتب التاريخ حين تذكر اليـونان ، تكـون قد غمست أقلامها في قلة من المحـابر التي تتخـذ من مظاهـر الأمور أدلـة على بـواطنها ، واني واثق من أن تلك الأقلام التي دبجت التاريخ ، كل التاريخ ، ما وقفت تمعن في مدلـولات الأمور ، وفي مسببات خلق الأباطيل والسفاسف .

هل كانت ، للتمويه والطمأنينة والحفز والمرح لدى العـامة ، الجـاهدين طيلة العمـر وراءلقمة العيش ، فإذا استطاع هوميروس أن يطبع صورة سطحية عن مـدى وعي قدامى اليـونانيـين ، فلا يعني هـذا أن الشعب اليونـاني بأغلبيتـه ، ثملٌ بمثـل هـذه الخـرافـات ، ومطمئن إلى صحتها ، لأن وعي الانسان قد تخطّى هذه المرحلة البدائية وغادر الكهـوف ، وانتزع عنه ورق الشجر ، واستعمل النـار ، وبدأ يكتشف النحـاس فالـبرونز . فكيف بـه يصغي بجـديـة إلى إمكـانيـة قفـز طفلة من جمجمـة ، وإلى إلـه يبتلع انسـانـاً . . ويبتلع حجراً . . ويتقيأ . . ومئات الأمثلة غيرها .

إذا كنّا نطالع بعض الخرافات والخوارق في الديانات السابقة ، فليس ذلك دليلاً على إيمان الشعب بها إنما كما سبق القول ، عناية القادة المفكرين بالشعب ، ومداراتهم لمشاعره ، وتخفيفاً لهواجسه ، ابتدعوا هذه الأقاصيص ، وركزوا على بعضها الطقوس . والشعب في أغلبه يسمع ويمارس آلياً . في حين انه مدرك بالغريزة أيها القدرة الأسمى المبدعة الخلاقة. أما نشهد في عصرنا ، وفي المستويات الراقية علماً وخلقاً ، أناساً تراكمت عليهم المشاغل والمشاكل . فلجأوا إلى كوب من الكحول ، أو مجة من مخدر أو أغنية فرحة أو صلاة وسبحة فيهجعون ؟ ؟ أما الحديث عن بعض الخوارق ، وعن الحدس والأحلام ، والسحر ، وعن تأثيرها في نفوس سواد الشعب ، فنحن وأخص المؤمنين بالايحاآت السماوية أو بعلم الروح الحديث ، المنتشر في امهات العواصم اليوم ، نسلم بأن بين العالم الأعلى والأرض اسلاكاً إيحائية أثيرية تنقل نبضات وَوميض العقل الكلي أو سمِّه بما شئت : الله أو زيوس أو أتون أو الكلمة (لوغُس ، Logos) لِمُرْهَفي الحس ثاقبي البصائر من البشر أجمع في كل أرض ، وبكل زمان ، لا يوقفها حد ، ولا يعيقها جنس ولا جنسية ولا دين . هذا النبض والوميض هو ما نسميه : وحياً أو حدساً أو رؤياً ، أو حلماً أحياناً ، أو سيَّالاً روحياً ، اتخذه المشعوذون سحراً ، فشوهوابه حقائق الأمور وغوامضها .

كيف يعقل أن يكون ابتلاع (زيوس) هذا ، لزوجته (أرتاميز ARTÉMIS) موثوقاً لدى اليونانيين ، حين يكون معنى اسم هذه الزوجة : (الحكمة أو الشريعة) ؟ ؟ فمن ينز ع الحكمة أو يقترن بها ؟ ؟ أيكون إلهاً غولاً أكولاً ، أم هو سيد الحكمة وباعث الشريعة ، مدبر الخلائق ؟ ؟

لا أعتبرني خرجت عن جادة الدين ، في هذا التوضيح ، فالروح هي العمود الفقري لكل هيكل قدسي ، وكشف الغوامض والملابسات هو من أولى واجبات المحققين .

ديونيسوس : وسط هذا الركب المتزاحم للالهة وهياكلهم ، وخرافاتهم ، وأعيادهم ، أطل نجم ثاقب من خلال ضباب كثيف ، شغل الفكر اليوناني وما يزال ، لِشّدة غموضه وعمق روحانيته . انه (ديونيسوس DIONYSOS) اسماه اليونانيُّون مع كثرة من المؤرخين : إله المرح والخمر ، وحين تبينت حقيقة تعاليمه من خلال الرموز الدقيقة في مدرسته ، ومن تصرفاته وتصرفات جماعته ، انطلق كبار المؤرخين يمجّدون

شريعته ، ويقدرون روحانيته السامية ، ويلقّبونه بـ : إله الخمرة المقدسة .

ان الخمرة التي كانت تشع في أكواب أتباع (ديونيسوس) ، والطريق الذي مهده بنفسه ، مساراً للفكر الحر ، إلى آماد هي وراء المادة ، ووراء زخارف الحياة ، وفوق ما تحوكه العقول للعزاء والحفز . هذه الخمرة تعبير عن كنه حياة الانسان ، وعن وجوب التمتع بأطايبها ، وغنم كنوزها واستشهار طاقاتها . أما الطريق الذي شرع في تمهيده (ديونيسوس) فهو الصراط المستقيم ، للوصول إلى محجة الحقيقة الكونية ، إلى النور الأسمى ، الذي انبجست منه الشموس ، والنار الكبرى المقدسة التي تطايرت شراراتها في السموات والأرض فكانت الأرواح البشرية .

إذا كانت الجماهير اليونانية ، في ذلك الزمن ، وهي من أجناس وقارات مختلفة ، مؤمنة بالقدرة العليا ، عن غريزة فيها ، أو عن تبشير ، كما سبق التلميح إليه ، فعقولها لم تكن لتهضم المعارف الروحية بعد . لكي يكشف لها ديونيسوس عن رموزه ، وأبعادها .

إن (ديونيسوس) هو ابن (زيوس) من زوجته الثالثة (SÉMÉLÉ سَمالا) وهو سيِّد : (Eleusis ، ألوزيس) وخالق اسرارها المهيبة . قيل عنه : «انه الإله الذي جسد قوى الكرمة والخمرة » .

وقال جعفر آياسين : « أهم المذاهب الباطنية هو : (الديونيسية) وقال (برْغسن) : « الأفلاطونية هي امتداد للفيثاغورية وقبلها الأورفية والديونيسية » .

واسهبت مجموعة التاريخ العام للديانات في تفصيل حياة وقيمة (ديونيس) . قالت أنه جاء بحراً من الشاطىء الشرقيّ لبحر إيجا ، وذاعت شهرته في اليونان جمعاء ، وكان إله الكرمة والخمرة ، ثم أمسى إله الخضار كافة ، كانت تقام له أعياد ، منها في كانون الثاني وشباط ، ومنها في مطلع الربيع ، حيث تنجم فسائل النبات ، وفي الخريف لدى اصفرار أوراق الشجر . ذكر المرجع نفسه أن الأعياد التي كانت تقام على شرف (ديونيسوس) في اثينا هي أفخم الأعياد وأقدمها . تستمر ثلاثة أيام في رقص ومرح وخمر ، وما كان يصحب هذا الشرب هرجٌ ولا صخب ، بل سكون عميق . وفي نهاية الأعياد هذه ، يحاول القيمون عليها السيطرة على مشاعر الجماهير ، التي كانت تزعم بأن أرواح موتاهم ستعود إلى منازلها ، وتدمر وتؤذي ، فيضاعفون العوامل الحافزة للبهجة والطمأنينة ، وتقدم الأضاحي لتنصرف أرواح الموتى . والأطفال يطوفون بأضاميم الزهر ،

هنا وهناك والفرح ملء النفوس ، والبسمات البريئة على الشفاه . وليس الفرح وحسب هو الدافع لهذه الأعياد ، إنما هناك معنى آخر هو الحث على الأعمال الزراعية ، وزيادة الإنتاج ، ومضاعفة الإخصاب نباتاً وبشراً .

كان لمدرسة ديونيسوس المرحة ، أتباع مخلصون ، منهم المثلث الآلهي : الإلهة الأمُ في (ألوزي) وابنتها (كورا) وإله الثراء (بلوتوس PLUTUS) . ثابر هؤلاء على بث روح الصفاء والوداعة ، وعلى التأكيد بأن وراء هذا العالم ، عالماً أبدياً ، تتدفق فيه ينابيع السعادة . وما كان لهذا النداء من صدى بعيد يومذاك .

لكن لهذا المقطع القصير صدى أبعد من حدود اليونان، نقرأ تحت حروفه لمحات من أسرار (ألوزي) مدرسة (ديونيسوس)، فتنقلنا إلى عالم رومنطقي منعزل، إلا عن الطير والنسيم والشذا . بعيد عن الغرور والتية والأباطيل . هنالك يحس تلامذة (ديونيسوس) السعادة العميقة ، في انتهاج الطقوس المقدسة . أيُحتمل أن تكون تلك الخمرة : للمتعة العابرة وللمجون والجنون ؟

وهؤلاء النِدْمان الذين يتغنّون بمثل المقطع الآتي ، هم طغمة سكيرة عابثة ضائعة ؟ لنسمع مقطعاً مما يترنّمون به ، فنحكم صادقين :

« لتمطرِ الآلهة غامر الفيضْ
فيضِ السعادة والبركاتْ
على جميع من يتفهَّم الأسرار المقدسة
أسرار . . . تفتح للساري رِتاج حياةٍ منعزلة
حياةٍ صافية ، بعيدة عن عالم البطل والغرور
حين ينتشي بِمجاجةٍ مِن خمرةٍ ، يطير على جَناح فراشَة » .

أپولُّون : وشهدت اليونان إلهاً ذائع الشهرة عميم النفع ، أقيمت له هياكل عدة،وزادت في تعظيمه كاهنات معبد (دلفوسDELPHES)، كان مستقره الأول في (اثينا) منذ نهاية العهد المسيني. مُهمته محصورة في مراقبة الزراعة والعمل على مضاعفة الإنتاج ، للترفيه عن الفلاحين ، وفي السهر على تكاثر العائلات . انه الإله (أپولُّون APOLLON) صاحب الرداء الطهور . كان يحضر حفلات الحصاد ، ويتذوق حبوبه ويباركها لتزداد إقبالاً كل عام ، وكان يبعد اليد النجسة عن لمسها . كان أهل بعض

المناطق ، باسم (أبولّون) يطردون المجاعة ويترقبون الصحة والثراء .

تنظيم الآلهة : صحيح كان لكل بلدة إلهٌ أو مجموعة آلهة ، لكنها كانت تتشابه كل الشبه في تصرفها بين الناس ، ومخالطتها لهم ، وعنايتها بالسهر على سلامتهم واثرائهم ، وبعث المسرات في نفوسهم .

وكان الأهلون يمنحونهم فائق الاحترام والحب ، ويشيدون لهم المعابد ، ويقيمون الحفلات والأعياد ابتهاجاً بكل موسم يُطل . كانت مع الأيام الطوال تتأنّسُ تلك الآلهة ، وتزداد رعاية وعطفاً واشفاقاً ، ثم غدا منها آلهة للحروب والموتى والشواطىء والحكمة والجمال والمرح . بينما كانت مهماتها قبل أجيال قلما تتعدى الزراعة وصيانة الماشية واحتضان المرضعات ، وتأمين سلامة المواطنين . وكانت (الإلهة الأم) في الأرض والسيد العالي ، هما في صدر المجمع الآلهي بأثينا ، وبكل ضاحية من اليونان. كما تطّور بانفتاح دائم ، في المعتقد والحضارة ، عَقبهُ وعيٌ تفجّر حكمةً وفناً ومعارف عميقة عامة ، انتهت بعصر ذهبي للفكر البشري ، ما برح سطوعه يملأ العيون .

ما كان يعيب تلك المروج الفساح ، المخضوضرة بهذه الأضواء الفكرية الوقادة ، منذ هوميروس حتى أفلاطون وبعده ، غير إهمال للعدالة الإجتماعية ، كثيراً ما عصفت أعاصيره في ظهراني الشعب الكادح : من عامل ومفكر ، وفلاح ومأجور ، ونوتيٍّ ورقيق . فخلقت المعاناةُ والتململ ثورةً على النظام . ولعل هذا السخط تبسط حتى شمل الآلهة التي كانت معظم اهتماماتها ، بالطبقة الحاكمة ، وبما تسوق إليها من مغانم وعظمة ونصر مبين . أليس ذلك مُسبِّباً من الفوارق في مستويات المعيشة ، والتمييز الطبقي : إجتماعياً وسياسياً ؟ أسهم هذا في حصر جهود المفكرين ، فاشرأبّت عقولهم متطلعة إلى طقوس روحية أسمى ، وأنظمة إجتماعية أكثر انصافاً وعدلاً . فنبعت من صخور ذلك المجتمع ، مناهل المدارس الروحية بدءاً بـ (ديونيسوس) تلاها صخب جماهيري عام ، خلخل هياكل معتقداتهم المادية المنحرفة .

صوت العدالة : لنسمع جلجلة صوت العدالة السماوية تنتصر للمضطهدين . عين زيوس : ترى كل شيء ، وهو يعلم كل شيء . والخط الذي رسمه للعالم (كرونوس CRONOS) والد (زيوس) يوضح بأن الأسماك والحيوان والطير تأكل بعضها

بعضاً . لفقدان العدالة بينها . إن العدالـة في المجتمع البشري هي أثمن من أي عـطاء .

« كـانت هـذه أحـاسيس أبي الآلهـة . لكنـه لم يستعمـل سلطانـه في بـادىء الأمـر ، حتى استضرى الشر وتفاقمت المشاكل . وانتهت بعد لأيٍّ وأمدٍ طويل ، بنقش تشريع حق على قطعة من الرخام ، اعتُمد دستوراً للبلاد . وما استشرى ذلك الطغيان إلا في القرن السابع قبل الميلاد ، ثم نضج وعمّ في عهد الملك (Pisistrate بيزسْترات) وأبنايه .

ومن الأدلة على جنوح معظم الآلهـة لصالـح الطبقـات الحاكمـة ، والمستأثـرة بالجـاه والمـال ، تصرف الإلهة (اثنـا) التي رفعت زوجة (بيـزسْترات Pisistrate) المسـماة بـ (فِيًّا Phyé) إلى مصافّ الآلهة حباً باستمرارية الطغيان في اثينا نفسها .

وكانت حروب طروادة ، اشتركت فيهـا الآلهة ، نـافخة في المحـاربين سعـير النخوة والاستـماتة دفـاعاً عن (اثينـا) ، وعن شرف اليونـان وأرضها . وكـانت (اثنـا وpallas ، يالأّس) إلهىَ الحرب المقدّمين .

وأطلع القـدر في تلك الفترة العصبيـة ، في اليونـان ، مشترعـاً حكيـماً ، عـادلاً هـو (باريكْلَس Périclès) بلَغَت معه اثينـا والبلاد كلهـا ، أوج ازدهارهـا المادي والفكـري ، منادياً بالحرية والعدالة الإجتماعيـة . وكانت الآلهـة صدى لـرغبات الشعب وحكـامه ، في معظم الظروف والعصور . كأن تلك الحـروب الضاريـة ، طورت معهـا طبائـع الآلهة ، فتضـاعف في بعضهـا الجنـوح إلى العنف والكـراهيـة والحسـد ، وفي الآخـر ، النـزاهــة والاستقامة والحق . أما سمعنا البطل (أخيل Achille) ينشد « أثنا الإلهة ، طالمـا نحن في ظلال جناحك ، فان (زيوس مباركُ خُطانا » . أخيراً استطاعت اليـونان بفضـل أفذاذهـا من رجـال الفكر المتحـرر ، أن تطور معتقـداتها الـروحية ، وتبسّـطها إلى الجـزر المجـاورة كـافة ، والشـواطىء المتاخمـة لها . فَعَلَتْ هـذا المعتقد مسحـةُ وطنية خالصـة ، وأصحت العلاقة بين الجماهير روحية حميمة ، في كل أرض امتدت إليها اللغة اليونـانية الأم . كـان أبرز الآلهة : (أبـولّون) ، يضـاف إلى اسمه ، في كـل بلد لقب خاص . نشـطت جماعـة آلاكليـروس في البلاد ، وفي مستعمـراتها . وكـان لها دورٌ بـارزٌ فضْلٌ في حـل المشـاكـل ، وضبط النفس ، بفضل ارشاداتها وتوحد معتقدها ، مما جعل من الأرض اليونانية جمعـاء ، ومن ممتلكاتها ، وطناً متراصّاً روحاً وجسداً .

الفصل الثالث

دلفوس : إن هيكل (دلفوس) تعود شهرته إلى القرن السابع (ق. م) حيث أعظم تمثال لـ : (أبولّون) وغالباً ما تعرف كلمة (دلفوس بأبولون) لما تحمل له عَرافاتهُ من تقدير وميزة في صدقهِ وطهارته ، والتزامه بالقيم الروحية .

قبل أن نتناول الهيكل ودور عرافاته. نلم ثانية بلفتات عجلى على مهام (أبولون) :

إن الخط العريض الذي يرسمه المؤرخون لدى ذكر اليونان القديمة ، هو أن آلهتها اجمالاً ينعمون بحياة تغمرها السعادة ، وبشباب بض نضير أبداً ، وبأبدية البقاء ، مهما ادلهمت على البلد ليالي المحن . والسيد الأوفر حظاً في نضارته وجماله جسداً وروحاً كان : (أبولّون APOLLON) ابن (زيوس) والمنتدب لتسلم صلاحياته . أما (زيوس) الفائق القدرات فلا مرد لما يعزم عليه : عادل وصارم معاً . قيل فيه : « إن فم (زيوس) لا يعرف الكذب » هو أبو الأولمب ، وومضةٌ من نظراته تحيل ليالي الشقاء باسمة . هذا ما كان منقوشاً في خواطر اليونانيين . وقد ورث ابنه في حياته السرمدية معظم صفاته ، أولاها العدالة . فهو الذي أمر (Oreste ، آورست) بقتل والدته لجنوحها عن جادة الحق والدين ، وقف أمام العدالة ودافع بجرأة عن القاتل فبرأه من الجريمة ، بأدلة منطقية وحق ، رغم تألّبُ خصومه .

هذا الإله هو الّذيَ أملى شريعة ديانة (دلفوس) وعلاقاتها ،بالآلهة وبالناس ، والموتى والطقوس المقدسة . وفي املائه تلك الشريعة ، توجهت إليه خواطر وأنظار الآلهة والبشر ، واعتبروه الرئيس الأول الحارس للتقوى . ونشأ عن يمينه ابنه (Asclépios ، أسكلابيوس) القائل : «أيها الغريب الديار ، أقبل طاهر القلب لمحراب الإله الطاهر ، وتَطهَّر ببعض قطرات من ينبوع (Nymphes ، نمفسْ) والمُدنَّسون لا تطهرهم مياهُ المحيط الزاخر . إن نظافة الجسد في نقاء الضمير » .

(صوت دلفوس) : إن الهيكل نفسه من قيمة عرافاته الصالحات إزاء بابه ، وقفت الحمامة السوداء (رمز الكاهنة) على سنديانته الجبارة ، لتنقل السر العميق الذي دعا إليه (ديونيسوس) ، سرَّ التوحيد المصري ، إلى هذه الربوع ، كما أوضحناه سابقاً . تبنت هذه العرافات حكمة سقراط : « أعرف نفسك بنفسك » وفسرتها على هذا النحو : « أعلم انك رجل وحسب ، فما أنت بإلهٍ قط » .

كانت هذه العرافات تؤمن بأن كل عطاء عقلي وجسدي ومادي هو من هبات الإله للإنسان ، يمنحها تقديراً لما يأتيه من صالح العمل . في أعماقهنَّ إيمان راسخ بقدرة الإله المتناهية ، ويبسط جناحيه على العالم وبتمريغه أنفَ كل طاغية ومعتدٍ وآثم .

هذه الخلال النبيلة كانت شعار هؤلاء العرافات . غير أن الآلهة ، بعد ما انتاب سواد الشعب والعبيد من بلايا وغصص وحرمان ، كأنما هي تؤجل عقاب الغطارسة والنهمين ، وتقنع بأن تمنح المتواضعين والمحرومين من سعادة الدنيا ، احلاماً زاهية ، واشعة من الأمل بغدٍ أفضل ومجد سرمدي .

من شعائر هذا الهيكل : « محظور مخاصمة الإله على كل إنسان ، كل ما يجب طلبه منه ، حاجته من الدنيا ، وان قسمته من العيش التي بين يديه » .

وقد دكر المؤرخ اليوناني (Pausanias ، پوزانياس) ان مفهوم آلهة (دلفوس) وعرافاته للحياة هو : « ايتها النفس البشرية اللطيفة ، لا تذهبي إلى حياة أبدية ، بل أغرقي قدر طاقتك مما تُرزقين » .

ومن مفهوم هذا المعتقد ، أن ما تريده الآلهة هو النافذ ، قد يصيب القدر الخيِّرين بالأذى ، والأشرار بالسعادة ، حسب مشيئة الإله المدبِّر . والخلود ، وقف على الآلهة وحدهم . هذا زعم المؤرخين في العرافات ولكن إذا كُنَّ قد تقبلنَ بصدق تبشير العرافة المصرية (الحمامة السوداء) بالتوحيد ، يكون ثابتاً إيمانهنَّ بالآخرة وبالميزان الحق ، وباطلاً ما يزعم المُرجفون .

التصارع العقائدي بين المادّة والروح : إن الازدهار الحضاري والإبداع الفكري تألقت شموسه ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد حين غزا هضاب اليونان وشواطئها ، ولم ينكفىء عن ولوج أبواب الهياكل نفسها ، والتبصر بما يُتَمتَم فيها وما يُوحى . وكأن سلطان المادة استفاق من سِنَةٍ طابت ، على أسِرَّة السحر والحدس والرؤى تلفَّت وأطال التحديق ، فما تراءى له أثر لإله ، ولا ظلٌّ لعصا ساحره . كل ما كان يتراقص أمام ناظريه ، إلتماع الذهب والفضة ، وأطباق صور لطيبات الحياة الدنيا ، ومتعها ، وأمجادها . والسبيل إلى كسب هذه الكنوز هو التخلي عن المعتقدات وتعقيداتها والعمل على انعاش البلاد زراعياً وتجارياً ، لتحقيق الثراء الذي بواسطته يحوز المرء على مشتهاه . وقد فسرت العامة عبارة ارسطو : « الانسان حيوان سياسي » بهذا المضمون

نفسه . واعتبروا الاسكندر والفرعون . وكل حاكم مطلق هو نوع من إله ، له شريعته ، وله جيشه وسلطانه الأمر الناهي . وكان الخطيب والسياسي (ديموستين) من مؤيدي القوة والتضامن الوطني الأثيني لصد كل عدوان عليها .

كانت القناعة بهذه القوة الصادرة عن حاكم البلد المطلق ، حافزاً لليونانيين للتضامن على نصرة وطنهم وتعزيزه والأنصياع للسلطة الرائدة في البلاد ، املا بالثراء والجاه ، وراء تعزيز بلدهم .

لكن هذه الفكرة التي عايشت ليالي اثينا الساطعة متعةً ورفاهية ، وتميزاً طبقياً بارزاً ، ما فتئت أن عصفت عليها رياح سافية ، فاطفأت مشاعل حب الذات ، والتفاني في سبيل وطن محدود ، لتزرع بذور المحبة على كل أرض ، وتربط أسلاك الأخوة بين الشرق والغرب ، تنتقل معها المشاعر الانسانية الصادقة متسرّية بين الجوارح ، لتجعل من الانسان المقاتل المدمِّر ، انساناً أمثل يعانقه (ارسطو) ويدل إليه (افلاطون) . تلك كانت غاية الرياح التي نفخ بها (الاسكندر المقدوني) . كان اجتياحاً للباطل ، وانهزاماً للسلطات العاتية ، والتمييز العنصري والجنسي والطبقي معاً . لكن القضاء استبق إطلالة ذلك الفجر ، فقضى على العملاق في ريق شبابه ، لتنطلق الأبواق الجائشة المغرضة ، بأصواتها الناشزة ، مجعجعةً ضالة .

وعادت اليونان لردائها الأسبق ، لآلهة وطنيين بل محليين ، ولركون سياسي عام وسيطرةً غريبة ، وانخفاض هائل في مستوى المعيشة ، مما أثار حفائظ الشعب على آلهته ، لأنه اعتبرها المسؤولة عن ذلك الحرمان ، وعن تردّي الوضع . إلى أين يلتفت الشعب ؟ ؟ يتطلع إلى السماء فتخونه ، وإلى الأشجار والعرافات ، إذا هي أفواه بغير ألسنه . لا بد للمرء من ركيزة يشد بها حبل الأمل ، فما وجد غير الأبطال من القادة الحاكمين ، في مناطق من الوطن . فكل معركةٍ ناجحةٍ تحرِّر بلداً لهم ، يتخذون حاكمها الظافر إلهاً ، لانه انقذهم من العبودية وساق إليهم الخيرات . انه الإله المتجلي في جسد انساني مرئي . على أن الإله الأب الكامل القدرة (زيوس) ما برح مِلءَ خواطرهم لكنه بعيد . . بعيد .

لدى انحطاط هذه الآلهة البشرية لعامل المادة الصرف ، والإيمان بالقوة ، دون أية أبعاد لها أخلاقية وروحية ، غدا طبيعياً التفات الشعب للمادة وحدها وصولاً بها إلى الالوهة ، بحجة انها تخلق القوة وتبعث السعادة .

آلهة الثراء : وهكذا اعتلت عرش (أثينا) إلهة جديدة هي (Tyché ، تيشا) أعني : الثروة ، رافقها إيمانٌ بالحظ الذي يخدم من طابت لهُ خدمته ، صالحاً كان أم شريراً . من أنصاره كان الشاعر الفكاهي (Ménendre ، مينندْر) المتوفىً عام (٢٩٢) ق . م وجاراه جماعات ورجال فكر ودولة منهم (Démétrios ، دِميتروس) المتوفى سنة (٢٨٢) ق . م وقد اسمعنا الروائي المأساوي : (شارَمون Chairemon) المعاصر لهؤلاء « انها الثروة وليس العقل ، ذلك الموجِّه لأعمال البشر » ويقول : « لا تفاجأ إذا كنت في الأوج مساءً وأصبحت في اللجة » وكثيرون غيرهُ لامست ريشتهم هذا الوتر الفاتن النغمات . أما قال أحدهم متهكماً : « من يسعد بمحبة الآلهة له ، يمت في مطلع العمر » .

إن الشعار السائد في هذا البلد الذي كان قد تبوأ سدة النبوغ الفكري والروحي سابقاً ، اصمته سهام القدر فأنطلقت حنجرته : « الرجل الأقوى هو الإله . . . لنحيَ القوة » .

وما كانت لتشمل وتعمق هذه الأفكار ، في مجموعات اليونانيين ، لو لم يُتَحْ لها فلاسفةٌ كبار ، فتحوا نوافذ عريضة تشرق على خمائل الدنيا ومتعاتها ، وتسقي غراس الأنانية في الصدور . فعن معتقدات هؤلاء وعن رافضي هؤلاء ، سنُلِمُّ باقتضاب ممكن .

حين نتساءل عن الدافع النفسي والإجتماعي ، لردة الشعب « الاثيني » إلى المادة الخالصة ، نصل إلى السبب الوجيه المقبول وهو : إن هذا البلد قد عانى ابتداء من سقوط الاسكندر، كبوة خطيرة، سياسياً واقتصادياً، فذاق بها الهوان والجوع ، والتفكك الخلقي. ولا عجب ، فللعوامل المحيطة بالمرء ، تأثير عميق على أحاسيسه وفكره ونفسه. شعر بها الشعب اليوناني ، وعاشها قسراً ، ويعيشها كل شعب تدوس أرضه سنابك خيول المجتاحين .

أما ما يتغنى به قادة الفكر والاخلاقيون والسياسيون من مُثُلٍ وتمنيات ، وما يدغدغ مشاعر الأثرياء من مِتَع وزخارف ، كله لا يروي ظمأ النفوس المتعطشة لمناهل الرزق ولبُلغة العيش ، ولخيمة استقرار حرَّة . كلها البلد ، رازحةٌ تحت كابوس الغلاء الفاحش . كل متطلبات الحياة اليومية المعيشيَّة ، مؤمنَّة للأغنياء الأقوياء ، وعامة الشعب كسيرة القلب والطرف ، لا يستعاد لتلهفها صدى . أليس من حقها أن ترفض كل نظام ، وتنقُض كل شريعة ، طالما الحاكمون صُمٌّ عنهم ، والآلهة خلف ضباب المجهول . ؟

زيوس : يعتبرُ المالُ : من يستطيعِ الوصول إليه يقيم باختزانه وبذله لرغباته ، فعلى أي الركائز يستند الوطن ما دام يخيم عليه ليل الفاقة والغصص ؟ ؟ هلموا أيها المحرومون ، إلى أفق أبعد ، عسى أن تجدوا فيه أملاً ورزقاً وكرامة . من هذا الأفق أطل وجه إلهيْن كانا وما يزالان : زيوس ، أوتيوس ثم (أسكلابيوس) ابن (أپولون) . الإله الأول ما برح في مخيّلات الشعب اليوناني ، هو السيد الأعلى ، وكم هي متشابهةُ النَغَم والمعنى كلمتا : (زيوس وديوس Dios) بـ (Dieu) بالفرنسية التي تعني : الله الحق ، في الديانات السماوية والباطنية . أهي مصادفة ، أم هي علاقة حية ؟ ؟ علماً بأن كلمة : (زيوس) وسلطانه امتد خارج اليونان . فهو (بعل) وهو (حداد) وهو (يهوه) . ولعله هو الخالق المبدع في نظرنا نحن .

(أسكْليپيوس Asclépios) : أما (أسكليپيوس) فقدِ عمَّقت ثقةَ الشعب الاثيني به وضاعفت شهرته تلك المعجزات الحسيَّة التي كان يأتي بها ويكررها .

صعق الناس لهذه المعجزات التي يرونها بأم العين ، والتي تشفي عشرات المرضى المنغصين . ولن نقف طويلاً عند هذه المعجزات إلا على مقدار ما يسلِّم بها العقل السليم ، والعلم المعاصر المادي . كل ما يمكننا من قول : ان العلم الروحي المعاصر الذي يعتبر جسدِ الانسان هو ذبذبات نورية ، على شيء من الكثافة ، وروحه على ارهف وادق ، هذا العلم يسلم بكل الخوارق ، حين يطالها التحقيق العلمي المخبري . وقد تكون معجزات اسكليپيوس صادقة ، وهذا ما يرجِّح ، لانها منظورة ومعايشة . ولنقتصر على إيجاز قليل منها : تقدمت امرأة حامل منذ خمس سنوات من اسكليپيوس تسأله شفاءها . بعد معالجة عابرة ، شوهد إزاءها طفل يقفز ويعدُو حولها .

وثانية : توسل أحدهم إلى هذ الإله ليشفيه من شلل باحدى يديه . في الليل استسلم لرؤيا تبشره بالشفاء ، نهض في الصباح فحرَّكَ واستخدم اليدين معاً . وثالثة : قدم أحد الأباء للإله قرباناً باسم ولده الأبكم ، ملتمساً شفاءه . دخل مع ابنه الهيكل ، وبينما هو يصلي سمع الطفل ينطق : « اعاهدك » . ذهل الأب لهذه المفاجأة العجلىٰ ، وطلب منه اعادة الكلمة . كررها الطفل ، وانطلق بعدها لسانه . ورابعة : كان أحد الأبناء يشعر بألم حاد في المثانة مع تعسر في التبول . رأى في حلم ليلي الإله بجانبه ، يسأله

عما يدفع له أجر شفائه . قال الولد : عشرة فلوس . فـابتسم له اسكليبيـوس وانصرف . في الصباح ، استفاق الولد معافىً .

كان يحضر في الهيكل ، لدى كل معجزة شفاءٍ جمعٌ غفير ، وكلُّه تتنـاول الشفاء من عاهات وأمراض وتسمم وانقاذ حياة أمهات وأجنَّة ، على مرأى من العامة ، المتألبـين حول المريض .

لكن التـاريخ لم يروِ خارقـة واحدة لهـذا الإله ، أغنى بهـا معدمـاً ، بلقمـة عيش أو حفنة مال . مـع هذا فـإن الشعب (الأثيني) خاصـةً قدَرهُ واعتبـره بحق إلهاً واثقـاً من أن الذي يأتي بهذه الخوارق ، لا تنقصه القدرة على الإتيان بكل شيء ومنه : الخبز والعسل .

وفي مجيء المسيـح ، وانتشار رُسُله المبشرين بـالمحبة والـرفق ، وبحياة ثـانية أبـديـة النعيم ، بدأت تتسرب ومضات ضئيلة من ذلك الضياء ، لعلها كانت العامل الأفعل ، في تـأسيس الجمعيات الأخـوية في انحـاء اليونـان ، وكلها يبشر بـالمحبة والتـآخي ، وبـزوال الفـوارق بين المـواطنين وبـين أغراب وذكـور وإناث وأسيـاد وعبيـد . اعني بهـذا ، ارتـداد الشعب إلى القرون السابقة ، وإحياء تعاليم وافرة غلّفها بالسـرِّية كـل من (ديونيسـوس ، واورفوس ومـدرستيهما حتى أفـلاطون) . والـدليل الحسي عـلى صحـة مصـدر هـذا التـأثير نـراه في الأخويات المسمّاة بـ (إيرانوس ، Eranos) والقائمـة على التملك الجـماعي ، يستفيد منـه الفرد المعوز والجماعة . أليس هذا التشريع مطابقاً لأحد البنود الـرئيسية التي تقـوم عليها : جمهورية افـلاطون ؟ أليست أفكـار (أفلاطـون) ، هي امتـداداً متطوراً لأفكـار العرفـانيين الـذين سبقـوه أمثـال (هـرمس وفيتـاغـورس واخنـاتـون . . . فـالمسيـح بعـدهـم . ان التاريخ يعيد نفسه والمعادن الثمينة ، مهـما طال أمـدُ طمرِهـا ، لا تَنقصُ قيمتها . كـذلك هي الأفكـار الانسانيـة مهما يجفّ زيت مصبـاحها ، فلن يخمـد أبداً ، لأن النـظام الكوني يقول : كلُّ ما هو حقٌّ ، هو خالد .

الفصل الرابع

ضوء على المعتقدات : على هذا الشاطىء القى الشراع اليوناني مراسيه ، بعـد تطواف شاق ، عانت منه الآلهة والشعب أجمع وأخص كبار المفكرين الذين سلمـوا الأجيال المقبلة ذخـائـر من الفن والأدب ، ومن كـل علم روحي ومـادي ، فكحلوا بـه أبصـار البشريــة

وبصائرهم في آنٍ معاً . تقديراً لهؤلاء الأعلام ، وحباً بنشر المعرفة ولو من الجانب الذي نعالجه ، وجدت لزاماً علي ، القاء الضوء على بعض آراء فلاسفة اليونان : من ملحدين ومشككين ومؤمنين ، وعلى بعض الغوص في تاريخ الأقطاب الروحانيين ، الذين يربطنا بهم موضوع الكتاب :

كان حديثنا سابقاً عن ديونيسوس ومدرسته فأي صدى أحدثت هذه المدرسة ؟ وإلى أي مدى بسطت أضواءها الروحية في اليونان ؟ ؟

يقول المؤرخ العربي (محمد علي أبو ريان) في كتابه : تاريخ الفكر الفلسفي : « ان النِحلة الأورفيَّة كانت تؤله ديونيسوس وتُؤمن بالتناسخ شأن مصر القديمة ، وترى في الانسان طبيعتين : (خيرةً وشريرة) ، وآلهة الشر كانت قد اقترفت زلةً عند الله فهبطت . المقصود بالتناسخ التقمُّص هنا ، أيْ نُقلة الروح من جسد بشريٍّ إلى جسد بشريٍّ آخر . النِحْلَةُ الأُورفِيَّة : انها جمعية سرية يونانية انشأها الشاعر المغني البلقاني (أُورفوس Orphée) قامت على أسس فلسفية روحية مستمدة من الديانة الديونيسية . تؤمن بخلود الروح وبالميزان الحق ، والتقمص ، وبإله واحد ، رسوله على الأرض هو (اورفوس) . وانها : « تعتقد بأن النفس جوهر إلهي ، نزل وسكن في جسد انسان ، بل سُجن فيه . تحقر المادة وما ينبع منها من طيِّبات ، وكلّ عنايتها بالروحانيات » . بهذه الكلمات القليلة الأخيرة أوجز الدكتور المصري (أحمد فؤاد الأهواني) في مؤلفه : في عالم الفلسفة ، مضمون هذه النِحلة .

يقول المؤرخ (Faubre d'Olivet) حين يتحدث عن (اورفوس) ، ان كلمة شعر بالفينيقية تعني : لسان الإله . وكلمة (اورفوس) : نور وشفاء . مدرسته هي النور الأَتمُّ للحقائق السامية . يؤمن بأن (زيوس) هو الواحد الأحد ، شديد العقاب وعميم الثواب . ابنه : (ديونيسوس) وهو كلمة الإله المتجسدة . « أليس هذا هو الباطن التوحيدي بعينه ؟ ؟ ويتابع المرجع نفسه : « اننا منجذبون إلى الإله ، حاملين في قلوبنا دموع العالم ، لنحيلها إلى بسمات . » وقال : « يموت فينا الإله وفينا يستعيد الحياة » وأكمل اورفوس : ان ديونيسوس : هو شمس العرفانيين الكبرى . كل شيء هو نفس واحدة ، تدور في هالتها المشعَّة ، وكل نفس بشرية تعود إليه » . لنسمعْهُ ينشد :

« هي ذي . . . ترتعش في الفضاء المديدْ

تتقاذفها عناصر الطبيعة الغَضوبْ
وعن ذاتها .. تبحثُ .. وتبحثُ هذي النفوسْ
تناثرت شرراً عن نفس هذا الوجودْ
وانتقلت سائحةً .. سابحةً بين النجومْ ..
تبكي وطنَها الأمَّ .. كأنها في لُجٍّ قاتمْ
إيهٍ (ديونيسوس) ! !
تلك هي دموعك المتألقة هناكْ
أيها العقل المنفتحْ ... إستَعِدْ ، غيرَ مأمورٍ
بنَاتك تلك ، إلى حضنك المتوهِّجْ »

وقبـل أن يتناسى الشعب اليـوناني فلسفـة (اورفوس ونحلتـه) حملت ريـاح ايجـا إلى الشاطىء اليونـاني من جزيـرة (سامـوسة Samos) في القـرن السادس قبـل الميلاد، العـالِم العرفاني الكبير ، والرياضي الخلّاق : (فيثاغورسPythagore) .

(فيثاغورس) : بعد قدومه إلى اثينا مع اسرته ، شرع يـتردد على معبـد (دلفوس) ويتحادث مع عرافاته ، على صغر سنه . نصحت العرافات أهله أن يسافروا بـه إلى صيدا (لبنان) ليزور معبد (ادونيس) في إحدى أودية لبنان . ثم أن ينتقل إلى مصر ليتعرف إلى هيـاكلها ، ويستقي من آلهتهـا = يعني أقطاب العلم الـروحي فيهـا = الحكمـةَ الـرفيعـةَ . استجاب الأهل لهذا التوجيه ثم عادوا ، ليكمل فيثاغـورس طريقـه إلى مصر ، يومهـا كان الحاكم المطلق (امازيس) . وبعدها سقطت مصر في قبضة الفرس .

استمـر مكوثـه في مصر إثنـي وعشرين سنـة ، خلالهـا طاف المحـاريب والتقى كبار الكهنة ، فذهلوا لعمق معارفه . قـال (جورج عبـد المسيح) اللبنـاني ، في كتابـه (زينون الـرواقي) : « كان فيثـاغورس يقـرأ طلاسم الأهـرام ، التي اعيت الكهنوت الفـرعوني ، وكـان يحل الـرموز فيهـا ويوضحهـا لهم . » وقال الفيلسـوف الاسكندري (Jamblique ، جَمْبليـك) طلب الملك قمبيزُ من (فيثـاغورس) ان ينتقـل معه إلى فـارس ففعل . وهنـاك توغل في دراسـة فلسفة زرادشت والهنـدية ، والعـبرية بـواسطة النبي العِـبري (دانيال) . لبث في فـارس اثني عشر عامـاً ، بعدهـا عاد إلى مسقط رأسـه حامـلاً روحـانيـات الشرق ومصر . يقـول فيـه المؤرخ الفـرنسـي المعـاصر : (أدوار شُـوْره ، Ed. Schuré) : « لقـد

فتحت له الطبيعة مغالقها ، ورفعت النقاب الكثيف عن المادة في عينيه ، لِيُبْحِرَ في خِضَمِّ الروحانيات » .

اعترف المؤرخون القدامى جميعاً بأن مدرسة «فيثاغورس» كانت تضم الرجال والنساء على السواء ، في وقت أهملت فيه المرأة . وكان قوام مبادىء هذا الفيلسوف : الخير إلى أبعد ما تحمل الكلمة ، وما كان يكفي المريدين في اعتناق مبادئه أن يطهروا جسدهم بالقناعة وضبط النفس ، بل يجب فوق ذلك ، تطهير النفس بالمعرفة . وكان الطالب يلبث خمس سنوات في الجمعية يسمع ولا يناقش .

تقوم فلسفته على : غايةُ الوجود هي النقلات المتتالية للروح ، جادةً في ممارسة الفضيلة . والفضيلة عند العرفانيين هي معرفة النفس بذاتها ، وصلتها بالله . وكانت للموسيقى مكانة مرموقة لديه ، إذ بواسطتها يَسهُل علاج الأمراض العصبية .

كانت حوادث عنيفة طارئة ، شوَّهت وجه اليونان اثناء غياب فيثاغورس ، بعد رجوعه اتصل بعرافات (دلفوس ، DELPHES) وأسس مدرسة تحمل اسمه ، قوامها : الفلسفة (الأورفية) مهذَّبةً ومعمَّقة . وكانت الأعداد والنغم دعامَ هيكله العلمي ، وروحَ تعاليمه الفلسفية والروحية معاً .

استطاع فيثاغورس أن يجسد الروح ، وأن يروحن المادة ، بما زخرت به نفسه من معارف باطنية وظاهرة ، وهي نبراس روحي في الزوايا المعتمة من حضارة العصر الحالي .

ولا نزال مع المرجع السابق القائل : بعد الوفاة ، في رأي الفيلسوف ، تنطلق النفس بتشوق من جسدها المادي الكثيف ، إلى الأعالي المضيئة ، لِتحييْ بجسدها المادي الرهيف ، في العالم الاثيري : ملتقى النفوس البشرية . والله في مفهومه ، هو الحقيقة ، وروحه هو النور الشعشعاني . يراه الأنبياء والحكماء ، ويلمح ظلَّه العامة . » . هل يقصد التوحيد الباطني بكلمة التجلي غير هذا ؟ ؟ وهل فيثاغورس غريب عنهم ؟؟ » .

عرف هذا الفيلسوف الإله بالصفات التي عرفه بها روحانيو الشرق وهليوبوليس بالتمام فقال : « هو الباطن الثابت لكل شيء ظاهر ومتغير ، واحدٌ أحدٌ سرمد ، غير منظور . انه روح الشموس وينبوع المدارك . يتجلى وقت يشأ . والوعي الانسانيُّ استمدَّ من الإله استمرارية بقائه . بعكس الجسد الفاني . وأعلن أن ما يحدث على الأرض ، يحدث مثله في الأسرة الشمسية ، واعتبر أن خلال العناصر الأربعة : (أرض ماء وهواء

ونار) عنصراً خامساً هو : السيَّال الكونيُّ الأصيل . » اليس هذا السيَّال هو الهيولى أو (الطبع الخامس) الذي تتحدث عنه الباطنية تلك . ويؤكد فيلسوفنا أن النفس البشرية هي شرارة من السماء ، ومعادها إليها ، والكون قديم جداً بناسه ، وكل عمل يأتيه الانسان يحمل معه نتائجه . وبتحصيل المعارف والعمل الصالح يدنو من الإله . ووعي الانسان يلازم روحه في عالم الأثير . والروح تسبح بين كوكب وآخر ، حسب الرأي الأورفي. أما التذكُّر فيحفظ الوعي بعضه. والحرية هي في تمييز الحق عن الباطل. والمحبة هي التجسد السماوي . والتقمص حق ، لأنه مُختَبَرٌ للنفوس ، لدى عبورها في مختلف الحالات . والعمل الفكري عنده أرفع أنواع التطهير. لقد صرح شخصياً لتلاميذه بأنه يتذكّر اسمهُ ويحمل بعض الذكريات عن حياته السابقة .

ثمَّ عرَّف البروفسور (بورنت Burnet) فيلسوفنا الرياضي بهذا القول : « اعتبر الإله واحداً أحداً ، والعقل هو الواحد ، والأحدية المطلقة هي صفة الألوهة . ولا يحق لأحد أن ينتحر ، لانه مِلكٌ للإله ، وهو راعينا . أما جمعيته فمؤلفة من طبقات ثلاث : هم : السَّامعون والخاصَّة ، المُنتقون » .

النفس البشرية قوامها وخواصها : لفلاسفة اليونان آراء متناقضة أحياناً في خواص النفس وماهيتها . وبما أن دياناتهم كان قوامها فلاسفتهم وكهانهم ، عمدنا إلى الاصفاء لكبارهم بتعريف النفس البشرية لانها درة في عِقد كل ديانة .

١ ـ قال الفيلسوف (طاليس) : « النفس قوة محركة ، سائرة في جميع الأجسام » . انه من مواليد القرن السادس ق . م لكنه لم يحدد بالضبط أي الأجسام من المخلوقات ، هي تلك الأجسام وقال :

٢ ـ (هيرقليطس ، HÉRACLITE) : « انها نار أثيرية في تغيُّرٍ مستمرٍ دائمةَ السيلان وانها ماديةٌ صرفاً لا روحانية . فيها ذَراتٌ ترابية كأشعة الشمس . » توفي عام (٤٨٠) ق . م .

٣ ـ (هيبون) اعتبرها ماء كما اعتبرها « كيتيل » دماً ، لأنها شديدة الإحساس كالدم .

٤ ـ وتعريف السفسطائي (پروتاغوراس ، PROTAGORAS) : « هي جزء من المشاعر التي هي مصدر كل المعارف . » توفي سنة (٤١٠) ق . م .

٥ ـ وعرفها (ديوجين ، DIOGÈNE) : « انها الهـواء ، تُعرف وتتحـرك . » كانت وفاته عام (٣٢٧) ق . م .

٦ ـ أمـا (افلوطين ، PLOTIN) صـاحب مدرسـة الاسكـنـدريـة فقـال : « جميـع الأنفس صادرة عن نفس واحدة، هي في أعلى مراتب الحيـاة الروحيـة. لا ذاكرة لهـا، ولا حس ولا تفكـير ، حيث لا يوجـد في عـالمهـا الـروحي زمـان ولا مكـان ولا احسـاس ولا إدراك » توفي عام (٢٧٠) بعد المسيح .

كانت تلك آراء هؤلاء الفلاسفة في النفس ، والذين اعترفوا بجوهريتهـا وخلودها ، هم ضمناً معترفون بالقـوة العليا التي تعـود إليها كـل النفوس ، أكـانت هذه القـوة ذاتاً أم مطلقاً . والمدارس المادية هنالك ، تنفي ما يتعدى الحس البشريّ . وفي الايجـاز السابق ، إشـارة إلى المدرسـتـين : الروحيـة والماديـة ، وكلتا هُمـا استولت ، في وقتهـا ، على مـدارك جماهيرِ من سكان اليونان بين أصيلين وأغراب .

آراء حول العرّافات والآلهة : ذكر المؤرخ المعاصر (ر . فراسَليار ، R. Fracelière) الاعتبار الكبير الذي كان يعيره بعض كبار الفلاسفة أمثال : سقراط وافلاطون وبـرمنيوس لعــرافـات (دودون ودلفـــوس) . كُنَّ يسلِّمن بمـا يــوحى اليهن في غمـرة الــذهــول والانخطاف . أما (أبيقورس ، ÉPICURE) فكان ينفي علاقة الإلـه بالبشر فهـو مُترفِّـع عنهم . ويعتـبر الملذات هي القوة الفـاعلة ، على أن لا تتعـدى ولا تتعـارض مـع المنـطق، والفضيلة . والله والـروح من مادة أرهف من الأثـير . توفي عـام (٢٧٠) ق . م . وقـال المرجع نفسه : ان الرواقي (پوزيدونيس ، POSIDONIO) كـان يصرح بأن العقـل يجبر الواعين على أن يسلِّموا بحكم القدر . وكانت مدرسته في آخر مطاف تـطورها ، تقـول : « إذا لم تُذع الآلهة أخبار المستقبل فذلك معناه : انهم غير موجودين . وبما انهم في الوجـود الحقيقي ، إذاً فهم يذيعونها . بذلك يكون ما تبوح به العرافات والكهـان وأصحاب الثقـة والتقوى كله ، متفجراً من ينابيع الحقيقة السماوية ، لا يحوم شك حوله » .

وقـال الفيلسوف الفـرنسي المعاصر (ألـين ، Alain) وهو روحـاني متشـائم : « ان العـرافات لا تـترجم بل تعبر بالصـوت والحركـات بما يجيش في صـدرهـا عن العـالم غـير المرئي . » توفي عام (١٩٥١) م .

وحـدثنا الكـاتب الفرنسي (ج . بـرون ، Jean Brun) في نشرة : (ماذا أعـرف)

بعددها المُخصَّص بسقراط قال : « الله هو المقياس لكل الأشياء وليس بإنسان . كان إيمانه بالنفس انها خالدة ومتنقلة من جسد بشري لجسد بشري آخر، حاملةً ذكريات سالفة لها في جسدها السابق ، وكان منذ صغره يشعر بصوت داخلي يشده لحل معضلاته العقلية . ذلك هو صوت الإله المنذر والمخلص معاً ، وهو واحد أحد غير مرئي . » توفي عام (٣٩٩) ق . م .

وقال طه حسين بلسان سقراط في كتابه (قادة الفكر) : الحقائق موجودة في النفس البشرية بالقوة ، ولكن ، حين هبطت للجسد ، تراكمت عليها السخافات ، كالصدأ على المرآة النقية . » وأكد إيمان سقراط بالتقمُّص .

الله الأحد : وقال (كريم متى) في كتابه : الفلسفة اليونانية : « ان النفس تعيش في عالم آخر، ثم تعودُ لتولد من جديد » . أما المؤرخ البريطاني (تيلر) فقد أوضح في كتابه (الفلسفة اليونانية) ما يلي : « الله في عُرف (سقراط) دائماً خيرٌ ، والنفس خالدة . ولا يقصد بتعداد الآلهة إلا واحداً أحداً ، أما سواه فأنبياء وملائكة . » ونُقل عن سقراط قوله : « لكي تحييَ حياة صحيحة يجب أن تعرف الخير ، وهذا الخير بعُرفه : (الإله) الواحد » وأكمل المؤلف بلسان سقراط : « ميلادنا نوم ونسيان ، يعقبه التذكُّر » .

وجاءت المدرسة الرواقية بعد فيثاغورس منادية (بزيوس) الإله الواحد المدبر ، وهو القضاء والقدر والعالم جوهر الله ، انه : الطبيعة ، والكون وكلهم حُقيقة واحدة شاملة .

ما كان رئيس هذه المدرسة (زينون) ليؤمن بوجود شيء غير مادي ، حتى أن الله الأحد هو : أثير لطيف ، جوهرٌ ، ومادة (سوما soma) . والكون هو قوام جوهر الله . ويقول (زينون ، ZÉNON) : « إن الله والعقل والقدر وزيوس ، كلها وجود واحد لا شريك له . والروحُ في عُرفه هي جوهر غازيٌّ حارٌ ، مركب من النفس (Psyché) بمعنى التنفس ، ومن العقل (Varros) . » ويضيف أحد تلاميذه (كريسْبُوس ، Chrisppus) : « الله (زيوس) هو مصدر العدل والنظام ، والآلهة الصغار موجودة لكنها غير خالدة ، مبثوثة في العالم ، وسوف تُقاضىٰ بعد كل دورة كونية .

أما الآخر (امبيدوقليس) تلميذ المدرسة (الفيتاغوريّة) فقد تخيل العالم كرة ، واعتبر الحب إله العالم ، وكان يزعم أنه بجسده يشتمل على روح الله . وخلاصة رأيه : « الله حُبٌّ » . وزميله : (پارْمنيدُس) كان يعتبر الكون وحدة تنتهي إلى شخصية واحدة

ثـابته ، يصـدر عنهـا كـل شيء وينتهي كـل شيء وأن مـا تـدركـه الحـواس وهمٌ محض . والكـون كروي قديم ، وكامل ، يكشف لناعته العقـل . وقد أضـاف على سـابقيه (عبـد الرحمن بدوي) في كتابه « ربيع الفكر اليوناني » قول المدرسة التوحيدية فيها : « ان للوجود أصلين هما : الحار والبارد ، أو النور والـظلام ، عنهما نشـأ الوجـود كله . هما الـزوج والزوجـة ، يشدهما إليه الحب . وعن هذا الحب نشأ الوجـود . » وليس الله في رأيه خـالق الكون إنمـا هو حقيقة الكون ، وهذا الكون قديم لم يحدث ، هو كرة لا تقبل التجزئة .

و « كسينـوفان » ابن المـدرسة الايليـة ، يعتبر الله واحـداً هو الكـمال لا شبيـه لـه ، منـزه ، وأزالي ، فكـرٌ محض ، كـل هؤلاء أبناء القـرن الخامس (ق . م) وابنـاء اليونـان بالذات .

وأبو المنطق : ارسطو المتوفَّى عام (٣٢٢) ق . م . حدد الإله بقوله : « انه الحقيقة العليـا الثـابتـة التي تنتهي إليهـا كـل حقيقـة ، والعلة الأولى ، والمحـرك الأول الـذي لا يتحرك . هو العاقل ، والعقل والمعقول . وهو صورة لا تشوبها مادة ، والاهتمام بـالعالم لا يليق بكماله . » وقال الـ (هـ . روسّو ، Hervé Rousseau) في كتابه : الفكر المسيحي : « الله فكرةُ الـفكـر ، لا يعرف العالم ، ولا هو خالقُه ، ولا المعتني به . » والكون في عُرفه أزلي أبـدي ، والروح بعـد الوفـاة تعود إلى العقـل العام (الكـلي) . لا فـرديـة لهـا بعـد الموت ، ولا تفنى ولا تقبل الفناء .

الفصل الخامس

كـان افلاطـون يُسمي مُعلِّمه أرسـطو : « العقل » وسمـاهُ فلاسفـة العرب : المعلم الأول .

استمـرت حصيلة فلسفـة افـلاطـون حـول الإلـه ، والكـون ، والبـاطنيـة بـأرقى مستواها ، المنهل الاصغىٰ للرومنطيقية ، في كل لغة وبكل عصر . فـوق ما هي ، الـركيزة الراسخة للباطنية في الديانـات السماوية . ولم يكن (برغسـون) مُغاليـاً ، حين أشـار بأن الخط الديونيسي ينتهي في افلاطون ، مروراً : بأورفوس وفيتاغور ،

بماذا عَرَّفَ العِملاق الروحاني افلاطون الإله ، والكون ، والانسان ؟ ؟

في رأيه : « الآلهة جمعاء وأبناؤها وُجدت بقدرة الإله الصانع ، الـذي صنعهم بنفسه ويتفكّكون بمشيئته » .

الله في مفهـومه : أبـو الكـون ، والشمس المعنـويـة ، وزيـوس الحقيقي ، والخـير الأعلى، والديميرج . » عن الدكتور محمد غلاب (الخصوبـة والخلود في نتاج افـلاطون) » .

وقـال : (Ed. Schuré) : « نفس افـلاطـون مُشبعـة بـالحُب والنغـم . تلقّى عن استـاذه سقـراط ، كيف يطبق العـدالة والصـدق ، عملياً ، وعن كهنـة مصر وآسيـا الصغـرى ، وفيثـاغورس معـاني الأسرار وأبعادهـا ، وعرَّف بموجبهـا الإلـه انـه : صـدق ، وجمـالٌ ، وخير . » ثم أردف :

« خلق الإله المادة وسيلة لإدراك الخير الذي بـه القضاء عـلى الرذائـل والشرور . والنفس من جنس الصورة : بسيطة مشـاركة في الحيـاة ، تتذكـر وتعود لتتجسـد في بشر : انثى كـان أم ذكراً ، وتحـاسبُ على أعمـالها ذرة ذرة . وهي خـالـدة حـاسَّـة . إذا تنـاهى صفاؤها ، يمكنها معرفة الغيب وحياً . فالأرباب الوسطى هي التي تتـولى أمر الخلق ، أمـا العقل ويقصد به « الله » ، فهو كمال لا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة » .

ويرى الفيلسوف الروحاني هـذا، أن الكون ، أرضـا وكواكب هـو حيٌ . ويؤمن بما كان يحس به من استاذه سقراط ، بـأن هناك قـوةً روحية تشرق عـلى ذوي النفوس الـراقية الصافية ، فتجلو ما التبس عليها من غوامض . وكان يعتبر أن بين عرافات هيكلي (دودونا ودلفوس) صلة وثيقة مع الآلهة . قال في كتابه (فاذْر ، Phèdre) : « هؤلاء في ذهولهنَّ ، كُن العاملات الخبيرات بمجاري الأحداث في اليونان ، فرداً وجماعة . وارسطو على سـديد الـتزامه بـالمنطق ، اعـترف بأن هنـاك مـادة رئيسيـة تتعـدى العنـاصر الأربعـة ، في جسـد الانسان ، انها : العصارة السوداء ، المجانسة لمبدأ الكواكب ذات السِمة الإلهيـة ، أثيريَّـة الجسم ، ذات طبيعة سماوية ، هي : الأصل الخـامس . أليس هذا الأصـل الخامس عنـد ارسـطو هو نفسـه : الهيولى ، في البـاطن التوحيـدي ؟ ؟ والأرباب الـوسطى التي ذكـرهـا افلاطون ، أما هي العقول التي تلي العقل السابق الكلي ؟ ؟ .

إذا انتبهنا بعمق إلى أسرار (ألوزي) قبل أن كان هؤلاء الفلاسفة يتبيَّنُ لنا أية قربى حميمة ، بين تلك الأفكار الروحانية ، وبين الباطن التـوحيدي المعـاصر . لِنَرَ : في الشـمال الغـربي من (أثينا) منـطقة جبليـة أُقيم عليهـا هيكـل قـديم جـداً ، يحمـل اسم المنطقـة

(ألوزي ، ÉLEUSIS) . كان الحافز لبناء هذا الهيكل في ذلك المكان المنعزل ، النائي ، على شاطىء خليج متواضع ، هو الاعتقاد بأنه هو : « في العصور البعيدة جداً ، نزلت على الساحل جماعة من اليونانيين قادمين من مصر القديمة ، يبشرون بعبادة (إيزيس) باسم : (ديمَتَرْ ، Déméter) أو الأم الكونية (النفس الكلية) . ولما كانت السلطة الكبرى لكهان (الأُولِب) يومذاك ، فقد انكمشت وتلملمت أتباعُ هذه العقيدة الجديدة ، في ذلك الهيكل المتواضع ، تنادي بإله واحد . اسم اتباعه : أبناء القمر . وهم الصلة الوثقى بين الأرض والسماء حيث تهبط النفوس البشرية وترتدُّ دواليك إلى مستوى عامر بالطيبات والروحانيات . والحياة على الأرض إنما هي حلم عابر ، وسَراب .

وقد حذَّر هؤلاء الكُهَّانُ من الإصغاء إلى مُغريات الحُبّ (Eros) ، واعتبروه خداعاً على الأرض ، فالحب الصادق ، والضياء السرمدي ، هما في السماء . لكن الحب على الأرض : شر وغرور . هذه ظواهر أسرار (ألوزي) وهي متخمةٌ تشاؤماً بالحياة الدنيا ، تحيى على غمامة أمل ترتفع بها إلى الآفاق البراقة .

عرَفْنا في كهنة (إيزيس ISIS) المصريِّين سعيراً من التشاؤم ، لعل الاضطهاد الذي احاط بهؤلاء ، والمعاناة التي تحملوها سُدىً لنشر تعاليمهم ، نظراً للطبيعة اليونانية المرحة الطروب ، كثَّفتْ أمام نواظرهم سحائب اليأس ، حتى أُرتهم الحب على الأرض كله خدعة ورياء . ولا عجب ، فكل مؤمن بالروحانيات من أبناء الديانات السماوية ، دائب على ممارسة تعاليمها بجدية ، يسيطر عليه هذا التذمر من الحياة وطيِّباتها ، أملاً بنعيم أبقى . رواية (أروْزي، Ereusis) فيها كثير من الشبه بتلك الحمامة السوداء (الكاهنة) التي نزلت عند باب معبد (دلفوس) منادية (بزيوس) إلهاً أحداً ، لعل الروايتين واحدة ، لعب بها التناقل والتقدم .

موقف الفلاسفة من الآلهة : بعد هذا التطواف نستأذن القارىء السماحَ بوقفة عجلى نلفت فيها النظر أولاً = إلى موقف جل فلاسفة اليونان من آلهتهم ، بدءاً من القرن السادس (ق . م) حتى ارسطو . كانوا كلهم يؤمنون بقدرة عليا واحدة هي : الله أو (زيوس) بينما كانت للشعب عشرات الآلهة وانصاف الآلهة . فهذا مشير إلى أن الشعب مُندفعٌ في تيار فلاسفته ، وما الآلهة الآخرون غير رُسلٍ أو أقطاب موجِّهة ، معايشة

للشعب اليوناني ، كما سبق . تشاركه المشاعر الانسانية نفسها وتقضي حاجاته الممكنة . تعشق وتتزوج وتقاتل وتحقد ، وتهدي إلى السُبل القويمة ، انها بَشر .

ثانياً = في كل عصر ، وبكل ناحية من الأرض اليونانية ومستعمراتها (زيوس ، Zeus) يعني : الكليُّ القُدرة . فكيف يعقل أن يتصرف هذا الكلي القدرة ، تصرف البشر ، فيتزوج وينسل ، وهو في ذلك البرج المتعالي ؟ ؟ أليست ألسنة الخرافات المحببة لدى هذا الشعب ، هي التي جعلت فيه : طبيعة انسانية ؟ أم هل هو انسان وإله في آن واحد ؟ منطقياً : لا ، لان فلاسفة تلك العصور ، المعايشة والمتداخلة بالشعب كله ، لم تشر إلى طبيعة انسانية في هذا الإله الأحد . وقد يكون سواد الشعب ، حباً بتقرُّبه من (زيوس) خلق له هذه الطبيعة الناسوتية .

ثالثاً = يدعم رأينا في الإله (زيوس) بالنسبة لشعبه ، وجود التيارات الفكرية حول الكون ، والخالق والمخلوق ، هي متناقضة لدى الفلاسفة أنفسهم ، كما هي لدى الشعب اليوناني : فالمدارس الباطنية تعتبر الإله واحداً أحداً ، كليٌّ القدرة ، وهو منزه ومبدع متعال . وترى في العقل الأول (الكُليّ) المرجع والحكم ، والحارس للبشر . وقد حذا حذوَ هؤلاء في كثير من أفكارهم الروحية حول الإله والروح والكون ، جمهرةٌ من الفلاسفة ، كما رأينا . أما المدارس المادية المحصورة في قلة من الفلاسفة الكبار ، فهي الرائدة للفئات التي كانت ترى آلهتها كأبطالها ، اناساً مثلهم وبمشاعرهم . كل ما هو عندهم غير محسوس : وهمٌ وباطل . والدليل على ذلك : (اسكليبيوس) . اتخذه الشعب إلهاً ، لانه أراهم معجزاته حسياً وقبله بقليل كانوا رافضين .

رابعاً = نادى بعض الفلاسفة بالحب إلهاً ، ورأينا كيف احتضن الشعب اليوناني هذه العقيدة ، حين تنادوا إلى الأخويات واتخاذ (أروس ، Eros) إلهاً لهم ، في أثينا ، كما على الحدود البعيدة ، في منجاةٍ من (ألوزي) وكَهَنتها .

تلخيص البحث : كان الألف السادس قبل الميلاد بدء ظهور الانسان في اليونان وجزرها ، يُعتقد قدومه بقوافل بشرية من غربي آسيا ، أو من الشمال الأوروبي ، أو من ضواحي مصر . بعد ثلاثين قرناً ، اكتشف النحاس والبرونز ، فتكاثر سكان اليونان ، والتمعت في بصائرهم ومضاتٌ لمعتقدات مختلفة من البلدان المجاورة . أبرزها تعدد

الآلهة ، كلها تعايش الشعب . لها ناسوت بشري : جسداً ومشاعر . جاءتهم فكرة الهياكل والكهنة متأخرة .

ولعبت الخرافات والسحر والشعوذة دوراً في نفسية الشعب ، وكان لِعرّافات (دلفوس ودودونا) الحظ الأوفر في تصديق ما يوحى إليهم ، حتى من قِبَلِ بعض كبار الفلاسفة كسقراط .

كانت عناية الآلهة بإخصاب بشري ونباتي ، نظراً للحاجة الملحة لكليهما . ثم تطورت وتبسطت صلاحياتهم . قُدمت لهم القرابين ومختلف المآكل . وكانوا محبوبين ومُحَّبين من الشعب وإليه . إلههم ذو القدرة الكلية : (زيوس) منذ القديم . يُرجِّح انه عبِّد السبيل تبشيراً عن طريق مصر . وقالت أسرار (ألوزي) بتأليه (إيزس) المصرية . تقول بعض المصادر ، ان اليونانيين في الغابر البعيد ، اتخذوا (أروس ، Eros) إلهاً ، ثم حملتهم الأحداث إلى عبادةسواه ، مع عشرات الآلهة . غير أن (هوميروس) رغم الكثير من شَطَحات خياله ألقى ضوءاً شاملاً على الآلهة وعاداتها ، ومتطلباتها ، ووضع الشعب ازاءها ، خاصة اثناء الحروب (البِلِّيونازية) وجاراه الشاعرُ (هزيود) .

أشهر آلهتهم بعد (زيوس) : ديمتر ، أثنا ، أپولُّون ، ديونيسوس ، هرمس هارا ، وأفروديت ، ثم تاميز ، أرتميز ، پوازيدون وأخيراً اسكليپيوس وكثيرٌ غيرها . لكل حاجةٍ شعبية إله ، معظمها هي نفسها عند المصريين والآسيويين ، ثم بعدهم ، عند الرومان ، ولكن بأسماء متنوعة ، خاصة (زيوس) الأعظم . عدا الإلهة : « الأرض الأم » اسبق الآلهة وأشهرها ، ولكن لم تبلغ عظمتُها حدود (زيوس) . مقر آلهتهم : (الپنتيون والأكروپول) وهي آثار رائعة . وأشهر معابدهم : (دلفوس ودودون وأولمپ وديلوس) . ولليونانيين في كل ضاحية ، معبد لإله : حباً به والتماساً لعونه .

كان تفكير الكثرة الغالبة من الشعب : مادياً ، ولم يلتفتوا قط إلى السماء والروحانيات ، لولا تيارات شاعت ضمن إطار محصور ، والتزمت السرية الكلية ، عن قداسةٍ ورهبة أولاً . منها : الديونيسية ثم النِحلة الأورفية ، وأخيراً المدرسة الفيتاغورية . لهذه المدارس السرية جميعاً خطٌ باطني واحد ، تهذَّب مع الأيام ، وبلغ الأوجَ لدى افلاطون .

وقـد طبعت التيـارات الفكـريـة المختلفـة من مـاديـة صرف إلى الـلاّ مـاديَّـة ، إلى الروحانية ، التي كان يتزعمها كبار الفلاسفـة ، بدءاً من مـطلع القرن السـادس ق . م ، طَبَعتْ ، بسمـة عميقة عـلى فم التاريـخ ، حتى الفتـح المقـدوني الميمـون . وبعـده طغت الفوضى على الشعب وأفكاره ، واستحكمت مقابض الدخلاء المعتدين بثروات اليونانيين ، وهياكلهم وكراماتهم . دامت هذه الحال زهاء ثلاثة قرون متتالية ، انبثق بعدها أمل بالحياة والسعادة على الأرض كما في السماء ، فتـألفت الأخويـات ، وجمعيات التعـاضد والمحبـة ، واستعـاد الإله (أروس ، Eros) للحُبِّ مكـانَتَهُ السـابقـة . لعـل المُبشـر الكبـير القـديس (بـولس) كان لـه من قوة الحجـة ، ما دعم هـذا المعتقـد وازر بنشره في اليـونـان كـما في جوارها . أو لعل اليونانيين أنفسهم قد استفاقوا من طويل سباتهم وتنابذهم ، وأدركـوا أن استعادة مجدهم لن تُستـرد ، إذا هم لم يتآخـوا ويتحابـوا بصدق عميق . والإيمـان بهذا الـ (أروس ، Eros) الحب ، كان المشعال في حُلكةِ ليل الظلال في الأرض اليونانية ، وكـان البشير بانبثاق عقيدة قائمة على الفداء والحب والسماح . مهدها فلسطين ، ومنـارتها يسـوع المسيح .

هـل ارست سفينـة الحب والخـير عـلى الشـاطىء الأمـين . أم تتعـثر في صخـور الدكتاتورية الـرومانيـة قبل الإرسـاء ؟ لنتفحص هذه الصخـور ولنمعن من أي الحضارات سيطل على البشرية ، فجرها الزاهي .

المراجع العامة لديانات اليونان

أ ـ بالعربية :

١ ـ تاريخ العالم : هامرتون الجزء II ص (٦٣٤ ـ ٦٩٧ ـ ٧٢١ ، وما يتخللها وزارة التربية المصرية طبعة ثانية ص (٦٣) وما بعدها ـ ص (٦٤ ـ ٧٥) من الجزء الثالث .

٢ ـ قصة الحضارة : ديورانت ـ ص (٢٩٣) وما بعدها ـ ص (٣١٧ ـ ٣٦٥) ج ٥ ، ص (٤٥٦) ـ وما بعدها (زيوس والأولمب) سنة (١٩٦٢) .

٣ ـ ديانات العالم الكبرى : (Ed. Rochedieu) ـ ص (٢٩١ ـ ٣٢١) سنة (١٩٦٦) .

٤ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ : (Alban G. Widgery) ترجمة ذوقان قرقوط ـ الفصل الثلث ـ ص (٩٧٧) وما يليها ـ سنة (١٩٧٢) .

٥ ـ تاريخ الفلسفة الغربية : برتراند راسل ـ ترجمة الدكتور زكي محمود ـ ص (٣٧) وما بعدها طبعة أولى .

٦ ـ هيرودوت يتحدث عن مصر ـ ترجمة خفاجة : ويدوي ـ ص (١٣٧) وما بعدها (من طيبة اليونان) سنة (١٩٤٦) .

٧ ـ قادة الفكر : الدكتور طه حسين ـ ص (٢٦ ـ ٨٣) .

٨ ـ فلاسفة اليونان : الدكتور جعفر أيسين ـ ص (١٣) إلى ص (٤٢) طبعة أولى .

٩ ـ انتصار الحضارة : جيمس هنري برستد ـ ترجمة أحمد فخري ـ ص (٦٣) وما بعدها .

١٠ ـ ربيع الفكر اليوناني : عبد الرحمن بدوي طبعه (١٩٤٦) ص (٨ ـ ٥١) ثم ص (٥٨ ـ ١٤٤) .

ب ـ بالأجنبية :

1- Encyc. La Rousse 1968 : Tom (3) p : (520- 526).

2- A. G. Festugière: Hist. Générale des Rel. 1960 tome (2) p: (465- 573).

3 — G— Aigrisse: Eléments orientaux de la Rel— grecque ancienne; Paris, (1960) (Détaillé).

4- A. Y. Frestugière: La Revolution Hermis Trimègiste; Paris (954), 4ème vol.

5- V. Magnien: Les Mystères d'Eleusis- 3ème ed. Paris (1950).

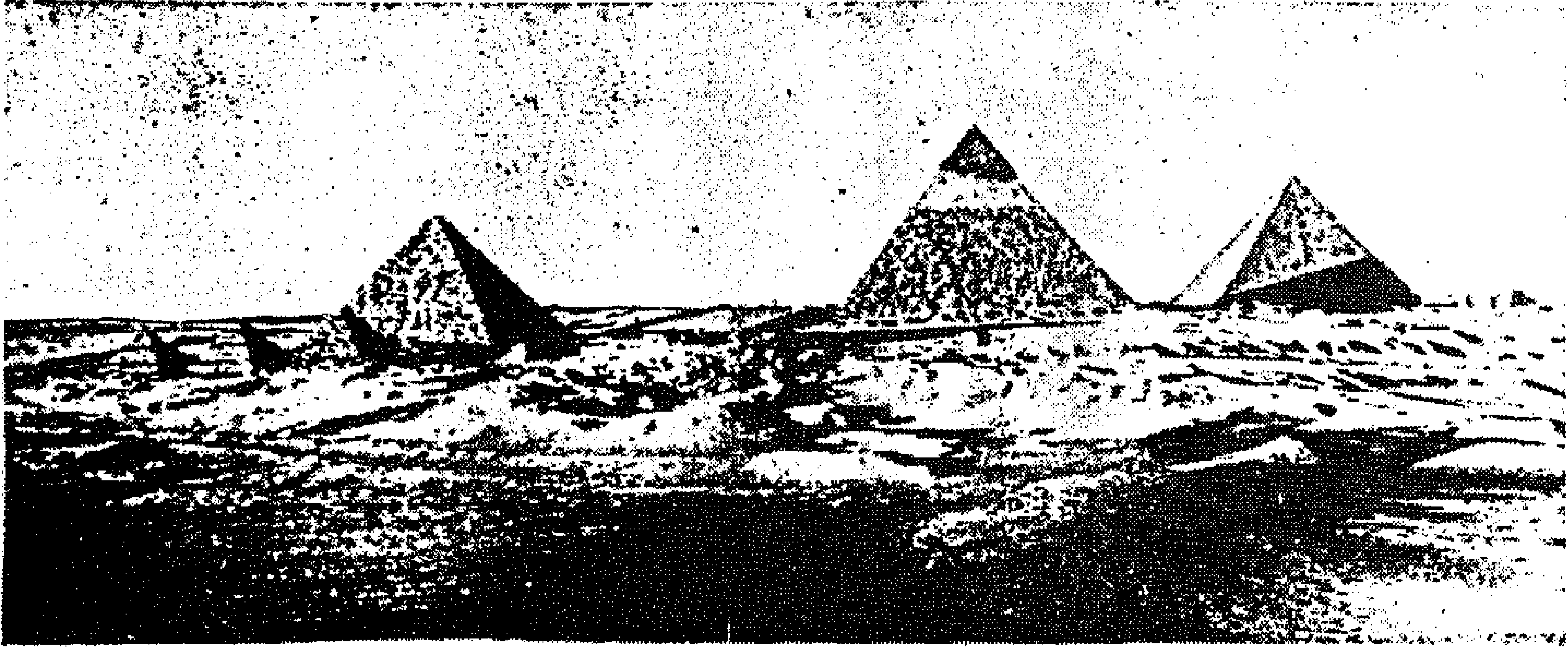
6- L. Maulinier: Orphèe et l' Orphisme classique; Paris (955).

7- M. P. Nilson: Les croyances religieuses de la grèce Critique; Paris (955).

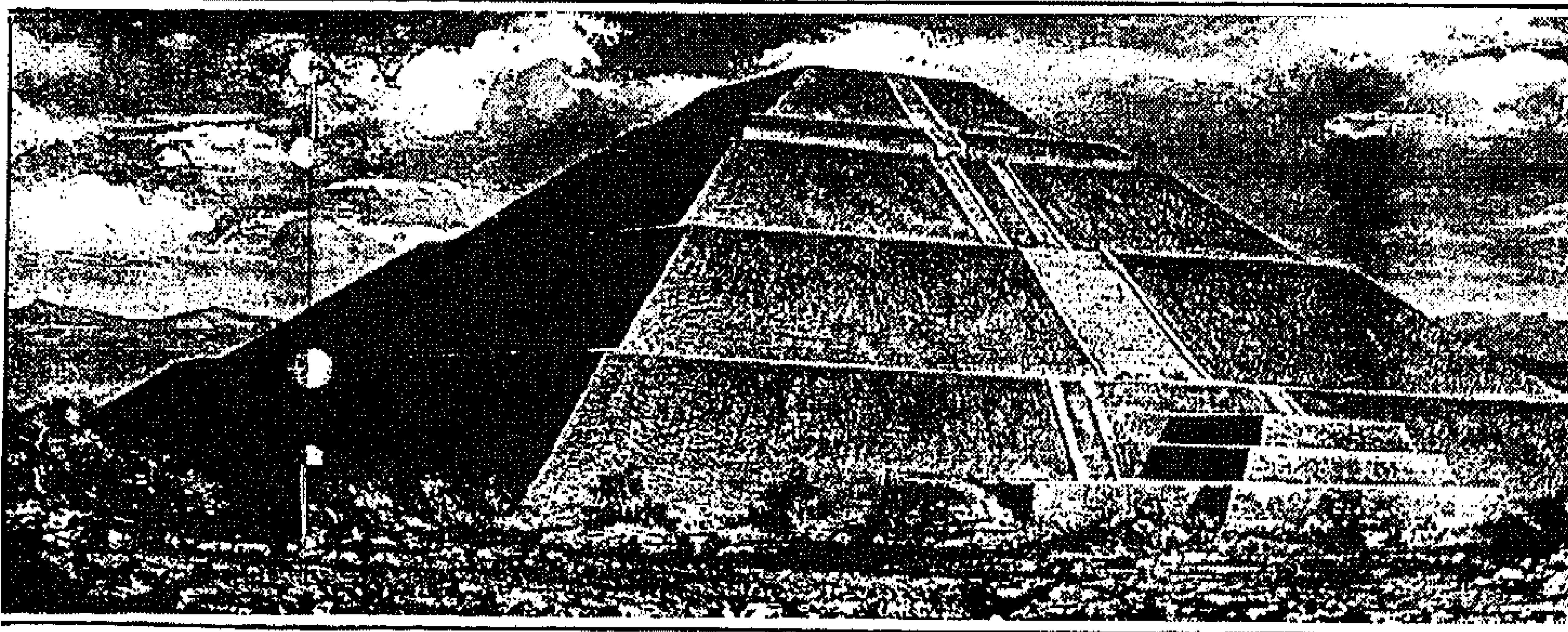
8- R. Frzcelière: Dévins et Oracles grecques, Paris (956); p: (21- 31)- (103- 121).

9- Ed. Schuré: les grands Initiés (1960), p (269- 305)- (319- 446)- (465- 487).

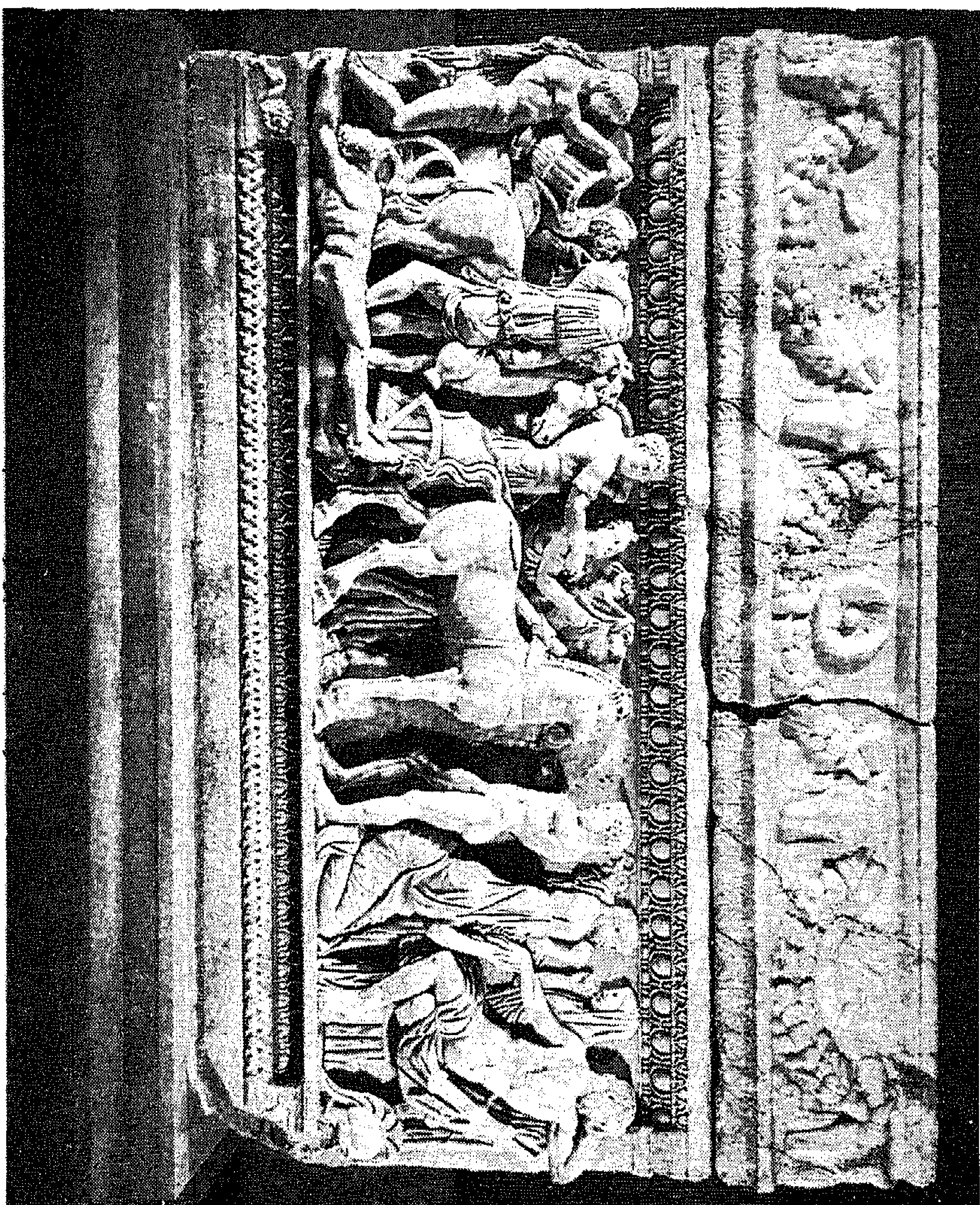
10- Hist de la civilisation, Will Durant (1962) A tome 6. p: (93- 112)- (245- 250).



الأهرامات الكبرى في الجيزة ـ مصر ـ .



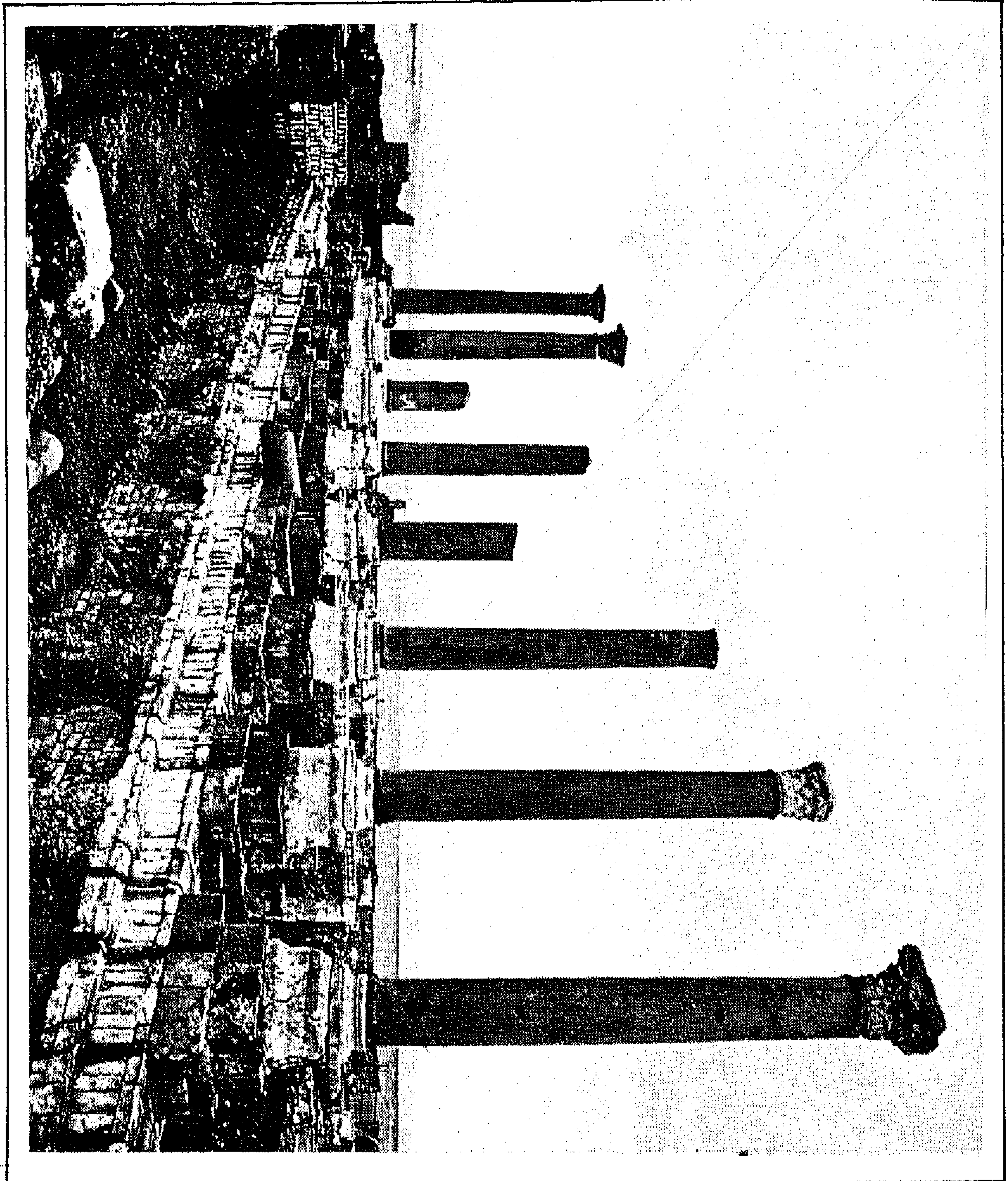
هرم (المكسيك)

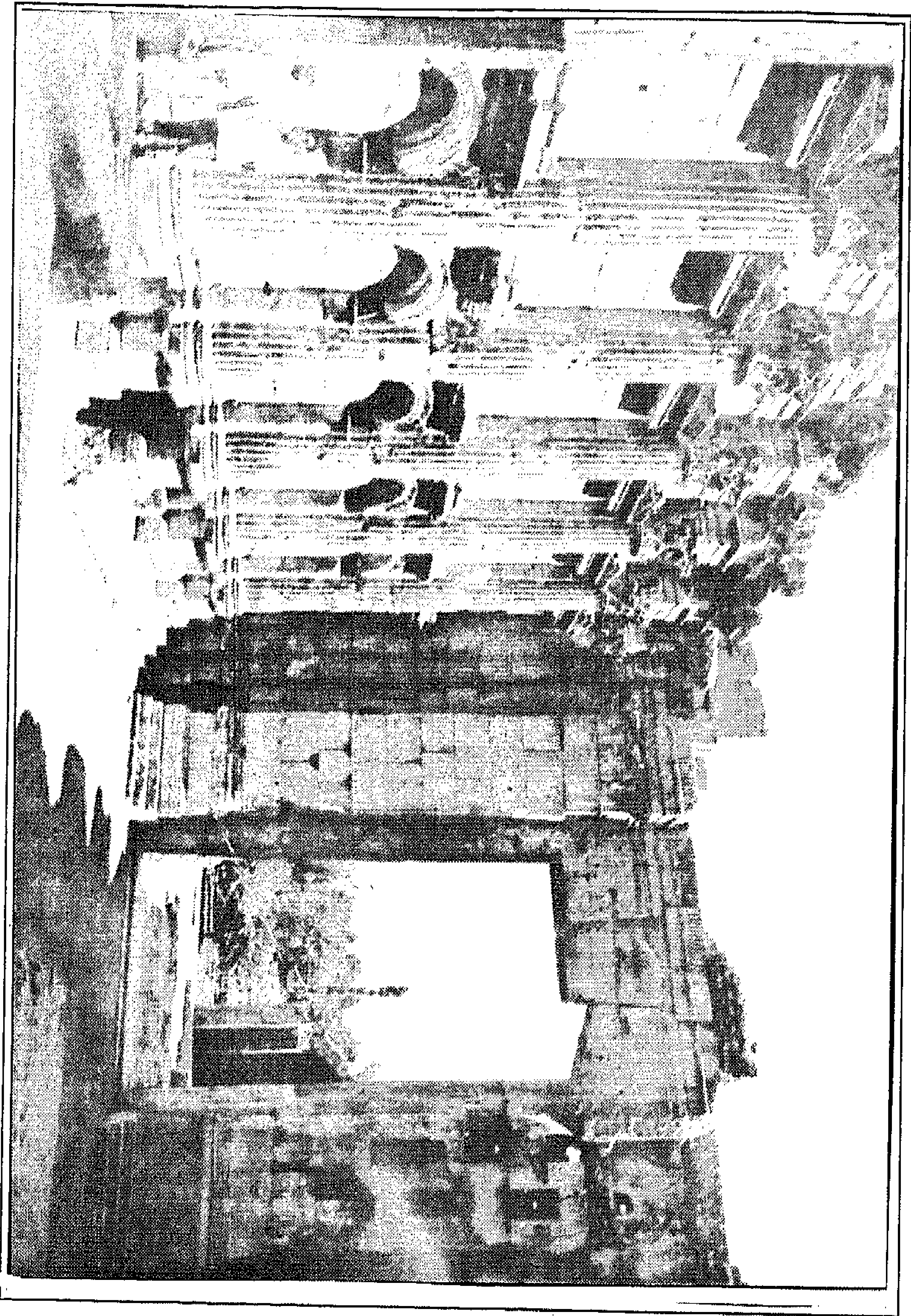


أخيلوس يصرع هكتور



الأولمب (مقرُّ الآلهة)

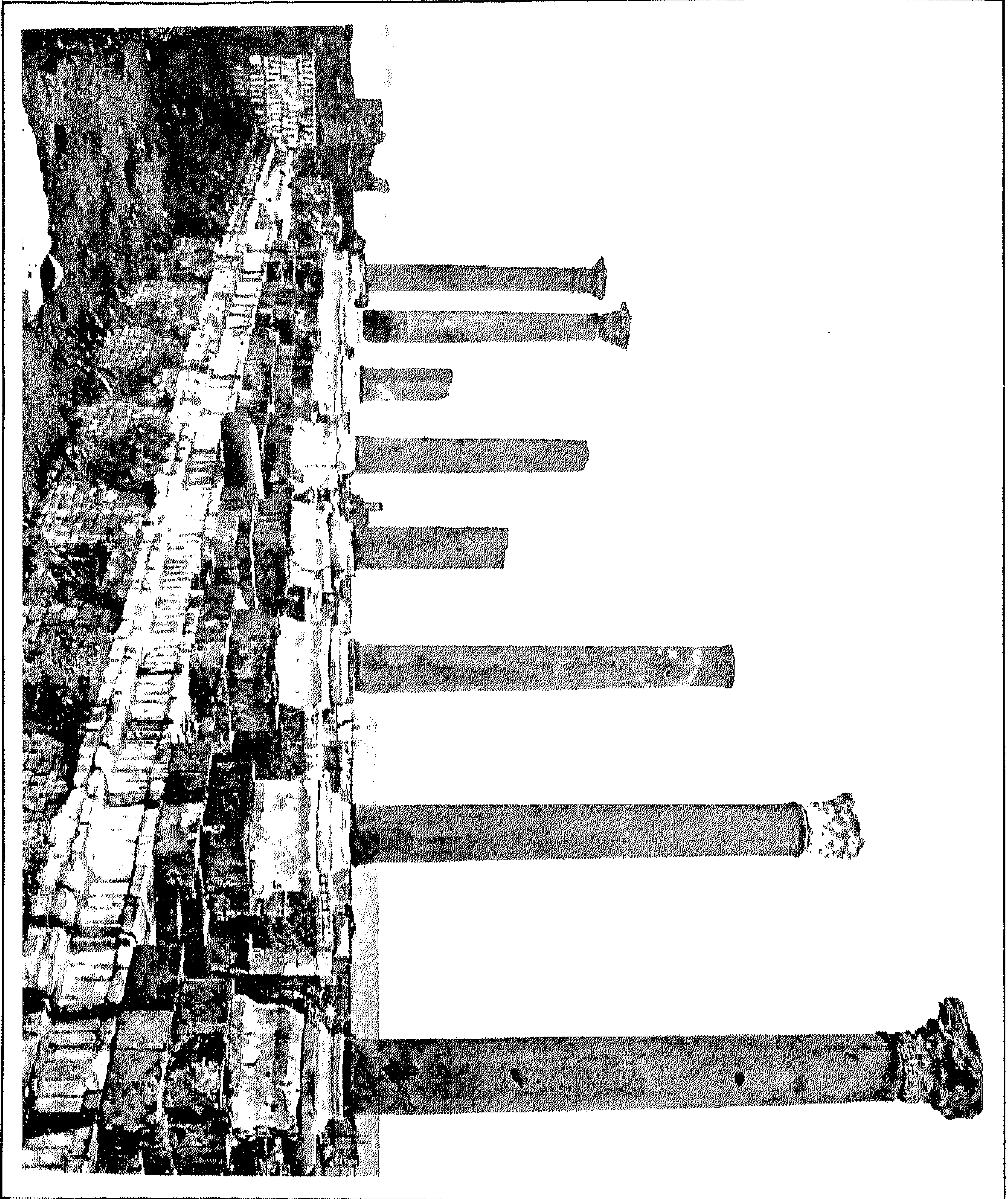




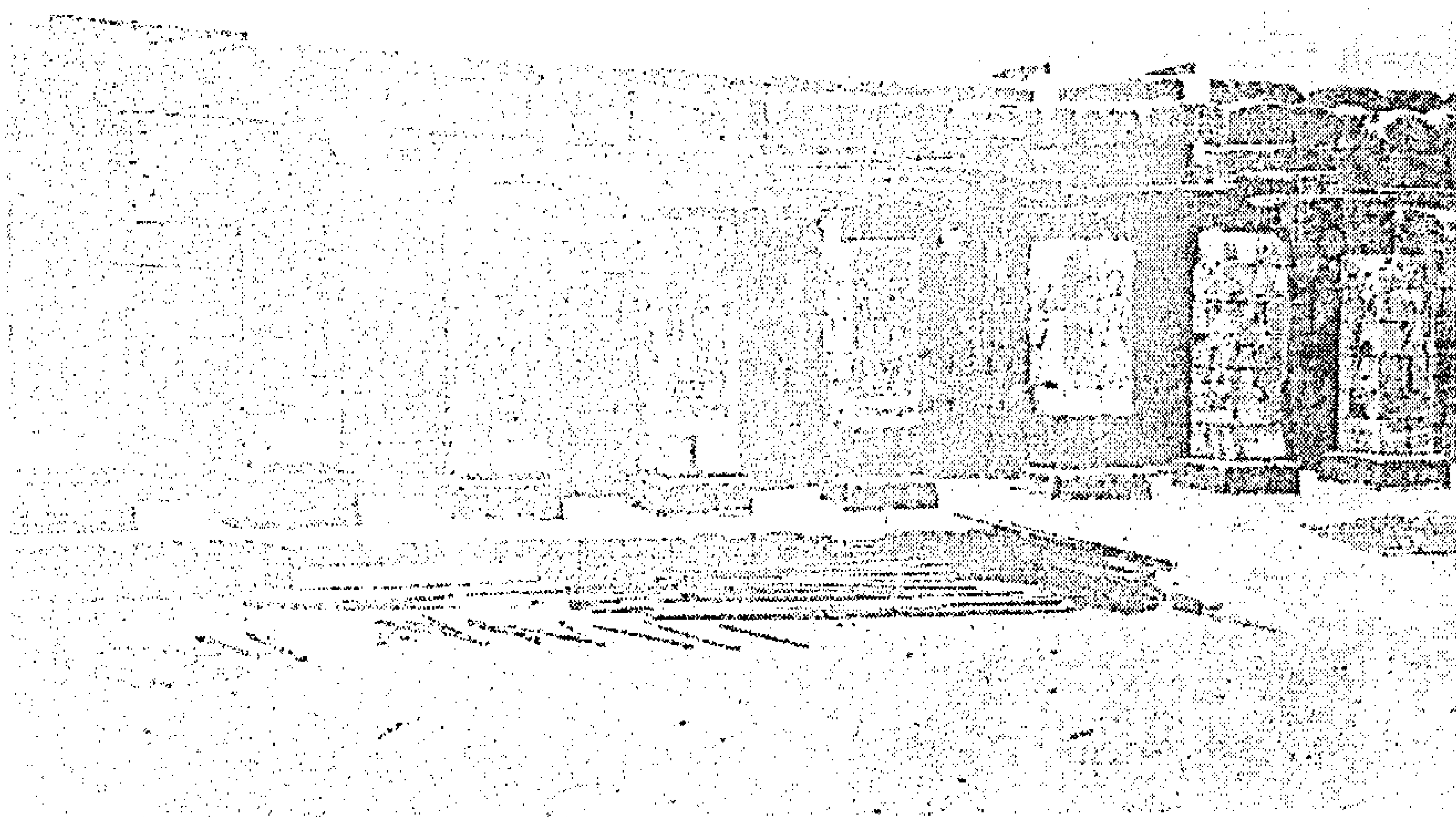
منظر داخلي هيكل باخوس



الهة الحضرية



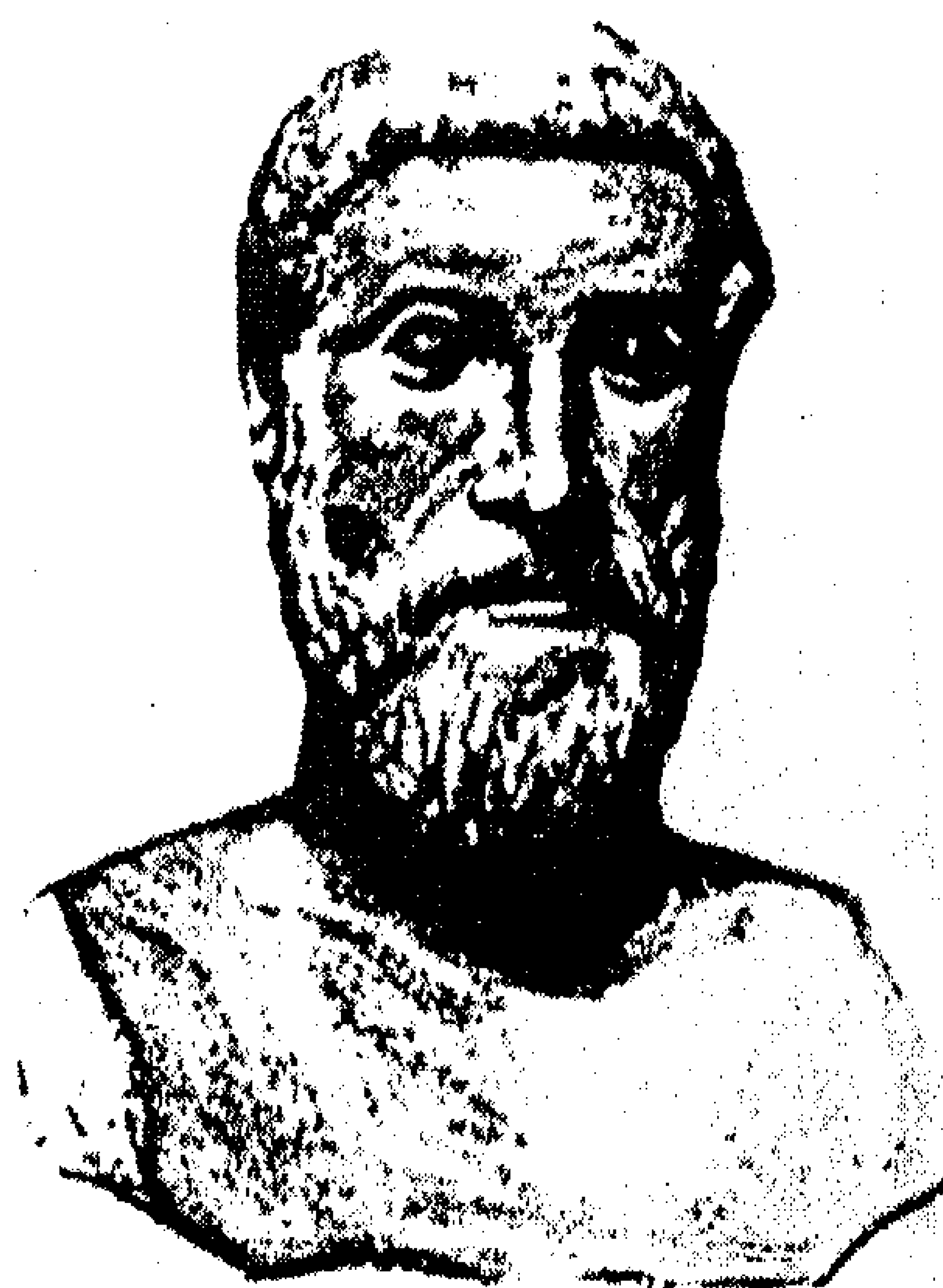
جرش



هيكل ابيدوس Abydos



آپوللونيوس



فيثاغورس



الفارابي

الباب الثامن عشر

الفصل الأول

ديـانـات الأتـروسـك (Les Etrusques)

الأتروسْك :

منذ عُرف الإنسان على الأرض ، كان يصحبه مع الأجيال حُب الانتقال من منطقـة لأخرى ، وسبب ذلك : السعي الجادّ لطلب الرزق أولاً ، ثم لإيجاد منـاخ أفضل وأضمن وأدفأ .

هذه العوامل حفزت الشعوب الهندو أُوروبيَّة قديماً وبعدها اليونـان ، ثم القبائـل التي استـوطنت الرقعـة التي نُسميهـا نحن اليـوم : ايـطاليـا . وحملت اسم الـ (Etrusques ، أتروسك) .

اعتبر (هيرودوتس) قـدوم هذا الشعب من (ليـديا) عـلى شاطىء بحـر (إيجا) . لكن التحقيقات التي اجراهـا علماء الآثار المعـاصرون ، كشفت لهم حقيقة نـزوح هؤلاء ، أثر ثورات وتنـازع بقاء . يعـود أصلهم إلى الغُزاة الـدوريين الذين طردوا (الآخيـين) ، واحتلوا المناطق الجنوبية الشرقية من أوروپـا ، وصولاً إلى ايـطاليا ، ذلـك في مطلع الألف الثاني (ق . م) . ولم يُعلِن المؤرخون بالضبط التاريخ المحدّد لهذا النزوح .

أما الآثار الدالة على حضارة هذا الشعب ، وعلى معتقداته الدينية ، فكانت ، وثائقَ ومُدُناً وقبـوراً جمَّة وتُحفـاً ملونة وفخـاراً . نزلـوا الشاطىء أولاً بـأعداد قليلة ، ثم تكـاثروا وتوغلوا في صميم البلاد حتى بلغوا منعطفات جبال (الألپ) شمالاً .

يقال أن (للأتروسك) كتباً كثيرة ، تتضمن اسرار معتقدهم وطقوسهم ، الأولى : (ليبْري - ريتواليس Libri — Ritualis) ، والثانية (Libri — Haruspicom ليبري - هارُوسْبيكوم) أُوضحتْ تقديم الأضاحي ، وبَقْر بطن الضحية والإمعان في أحشائها التي توحي اسرار المستقبل . ومخطوطات غيرها تشير إلى العقول الروحية التي تحرس الرجال . ومن المخطوطات ما يُقرأ كالتعاويذ ، لردِّ ضربات القدر ، والتقرّب من الآلهة ، لضمان الحياة الأخرى والخلود .

دلّت الآثار المكتشفة حديثاً على حقيقة إيمان هذا الشعب بالروحانيات ، وبخلود النفس ، ونُقلتها إلى دنيا أخرى وعليا ، بعد الوفاة ، بواسطة عَجلةٍ أو جواد ، أو ذاتِ الهيئةِ دعوها : (شارُوم ، Charum) : هادي الموتى . بإحدى هذه الوسائل ، يتمكن المتوفىّ أو ظله (لعل المقصود من هذا الظل : الجسم الأثيري في علم الروح الحديث)، من عبورِ جسْرِ الحياة الثانية . على أن ما زعمه المؤرخون من : بقر البطون والإمعان في احشائها ، فتلك من سرية العقيدة . انها ترمز إلى سَبْر المظاهر ، ودقة التبصر والانخطاف ، تمهيداً للإشراق الروحي .

كانت الموتى تحرق في القديم ثم اصبحت تنزل التراب . والذي يعنينا في الأمر هو عقيدة خلود النفس . والسؤال : كيف تسرّبت هذه العقيدة إلى تلك البلاد المنعزلة عن التيارات الروحانية ، التي تقاذفت شراع الفكر اليوناني منذ اسرار (الوزيس وديونيسوس) ؟؟

الجواب الذي يفرضه المنطق ، حين تخبط بعيداً عن التاريخ الصحيح ، ولم تسعدك آثار واضحة ، يعني الإيمان بإله واحد وبميزان، وبخلود النفس، وبدارَين: دار بقاء ونعيم ، ودار شقاء أو إضمحلال كُلِّي . ذلك الإيمان الذي جلجلت اجراسه على شواطيء النيل وفي الهند وفارس ، وتناقله الشعب الهندو أوروبي ، منذ زهاء ألفي عام (ق . م) وما قبله ببعيد ، توزعت ومضات فجره . ولما كان هذا الشعب الأتروسكي نازحاً في الأصل أو مطروداً من إحدى تلك المناطق ، أو من جوارها ، ثم كان متاخماً بأرضه للهياكل الروحية اليونانية القديمة ، فكيف به لا يتأثر بالنزعات الروحية ويتبناها ؟ علماً بأن هذا المعتقد قلما يدع للتاريخ آثاراً حسية تدل عليه ، بوضوح ويقين ، إذا لم يكن هنالك

عمالقةُ فكر روحي ينادون به عالياً، ويفسرون ألغـازَهُ، تتبعهم حضارة مؤتلقـة تحتضنهم . كثيراً ما ضاع التاريخ ، وضيِّعت الآثار والـروايات المتنـاقلة المؤرخين ، حـين لا يتحققون الغوامض ، مكتفين بأنها غوامض ، وحين لا ينعمون النظر في اعماق الحضاراتْ وزواياها، بل يقنعون بالزبد اللامع الذي يطفو ويتراقص على السطح ، وأدلتنا لا تُحصى عـلى ذلك ، لدى كل حضارة وتطور فكري روحي . ألمعنا إلى بعضه في سياق ما سبقت معالجتـه ، كما سنُلمع لاحقا .

من ذلك الزبد الطافي ، تعـدّد اسماء الآلهـة ، ومدلـول بعض الطقـوس الروحيـة ، وطمسها في طقوس مادية ، مورست منذ ظلمات التاريخ .

هناك تعابـير ، نقشها عـلى صخرة المـاضي البعيد ، انسـان الكهف ، وظل صـداها مالئاً مسامع جمهرة من حملة القلم ، إلى يومنا .

هل رفع التـاريخ نِقـابه الكثيـف عـن مـدرسة (فيثـاغورس) ، ونشـاطها خـارج اليونان ؟ أما أبحرت تعاليم جمعية (النساء الفيتاغوريات) إلى مناطقَ وجزرٍ كثيرة هنالك ؟ لماذا اقتصرت هذه المفاهيم على (الانسيكلوبيديات) الكبرى وحسب . أيكون العامل ايثار العـديد من المؤرخـين المعاصرين إيهـام المثقفين بـأن الروح البشريـة وأصلها ومصـيرهـا ، والمستويات الرفيعة كلها، ولدت من رحم الديانات السماوية لا قبلها بكثير. كذلـك شأن الملائكة والأنبياء ، فقد البسوهم معاطف الالهة تشويها للإله الواحد ، بأسـمائه المختلفة : (بـرهمان ـ هـرمزاد ـ اتـوم ـ زيوس ـ ديوس ـ الله). ولم يراعـوا حرمـة للعنـف وللاوعي السـائدين يـومذاك ، ولا للبيئـة والزمـان . كانت إحـدى فرائس هـذا الـوجـوم ، وحينـاً الإفتـراء ، عقيدة الـ (أتـروسك) وجـارتها سـابقـاً الـ (درويـد) فَلْنحص آلهـة جمـاعـة الأتـروسك : قسمهـا المؤرخون إلى طبقـتين : (تينيا ونـوريتا وفـوفلون) وهي الأصيلة في الشعب ، وأخـرى دخيلة من اليونـان منهـا : (أيتـا ـ وأپـولّلو) هـذان همـا بمـرتبـة (أپوللّون) . بعض آلهتهم كانت تُعنى في منـازل خاصـة ، ومناطق معينـة منها(تـاجس) العرفاني الكبير، وبعض آخر خضع عابداً آلهة الصواعق، وهنالـك جماهـير تلفتت بخشوع وقدسية متعـالية كليـة ، هي باطنيـة تحف بها السريـة العميقة دعـاها الـرومان فيـها بعد الـ : (دي انفوليتي) حسب توضيحـات المؤرخ (سناك) . وقـد آشار إليهـا بـه الـرومان

العظيم (جوبيتر) قبل أن يطلق صعقته الأخيرة بـ : « تلك هي القدرة المهيمنة على العالم أجمع » .

لهم معابد متواضعة على قمم الجبال ، وفي الغابات والكهوف تغلفها السرية غالباً . بهذا اعترف(ر. لافوّن، R. LAFFONT) . تلك كانت معتقدات الشعب وتقاليده وصلواته التي لم يتحققها التاريخ . لكن هناك أضاحي تقدم للالهة ، قد اسرفوا في تغطيتها ، مصحوبة بالأغاني والموسيقى وأعمال الفروسية ، متوسمين في هذه الحركات ارتياح الاله وابتهاجه وعطفه . وكان الشعب يحدد الظروف والمظاهر ، والوقت الذي تقدم فيه الضحية . هناك البرق والرعد والمكان والزمان، كلها مؤشرات لاحداث ستعقب ، أوحت بها تأملات المُضحِّين ، في احشاء ضحاياهم ، وفي ما تحمل لهم من أسرار . قد يكون هذا التوضيح واضحاً ، أو محرفاً ، رمزاً لسر في باطن العقيدة المتبعة ، فتاريخ هذه المنطقة بهذا الزمان ، لم يتضح بجلاء للباحثين ، والحذر من الافتراء على الحقائق ، اولى واجبات المؤرخين .

خلاصة القول :

لقد رست قوافل الأتروسك على الشاطيء الايطالي في الألف الثاني قبل الميلاد . عبدوا آلهة عدة متنوعة ، ومختلفة المهام ، منها عامة كبرى ، ومنها خاصة ، تعنى بمنازل ومناطق محدودة . كانوا سابقاً يحرقون موتاهم ثم أصبحوا يقبرونهم . لهم آثار جمة وقيمة من : مقابر وأعمال فنية من الخزف والتصوير ، واكثروا من تقديم الأضاحي من غير الإنسان تكريماً للإله ، ورصدوا ميعاد تقديمها ارضاء لهُ ، وصولاً إلى ما يتوخّون من منافعه ، وتخفيفاً من حدة غضبه ، على زعم المؤرخين .

لهم عقيدة غامضة ومخطوطات كثيرة لم يكشف بعد عن مضامينها ، لكن ما يوثق به ، هو انهم يؤمنون باله اسمى ، وبآلهة كثر دونه ، وبخلود النفس في مكان ما عالياً . انغمسوا في الباطنية وتعزز أتباعها . يحملون ملامح التشاؤم وخوف الإله ، وهذه إحدى مظاهر الباطن الذي لا تغريه زخارف الدنيا . ان التبعة على المؤرخين الذين اكتفوا بظواهر هذه الفرقة الباطنية ، وان ما يشير إلى تأمل حقيقتها: تلك المصادر اليونانية الباطنية العريقة ذات الصلة المباشرة بالمذاهب العرفانية الأصيلة قدماً .

أما نتساءل : « ما الدافع الذي حدا بالفيلسوف الباطني افلاطون للاندفاع م ايطاليا ؟ كذلك الآثار الدالة على نشاط المدرسة النسائية الفيتاغورية هنالك ؟ ومن اين استقى الملك (نوماً) اسرار الباطنية » . ؟

أسئلة توجب على الباحثين النزهاء الوقوف ازاءها والمزيد من التعمق لِسَبْرِ كَنهها .

الباب التاسع عشر

الفصل الأول

الرومان ـ بواكير معتقداتهم

في الحقب البعيـدة من التاريـخ ، خيم الظلام عـلى معتقدات المنـطقة المسـماة اليـوم « ايطاليا » يقول (ر . لافوّن R. Laffont) كانت ديانة هؤلاء أكثر تـأخراً في العصر نفسـه من اليـونانيـة . لعلها أقـرب إلى الديـانة الهنـدو أوروبية البـاطنية . قـدسـوا لـوقت طـويـل الـ (نومينا Namina) وهي العنصر الذي يظهر في الإنسان ، في بعض حالاته ، كما يظهر في بعض النبات والأشياء .

أما المؤرخ (بيار فابْر Pierre Fabre) ، فيـدلي بهذا الـرأي : « بالـرغم من مواصلة البـاحثين بهـذه الآونـة الأخـيرة في التنقيب عن المؤلَّفـات التي تـركهـا التـاريـخ للرومـان القـدامى ، ورغم ما اكتشف (علماء الآثـار والباحثـون) من جليل الآثـار ، فـأن الشـك والظلمة حولها يحجب عن العلماء اكتنـاه حقيقة عبـاداتهم » . أما فيـما بعد القـرن الخامس قبل الميلاد فقد اتضحت المراحل والعوامـل التي اسهمت في كشف هذه المعتقـدات ، بدءاً من ذلك الزمن ، وفي تطورها المستديم ، حتى المسيحية . في الآثار الدالـة على معتقـدات الرومان ، وعـلى طقوسهم الـروحية ، وميض معـرفة تقـريبية للغـامض البعيد . من تلك الأدلة ما حققه عام (١٨٩٩) البـاحث (باني) : نصب صغـير ، أعاده الأخصـائيون إلى حوالي القرن السادس (ق . م) لا أبعد .

ومنذ العصر الهليني ، التقط العلماء المختصون كثيراً من العملات (دراهم) تحمل رسوماً مختلفة معبرة ، منها مقبرة (سيبيون) التي تعود إلى القرن الثالث (ق . م) وحسب .

إن الأضواء الساطعة التي القتها على التاريخ الروماني المعاصر لتاريخ (روما) نفسها ، جاءت من المقومات السنوية التي كان يعدّها ويدخرها الملوك والأباطرة . ألمحت بعض هذه المقومات ، إلى طقوس وأعياد سبقت (روما) بأزمنة .

الملك نوما :

إذا نحن اعتمدنا دراسات المؤرخ الألماني (مومسن) المتوفَّى عام (١٩٠٣) نصل إلى نتيجة ، هي أن أقدم مُقوّم روماني يرجع إلى الملك الثاني لروما المسمى بـ(نوما Noma) كان هذا الملك أقدم من عرفناه ، منادياً بالروحانية في تاريخ الرومان . له يعود تأسيس أولى دياناتهم . وقد عرف عنه أن فتاة سماوية نزلت إليه ، في أحد الكهوف ، وامها (أجاني) ترشده بنصائح روحية ، احتذاها حتى توفي عام (٦٧٢) ق . م .

من هنا يتبين لنا صحة رأي المؤرخ المترجم (لافون) الذي ربط معتقدات هؤلاء القديمة ، بالهندو أوروبية . تلك المعتقدات التي كانت راسخة في الذهنية الشرقية وانتشرت لدى تدفق الموجات النازحة من آسيا الوسطى إلى صميم أوروبا ، في الألف الثاني (ق . م) . كما لا يخفى وجود مذاهب روحية عريقة في اليونان ، منها ، الديونيسية ، التي سبقت تاريخ مولد (نوما) . والشرق الأوسط ، ومصر كانا الأرومة الحية الخالدة لدوحة الروحانيات في التاريخ البشري . المؤرخ (مومسن) نفسه يؤكدان التقويم العقائدي الرسمي لم يعلن عنه في (روما) ولا مورس قبل الثلث الأخير من القرن السادس (ق . م) ، برغم ما تناول هذه العصور من أقلام ممعنة في التنقيب ، من يونان إلى لاتين إلى بيزنطيين ، عايشوا الحضارة الرومانية في ريعانها ، ولم يظفروا بنزر من الأدلة تبدد امامهم ضباب الشكّ ، عن المفاهيم الدينية للرومان الأقدمين . ظفر بعضهم ومنهم (ماكروب ، بلين ، كانتون) بالكثير من مراسيم الصلاة ، وتقديس النجوم وخلافها في القرن الأول ق . م .

كان الشاعر (ڤرجيل) من أبرز من شملت اناشيده في الـ (أنـاييد) طقـوس واعياد ومراسم دفن الموتى :

أصل الرومان :

لم يعثر علماء الآثار على بيّنات ، يـرتاحـون إليها عن تـاريخ مَـوطِىء القدم البشريـة للبـلاد المسمـاة اليـوم بـ « إيـطاليـا » وقـال المؤرخ (بيغـوريني) في مؤلفـه الصـادر عـام (١٩٠٣) :

« دخلت قوافل من الهنـود الأوروبيين إلى ضفـاف نهر الـ (البو Pô) وسهـوله في العصر البرونزي واستوطنتها . ولغير هذا المؤرخ آراء مختلفة عن هذه الحقبة، وعن مـدى توغل الشعب الدخيل ، أو الشعب الأصيل في البلاد الايطالية . على أن المؤرخ (پيغانيال Piganial) يـزعم أن سكـان هـذه البـلاد من أصـل (الليري البـلقـاني) . امـتزجـوا بالمجتاحين الاتروسك ، وتفرقوا بين الشواطيء ونهري (التيبر والپـو) تم تتالت عـلى هذه الـرقعة قـوافل متفـرقة الجنسيـات ، لم يحصرها المؤرخـون ، وقد دلت عـلى تنوعهـا هذا ، الفوارق في الطقـوس واللغات والمـلامح ،لكن أخيـراً قد حصر معـظم المؤرخين كـل هذه الفـوارق بالأصـل الهندو أوروبي ، الـذي عرف عنـه شعباً محـارباً يؤثـر تربيـة الماشيـة على الزراعة .

دفن الموتى :

قال (منتاليوس O. Montélius) في كتابه : « حضارة الايـطاليين : « منـذ اكتشاف المعادن » في (مارينو Marino) اكتشفت مقابر ذات اشكال هندسية خـاصة ، تعلهـا تعود إلى منتصف الألف الثـاني (ق . م) . منها وثق المؤرخـون من عادة دفن مـوتاهم في هـذا الزمن السحيق .

وفي دفن المـوتى بدءاً من منتصف الألف الثـاني (ق .م) طـريقتـان : احـداهـا ، يصحب المتوفّى مآكل شتى . منها ما يحرق ويحفظ رماد رفاته ، ومنها مـا يردم تحت الـتراب أمل انطلاق روحه في الفضاء ، حيث ترفرف احياناً فوق الأحياء ، اطيافاً غير مرئية .

كان في ذلك الزمن لدى الايطاليين نـوعان من الآلهـة : الأولى سماويـةٌ يعبدونها مـع النار ، والثانية أرضيةٌ مهمتها : الإخصاب واقبال المواسم ، ولإرضائها وتسكـين غضبها ، يتقدمون منها بالأضاحي . وقيل : بعضها بشرية . لكن المقـابر الأرضيـة ، كانت تحتـوي أنواعاً مختلفة من الأطعمة : زيت وخمر وحليب وحنطة وسمـك وما إليهـا ؛ على ثقـة منهم بخلود المـوتى تحت الأرض . وكانت نهايـة القرن الســابع (ق . م) تشـير إلى اضمحـلال طـريقة حـرق الموتى ، لكن مبـدأ خلود الروح تحت الأرض ، أو في العـلاء مـا بـرح قائـماً بشكل أو بآخر .

أولى معتقداتهم الرسمية :

ما استقر الفكر الايطالي على إيمانٍ بإلهٍ أو بـأكثر ، يحمـل عناصر مـادية أيـاً كانت . آمنوا بقوة متصرفة تبطن كـل مخلوق : انسانـاً أو غير انسـان ، اسموه (Numina نـومينا) وفكرة العدالة هي القوة المهيمنة اطلاقاً . والنفس حين تهبط تحت الـتراب ، يزعمـون انها تنتقل إلى مكان خارج تصورات الإنسان . أين ؟؟ لم يُحدِّدوا ذلـك . ما لفـظه المؤرخون : « الآلهة منها ما تُلازم محلة واحـدة ، وتسهر عـلى سلامتهـا وسعادتهـا ، ومنها مـا تمـلأ كـل مكان » .

كـان الشعب اللاتينيُّ الـرومانيُّ يشعـر بقوى مُتعالية ، قـادرةٍ ، إنها أرواح ســماويـة غامضة . وكـان لديهم أثـر لعبادة الشمس والقمـر والريـاح . انمـا كـان (جـوبيـتر) راعيـاً للكروم . وكانت روح إلهة الموقد (فستيا) يقوم عليها دفء الأسرة . وهنـاك قوة الإنسـان عنـد رب البيت تسمى : عبقـر ، (جانيوس - Genius) وللمـرأة روح هي (جُـونــو - Juno) . وعبقر هو محور العبادة عنـد هؤلاء . ثم غدا (جـوبيتر) عنـد الرومـان إله السـماء المتعالي .

كـانت في زعم اللاتـين ، أرواح خفية تـلابس أعمال الـزراعـة في مـواسم السنـة . يحسون احياناً بوجودها : في الينابيع والأحراج والتلال . كانت هذه الأرواح أكثر استغلاقـاً عـلى العقول ممـا هي عليه لـدى الاغريق . وكـان اسمها : (Numen ، نـومن) القوة أو الروح . وليست هي نفسها (ديوس) الاله ، اطلاقاً .

وقد تطورت عقيدة اللاتين مع الـزمن ، ثم اصطبغت بـالهِلِّينيَّة والفينيقيـة ، وبآلهة

حُماة (روما) . وإلهة الحقول : (زُحل ، Saturne) والهة البساتين : (مولاتِنا) وكان الثالوث كابيتوليوم Capitolium) يضم : يونو ، مينرفا وجوبيتر :

وقد نوَّهت (شجرة الحضارة) إلى أن اللاتين آمنوا بنوعين من الآلهة العائلية هما : (Lars لارس و Penates بيناتس) أرواح الأسلاف . كما أنهم ورثوا بعض الطقوس وبعض اسماء عن الأتروسك منها (تارْمينوس .Terminus) إله الحدود ، أما الإلهة (فَسْتِيا) فتمثل : النار المقدسة لديهم .

لقد عدَّد المؤلف اللاتيني (ڤارّون Varron) اسماء الآلهة وخصَّ بالتنويهِ آلهة الطفل . إنها كثيرة ابتداءً منه جنيناً حتى الصبا ، مرحلة مرحلة ، غذاءً وعنايةً صحية وحراسة . بعدها آلهة الصناعات المتنوعة . تلك القوة الباطنية في الأشياء ، هي دائمة الحركة والتطور والتغير ، تتصرف حسب رغبتها ، أو قد لا تتصرف باعتبار قدرة عليا تسوقها . هذه القدرة لعلها : القدر ، أو الصدفة أو الحظ أو الألوهة ، في مفهومنا نحن ، أما اولئك فإنهم لم يُسبغوا عليها أي اسم أو صفة خاصة : انها قوة خفية كونيّة دائمة الحركة والتطور .

الفصل الثاني

الهتهم الكبرى

آمن الايطاليون القدامى بآلهة عِدَّة . منها ذات طبيعة محدودة ، ومنها الأبطال انصاف الآلهة الذين لا يظفرون بالخلود . بعضها أصيلة في البلاد ، والأخرى دخيلة من شتى المناطق : اليونان ، مصر ، فارس ، الهند ، الشرق الأدنى .

إن مُعظم آلهتهم الـ(نومينا numina) لا تدعى ولا تُقدَّر إلا عند الحاجة إليها . أما الآلهة الرسمية فلها اعيادها ، ولها طقوس خاصة بعبادتها وتقديم القربان والأضاحي لها ، في أوقات معينة وأماكن محدودة . ثم الإلهة حارسة المنازل ومهامُّها محدودة .

لدى سيطرة الملوك على البلاد كانت للآلهة الرسمية اعتبارات متميزة ، وتاريخ دقيق لأعيادها . بينها الأكثر شهرة :

١ ـ (Jupiter جوبيتر) أقدم الآلهة وأوفرهم مهامًّ . عمت عبادته البلاد جمعاء ، حتى لغدا

مماثلاً لـ (زيوس) . إنه إله السماء بل إله النور السماوي . لـه أعياد كثيرة . منها في الخامس من تموز ، وفي الثالث والعشرين من كانـون الأول . مقر عبـادته (الكـابيتول يرمزون لهذا الإله « بالنار » التي تعـود إلى عهد (Romulus رومُـولوس) إلـه الحرب والصواعق ، باعث النصر المبين لشعبه ؛ كما هو الإلـه المتلألىء ، وحـارس القانـون والمواثيق .

٢ - (Janus جانوس) بعد (جوبيتر) عظمةً ونفوذاً وقِدماً . واحيـاناً ينـافسه القـدرات . قال المؤرخ (ڤارُّون) : « جانوس : إله البداية ، وجوبيـتر إلـه النهايـة » . وقد نُحت لهـذا الإله تمثـال ذو رأسين ، لعله رمـز لحمايـة الممرات الجبليـة عن جانبيهـا ، وغـدا بعدئذٍ إله الموانىء .

٣ - (جونو Juno) حمـل اسم هذه الإلهـة شهر حـزيران ، (بـاللغة الأجنبيـة) . وظيفتها رعاية النسوة والعناية بما تتطلبه الأنوثة من أعمال،منها تسهيـل الولادات . انها معبـودة معظم المناطق الايطالية ، وكأنما هي بعثت للأرض بصفة أُم لكل حيّ .

٤ - (Cérès ، سـاراس) إلهة الخضـار ، وحـارسةُ المـوتى . في الـزمن الـلاحق اتحـدت بـ (دامتر) وهي قديمة وأصيلة في البلاد .

٥ - (Lares ، لارس) بـالجمـع ، انها تُعنى بنفـوس المـوتى ، وتلك هي ، إلهـة هـذه النفوس . وقد عُزي إليها الطبع الجهنمي ، وقيل فيها : حسودة وشرّيرة . لهذه الإلهة طبـائع متنـاقضة فهي الشريـرة ، وهي الحـارسـة الأمينـة وحـاميـة الحقـوق والبحـارة والسياح ، في آن واحد .

٦ - (Mars ، مارس) الإله الـذي أعطى اسم أحـد شهور السنـة : (آذار) خُصصت له ثمانية اعياد في السنة . له صفة حربية وتـرس مقدس ، قيـل انه هبط لـه من السماء . نَسب إليـه بعض المؤرخين ومنهم (كـاتون Caton)رجـل الدولـة الرومـاني في القـرن الأول للميلاد ، إنه الواقي من الشرور للبشر والحيوان ، وانه باعث الفـرح والابتهاج في النفـوس . وُجدت آثـار دلّت على قـدم هذا الإلـه ، وعلى أنـه كائن قبـل أن تتبنى اللاتين عبادته .

والآلهـة الآخرون يتحملون مسؤوليـات مختلفـة بـين الـزراعـة والحصـاد والصنـاعـات

والصحة والمعارك . كلُّهم من الجنسَين ، وكلهم إلاَّ نادراً ، راعٍ أمين وواقٍ حريز ، ومُلهِم صادق ، للشعب اجمع ، أو لفئات خاصة منه . وكثيرٌ من هذه الالهة مَن تعدت شهرته وعبادته التخوم الايطالية ، كما أن معظمها غريب الأرض ، متجانس الطبائع ، وذو قدسية متفاوتة ، كما أشرنا آنفاً . والغالب على مهام بعضهم إبهام ولَبس ، لولا التقويمات الرسميةُ لاندثر مُعظمه .

صرَّح (ر لافّون ، R. Laffont) في تاريخ البشرية قائلاً : « لقد اتخذ الإيطاليون من الآلهة الأعداء، أرباباً لهم، ليتّقوا شرها وليكفُّوا عن مساعدة اعدائهم » . لكن عنايتهم بالقبور ، قليلة جداً . اهمال هذه الأقوام لقبورهم طبيعي لأنهم ما كانوا ليبدعوا في النحت بمطلع حضارتهم ، ثم لعدم إيمانهم بدوام الروح تحت التراب ، لفترة طويلة ، فهي إمَّا تنطفىء بحرق الجثة أو تسافر إلى البعيد المجهول . وما رأينا من أسماءِ أطعمةٍ يزوِّدون بها الميت ، فغذاؤه لوقت محدود ، وإيمانٌ بزمن محدود .

(نِحْلَةُ الأم العظمى) :

٧ ـ دامت عبادة الأم العظمى في بلاد الرومان ، زهاء ست مائة سنة . وحين أوشكت أن تفتر عبادتها بينهم ، قُيِّض لهم الانتصار الساحق على هنيبعل ، فاعتبروا ذلك نجدةً من الإلهة الأم لجنودهم ، فاستعادت اعتبارها ، وأُقيم لها عيد سنوي في شهر نيسان قيل إن عبادتها كانت تتسم بالوحشية والخلاعة ، وطالما تغنّى بها الشعراء في المستعمرات كافة ، قبيل القرن الثاني للميلاد وبعده .

لهذه الإلهة الأم مركبة يجرها أسدان داخل الغابات ، وهي التي حملت (الحجر الأسود) في عام (٢٠٤) ق .م من نهر التيبر ، ولم يستطع أي الرجال أن يزحزحه لثقله ، خلا عذرَاءَ (فِسْتا) التي تمكنت وحدها من ذلك .

كانت تدوي في الاحتفالات أصوات الصنوج ، والأغاني الصاخبة ، مما كان يسبب توتر أعصاب بعضهم ، وهياجهم . فيُقدم الكاهن على قطع بعض اعضائهم ، منها العضو التناسلي .

واستمرت هذه الطقوس حتى عهد (Calligula كاليغولا) الذي أبطل هذه العادة الوحشية تـدريجياً . وقـد غزت المعتقـدات الفارسيـة هـذه البـلاد . فعبـدوا (ميـترا) إلـهَ النـور . واستفحل شأنه في عهد الامـبراطوريـة ، حتى نافس المسيحيـةَ بعنف بالـغ . واضمحل في القرن الثالث للميلاد .

تعبُّدهم :

تمكن الايـطاليون في الغـابر البعيـد المكتشف ، من تأليف كهنـوت خاص ، يكـون الصلة بـين الأفراد وآلهتهم . وأي كهنـوت هذا ؟؟ انـه أبو العـائلة : الحـارس والمعـطي والمعالج والمقدس . والكهنوت الأعم : هي الدولة ، التي تتحمل التبعات مهما جسمت ، مستعينة بمعونة آلهتها على قضاء حاجات العـامة ، وسـلامتهم وإخصاب أرضهم . يقـابل هـذه الخدمـات ، وجـوب الصـلاة ، وتقديم القـربـان والأضـاحي ، واقـامـة الأعيـاد في أوقاتها ، لهذا أو لذاك من الآلهة . والرابط الوحيد الذي شدَّ الآلهـة بالبشر ، هـو القانـون الحق العادل . لعل هنالك صلة وثيقة بين ما كان يسميه المصريون : (مَعَت) أي الصدق والحق ، وبين هذا الحق والعدل الروماني القديم . لولا تطبيق هذا وذاك لما كـانت حضارة الدولتين بلغت ذلك الأوج . ولن ننسى صَرخة الخـطيب اللاتيني (شيشرون) المتـوفَّى عام (٤٣) ق . م القائل :

« إن الإنصـاف الذي يمـارسـه المسؤولـون تجـاه السـواد الأعم من الشعب يسمى : (العـدالـة) . وهـذه العـدالـة هي تجاهَ الالهـة : (ديـانـة) ، وتجـاه الأقــارب هي : (التعبُّد) » . كيف ؟ بـ :

١ ـ الصلاة : لم يحس هذا الشعب بالحافز الروحي العميق ، للإقدام عـلى الصلاة ، لأنـه يقيمها ارضاء للآلهة ، كأنما هي دجل ومضيعة للوقت ، لكن الآلهـة يطمئنـون إليها ، ويَرفِدون القائمين بهـا ، شرط ألا يحدث فيهـا أي تغيير أو إسقـاطٌ في الكلام ، كـأنما هي منزلة . وعلى المصلي أن يُعيِّنَ المُصلَّى لأجله ، والإله المصلَّى له ، والشيء المصلَّى من أجله . بهذا تُقبل الصلاة .

وصـلاة الروحـانيين هي في عـدم وضوحهـا ، وفي التلفظ بعبارات يعسر تفهُّمهـا ، وبصوتٍ خافت .

هذه الصلوات الأخيرة غير معترف بها حكومياً ، لكنها شائعة ومتسربة في الجماهير الشعبية ، بروما نفسها وبأنحاء البلاد .

٢ ـ الذبائح ، كانت رموزاً وحسب . قال الملك السادس لروما (Servius ، سارڤيوس) المتوفى عام (٥٣٥) ق .م : « يجب أن تعلموا بأنه في الحفلات المقدسة ، يُستعان بالرموز عن الحقائق ، وحين يتوجب تقديم حيواناتٍ يعسر الوصول إليها ، يُصنع شكلٌ للذبيحة من العجين أو الشمع ، حيث يستقبلها الإله ، ويعتبرها ذبيحته الحقيقية » .

هذا كلام مَلك لِرعيتهِ ، مُعتَبراً عندها نصف إله . فأين عمق الإيمان ؟؟
لكلٍ من هذه الآلهة المتعددة ، نوع من الحيوان ، محُبب إليه ، يقدِّمون له لحماً مشوياً أو طرياً . وقد يقدم القربان : تمراً ومآكل مختلفة . يقال اثناء تقديمه : « لقد أكمل المُضحي نَذره بملء ارادته لأنه واجب محتم عليه » .
وحين يتفاقم الشر أو ينتشر الوباء كالطاعون مثلاً ، تتنوَّع الذبائح حتى تصل بأبناء المنطقة لتقديم انسانٍ قرباناً لإله ساخط ، وقد يكون هذا القربان : اداة ما ، أو مأكلاً يوضع في اناء متميز عن سواه ، وقد يكون العاباً تُقام في حفلٍ لها : إما سباق خيل أو سباق عربات : استغفاراً وتكفيراً .

ولما كان معظم الايطاليين لا يؤمنون بالروحانية ، غدت كل صلواتهم ، وكل ذبائحهم وقربانهم شكليات ، لا تتضمن ابعاداً تتعدى الإرضاء للآلهة ، وتسكين غضبها ، كما يتصورون .

القيِّمون على الذبائح :

بعد الصلوات والأعياد والذبائح ، نتعرف بِشكلٍ أُدقَّ على الأشخاص القيمين على تنظيم تلك الطقوس . ألمحنا إلى أنه رب العائلة الذي يُعتبر هو الكاهن الأول للمنزل ، وبعده سيد الأُسرة ، فرئيس القبيلة فالمنطقة جمعاء ، فالملك صاحب السلطان .

في حال تغيب الملك عن روما ، ووجوب تقديم ذبيحةٍ ما ، في وقت معين ، يصار إلى تأليف لجنة من بين نواب الأمة ، تختلف عدداً . وعلى هذه اللجنة يترتب تحمُّل كل

المسؤوليات ، لأن خطأ صغيراً يحدث تعقبه ويلات مريعة تنزل بالمنطقة . وكثيراً ما يفرض هؤلاء الكهنة المنتخبون ، عقاباً رمزياً مثلاً : محظورٌ على الخاطىء ركوب الخيل ، ومشاهدة العرض العسكري ، ولمس معزاة أو حبة فول ، أو المرور تحت دالية ، وما إليها . كل ذلك ضمن فترة زمنية معينة ، على أن يشمل هذا العقاب الزوجة كذلك .

لبعض الآلهة كهنة خاصة ، لها طقوسها المرسومة المختلفة ، لا تتعداها ، وغالباً ما تكون المراسيم صارمة ودقيقة . تعتبر في موضع أبي العائلة ومسؤولياته . وقد حدد صلاحياتها المؤلف (بُوشا لاكْلاركو ، Bauché Leclerco) بهذه العبارة : « هؤلاء الكهنة هم مدراء وجدانِ الشعب الروماني » .

أما الكهنة الذين يدينون بقوىً خفيةٍ تُسيِّر القدَرَ في الإنسان ، فما برحت شيعتهم متغلغلة في روما وأطراف البلاد . لهم طقوسهم . يقول : (ب . لاكلاركو .B Leclerco) إن جذور هذه العقيدة تمتد لِعهد (رومُولسRomulus) وهي لاتينيَّة الأصل ، عريقة في إيطاليا ، تتصل بالعقيدة الهندو أوروبية . من ظواهر معتقداتها : مراقبة تحليق أو اتجاه الطائر ، وتألق البرق . تستعين بها على التبصر البعيد . ولعلها مظاهر وحسب .

أخيراً فإن كهَنةً ذوي إيمان عميق بالروحانية ، تَبوَّأوا مراكز اجتماعية رفيعة ، وخضعوا لطقوس روحية بعيدة ، اعتبرهم المؤرخون من اشياع الملك (نوما) . مهمَّتهم الرئيسية تمتين العلاقة وتعميقها بين الدولة والآلهة ، مع خضوعٍ طوعي لمشيئتها ، معتبرين (جوپيتر Jupiter) هو المرجع الأرفع ، ولعله الإله نفسه .

وقد ألقت ضوءاً ، ولو شاحباً على المعتقدات الإيطالية ، تلك الاخويات المختلفة النزعات . منها مَن اتخذت شعارَها : الذئب ، وتنتمي إلى الإله (مارس ، Mars) ومنها مَن تؤلِّهُ « الأرض الأم » . وخلاصة ما يمكن قوله عن المعتقدات القديمة للايطاليين الاصليين والاغراب ، انها لم تتوحد في دينٍ ولا في إله ، ولا في طقوس وممارسات خاصة ، ولا كان إيمان جماعاتهم عميقاً بل لمصالح مادية ، وفي غالب الاحيان والظروف تكون :

مظاهر خيِّرة واحدة ، يمكن تقديرها بجدية أنها : تقديس كلمة « عدالة وحق » قولاً وممارسة يومية . ومصدر هذا الشعور بقدسية العدالة ، نابع أما من اختلاف ظروف البيئة

وتعدد جنسيات الشعب ، بحيث لم يجد القيِّمون عليه إلا العدالة سبيلاً لاستتباب الأمن ، أو انها مِصريةٌ عايشت الأجيال السحيقة الغابرة ، أو هي تصورات لقوى منبعثة من (النومينا numina).

الفصل الثالث

الطور الثاني للمعتقدات الرومانية

للشاعر اللاتيني (فرجيل Virgile) في مَلحمتِهِ الـ (Enéide أنابيد) توضيحُ كثيرٍ من الملابسات حول طقوس ومعتقدات الشعب الروماني ، منذ العهد الأتروسكي حتى الجمهورية الرومانية . وللشاعِر : (هوراس ، Horace) فضل بارز في الدعوة إلى الفضائل ، وتمجيد معتنقيها، بذلك العصر البعيد ، حيث كانت تتجاذبه التيارات الدينية المتنوعة .

تلاشى الكثير من تلك الآلهة ، واستمرت عبادة ذوي الشأن الكبير منها وأبرزها كان المثلث الإلهي « كيريانوس ، ومارس وجوبيتير » . اقيمت لها الإحتفالات (كيرينال Quirinal) بالجنب الغربي من روما ، ثم بالـ (اكروبول Acropole) أخيراً .

يقال ان أول هيكل أقيم بـ (روما) في النصف الثاني من القرن السادس « ق . م » ، بتصميم أتروسكي وعمال منهم .
أشهر تلك الآلهة كان : « هرقل ، ديانا وفورتونا » .

في منطقة هِرقل : كان أحد آلهة اليونان ثم الاتروسك ، وانتقلت عبادته محصورة خاصة بإيطاليا . اعتبره المؤلف : (Carcopino ، كاركوبينو) روحانياً . كما نسبت اعتبارات «الصاعقة» . روحانياً ، إلى الكاهنة (أجاري Egérie) ، وإلى أسرار (تاجِس Tages) وقد شاع الإيمان بالماورائيات ، وبالشعوذات غالباً ، حتى في روما نفسها ، قبل أن تتسرب إليها الأفكار الكلدانية ، وتأثيرات النجوم ، في اقدار البشر . أعني بها الروحانيات ، بشكل أو بآخر ، اكتسحت هذه المعتقدات روما بالذات ، حتى اضطرت تأثيراتها (ب . لكلاركو .B Leclerco) لأن يصرح بـ : « انه لَنصرٌ كبير ظفرت به الحضارة اليونانية على الوطنية

الـرومانيـة » . كان ذلـك ثمرة المـدارس والأخويـات المختلفة ، المنتشرة في اجـزاء الوطن الروماني .

ومضات باطنيَّة :

إنها الومضات الروحية التي تناقلتها الأجيال ، ودغدغت مشاعر الشعـوب منذ وعي الإنسـان الأول ، في كل رقعـة من الأرض ، تلك الومضـات التي استحـالت في العصـور الملكية خاصة ، منائر وقادة . هـذه الدعـوة ما كـانت لتحمل في مضـامينها يـوماً عنصريـةً لجنس ، أو لوطن أو لعقيدة . انها لـلإنسان الأمثـل ، أيٍّ كان . تصعدت ممـارستها بعـد الملك (نوما) حامل شعاراتها ، ونافخ عبير الباطنية في المملكة .

من هذا الاعتبار ، انـطلق المسؤولون الـرومان بعـد آخر ملك (تـاركين Tarquin) المتـوفّى عام (٥٠٩) ق . م . في محـاربة كـل فكر دخيـل ، متخذة من الـوطن ركيـزة كـل تصرف ، وكل دين .

لكن الفكـر الروحـاني ، لم تخمد جُـذاهُ بعد ، إذ نشب هنـاك صراع عقائـدي ديني تناول الخطوط الكـبرى في كل معتقـد روحي أو مادي . ولإمكـانية استمـرار بقاء العقـائد الـروحية في (رومـا) أطلقوا عـلى كبـار آلهـة اليـونـان اسـماء لاتينيـة منهـا : إلـه الحكمـة (هرمس) المثلث في العظمة أسموه : (ماركُوريُوس ، Mercurius) إله التجارة ، وأقاموا له نصباً مـع (ابولـون) قبل نهايـة القرن الـرابع (ق . م) واسمـوا الأخير : (سريس ، Cérès) . وقضي نهائياً على المعتقد (numina نومينـا) . في تلك الفترة ، ولكنْ بمضمـونه القـديم ، أمـا المضمـون الحـديث للكلمـة فهي تعني : القـدرة العـادلـة ، والحـازمـة ، والظاهرة ، والباعثة المجسدة في هذا أو ذاك من الآلهة .

تطوُّر التصورات الدينية :

في مطلع القرن الخامس (ق . م) ظهرت أدلة تقهقُرِ النفوذ العقائـديِّ اليونـاني من روما نفسها ، ومن صقلية بعدها ، حيث لبث نفوذ (اسكـلابيوس) ابن (ابـولُون) بعـد تحريف اسمه ، في عداد الآلهة .

يُـوضِح المـؤلف : (وِسّووا Wissowa) حـدود كل إلـهٍ في هذا العصر قـائـلاً : إن

(جـوبيتر) يعني : النصر والإلـه : (ليبَر ، Liber) أي الحـرِّية . فـالمعبود غـدا : القوى العقلية المجردة أياً كان اسمها متجدداً ، أم قديماً متلبساً الأسم اللاتيني .

غير أن الحرب الرومانية القرطاجية كانت محكاً لتلك الالهة الحديثـة ، ذات الهياكـل الفخمة . كثيراً ما يدعونها فلا تستجيب، ويسألونها النصر على (هنيبعل)، فيمُنَون بالفشـل الذريع . إذاً على الرومان أن يرتدّوا إلى الالهة القديمة ، من يونانيـة وشرقية وأتـروسكية ، علّها تصدُّ القوافل القرطاجية التي اجتازت جبال (الألب) وأخذت تتوغل في شمالي البلاد شطر العاصمة .

اتجهت افكار الشعب أجمع والجيش ، إلى الآلهة الإثني عشرَ الأغراب ، بعد ممارسـة الطقوس الدينية وتقـديم الذبـائح المختلفـة لها . كـل هذه الالهـة ابتداء من (جـوبيتر إلى افـروديت ومارس وسِـريس) ، كـانت محط أفكـار وهـواجس الشعب بـأكمله ، سيـما بعـد الـتراجع الهـائل الـذي أصاب الجيش الـروماني في (كـانْ) عام : ٢١٦ (ق . م) وبعـد تدفق اللاجئين من شمالي البلاد .

هـذه الحال دفعت المؤرخ (Tite – Live ، تيت ـ ليف) ليصـرخَ عـاليـاً : إن تلك الحرارة في اليقين الـديني هي التي جعلت العامـة تتساءل : « أيهـا الذي فـوجئنا بتغيـيره : الآلهة أم الإنسان » وطالما هي جيوش الغزاة في أرضهم ، فإنهم يشككون بكـل إلهٍ أصيـل أو دخيل .

الأم العظمى وصلتها بالباطن الفيثاغوري :

إهتدى المسؤولون أخيراً إلى الكتب الروحية والغازها وتمائِمها وكَهنَتها ، فاستوضحوا بأن المخلّص الوحيد هو : « الأم العظمى » في جبل (إيـدا) مَن هذه الأم العـظمى ؟ إنها إلهـةٌ جـدُّ قـديمـة اسمهـا : (سيبيـل ، Cybéle) وإلهـة الخصب اسمهـا (مـآ ، Mâ) : يـونـانيـة رومانية . وما أطل عام (٢٠٤) ق . م حتى كانت الجيوش القرطاجية ، بين : قتيل وتائه وأسير . وبجدارةٍ حقَّ « للأم العظمى » أن تتبـوأ المقام الـلائق ، في الأكـروبول الـروماني وأن يخصّص اليوم الرابع من نيسان عيداً لها .

لم يتحقق المؤرخون والأنتربولوجيون من صلة هذه « الأم العظمى » بالمبادىء الديونيسية

التي نادى بها ملكهم (نوما) . كل ما وصلت إليه معارفهم هو أن القرنَين اللذين عقبا تقهقر (هنيبعل) حتى (اوغسطس قيصر) ، كان لنفوذ الأمم العظمى أثر عميق في نفوس الشعب الروماني . أوجس المسؤولون لهذه الظاهرة ، وشرع مجلس الشيوخ بإعداد السُبل لإبطالها . نجَم من تدبيرهم هذا ، مذبحة مروعة قام بها الجيش ، فطوّق اشياع الديونيسية الفيثاغورية ، وأعمل فيهم السيف والبَقر والتدمير . كانوا زهاء سبعة آلاف شخص عام (١٨٠) ق . م ؛ على أمل القضاء المطلق على هذه العقيدة . لكنها لم تمت ، وما لبثت أن استعادت نفوذا محدوداً . ثم نشطت أكثر ، فاستهوت العديد من النفوس . (نقلاً عن (تيتْ لِيفْ) و (S. Reinach س . ريناخ) .

وفي العام (١٨١) ق . م حان لجماعة (نوما) نفسه أن تنطلق مجدداً ، وبحماسة لاهبة . عثر الباحثون في قبر (نوما) على ناووسَين منقوشٍ عليهما باللاتينية واليونانية ، ما يشير إلى أن أحدهما يتضمن جسد نوما وهو فارغ ، والآخر يضم مجموعة مؤلفاته البالغة أربعة عشر كتاباً . وهي باللغتين ، تبحث في الفلسفة والقانون . يقول المؤرخ : (Valerius Antias فالاريوس أنتياس) إنَّ هذه الكتب تحمل طبيعة فيثاغورس .

والمؤرخ الروماني (بْلين Pline) المتوفَّى عام (٧٩) بعد المسيح يؤكد أنه في القرن الثالث (ق . م) ارتفع تمثال لِفيثاغورس على هضبة (Forum ، فورُوم) . ومن المؤرخين الكثيرين ، بينهم (شيشرون) من أشار إلى النفوذ الكبير للفيثاغورية في انحاء (روما) ، في القرون الأولى (ق . م) .

هذا النفوذ لعقيدة روحية بعيدة عن العنصرية الوطنية ، التي اخذت في النمو والانطلاق في البلاد جمعاء ، حفز مجلس الشيوخ ثانيةً إلى الإقدام على حريقِ كلّ كُتُبها ، وإزالةِ كل أثرٍ لِـ (نوما Noma) .

مدى الإرتياب العقائدي :

إن الشعب الروماني الذي تلقى التيارات المتعددة ، بين مادية غربية ، وروحية يونانية شرقية ، انحصر ضمن حلقة مقفلة ، حائراً ، يتخبط في لجج الإرتياب إلى أيّها ينزع ؟؟ وأيها يبعث لنفسه الطمأنينة والمغنم والسعادة .

إن الأحداث والحروب والبلايا التي تعرَّض لها الشعب الروماني في القرنين الثاني والثالث (ق . م) . كان بعضها يتحمل تبعاته قادةٌ مؤمنون بالآلهة . كما تحمل المسؤليات نفسها القادة الرافضون لكل ألوهـةٍ إذاً لا حاجةَ لآلهة ، أو فلْنتَّبع القول المأثور للشاعر اللاتيني المولد (Lucrèce ، لوكْريس) المتوفَّى عام (٥٥ ب .م): « كنت أكرر وأُصرُّ على وجود آلهة ، ولكني لا أعتقد بأنها تتدخل في شؤون البشر ؛ وهذا لم يحدث قط » .

وكان قد سبق هـذا الشاعرَ ، زميلٌ لـه (أنيوُس ، Ennius) المتوفى عام (١٦٩) ق . م . والقائل : « كل الآلهة التي يعيرها البشر هـذا التقدير والتقديس ، ليست إلا ملوكاً سابقين ، إرتقَوا تدريجياً عن المقياس البشري » .

هذا الشك الذي استحوذ على عقول كثيرة في روما ، هو أصلاً مذهب يوناني ، ما أبـهَ له مجلس الشيوخ حتى تفاقم امره . وفي العام (١٦١) ق . م . صدر أمر بإلغاء مدارس الخطابة والفلسفة اليونانية : وما لبثت أن بُعِثَتْ بعـزيمةٍ أصدق عام (١٥٥) ق .م بعد أن استوردوا بعض الفلاسفة اليونانيين ، بينهم : ديوجين . فعلَّموا وثُقفوا وأنشأوا شبيبة متفتحةً ، لا يبهرها ألَقُ الصَدَف الميت .

تجدد الشعور الديني :

إن التقديرات التي افترضها المجلس الحاكم ، في اجتذاب الفكر اليوناني المعتدل ، للبقاء على التراث الديني الروماني القديم ، كانت خاطئة ، لأن الجيل الطالع رفض هذا القديم الرث رفضاً . وفوق هذا فالمذهب الفيتاغوري المتطور عاد للانتعاش والوثوق به ، معتمداً هذه الشبيبة المستنيرة ، بدعائم حية راسخة . كما شاعت معظم المذاهب الروحية حتى (الإيزوسيَّة) المصرية كان لها معبدٌ في مدينة (پومپاي Pompéi) . والخلاصة فإن بالعصر الأول (ق . م) كانت الشخصيات البارزة والقيصر نفسه يؤمنون بالروحانيات ، ويستسلمون للتفاؤل . ولكي تمسي الأرض الرومانية مسرحاً لكل فكرٍ ديني فقد اشرأبَّت إلى كنوزها أعناق اليهود ، فدخلوا روما تجاراً واستوطنوا ، واستثمروا ، منذ مطلع القرن الأول للمسيح . وقبلها كانت ديانة الإله : (ميتراً) ذات نفوذٍ كبير وعميق ، عرَّفته الانسيكلوپيديا البريطانية بهذا الإيجاز : « في القرن الثامن قبل الميلاد ، نالت عبادة الإله (ميترا) خطوة كبيرة في البلاد ، وخاصةً بين الجيش الروماني وبين الطبقتين : التجار

والعبيد . ثم أخيراً ، تبنى هذه الديانة الأباطرة أنفسهم ، لأنها كانت تدعم الحق الإلهي للملوك». وكان (ميترا) الذي دعي : (Sol Invectus ، سول أنڤكتوس) يعطي السلطة ويمنح النصر للعرش . ولا يفوتنا أن الرومان كانوا يراعون اليوم السابع من الأسبوع ويعطّلون فيه ، ويعتبرونه عيداً اسبوعياً ، متأثرين بعقيدة (ميتراً) أولاً ، ثم بالعقائد المصرية القديمة التي وردتهم عن طريق افريقيا الشمالية ، وفيها تقديس (الشمس) حتى العبادة . هذا التأثير الفكري الروحي أخذ طابعاً عميقاً في نفسية الشعب الروماني ، وأباطرته ، حتى غدا يوم الأحد : (Sunday) يوم الشمس ، (Dies Solis) بدلاً من (Dies Saturni ، ديو ساتورني) . وعام (٣٢١) ميلادية ، أصدر الامبراطور قسطنطين قانوناً يوجب على القضاة وشعب المدينة وأصحاب الحِرف ، أن يستريحوا من العمل كُلياً طيلةَ (الأحد) يوم الشمس المهيب » .

الفصل الرابع
الأمبراطورية والدين

رغم التطورات السياسية الجذرية ، في الدولة الرومانية ، فان الإشاعات الروحية كانت ترافق كل تطور أو انقلاب سياسي مهما خطر شأنه . ولعل تنشئة الشبيبة الرومانية على أيدي الفلاسفة اليونانيين كانت العامل الفاعل في ترسيخ هذا المعتقد وامتداده ، حتى شمل كل الطبقات الشعبية والارستقراطية ، وبعض القادة الفاتحين والقناصل . كما كان للتبادل التجاري وللحياة العسكرية دور بارز بعده .

أما صرَّح شيشرون ، بأن القنصل (ماريُوس Marius) كان يصغي بارتياح إلى العرّافة السوريّة (مرتا ، Marta) وان السياسي (ڤاتينيُوس Vatinius) كان يطمئن إلى أغرب الظواهر الماورائية ؟؟ ألم يجهر شيشرون بـ « ان الآلهة هي التي تُغدق علينا كل شيء ؟؟ » ويتابع : « كنا نعتبر أنفسنا غرباء عن روما قبل صدور مؤلفاتكَ موجهاً كلامه إلى المحامي (Varron ، ڤارُن) . كُنّا ضائعينَ حتى عن روما نفسها ، وأنت الذي أرشدتَنا إلى بلدنا، وجنسيتنا، وإلى دور الآلهة فينا » . وڤارّون هذا فيثاغوريٌّ المعتقد

كان صحيحاً اجتياحُ الفكر الديني اليوناني لروما . ولكنه فكرٌ متطور اكتسى لباس

النفسية الرومانية التي تقدِّس الروح الوطنية في شعبها . ولا غرو ، فان الوضع السياسي العام ، في البلاد جمعاء ، بعد تتالي الفتوحات الرومانية المظفرة ، في الجهات الأربع ، ابتداءً من تدمير قرطاجة ، ذلك الوضع الذي وشيٌ جبين الجمهورية الرومانية بغار المجد الأثيل ، كان لا بد أن يطبع نفوس الشبيبة الرومانية على العنجهيّة والتضامن ، حفاظاً على مكاسبها الجمَّة . من هنا ظهر هذا التمازج فكرياً بين الطبيعتين : اليونانية والرومانية .

وحين تسلَّم (أوكتاڤيوس قيصر) الملقَّب فيما بعد بـ (أوغسطس قيصر) زمام الأمر في روما ، ونودي به امبراطوراً بل ، قبل أن يظفر بهذا اللقب ، استمر مؤدباً ، ومؤمناً بالمبادىء الروحية التي كان أبوه بالتبنِّي : (يوليوس قيصر) . يسلِّم بصحتها . كانت وفاة (يوليوس قيصر) عام (٤٤) ق . م في حين كان مولد (أوغسطس قيصر) في عام (٦٣) ق . م وطيلة تعاقب هذه العقود ، دام النفوذ الروحي مسيطراً على روما ، ومرعياً من السلطة العليا فيها . وأي ضررٍ يسوقه هذا النفوذ للبلاد ، ومستعمراتها ، طالما هو محتفظ بالنزعة الوطنية والحزم ، على اعتبار (روما) سيدة العالم .

يقول المؤرخ (غرانيا، Grenier) في الأمبراطور الجديد (أوغسطس قيصر) : « كان تقياً ذا نزعةٍ مستسلمة للخوارق الروحية » . وحسبنا أن نقرأ عنه ، أنه اعاد بناء إثني وثمانين معبداً في روما وحدها . وكانت مساعيه متواصلة لاستمرارية السيطرة الروحية على الديانة الرومانية . ولا أعني بالروحية الصوفية ، بل بالباعثة سعير الوطنية والتضحية والإنتظام في صدور شبانها . بهذا المسلك الحكيم استطاع القيصر أن يجتذب إليه مشاعر الشعب ، وأن ينصاع مختاراً للتجنيدِ والفداء ، في سبيل وطنه . ولم يكن القيصر قط مخادعاً لمبدئه ، رغم مظاهر العظمة والدكتاتورية التي رافقت طريق حياته . كان في مقدمة آلهتهِ قبل جوبيتر ، (مارس Mars ، وVenus ڤانوس) ، فالإلهة (ڤانوس) هي نفسها (أڤروديت) اليونانية ، إلهة الحب ، التي يعيد التاريخ الأسطوري أصلَها إلى عائلة (جوليا) صاحبة المُلك في التاريخ الروماني السحيق .

وقد شاء القيصر أن ينتقل النفوذ المعنوي من الـ (كابيتول ، إلى Mars ، مارس) حيث يجتمع مجلس الحكام ، وحيث يتبارك القادة العائدون من المعارك .

لكن الأنانية جمحت بالامبراطور ، فنادى بالأباطرة السابقين آلهة ، وبه معبوداً . ثم

استعـاد رضى (جوبيـتر) محابـاةً فأقـام له معبـداً على (الأكـروبـول) ونـادى بـ (عَـطارِد Mercure) مجسداً لِـ (أپولّلون) .

وذكر (پلوتارك) في (١٦) (Flominus فلومينُوس) عبادة الأخـير في إحدى نـواحي ايـطاليـا ، وإن اليـونـان في الشرق ، بتلك الحقبـة عبـد بعضهم (MuciusScaevola ، مـوُسيوس سكـاڤولا) لكن المؤرخ (M.Grenier ، م . غـرانيـا) لم يصمت بـل صرّح ، غداة اجتمع مجلس الشيوخ واقرَّ ألـوهة (روميلوس) ، تـوطئةً للوصـول إلى اعلان ألـوهة الأمـبراطـور الحـالي (اوغسـطس) ومن يليـه ، وقـال : « تلك هي خـدعـة خـالصـة متواضعة » . وفي عام (٢٩) ق .م أقام القيصر حفـلاً على هضبـة (Forum ، فوُروم) ، كَرَّس فيه نهائياً، ألوهة الأباطرة وخلودهم . ومنذ رُبع القرن الأول (ق . م) طفقت المعابد ترتفع ، وتتكاثر في آسيا وافريقيا وأوروبا الشمالية ، واليونان ، كلها عُربـوناً لـوفاء الشعب للقيصر ، أو لمحاباته ، ولترسيخ ألوهته . علماً بأن السيطرة الرومانية كانت مخيِّمة على كل هذه الأرجاء . ولم يكن الأمـبراطور متخلفـاً وعياً ، عن امكـانية سخط الشعب ، ورفضـه لهـذه البدعـة الحديثـة ، فقد أمـر بمنع اقـامة أي مـظهر خـارجي ، في رومـا وفي اطـراف إيطاليا ، يشير إلى هذه الألوهة . غير أنه كان يمهد لها بلباقة واناة فائقة . أما قرأنا عنه أنـه منعَ قائِدهُ (أغريبا Agrippa) عن المناداة بعبادته في العام الثاني عشر (ق . م) .

وفي ذلك الحين أوعـز الأمبراطـور إلى عبادة القـوة : (numen نُومَنْ) المتجسـدة في بعض الأمـراء ، وفي كاهنـات (لارس Lares) وشاعت هـذه العبادة بسرعـة خـاطفـة في انحـاء أوروبا ، لأن الشعب المغفَّـل اعتبرهـا الهة وطنيـة ، لا يدَ فيهـا للغريب . ولم يـدع القيصر فرصة للأيام حتى تنشر شراع فُلكه الإلهي ، بل أخـذ يبسطه تـدريجياً ويعـدّه لصد كل ريح . وهذا (ڤرجيـل) في بعض مقاطـع من ملحمته ، يشـير إلى القيصر بأنـه مسيحُ عصره . قالها قبل أن يولد السيد المسيح . كما ردَّد المعنى نفسـه الشاعـر (پـروْپـرس ، Properce) المتوفى عام (١٣) ق . م : « مـا دام القيصر حياً فَـ (روما) هيهاتَ أن يخيفهـا (جوپيتر) .

الفصل الخامس
مصير الديانة الرومانية في القرنين الأولين

إن السياسة الحازمة والحكيمة التي خطّط لها وانتهجها الأمبراطور المؤله (أوغسطس قيصر) قُدِّر لها أن تستمر في عافيتها ، وأن تتبسط في الأمبراطورية المترامية الأطراف . وفي (روما) بالذات ، أُضيف إلى اسميّ يوليوس وأوغسطس اسماً ثالثاً هو (تيتُوس Titus) ورابعاً (فسپازيان Vespasien) وخامساً : (Antonin le Pieux ، انتونين التقي) وتابع الشعب عبادة آلهة الكاپيتول والپانتيون وبعض آلهة محلية . كل تلك المعبودات كانت قدراتها النافعة والضارة ، محصورةً في مناطق معيَّنة ، أو في أناسٍ أخِصَّاء . وفي الردحة التي امتدت من تولّي (أوغسطس) السلطة ، حتى أواخر القرن الثاني للمسيح ، كان لا بد للعقول المستنيرة أن تتفحص آلهتها بعمق أكثر ، وأن تقابلها بقدامى آلهتهم ، وبالتيارات الروحية التي كانت مستولية على مشاعر اتباعها ، وممعنة في صهر الأنانيات الشخصية والاقليمية والوطنية والدينية ، في بوتقة واحدة هي : الألوهة الواحدة الخالقة ، ذات السلطان العادل والرفيق ، بالبشر أجمع .

أما حُمِل هؤلاء الجماهير في كل بلد على الإرتياب بآلهتهم ؟؟ يقول المؤرخ (ألتهايم Altheim) إن تعدد المعبودات المجردة ، كانت كلها منبعثة من شخصية الأمبراطور نفسه . تلك الهيمنة الضاغطة على حرية الناس في أرجاء الأمبراطورية كافةً ، حالت دون اندلاع ثورة فكرية دينية ، تخلخل هذه المعتقدات بل تنسفها نسفاً ، وتعود بالناس إلى المعتقدات التي شاعت في أواخر العهد الجمهوري ، لأنها أكثر اجتذاباً لهم وأصدق حباً متبادلاً ، وأمتن استقراراً في النفس والفكر ، . ويقول المؤرخ : (فاستُوجيير Festugière) : « إن الشعوب غير الرومانية في امبراطوريتها ، لا تشعر بارتباط وثيق فيما بينها وبين آلهتها المفروضة عليها فرضاً ، والتي لا تحمل في قرارتها أي انخطافٍ روحي وقناعة وزهد واطمئنان نفسي عميق » .

إن الجديد في الدين ابتدعه (أوغسطس قيصر) وتخطَّاه الأباطرة اللاحقون ، لم يَثبت بوجه الرياح التي اخذت تُنذِر بالهبوب والاستفحال والتدمير ، لهذا المعتقد المادي الساخر ، رغم الإجبار على عدم تسرب أي كتاب شرقي ديني للامبراطورية ، إجبارٌ نفَّذه

أولاً (أوغسطس) ثم حذاه (تيتوس) . العاصفة لا بد من هبوبها ، ولكن الجدران الحائلة راسخة ، يعوزها بعض الوقت لكي تتفكك حجارتها . السؤال الذي يطرح نفسه : من يفكك تلك الحجارة والامبراطورية في أوج عنجهيتها ؟؟ أنه الزمن وإنما الأفكار النابعة من صخور الحقيقة .

إن رُوَّاد التَوعِية الروحية ناصتْ ولم تنطفِىء مصابيحهم . والأحاسيس الفيثاغورية الجديدة ، مابرح لها الأثر البالغ في جوارح بعض الناس الواعين . والمدارس النابضة ، لـ(سناك وابيكتاك ، وبلوترك) ظلت تنبض أحشاؤها حياةً على عنف الضواغط .

فكرة الإله الواحد كانت شغل الفلاسفة والمواطنين والمثقفين ، طوال العصور المديدة السالفة ، تهجع في بحرها الأنواء ، وتعود وتهجع ، وتعود بوضوح وشمول أعم ، خلال القرن الثاني للميلاد . كان ليل القَدَرِ على موعد مع البشر بانبثاق فجر جديد .

إن الوهة « جوبيتر » لم تكن وليدة منطقة ولا قارة وعصر . إذا اختلفت اسماؤه بين حضارة وأخرى ، وزمان ومكان ، فهو بلا منازع ، في نفوس مؤلِّهيه : الإله الأكبر . هو الموعز للصواعق بالانفجار ، وهو حافظ البشر ، كما هو النفس الكليَّة والعقل الكلي معاً للخليقة . هو كل هذه الأسماء : القَدَر ، العناية ، الطبيعة ، العالم .

بهذه الصفات والمسميات دعا الفيلسوفُ اللاتيني (سناكُ) جوبيترَ ، ولن يخطىء تاريخاً ولا ديناً ، خاصاً الباطنية نفسها . لقد رأيناها بتعمق في الهرمسيّة الفرعونية والديونيسية اليونانية ، كما رأيناها في البرهمانية والزرادشتية ، ونعود لنراها في مذاهب الباطنية ، للديانات السماوية المعاصرة . كان الفلاسفة الذين نادوا بالألوهة الواحدة لـ (جوبيتر) رأيهم في انفصال الإله وبُعده عن العالم . وجاء القرن الثاني للمسيح حافزاً الكاتب (بلوثرك) المتوفَّى عام (١٢٥) على إزالة كل مسافة تبعد هذا عن شعبه .

ولكن طال أمد خفوت مصباح الروحانيات في الحضارة الرومانية ، لو لم يغـذُّهُ بزيت الإيمان بها حقيقةً ، بعض الأباطرة أمثال (غاليغولا Galigula) مُعيدِ بناء هيكل (إيزيس) بعد تقويضه ، ورافعِ مقدسٍ في قصره الخاص ، لهذه الإلهة .

حذا هذا الأمبراطوُر خلفهُ كَراكلاً حوالي عام (٢١٥) للمسيح ، تمكنَّ هذا من إقرار

عبادة (ايزيس) رسمياً في الدولة . لذا فقد سمعنا دوي صوت القرض المسيحي في القرن الثالث للميلاد يقول : « لقد غدت الديانة المصرية ديانة روما » . بل ديانة الأمبراطورية ، وهذا طبيعي ، فالمثل العامي له وجه صحيح : « الناس على دين ملوكهم » .

ولم تقتصر على نفوذ الإلهة المَصرية (إيزيس) بل شملت العبادة آلهةً سورية وكلدانية وفارسية . عبد (نيرون) الإلهة (دَيا سوريا Dea Suria) ، وأصبح مرفأ (پُوزُّل ، Pouzzole) على خليج (نابولي) مسرحاً للتجار السوريين ومستورداً لعاداتهم .

وعلى هذا الشأن كانت المبادىء الكلدانية : تغرس : علم الفَلَك ، والبابلية : السحر ، مما شلّ المد الروحي الأصيل ، وغمس الفكر البشري الذي يتظلّل دوحة الأمبراطورية الرومانية حتى امتداد ألق الروحانية الشرقية الحديثة ، إلى صدر القصر الأمبراطوري بتفتُّحِ المسيحية .

إن البرهان على النفوذ السوري في الفكر الروماني هو أن الملك (كراكلا) الذي اعتنق مبادئهم وعمَّمها . حين خلفَهُ (ماكرين ، Macrin) لم يلبث أن اطاحت به الأميرات ذات النزعات العقائدية السورية الروح ، ليتسلمها ابن عم كراكلاً المدعو : (باسِّيانُوس ، Bassianus) . لم يقتصر نشاط هذا الأمبراطور على حدٍّ معين بل جعل من الإله السوري (Baal Homs ، إله حمص) نسبةً للمدينة السورية ، إلهاً كُليَّ القدرة ، طاغياً على كل إلهٍ قديم . ثم تسربت عبادته للمستعمرات وحاذى المُثَلَّث (Jupiter – Optimus – Maximus ، جوپيتر أو بتيموس ومكسيموس) .

عبادة الشمس وميترا :

أخيراً ، لا بد من الاستسلام للعقل السليم الذي يقضي بتوحيد تلك الإلهة بواحد : إنه إله الشمس .

كان المصريون أول من نادى بهذا الإله ، واعتبروا القوة المسيرة للشمس اللامدرَكة بالحواس هي نفسها الخالق المبدع لكل شيء في الوجود . فإلى أي مدى من هذا المعتقد تعمَّق الرومان ؟؟

أول امبراطور عني بتأليه الشمس ، أو بالقوة التي تتضمَّنها (Algabl الغابـل) الذي شاد لهذا الإله محراباً بمدينة (Emèze أماز) الرومانية . هذا التطرُّف سبَّب له الموت قتلاً . خلفه الأمبراطور الكسندر سفيروس وكأننا به يحمل لقاح الروحانيـة والماديـة معاً ، إمـا عن إيمان بها ، أو عن مداراة حفاظاً على سلطانـه . فها هـو يجمع بـين التماثيـل المتنوعـة ، من وطنية واجنبية : (أبـولينيوس تيَّان ـ أورفوس ـ إبراهيم ـ ويسـوع) . معتبراً هـذه الرمـوز سبيلاً معبراً للوصول بالعقيدة الدينية إلى إله واحد أحد .

ولم يقف خلفـاء الأمبراطـور عن هذا المسـاق التوحيـدي ، بل تلفّتـوا إلى إله رهيب باطش . وجدوا جذوره في مطلع العهد الجمهوري ، في التربة الفـارسية أنـه : (ميترا) الذي عُمرت عقيدته حتى القرن الثالث للمسيح لتتجدد في عهد الامبراطـور (Cammode كـومّـود) المتـوفّى عـام (١٩٢) للميـلاد . جنـح إلى هـذه العقيـدة عـدد جم من عـالم الأمبراطورية ، لأنها تحوي الضدين : الخير والشر ، وتؤكد التصارع الدائم بينهما .

وجد الشعب بذلـك وجهاً جـديداً لـلإله ، مـا عرفـوهُ قبلاً غـير ومضٍ ويخبو . أن المـؤرخ (ف . كومّنت ، Fr. Cummont) أوضح بعض أسرار الميترانيـة ، وأكّـد أن ميترا ليس إلهاً بل رسولٌ يهدي إلى الخير ومحاربة الشرور .

وكان المثلث الوسط للقـرن الثالث ، ميـدان تصارع بـين هذه العقـائد المستجـدة ، وبينها وبين المعتقدات الوطنية والأجنبية القـديمة . عصر ملؤه الحـذر ، واليقظة الفكـرية ، بعد تجارب طالت بين اخفاق ونجاح .

في القرن الرابع ، بعد جهـود ومخاطـرات نَهَدَ الكاتب (مَكـروب ، Macrobe) إلى توحيد كل تلك التيارات الدينية : من ديونيسية لفارسية لسورية في ديانة الشمس . وكانت سلطة الأمـبراطور (أورالـيـان) توآزره لـدى كـل معضـل ، وتتخـذ من الشمـس ، أو من القُدرة المُسيرة لها ، الإله الواحد الخالق لكل كائن .

إن مـوسوعـة تاريـخ البشرية تقـول : « أن زوجة (سپتيموس سيفـيروس وهي ابنـة أوغسطس) المسمَّاة (جـوليا دومنـا) طلبت أن تكون الشمس الإلـه الأوحد ، وبعـد قليـل شملت عبادة الشمس البلاد البلقانية بكـاملها . أثبت النشـاطَ الروحيَّ لهـذه الأمبراطـورة

بالغُ اهتمامها بأعمال الروحاني الكبير : (أبولينوس التياني) نتعمّق في توضيح اولائك الروحانيين في بابٍ آت ، يُثبت أن (جوليا) هذه كانت تقصد : القوّة المسيِّرة للشمس ، وتعني التوحيد الإلهي .

الفصل السادس

نهاية الديانة الرومانية

إن القيم التي كانت تتضمنها عبادة الشرقيين والتي يمكن أن نطلق عليها إجمالاً : (المُطلق، Pagani) كانت هي الوحيدة الشعبية التي تصدت للمسيحية وانتشارها ، وخاصةً في القرى . ينبع هذا التعلق بذلك المطلق من القيم الخيرة التي جارت الأحاسيس الرومانية والشعبية ، منها : دعوات إلى إلهٍ سَمِّهِ الشمس إذا شئت ، ودعوات إلى تعشق العدالة ، وملازمة الصفاء النفسي ، وصولاً بالإنسان إلى أعلى مراقي الفضيلة .

ولما كانت الدعوة المسيحية تتضمن هذه الفضائل ، مضافاً إليها المزيد من الرفق والعطف والسلام ، كان مفروضاً تآخي العقيدتين . لكن الأنانيات الجامحة في أصحاب السلطان ، وغمغمة أصوات رجال الفكر ، حيال ما سمي بالصراع بين الـ (Paganiوالـ Christiani ، المسيحيُّ والمطلق) جعل المعركة تستضري وتعمُّ وتطول .

لم تقوَ (الأفلاطونية الحديثة)، على جِدَّتها، على الصمود أمام هذين التيارين المتنابذين ، لكن أعلام المسيحية فسَّروا أسس ديانتهم بما يتوافق مع الأفلاطونية الحديثة هذه ، بعد لأيٍ استمر من القرن الثالث حتى استقرار المسيحية في الأمبراطورية كلها بتنصُّرِ أمبراطورها .

لكن القرن الخامس بكامله ، وبعض السادس ، كانا يحتضنان الديانة الشرقية الباطنية النزعات في أغلبها ، على أنها ثقافة دينية ، لا دين بالمضمون الواسع للكلمة .

وواضح للتاريخ أن الطبقات الشعبية والبعيدة عن روما ، ظلت معتصمة بديانتها الشرقية الغابرة أو القديمة الوطنية ، منها : الفيثاغورية والمثلَّث الـ (روما ـ دلفي ـ أوغوسطي) . كان ذلك بعد دخول بواكير الدعوة المسيحية ، وتسرُّبها ببطء وبتضحيات جمة .

ولنوجز هذه الفترة الحاسمة لحياة ذلك المطلق في تلك الربوع الشاسعة من المستعمرات الرومانية شرقاً وغرباً : أول امبراطور تبنى المسيحية هو : قسطنطين الأول المتوفَّى عام (٣٣٧) بعد أن أعلن الدين الجديد بتاريخ (٣١٣) م بعد معركة ضارية على أبواب روما ، يحمل تبعاتها الأمبراطورانِ المتزاحمان: (قسطنطين) الأول و (مكْسياس Maxeace) عام (٣١٢) م . بعد هذا النصر للجيش والعقيدة ، أبى جوليان ابن أخي قسطنطين المتوفى عام (٣٦٣) أن تضمحل ديانة آبائه فرفض الدين الجديد ، مدافعاً عن دينه الوطنيِّ الأصيل ، وكان عَبثاً نضالُه .

خَلَفَهُ الأمبراطور (ج . توتِن J. Tautin) المتوفَّى عام (٣٧٨) فتبع خطاه عاملاً على احياء ذلك المطلق الذي ما برح يدغدغ خياله ويُثير هواجس الشعب ، وبعض الزعماء . اعتماداً على المؤرخ المعاصر (بواسيه Boissier) في كتابه : « نهاية العقائد الشرقية في الأمبراطورية الرومانية ، La fin du paganisme » .

وكان صدى خواطر هؤلاء الأباطرة يدوي من فم بعض خطباء الرومان منهم : (Symmaque سيمَّاك) . وكان من المهاجين لهؤلاء، الملتهبين حماسةً للدين السابق : البطريرك (أمبرواز) المتوفَّى عام : (٣٩٧) . والمولود أثر مذبحة (تَسَّالونيك Tessalonique) الرهيبة عام (٣٩٠) . على أثرها ، أُوجب على الأمبراطور الظافر : (تيودوس، Théodose) المتوفَّى عام (٣٩٥) م أن يعلن التوبة بعد هذه المجزرة ، ضد المواطنين ، خصوم العقيدة الجديدة . علماً بأن هذا الأمبراطور كان حثيث المسعى لتأصل المسيحية في بلاده . بهذه العصا الإنسانية الأرومة لطم البطريركُ ، الذي غدا قديساً ، جبهة ذلك السفاح الغطريس . وتأثّلت المسيحية .

وكان آخر آلهة المطلق في (روما) لِعبادة (ميترا) الفارسي عام (٣٨٧) م ، ولعبادة : (لوپارْكوُس ، Lupercus) إله الطبيعة والمواشي عام (٤٩٤) م . وآخر احتفال يقام باسم الإله : (Apollon ، أبولّون) امتد لِسنة (٥٢٩) م .

كان الأمبراطور (تيودوس) هذا ، هو حامل علم الدفاع عن المسيحية ، ومطاردة اخصامها ، وسحقهم أين وجدوا . وكان يرى في الديانات الروحية الشرقية المستوردة ، تجانساً مع المسيحية ذات الطبيعة والطقوس والمسلك الأخلاقي المتشابِهِ إلى مدى بعيد ،

بـالدينِ الجـديد . أمـا الدين الـروماني الشـائع ، فلا يـرتكـز عـلى شيء من تلك الأُسس اللاهوتية ، خاصة الأخلاقية منها .

في هذا التصـرف الرصين ، كسب الأمبراطُور محبة سواد الشعب ، ووصف الطريق للسير إلى محجة السـلام والتسامح والحب ، وشقَّ صف اعدائـه واذلَّهم ، وبدد شملهم ، واطفأ شموع آمالهم بآلهـة منقذة : وكـانت المسيحية ، بعـد آلاف الضحايـا من أخصامهـا وأشياعها ، ولم تفتـأ في تطوُّرٍ مستمرٍ حتى اليوم ، يـرأسها خليفـةُ القديس (بطرس): بابـا جديد ، ينتخبه آباء الكنيسة خلفاً لِسلفٍ . أول هؤلاء البـابوات هـو القديس (بـطرس) الذي استُشهد بعهد (نيرون) ودُفن بروما ، حيث الڤاتيكان .

زبدة البحث :

اعتنق سكان ايطاليا معتقدات شتى ، لدى هبوطهم الأراضي الإيطالية . يدور شك حول المنطقة التي انطلقوا منها لهذه الربوع : بين شرق وشمال وغرب .

عبدوا آلهة متعددة الأسماء، أُولاها مظاهر الطبيعة والقوة الخفية الباطنية، في كل مادة ظاهرة. الـ (نومينا Numina) انها قوى الطبيعة من حقلٍ لينبوع، لشجر ، لسلف متوفًّى . ما ظهر للمؤرخين والأنتربولوجيين أثر دال على معنى هذا الباطن في الطبيعة، أهو كما زعمه هؤلاء وحسب ، أم هـو أعمق من ذلك وأدنى إلى الـروحانيـات التي يفسرها علماء الـروح المعاصرون ، بالذبذبة العالية جداً ، التي لم يتوصل لِفَهمها علماء الذَّرة ، حين كسروها ، وخـبروها ، وأحصوا عناصرها (الكترون نيـترون پروتـون) . وقفوا حـائرين عنـد ذلـك الجُزَيْءِ المتناهي صِغَراً . أهذا هو الـ (نومينـا numina)باعثـة الحركـة في نوى الجـماد ، وهو روح الأحياء والنبات أم ماذا يكون ؟؟ لعله إيحاء سماوي، كما اعتـبر بعض علماء الآثار والتاريخ ، إن الإيمان بالإله الواحد هوغريزة منذ وجد الإنسان ، وهودالة عُلويَّة .

عايش الاعتقاد بالْـ (نومينا)، الإلهُ جوبيتر قبـل أن تكون رومـا المدينـة. كما حملت لِهـذا الشعب الذي أخـذ يتكاثـر ويتبسط بين الجبـال والبـحـار ، القـوافل الهنـدو أوروبية معتقدات شتى روحية . ونقلت إليهم اليونان فكرة الباطن بـأصدق معـانيه عن (ديـونيس وأورفوس وفيتاغـور) ثم عن الأفلاطـونية القـديمة والجـديدة معـاً ، وعن الكلدان وفارس ومصر . وواصلوا إيمانهم حتى شمل بعض الأَباطرة ابتداءً من أوغسطس قيصر .

عاشت هذه المعتقدات في أزمنة متفاوتة ، يبرز بعضها ، ويختفي بعض ، دواليك في القرون المتالية ابتداءً من مطلع القرن العشرين (ق . م) حتى بزوغ المسيحية وتألقها .

كانت الصراعات الدينية تتعاقب ، وتتوارث ، بدءاً من عصور القبائل المتخلفة إلى الملكية فالجمهورية فالأمبراطورية ، فالمسيحية .

كانت كل الصراعات تدور بين عبدة الآلهة القدامى ، مع الملتزمين بالدين الدخيل ، وما أكثر هذا الدخيل ، وما اضرى ذلك الصراع . وفي ردحات زمنية معينة يصطخبُ الجَدل الفكري وينحول أحياناً إلى تقاتل بين العقائد المادية والروحية بأنواعها .

كان للرومان طقوس دينية كثيرة وهياكل فخمة ، منذ اجتاحها الأتروسك ونظموا مرافقها وعمروها . وفي قيام (روما) انبثقت عقلية تحررية وطنية ، مع آلهة لها ، تشد أزرها ، وتتصارع مع نقيضاتها .

في خضم هذا التصارع ، كان الفن المعماري في ايطاليا يتقدَّم ويزدهر ويبتدع . فكانت الهياكل والتماثيل في روما ، وغير روما ، رمزاً لعباداتهم المختلفة ، وعريق حضارتهم ، التي تعمَدت اخيراً ، بينبوع المسيحيَّة .

جدول بأسماء آلهة اليونان والرومان ومهمَّاتُها

يونان	رومان	مهمتها
أفروديت	ڤانوس	إلهة الحُب
أبولّو	أپولو	الضوء والطب والشعر
آرس	مارس	الحرب
ارتميس	ديانا	الصيد والولادة
اسكليپيوس	اسكلولاپيوس	إلهة الشفاء
اثينا	مينرڤا	الحرف والحرب والحكمة
كرونس	ســاتور	أب زيوس ـ اله الزراعة (للرومان)
ديمتر	سارس	اله الإخصاب والإنماء
ديونيسيس	باخوس	إله الخمر والإخصاب
أروس	كوبيد	إله الحُب أيضاً
غايا	تارا	رمز الأرض ، أم وزوجة أورانوس
هافستور	فولكان	رب النار والتعدين
هارا	جونو	حامية الزواج والنسـاء وزوجة زيوس ـ جوبيتر
هرمس	عطارد	رسول الالهة وإله العِلم وحارس المسافرين
هاستيا	ڤستا	ربّة الموقد (المدفئة)
هيپنوس	سوفنس	رب النوم
پلوتو هادس	هلپوتو	رب العالم السفلي
پوزايدون	نپتون	رب البحر ـ والزلازل والخيول
ريا	أوپس	اخت وزوجة كرونس حاكم التيتان
أورانوس	أورانوس	أبو التيتان وابن وزوج غايا
زيوس	جوپيتر	سيّد الآلهة وأبو هرقل الخالد

المراجع العامة لديانات الأتروسك والرومان

أ ـ بالعربية :

١ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ : Alban C. Widgrie ـ الفصل الثاني ص (٩٠ ـ ١١١) عام (١٩٧٢) .

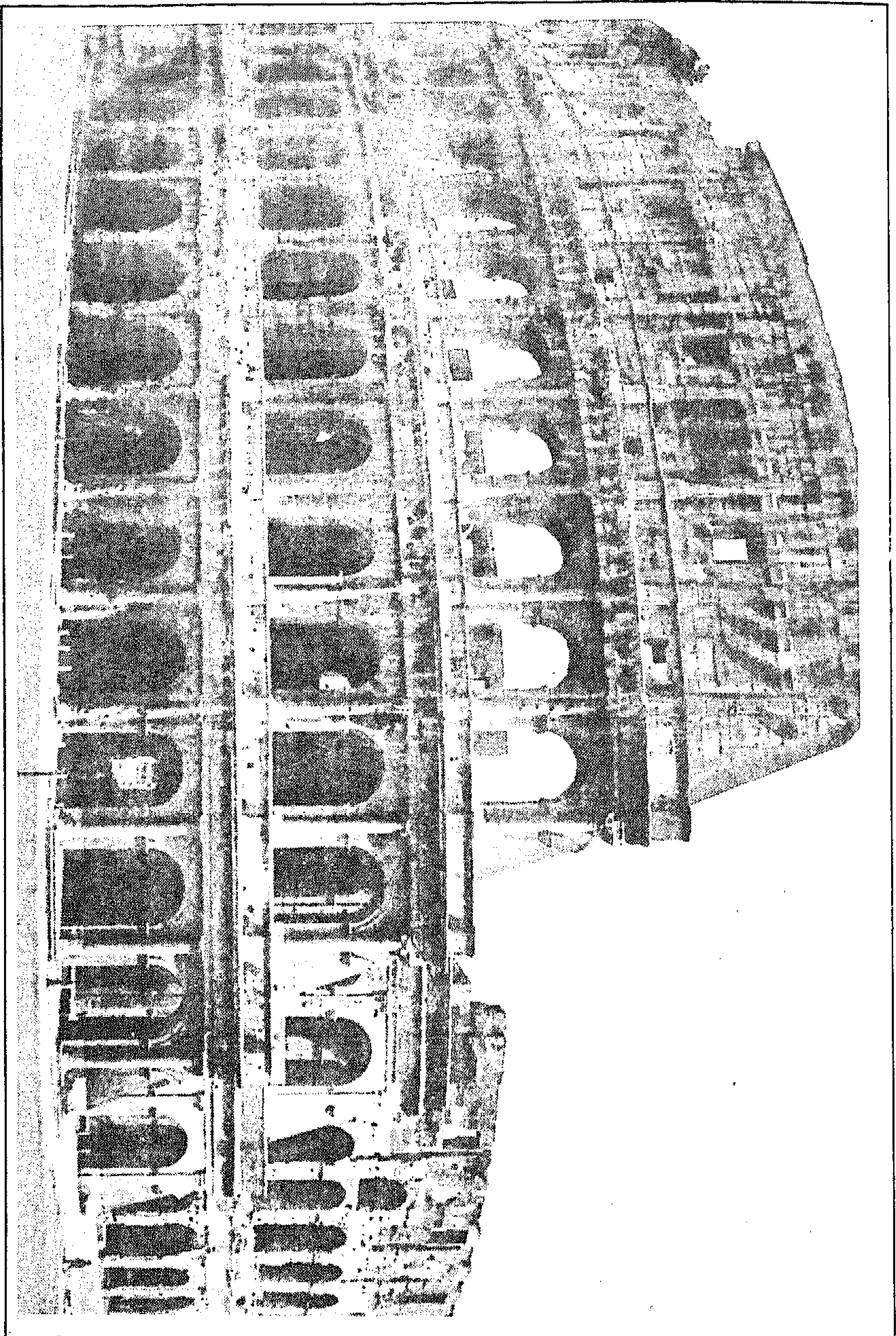
٢ ـ تاريخ العالم : ج هامرتون وزارة التربية المصرية ـ الجزء الثالث ـ الفصل (٦٠) ص (٢٨٣ ـ ٤٠٢) ص (٥٨٥ ـ ٧٠٥) التسامح الديني . الفصل (٦٥) ص (٥٥٤) عبادة القيصر .

٣ ـ ديانات العالم الكبرى : Ed. Rochedieu) سنة (١٩٦٦) ص (١٣١ ـ ١٤١) ثم الأتروسك ص (٢٢١ ـ ٣٣١) .

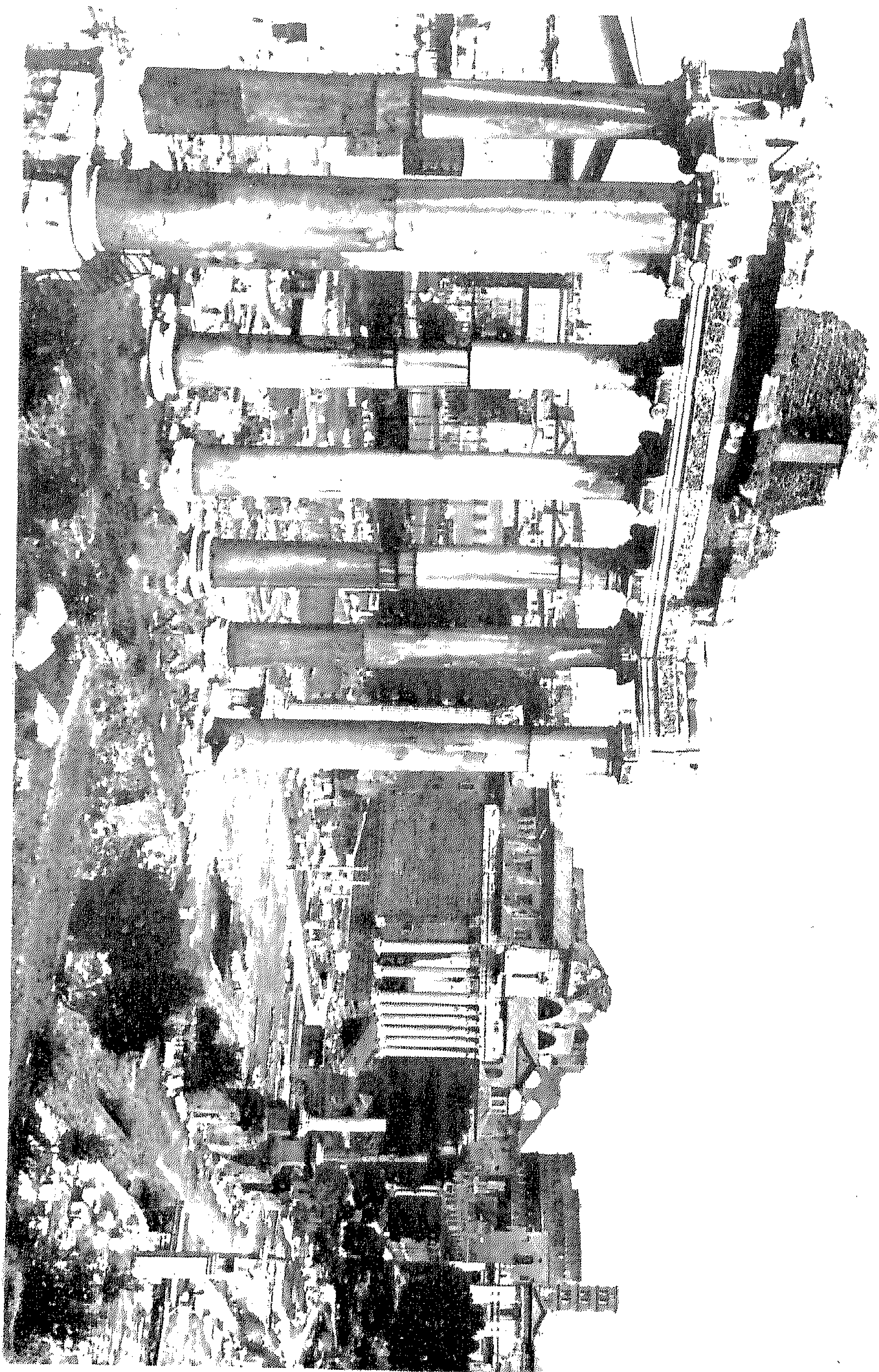
ب ـ بالفرنسية :

1 – W. Durant: Hist de la civilisation (1962), Tome (7) Ch. (4) P: (109 – 124).

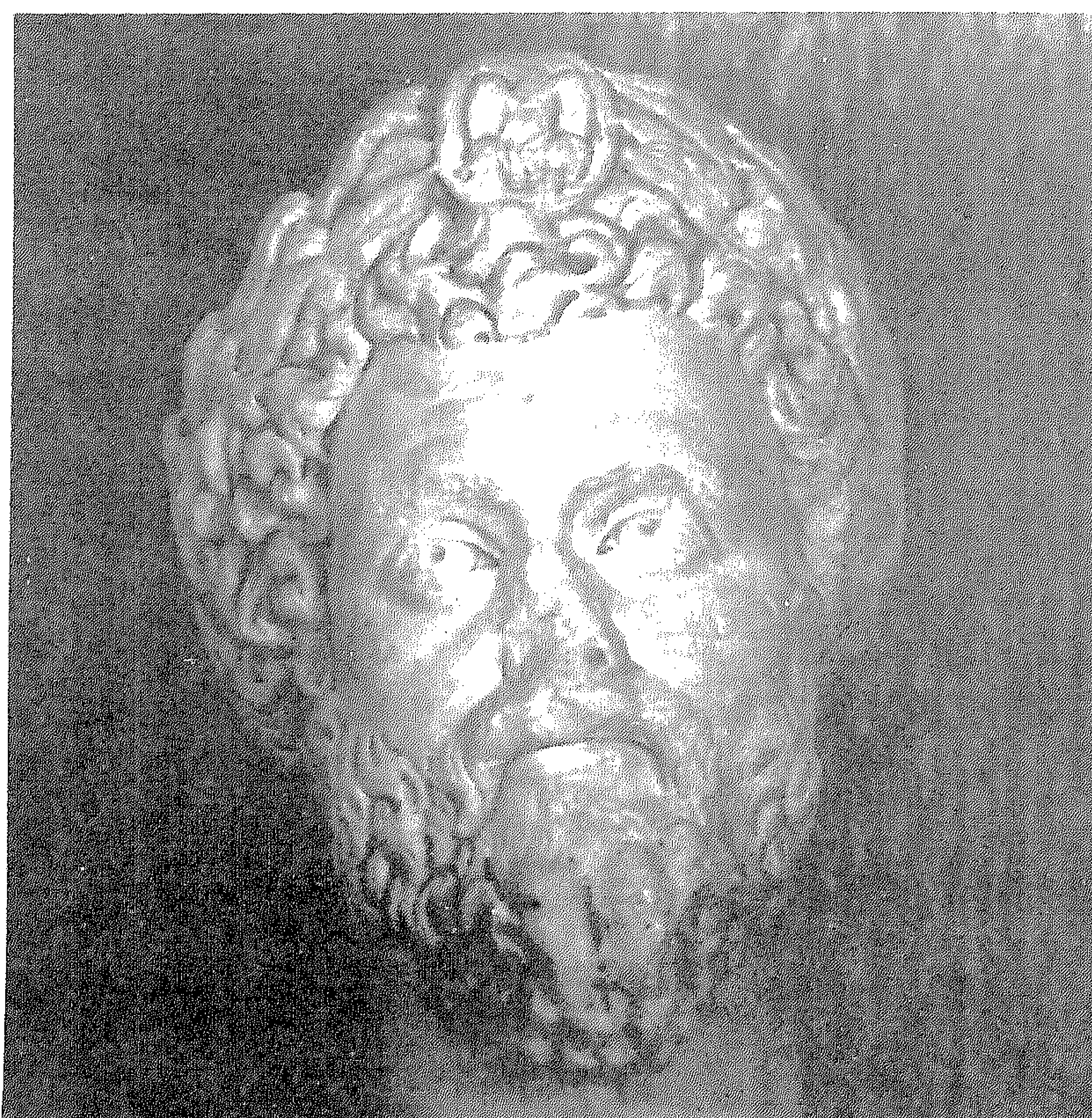
2 – Pierre Fabre: Histoire générale des Religions (1960), Tome (2) P: (577 – 584). (586 – 621) (635 – 663).



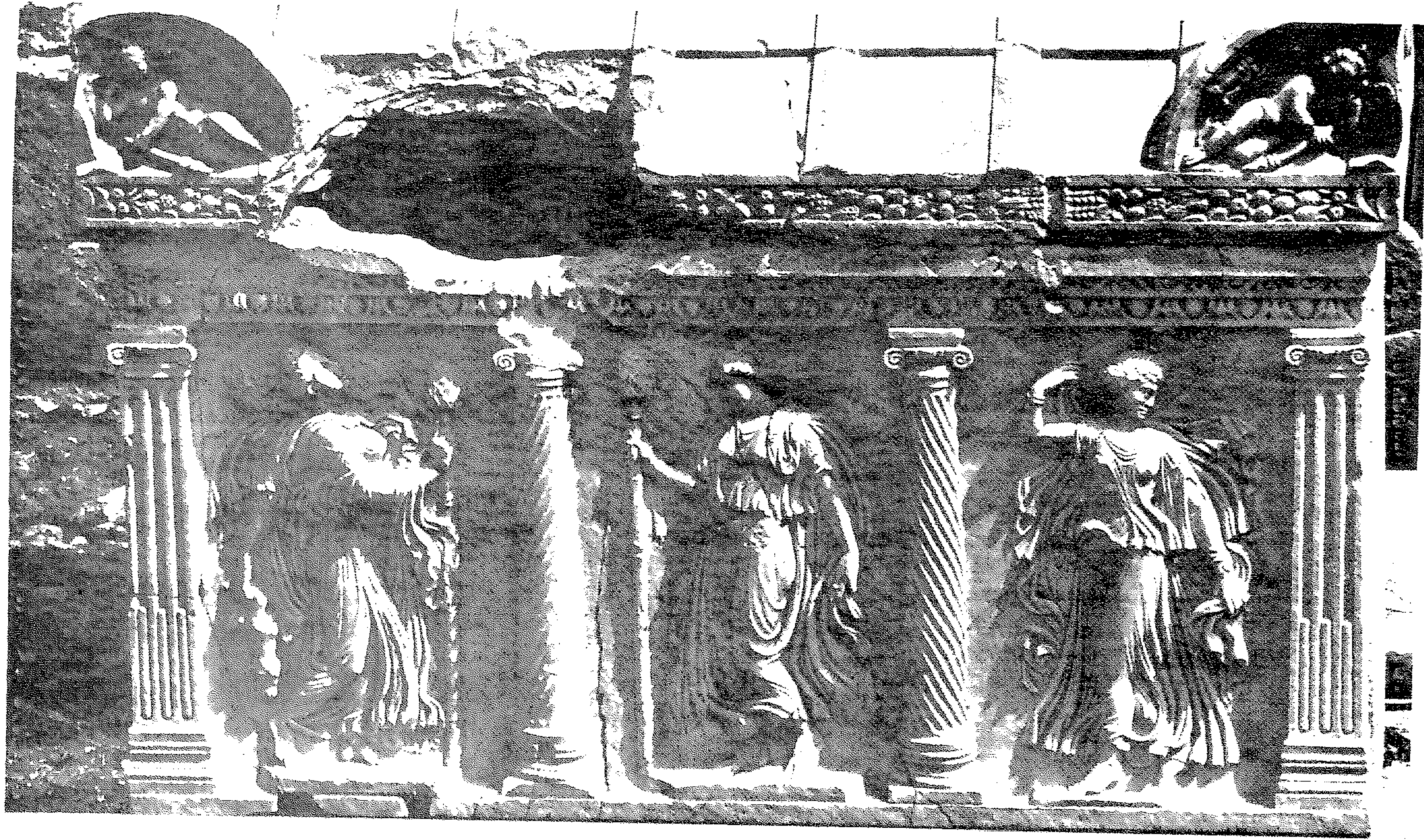
امن اطلال روما



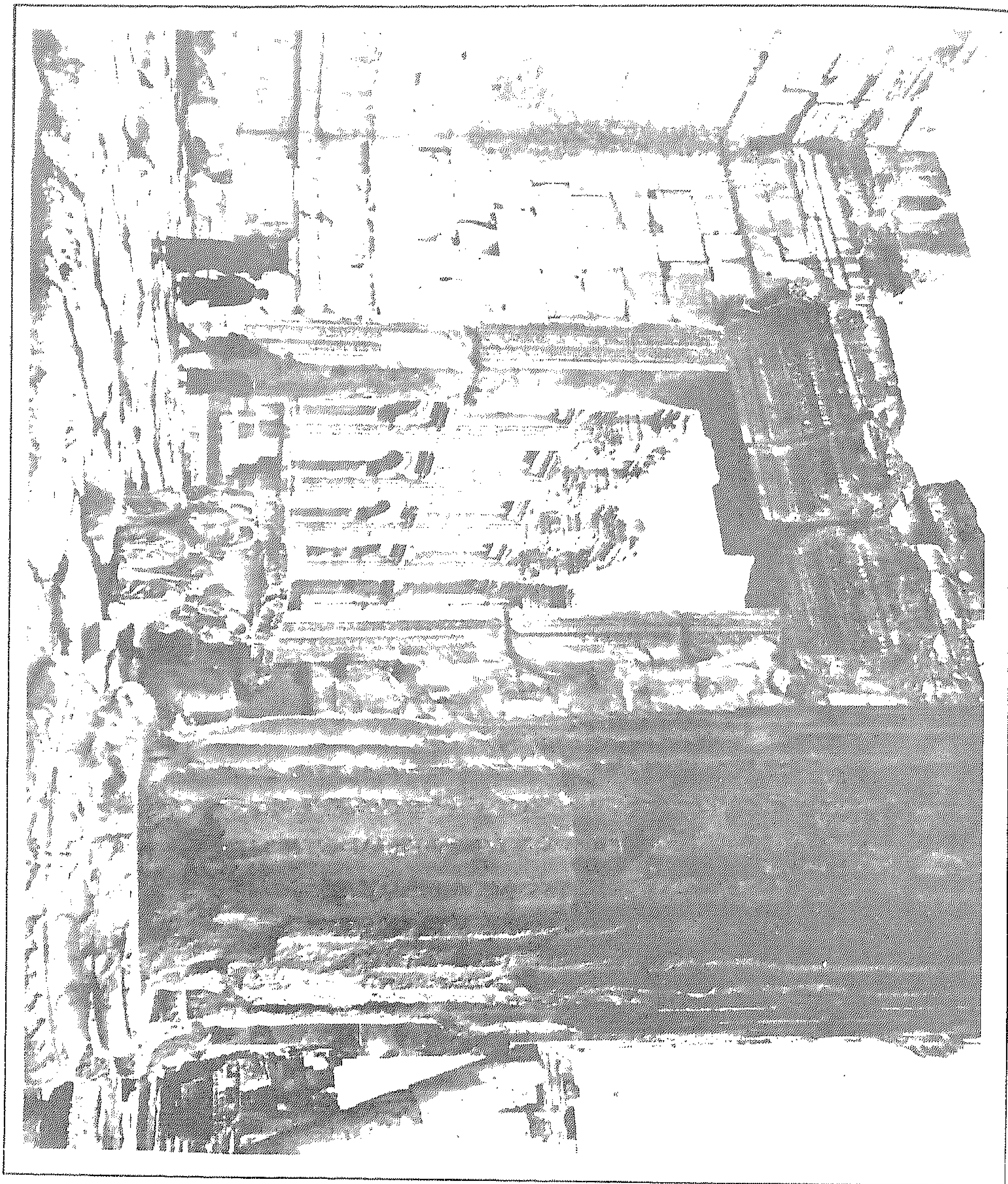
معبد روماني



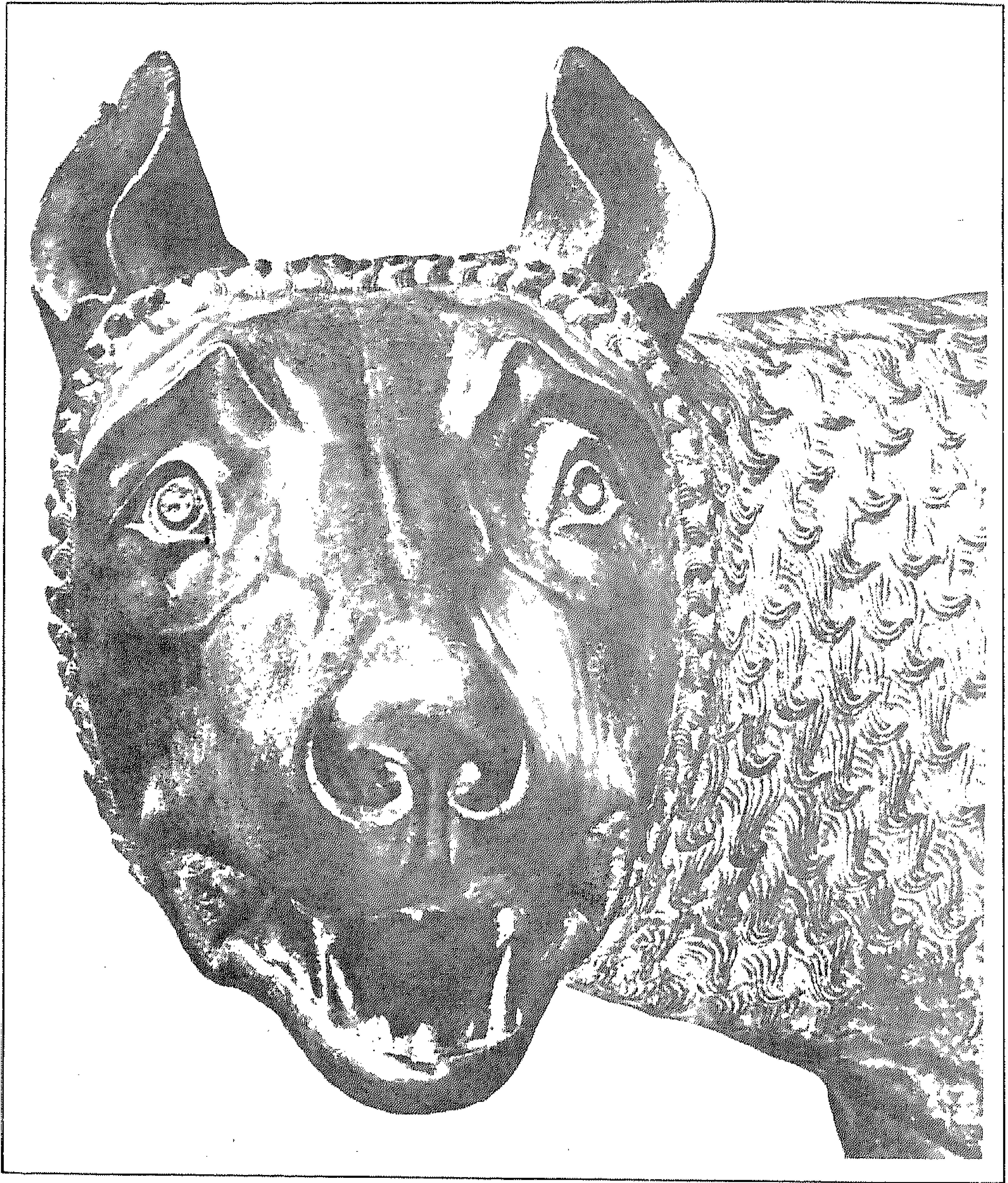
سبتيموس سفيروس



مقبرة يونانية يعود تاريخها إلى الألف الثاني ق . م .



معبد باخوس





الإله جوبيتر

الباب العشرون

الفصل الأول

المسيحية

توطئة حول المسيحية الأولى :

لا نرتاب في ما للبيئة من تأثير مرموق على مجرى الفكر الإنساني ، لان الإنسان عالق في بيئته ، ومتأثر بكل ظواهرها . لذا كان لا بد للمسيحية من أن تجد تربة ثرية تتقبل اليها ولو بعد لأيٍ ، مبادئها الخاصة .

كانت فلسطين هي المنشأ الأول للمسيحية ، كما كانت الوطن الذي احتضن اليهودية ورسخها ، فكيف يتسنى لتلك أن تحيا في مجتمع غريب عنها ، ومناهض لها ؟ لا بد من ركيزة تعتمدها هذه الرسالة السماوية ، تنتقل بواسطتها من دنيا الفكر والكلام ، إلى العالم الحي النابض .

أذن القدر بأنبثاق المسيحية وبتجسدها ـ عدا القدرات السماوية التي تعتبرها الحافز الأول ـ حين طرأت أحداث عميقة وعنيفة ، حملت إلى الجو اليهودي في فلسطين وفي سائر الشرق الأدنى ، عواصف من تفكك خلقي ومعنوي زعزعت البناء الروحي للقيم اليهودية وجعلت من الفرد اداة طيعة بيد شهواته الجامحة ، ومطامحه المادية الرخيصة . وجاء الأنبياء ووعظوا وأنذروا فلم يبال ، ولا أذعن إلا نفر يسير ، غداة استعاد توصية موسى بأن (يهوه) سيرسل لكم مخلصاً عند الحاجة ، ينقذكم من شر كل مأزق . كانت هذه

العبارة ومضة امل لعقلاء اليهود ، ستجيرهم من صولة الحكم الروماني ، ومن ميوعة سواد الشعب وهرطقته .

وكان (دانيال الحكيم) قد عاش انطلاق الجماعة وخزيها وعمهها ، وعرف ما للرموز من بالغ الاثر في نفوسهـا ، فتحدث عن رؤيـا جاءتـه ليلاً قـال ، وهو المشهـود له بـالتنبؤ والصدق ؛ (رأيت أربعة حيوانات مريعة)، انطلقت من شاطىء البحر. أحدهـا أسد لـه جناحا نسر ، والثـاني دب هائـل ملتهب جوعـاً وافتراسـاً ، والثالث نمـر له اربعـة رؤوس وأربعة أجنحة ، والحيوان الرابع كان اكثرها ترويعاً وضراء ، اغار عليها ومـزقها والتهمهـا بأسنانه الحديـدية . كـان لهذا الحيـوان عشرة قرون ، في كـل منها عينـان . وله فم يتكلم ويروي الاعاجيب المروعة . شـاعت الرؤيـة في افراد الشعب فـأوجسوا ، وامتلأوا ذعراً واكثروا التساؤلات .

ولما كانوا يعيرون الباطن اهتماماً بالغاً ، هلعوا إلى الحاكم ليفسر لهم الرؤيا .

جاء التفسير كما يلي : « سيأتيكم وقت يظهـر فيه (ابن الإنسـان) من نسـل (داود) لاقامة ملكوت السموات على الأرض . فمشى على ألسنة اليهود توضيح يقول : انه المسيح تبارك اسم الرب » .

طبعت هـذه الرؤيـا في نفوس كثـيرة اسئلة اكثر، لكن بعض النفـوس كانت قـد أسلست إلى حـين. بعـدئـذ ، في العـام العشـرين قبـل الميـلاد ولـد اليهـوديُّ النـابـغ (فيلون) في الاسكندرية ، وكان النشاط الفكريُّ على اشدِّه تصارعاً وجدلاً . وكانت فلسطين الـطريق الآقرب والأيسر بين الشرق والغرب ، بين الحضارتين اليونانية والـرومانيـة ، وبين مـدرسة الاسكندرية الهلِّينية ومدارس الشرقَين الادنى والاقصى .

تحت اجنحة هذا النزاع الفكري المُطْبق ، وجد السَحرة والمشعوذون لهم ملجـأ اميناً لِنفْثِ شعوذاتهم وطلاسمهم ، في حين كانت تلك المـدارس تتقصىَّ الحقائق ، وتسـبر غَور المجهـول ، لرؤيـة ومضةٍ من شمس المعـارف الباطنـة . ولحل مشـاكـل الانسـان المعقـدة حول : مجيئه ومصيره ، وحول القـدرة التي اوجدتـه ، وحول تفسـير الآيات المتعـددة التي تزخر بها الرسالات السماوية اليهودية .

في تلك البيئة الشرقية ، حمل اوزارَ هذا الفكر القلق الفيلسوف (فيلون) بـالمدرسة (الرواقية) .

لم تَـرو الـرواقيـة غُلةَ الفكـر يـومـذاك ، والفكـر في مهب اعـاصـير من المعتقـدات والمتنـاقضات ، لكنها استطاعت أن تنقش لهـا أثـراً بيِّنـاً في الفكـر المسيحي الأول ، آبـاء الكنيسـة الشرقية . تـوفي فيلون عام (٥٤) للمسيـح بعد أن القى بـذور التفكير العميق ، مختبئاً في غضون الرمزية ، اقتداء بالرسائل الـروحية اليهـودية ، وبـأحاديث الانبيـاء الذين آمنـوا بان الـروح هي من انفاس الله ، وأن الـذكاء من المـلائكة ، وأن خلق ارواح البشر سابق لخلق الأرض والسماء ، وهي عنصر خالد لا يزول .

تلك التصريحـات كانت شمـوعاً سـاطعة في هيكـل اليهوديـة الواعيـة ، فعزفت عن الأخذ بالافكار الغريبـة المتطرفـة ، واعارْت السمـع أو بعض السمع إلى (ابن الإنسـان) الذي اومأ إليه موسى ، وأكدَّ عليه دانيـال واخنوخ . وكنا تحدثنـا عن الاسرائيلية في فصـل سابق . ونذكِّر بأن قوام عقيدتها يلخص في مبادىء عدة منها :

أ ـ الاعتراف بوجود اله واحد .

ب ـ العالم مخلوق من الله ، وله بداية ونهاية .

ج ـ يختلف العالم عن الله بان هذا مُتعالٍ وغير مادي ، وازلي على عكس الخَلق .

د ـ خلق الله الإنسان على مثاله ، ووهبه نفساً عـاقلة حرة وهـو ارفع في مستـواه من مخلوقاته جميعاً .

هـ ـ ليس الله ذاتـاً بعيداً عن مخلوقـاته ، وغـير مكترثٍ بـالإنسان . انـه يبحث عن ذلك الإنسان كما يبحث الإنسان عن الله ، إذ ليس هـذا الإنسان جـزءاً عاديـاً في العالم . (نشيد الأناشيد) .

تلك هي خلاصة الفلسفـة اليهوديـة . أقرَّ هـذا النهج الفلسفي ، يسـوع المسيح ، بدليل تقرُّبه وتعـاطفِه مـع الفرقـة اليهوديـة (الأسينية ، Les assinéens) ، التي صـدقت التعاليم الأولى لليهودية .

وغـداة تدمـر الهيكل في القـدس ، انقطع رجـاء اليهود بمملكـة الله عـلى الأرض ، فأخذت المسيحية بعدها تعمق جذورها في ربوع اسرائيل .

وحين انتشرت الرواقية بين جماعة اليهود ، منادية بالعفة ، والنسك ، موصية بالرحمة والعطف حتى على الحيوان ، كانت هذه المبادىء جسراً عبرت عليه الفلسفة المسيحية وتفتحت زهورها بتؤدة في حدائق اسرائيل . أسهم في تقبل العقيدة المسيحية ما عرِّف به كبارُ الفلاسفة : الله الخلاق . من هؤلاء :

أ ـ ارسطو : المعلم الأول قال : (ان القوة المحركة هي أقدر من القوة التي تتحرك) على هذا الأساس قيل : ليس لله بداية ولا نهاية ، ولا هو محصور في مكان ولا زمان ، بل هو حاصر لكل زمان ومكان : وليست له صورة ، ولا هو قابل التجزئة ، انه المحرك الأول والعلة الأخيرة .

ب أوريجان : (١٨٦ ـ ٢٥٤) للميلاد ، هو من مواليد الاسكندرية ، وأحد نوابغها في اللاهوت . انتقد اليهود في بعض نظرياته ، حول تعريف الله ، معتبراً اياه مختزن رحمة ورأفة ، وانه ليس متحجر المشاعر ، بل يتألم في محبته . وإن الابن ادنى مرتبة من الأب .

ج ـ افلاطون: يرى ان الله هو الخير المطلق وليس الحب . بعكس المسيحية .

فلا غرو أن تأتي المسيحية بتعريف اقرب انسانية وتأنساً لله ، إذ جعلت له ابنا كسائر البشر متأنساً متألماً ليفدي الجنس البشري ، ويغسل عنه خطيئته الأولى .

هذا الإله أقرب إلى نفوس الجماهير ، بمحبته وتضحيته من إلهٍ بعيد أو جبار غضوب .

هل هناك مسيح؟ يقول: مُولَّلر، (C. Muller) في كتابه: (Fragmenta histor) (icorom groeeorom) ما يلي: تكلم كُتّاب مسيحيون عِدّة عن المؤرخ: (تاللوُس ، Thallus) الذي ذكره (يوسف) في (Ant. juive, XVII, 6, 4) والذي توفي عام (٦٠) للميلاد. نَسب لهذا المؤرخ: (ج الافريقي، Julius Africanus) تصريحاً ثابتاً عن الكسوف الذي اشارت اليه الاناجيل لحظة وفاة يسوع . فأيُّ برهان يقدِّمه (كوُشوْد دْراوْس Cauchoud وDrewes) هو مشكوك فيه ، إذ في الفترة الزمنية التي عاشها المؤرخ ، كان ثابتاً وجود المسيح الذي نَفَياهُما وجودَه ، بادلة قابلة للنقاش والرفض . وقد جاءت أدِلّة المؤرخين اللاتين أمثال : (تاسيت ، Tacite) الشهير ، الذي عاش في الربع الأول من القرن الثاني للميلاد . تحدث عن الأسباب التي دفعت (نيرون) لحريق روما ، منها اضطهاده للمسيحية ، وقتله للعديد من المسيحيين المبشرين هناك ، بينهم (بولس

الرسول) وقـال المؤرخ نفسه : (ان اسم يسـوع قد ذكـر في عهد (تيـبريوس) بـأن ملك اورشليم ، (بيلاطس البنطي) قد اوقع به شرَّ العذاب) . (Annale, XV, 44) .

وأكَّد الكاتب (پلين الشاب Pline le Jeune) في مطلع القرن الثاني ، بأنه كتب إلى صديقه الامبراطور (تراجان) يستوضح منه مسلك المسيحيين العـديدين ، المنتشرين تحت سلطانه . أيمكن أن لا يكون مسيحٌ وتكون مسيحية ؟؟

هذه الاثباتات غير المسيحية ، تؤكد للتـاريخ أن يسـوع المسيح كـان موجـوداً وليس خرافة كما يزعم المكـابرون . أليس من الادلـة على وجـود (يسوع المسيـح) ، موقفـه من جماعة اليهـود المجتمعين حـول الهيكل ، يبيعـون ويشترون ويقـايضون ، وشـارات النَهَم والغشّ بـادية عـلى وجوههم ؟؟ أمـا اقترب منهم يسـوع صارخـاً ، بتأكيـدٍ من المؤرخين : (خذوا هذه الاشياء بعيداً . . لا تجعلوا بيت الله سوقاً) . .

هنا بدت الروح الثَورية الناقمةُ على اولئـك المسؤولين والمُـرابين ، تصعَّـدها شفتـان قُـدُسيتـان ، كـانتـا تنـاديـان بـ : (احبـوا اعـداءكم ، بـاركـوا لاعنيكم ، أحسنــوا إلى مُبغضيكم) . . فكيف تحول هذا النداء المخمليُّ إلى ألسِنة لهيبٍ مستعرة ؟؟ انها الدعوة إلى الاصلاح والصلاح معاً . كيف يتم اصلاح في بيئة مستذئبة ، إذا لم تصدعها قوةٌ فـاعلة ؟ قوة شاب عادي ، هزيل الجسد ، لكنه يحمل الرسالة السماوية الإنسانيـة الفائقـة القدرة . فيسـوع المنادي بصـدقٍ ورفقٍ : (طوبى للمسـاكين . . طـوبى للجيـاع . . طـوبى لأنقيـاءِ القلب . . طـوبى لصانعي السـلام) . . هو نفسـه الذي تغلغـل بين الجمـاهيـر من يهـود ورومانٍ واغرابٍ ، يدعو لعقيدةٍ جديدة مغايرةٍ لما يعتقدون ، ويجهر امام الكَهَنةِ والعشارين والـرؤساء الجـائرين ، بمـا يعني : انكم على ضـلال ، وانتم في ضيـاع ليس لكم ملكـوت السـماء وسعادة الأرض ، إن لم تـوبوا إلى الـرشاد ، وتؤمنـوا بحق الإنسان كـل انسـان ، وتعودوا إلى الطريق السليم ، مؤمنين بوحدانية الله ، وبحبكم للقريب محبتكم لأنفسكم . إن يسوع : ابن الإنسان ، هو نفسه يسوع ابن الله .

الفصل الثاني

يسوع

مولد يسوع

لا ريب في أن الانجيل هو اصـدق المراجـع التي يمكن أن يعتمدهـا المؤرخون حـول

حياة وتصرفات وأقوال يسوع المسيح .

قال لوقا (I و ٢٥) ظهر الملاك جبريل على زكريا في الهيكل مُنبئاً إيّاه بولادة طفل سيكون المبشر بالمسيح . بعد ستة اشهر ، عاد الملاك نفسه إلى « مريم العذراء » المقيمة في «الناصرة» . موضحاً لها انها ستكون والدة يسوع : إبن الله .

حين تكامل الحمل ، ولد الطفل ، وبعد ثمانية أيام خُتن ، وكان سريرهُ يتألق بأعاجيبَ سماوية . (متى : I و ١٨ و ٢٥) .

أوجس يوسف النجار . زوج مريم العذراء من حملها ووضعها ، واصرَّ على طلاقها . ففاجأه ملاك سماوي رادعاً .

تلقى يوسف انذاراً من قبل الامبراطور (اوغسطس) بمغادرة (الناصرة) إلى بيت لحم لم يجد ملجأ لعائلته الا كهفاً متواضعاً ، حيث وضعت مريم المولود هُنالك . تقاطر الرعاة حول الكهف ، ببشرى تلقوها من الملائكة ، انه الرب المعبود . عند خِتانه حَمَل اسمَ «يسوع» . لوقا (I , II , ٢١)). بعد أربعين يوماً من ولادة الطفل يسوع ، نقل إلى الهيكل ليتطهر تطهيراً شرعياً . كان هناك العجوز (سمعان) وابنتهُ : (أنّ Anne) فشهدا على أن الطفل سيغدو المخلِّصَ نفسَهُ . بعدها جاء ملاك يوسفَ يوجب عليه الانتقال إلى مصر خِفيةً من قرار (هيرودس) القاضي بقتل كل طفل في بيت لحم ، دون الثانية من عمره . متّى (II و ١٣ و ١٨) .

بعد وفاة (هيرودس) عاد يوسف وعائلته ، مستقراً في الناصرة ، وطال استقراره فيها ، حتى بلغ يسوع الثلاثين من عمره . كان هذا الطفل وهو يافع ، يذهب إلى الهيكل ، مُصغياً ومناقشاً علماء اليهود وحكماءهم ، مما اذهل هؤلاء نبوغه وأصالة آرائه .

بعد ملتقى يسوع بيوحنا المعمدان ، وانجاز تعميده شاباً ، وهبوط الروح القدس عليه بشكل حمامة تقول : « هذا هو ابني المحبوب » .

وعاد إلى رسله يظهر أمامهم أولى معجزاته وهي تحويله الماء خمراً .

وانطلق بعدها يسوع مبشراً في الجليل ، حيث كان قد أُلقي القبض على مُعمِّده (يوحنا) بتهمة الخروج عن اليهودية ، كما سنوضح ذلك في حينه . وبعد اجتيازه

(السامرة) ، (احدى المناطق الفلسطينية) ، وبالقرب من بئر (أيوب) النبي ، التقى يسوع السامرّية وتعرف عليها . متى (IV , ١٣ , ٢٢) .

وكانت خلاصة المواعظ التي لفظها هنالك يسوع هي : « لقد انتهى الوقت ، ودنت مملكة الله عودوا إلى الإيمان وآمنوا بالانجيل » .

شغل يسوع حياته القصيرة : بالصلاة والمواعظ ، وانجاز صالح العمل بأعاجيبَ مذهلة . تمَّ معظمها في الجليل ، بحضور رُسُله الذين انتقاهم مرافقين ومبشرين بمبادئه ، وعددهم اثنا عشر رجلًا . يبعثهم ازواجاً في انحاء البلاد .

ولكي يختبر يسوع صدق ايمان تلاميذه الرُسل ، سألهم رأيهم بـ« إبن الإنسان » ؟ .

قال بطرس : انه المسيح ، ابن الله الحي . بهذا التصريح عظم تقدير يسوع لبطرس وخصَّه برئاسة الكنيسة . وكانت اعاجيب يسوع المتتالية ، البرهانَ القاطع على صدق رسالته ، وقداسة تعاليمه . ويوم غادر مقره هذا واتجه إلى اورشليم ، صحَبهُ جمهرة من مؤيديه منادين به « مسيحَهم » . هناك شرع بإكمال رسالته غير هيَّاب أيةَ سلطة . يا لَلْيهودِ من هذا الشاب المتقِّدِ حماسةً وقداسة وانسانية ؟؟ أي مصير سيتنظر دعاواهم وتشرذمهم وإباحيتهم ؟؟

ومساء الخميس من الأسبوع نفسه ، اثناء العشاء السري ، أوضح يسوع سرَّ القربان المقدس ، وانطلق إلى حقل الزيتون مُلقياً آخر مَوعظة على تلاميذه . في هذه الفترة فوجئوا بيهوذا مع عدد من الجنود ومن خدم الهيكل . قبضوا على يسوع وساقوه إلى أورشليم . ويوم الجمعة كان موعداً لِآلامه . أكد هذا الواقع اجماع رُسل المسيح في اناجيلهم . لكن الحكام اليهود اتخذوا من ثَورتهِ على تقاليدهم وانحرافهم الخُلُقي ، وسيلة لإعدامه تجاه السلطة الامبراطورية التي كانت تَعتبر الأمبراطورَ إلهاً على الأرض .

من هو يسوع :

قال (متى ولوقا) : انه كان في الثلاثين من عمره حين عمَّده (يوحنا) في السنة الخامسة عشرة من حكم (تيبريوس) .

حصل اختلاف بين المؤرخين في تحديد يوم ولادة يسوع ، على أن المسيحيين الشرقيين اتخذوه في اليوم السادس من شهر كانون الثاني ، منذ القرن الثاني بعد الميلاد .

وفي عام (٣٥٤) احتفلت كنيسة (روما) بذكرى هذه الولادة في اليوم الخامس والعشرين من كانون الأول . وفي التاريخ نفسه ، ولد الإله الفارسي : (ميترا) .

ذكر (متّى ولوقا) أن مولد يسوع كان في بيت لحم ، ثم انتقلت به أسرته إلى (الناصرة) . « ومرقس » هو أول من أسماه بـ : يسوع . وتعني الكلمة : مُعين يهوه (Yeshua) وحرَّفه اليونان إلى : (ليزوس Lesous) هو ابن يوسف النجار وتدعى أمُّه (Mary ـ مريم) وهي التي ربته والتي كانت تفخر بعلمه وبتعاليمه ، والتي شاهدته مصلوباً ، وعجزت عن إنقاذه .

هنا امر خطير يوضحه (متى ولوقا) فيقولان . إن نسب (يسوع) يرجع إلى (داود) عن طريق (يوسف) ويضيف « تاريخ العالم » : « إن الاعتقاد في مولد المسيح من (العذراء) قد نشأ . في عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود » .

وكم تساءل جيران يسوع : « كيف يستطيع هذا الشاب أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ » ومن المعروف انه كان يسمع بعمق إلى اقوال الكِتاب المقدس ، وانطبعت في ذاكرته اقوال انبياء اسرائيل امثال : (دانيال واخنوخ) ومثلها اسفار الانبياء والمزامير . وقد عرف الاسِّينيين وقربهم إليه ، وأكبر زهدهم وعَدالَتهم الاجتماعية ، في توزيع الرزق على الكافه .

اعتنق يسوع اليهودية طفلاً : رافق غموض مطبق مرحلة شبابه الأول . لكن اشاعات راجت بأنه زار الهند ودرس على حكمائها ، واستوعب فلسفة كنفوشيوس وبوذا . وقد تركت هذه المرحلة اثراً تجلى في بعض تعاليمه واعماله ، والعجائب المنسوبة إليه ، وما بينها كلها من تقارب واضح . (قصة الإنسان) .

لكن يسوع انكر الإله اليهودي غير المنظور ، الذي يدعونه لهم وحدهم ، وانه اسطفاهم دون سائر خلقه ، ليكونوا كما يدَّعون :شعبه المتميز المختار . إن نكران يسوع لهذا الادعاء ، كان نقطة الانطلاق في الثورة المسيحية ، كما كان الحافز لأحقاد اليهود عليه وعلى رسله بعده ، وعلى الكنيسة في كل صقع . وجاء تقويض الهيكل مدللاً على صدق نبؤة يسوع الذي كان قد أنذر اليهود به مسبقاً .

إن كلمة المسيح تعني (Oint de Seigneur قديساً أو ملكاً أو كاهناً إلهياً) . وبعد

السبي الاسرائيلي ، اعتُبر المسيح ، غير بشري : انه منقذ الشريعة ومرسخها وليس كما شاع في المسيحية أنه «المُخلِّص» .

كانت دعوة السيِّد المسيح رفضَ كل الاغراءات الارضية ، مؤكداً أن ملكوت الله قريب ، وأن الاتحاد بالله شامل كل البشر ، عكس اليهودية العنصرية . مِن مأثور كلامه : الموت بِدايةُ الحياة الأبدية .

شخصيته :

حين نعتمد التحدث عن الديانة المسيحية ، علينا اولاً أن نتعرف على صاحبها وباعثها يسوع المسيح ، وأن المصدر الأول وعمدة هذا البحث هو (الانجيل) أو البشارة التي ألمح إليها الملاك بلسان (لوقا ٢ : ١٠): فقال لهم الملاك : « لا تخافوا فها أنذا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب » .

إن الانجيل هو قوام الديانة المسيحية ومحور دائرتها . انه عبارة عن اربعة كُتيِّبات اثنان منها وضع (متى ويوحنا) واثنان من التلاميذ (لوقا ومرقس) . تناولت هذه الكتِّيبات سيرة السيد المسيح ، بما حملت من معجزات وتعاليم وآلام عاناها . هناك نجم يبزغ ، وملائكة تهبط الأرض ، مبشرة حيناً ومنذرة احياناً ، واخيراً مرشدة إلى طريق الحق في تخطي يسوع . كما أن هناك ايضاً معجزات ، في شفاء المرضى ، والموتى الذين يُبعثون .

هذه الظواهر الملموسة حدت باليهود لأن يرقبوا في يسوع مخلصهم الموعود به ، لإحياء مجد : (داود وسليمان الحكيم). وما أبصروهُ وسمعوهُ من فمهِ الطَلِقِ كان مُجتَذِبَ الكثير منهم ، إلى التعلق به واتباع خطاه اين يجول .

إن يسوع الذي نادى بالمحبَّة والتسامح ، إلى أبعد حدودهما ، هو نفسه ذلك الحكيم الثوري المَريد ، لا يأبه للمخاطر ، ولا يتلجلج لسانه في النطق إلّا بالحق والصدق والمحبة . أما ألمح إليه (يوحنا) يوم قال : (١٨ : ٣٠) بلسان يسوع : « إن مملكتي ليست هذا العالم » . ومع هذا فقد اصر المتطرفون اليهود على أن يتوجُّوهُ ملكاً ، فتنكر آبياً هذه الزعامة . قال يوحنا (٦ : ١٥) « وحين علم يسوع انهم مزمعون على أن يأتوا ويختطفوه ، ويقيموه ملكاً ، انصرف إلى الجبل وحده » .

يسوع ذلك المصلح الاجتماعي :

تناولت حياة يسوع وشخصيته الكبيرة الغامضة اقلام كثيرة من اقطار الأرض، منذ اجيال وما زالت . رآه بعضهم ذلك الشاب الثوري الفطين ، ترعرع في بيئة متحجرة هرمة ، تركت لُبابَ فلسفتها السماوية واعتصمت بالقشور ، وبزَيف الحياة وملذاتها ، وتقويض دعائم الاخلاق ، وعُليا المثل التي رسمها وعمل بموجبها على مرأى منهم انبياؤهم امثال : ايليا واشعيا واملیخا . .

إذا جردنا ـ افتراضاً ـ ذلك الشاب الثوري يسوع ، من قدسية عنصره ، أما عاش الفقر والحرمان والعراء ؟ أما ابصر المُترفَين يتنعمون بأطايب العيش ؟ وينغمسون في لُجّ الموبقات ؟ أما رأى القيمين على جوهر الدين اليهودي ، مُحابين مرائين ، وعشّارين ناهبين ؟ كيف تطيب له تلك الحياة ؟ وكيف لا ينفجرُ بثورة فكريةٍ تقوّض جدار الباطل ، وتمسح عن جبين البشرية ما تراكم فوقه ، من غبار الفحش والربا والانفلات ، هادفةً إلى ترسيخ صَرح الانسانية الفضلى ، وإنارةِ شموع القِيَم في أعماق النفوس ؟ .

كيف بنا نتصور موقف المتغطرسين والمرابين ازاء هذا النداء الداوي ، وهم يتحسّسون تعاطف الجماهير معه ، وانصياعهم لتعاليمه ؟؟

ولما أعوزتهم القدرة القامعة ، ليحدُّوا من نشاط يسوع ، لجأوا إلى السلطة الرومانية ، حين تأكد لهم أنه ليس مسيحهم المخلص . وحين شرع يسوع يندد بالعيوب والنقائص المتفشية في ذلك المجتمع . لم يقصد نقائص فئة أو طبقة خاصة ، بل انها عيوب النفس الإنسانية ، التي حطتها مباهج الدنيا الغَرور لتطمس المُثل العليا لهذا الإنسان . كانت دعوته عامةً ، لنبذ الأحقاد ، وتآلف القلوب ، والصفح عن السيئات ، وصولاً إلى العدالة الاجتماعية والمساواة .

ليست العدالة التي يهدف إلى تدعيم اسسها يسوع ، في ذلك البناء المتصدع ، أن يُقضى على الظلم ، ويعال اليتيم وحسب ، انما هي التقرب إلى الله ،بالتمثل به ، ومحبته ، لأنه ينبوع المحبة ، ومصدر العدالة. هو حب وخير وجمال. فلنمض بتصرفاتنا اليومية إلى التقرب منه خطوةً خطوة ، ليصلح المجتمع ويسعد الإنسان ، كان هذا صدى الدعوة

الذي رددته الاجيال الغابرة لاعتناق الانجيل ، والتمثل بالمسيح الحق ، صاحب البعث والنشور .

لم تتجاوز دعوة المسيح نفسه السنوات الثلاث ، وقد تنبأ مراراً عن المأساة التي تنتظره . فلن يتهرب منها ولن يتوقاها ، وهو صاحب تلك المعجزات . أما ردد (متى) بلسانه : (سوف ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين الله) . وتلاه يوحنا مستشهداً : (الحق الحق اقول لكم قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن) . الم يدلّل على صدقه ، بقيامته من القبر في اليوم الثالث لصلبه ؟

وحين رأى يسوع تلاميذه يتنافسون ، أما ركع امامهم وأخذ يغسل اورجلهم قائلاً بجدّية : « تذكّروا أن الخادم ليس اعظم من سيده » . وفي نهاية المأدبة ألَمْ يَقُلْ : « احبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم . . . بهذا ، سيقول الجميع انكم تلاميذي » .

الغنوصيّة :

رأينا قبلُ أنَّ أعظم المدنيات في التاريخ القديم كانت تؤمن بكائن أعلى يحمل اسماء مختلفة من مدينة لاخرى . كان (جوبيتير ، واوزيريس وميتراً) ثم كان المسيح . وكانت الديانات الباطنية تركز معتقداتها على ذلك الكائن الأعلى ، باعتباره خالق الكون ، وسيد اليوم الاخير ، وأول من أبدع الله ، ولا شيء قبله ، وفيه تصور كل مخلوق .

وكانت الفاصل بين اليهودية والمسيحية ، جماعة ورعة ، متقشفة ، هم أصحاب مذهب المعرفة الحدسية ، دُعيت بـ : (الغنوصيَّة) كانت وسطاً بين الديانة والفلسفة : شرقاً وغرباً. تعني هذه الكلمة: المعرفة الخفية بالأشياء العلوية. وذكر البحاثة (ريتزنستن Reitzenstein) أنَّ الكتابات الهرمسية كانت في صورتها الأولى ، تنتمي إلى هذه الحركة السابقة على المسيحية ، أي الغنوصية .

الفصل الثالث

مبدأ الغنوصيين

تحرير النفس من ادران الجسد ،وتحقيق خلاص الإنسان ، بالاتحاد مع طبيعة الله.

وتقشفٌ صارم . وكان يسوع المسيح في نظرهم احد « الأيونات » . ينزل إلى الأرض ليخلص (الايون) الشارد ، الذي تشخصت فيه صفة الله ، وهي : الحكمة .

كان هذا هو التيار العقائدي الروحي المتغلغل في باطن العَالم اليهودي بما فيهم الأسينيين، قبل أن تسمع الأعصر مكاغاة الطفل يسوع القدسية ، في المدود بـ (بيت لحم) ، آنَ كانت فلسطين ولاية رومانية وشعبها يهوذا ، وكان (أوغسطس قيصر) الأمبراطور . ومقرُّه (روما) أما بيلاطس البنطي فكان حاكم الولاية .

بشرت المسيحية الأولى بالاله الواحد بدلاً من التعددية ، وبالبعث بدلاً من خلود الروح بلا جسد ، كما نادت بالتقشف ، وضبط النفس (ويقصد به الطهارة الجنسية خاصة) .

ما عرفت المسيحية الاسترضاء ، ولا منعت الاسترقاق لكنها قالت بلسان سيدها : « ليس كثيرون اقوياء ولا كثيرون شرفاء ، بل اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء ، وضعفاء العالم ليخزي الاقوياء » . و « الناس كلهم اخوان واخوات في المسيح » . (تاريخ العالم) .

قال الطبيب (جالينوس) : « . . اولئك المسيحيون ، يسلكون احياناً سلوك الفلاسفة الحقيقيين . . . يحتقرون الموت . . . ويتجنبون ملذات الجسد . . رجالاً ونساء » .

ولدى شيوع المسيحيه ، ولو جزئياً في المستعمرات الرومانية ، كان لا بد لهذه المستعمرات مِن أن تعقد مع المسيحية اتفاقاً خاصا وحذراً . كانت العقيدة في مطلعها لا تعتمد المنطق والفلسفة ، بل اتخذت من حياة يسوع ومن تعاليمه الإنسانية المتواضعة ومن معجزاته ، منطلقاً للتبشير في الشرق الأدنى ، اولاً .

امتداد المسيحية الأولى

لم يكن تاريخ العصور الوسطى ليجد اعظم اثراً في النفس من الدين ، ويكاد يكون اعظم القوى في تلك العصور . ويعسر على اولئك المنعمين المطمئنين أن يتصوروا حالة ذلك الشعب، في تلك الأونة التي تمتدُّ حوالي القرنين، في أوروبا في شكل خاص، حالة عور

وقلق وحرمان ، لازمت معظم الناس خلا المُترَفين . فكان الجواب على هذه الحال قلق الفكر الديني ، وتقدمه على الدوام . وقد بدا انه لا بد من السيطرة على الدوافع البشرية الوحشية ، بقانون اخلاقي ، تؤيده قوة تعلو القوى البشرية ، واكثر ما يحتاج إليه ابن ذلك العصر ، عقيدة توازن المحن بالآمال ، فتخفف من وقع الحرمان ، بالسلوى والعزاء وتزيل اليأس والقنوط بتصورات عقائدية روحية ، وتزيل مخاوف الموت بأمل الخلود ، ولولا ذلك الأمل لكانت الحياة على المحرومين عبأً ثقيلاً مُكفهراً . في تلك البيئة قامت الديانة المسيحية بدور المنقذ . فخلّفت الخطيئة الآدمية ونقلتها إلى المغرب ورسمت الأم العذراء والاله المعذب ، والنفس التي يتأرجح مصيرها بين نعيم وجحيم أبديّين. وكانت اشرف صورة قدمتها على امتداد هذا الزمن بالغرب ، العقيدة التي تجزم بأن الحق مُنتصر ، وسيعلو في نهاية المطاف، مهما تراكمت الرزايا وعمّ الشقاء . وإن الإيمان بخلود النفس نادت به كلّ من الديانات السماوية الكبرى شرقاً وغرباً يصحبها إيمان بحساب عادل على السيئات والحسنات ، وخلود النفس البشرية إلى المدى . إن الكتب التي اعتبرتها المسيحية الأولى اناجيلها ، هي العهدان :القديم والجديد ، ثم ما كتبه ودوّنه بلسان المسيح وروحيته ، حواريُّوه الأربعة : (يوحنا ومتى ولوقا ومرقس) وأن الحدث التاريخي الهام في انبثاق المسيحية هو التفهم الكامل أنَّ الله قد تجسد في يسوع الناصري بفلسطين ، في عهد سيد روما (تيباريوس) ومن ركائز هذا المعتقد أن الكلمة استحالت لحماً . يقول المؤرخ الفرنسي (م . سيمون Marcel Simon) : « يجد القارىء تفاوتاً في المعاني العقائدية بينما ورد في كتاب الأعمال للرسل المتقدمين ، وبين رسائل القديس بولس اني اعتمدَتْ أخيراً (ص : ١٠) . ويضيف المرجع أن المؤرخ الفرنسيّ (رينان Renan) كان مُغرضاً في اتهاماته ليسوع ، الذي حمل رسالة انسانية توَّجها بالفِداء والمحبة ، وليس صلبه وتعذيبه وموته من نسج الخيال كما يدعي بعضهم، بل هو واقع اعترف به الرّسل بصراحة. وقال المؤرخ الفرنسي (م. كُوشُود M' Cauchoud): «وأن صورة يسوع الربّ كانت قد سبقت صورة يسوع الإنسان ، واعظم الادلة التي تؤكد الوجود الحتميَّ له هي بعض مخطوطاتٍ وجدت على ضفّة البحر الميت والتي يعود تاريخها لمئة عام سبقت يسوع وفيها تنبوء صريح بمجيء سيد العدالة في اورشليم . يتعذب ويموت ثم يبعث لينقذ جماعته الصالحين». وقال لوقا (٢٤ ، ١٩) : « كان يسوع الناصري نبياً في القول والعمل ، امام الله والشعب . حَكم عليه كَهنتُنا وزعماؤُنا بالموت وصلبوه . اما نحن فأننا واثقون من انه

سيعود لينقذ اسرائيل . ويعود المؤرخ (كُوشُود) ليوضح : من خلال خُطب « بطرس » في كتاب الأعمال أن يسوع في نظرهم خادم مقدس للرب ، ممسوحاً بالالوهة (الاعمال ٤ و٢٧) وان الرب ، قد وجد فيه ذلك المخلص ، نظراً لما عاناه في سبيل الإنسان ، ثم رفعه الرب بيُمناه متخذاً منه سيداً ومسيحاً (٢ ـ ٣٦) الاعمال . وأول ما ظهرت الصورة السماوية لابن الانسان ، في كتاب (دانيال) (٧ و١٣) كذلك في كتاب (اخنوخ) .

وأوضح (بولس) الرسول عن منشأ يسوع بما يلي : « لم يكن يسوع ابن داوود الحقيقي البشري ، كما تصوره القديسون السابقون ، انما هو كائن منذ الأزل . وقبل أن ينزل على الأرض ، ويكمل رسالته مخلصاً ، كان قد شارك الأب في عمله الخلّاق » . وكان (بولس) يصرّح : « بيسوع خلقت محتويات السماوات والأرض . هو الخليقة الأولى ، وهو الصورة الكاملة للرب غير المنظورة ، وقد وضع الرب كل شيء تحت قدميه » . هذا تصريح القديس بولس ، لكن « يسوع » ذلك الخالق أو المخلوق الأكمل ، يأنف القول ، على مجازه ، بأن كل شيء تحت قدميه ، وأن الاعتراف بأنه خالق كل شيء ، ومشارك الله في آلوهته ، هو اسمى وانبل من وضع المخلوقات التي منها الإنسان ، المخلوقات على صورة ربه ، تحت الاقدام . خلا عن روح المغالاة هذه التي لم نجدها في اقوال الرسل الأوائل . وقال المؤرخ : (هـ . روسُّو Hervé Rousseau) لم يظهر المسيح ذلك الفيلسوف الذي يبحث في أصول الأشياء ومبادئها، انما كان مُبشراً بحياةٍ جديدة ، وعالم جديد ، قوامه الحب . (ص ٨) . وقال الناقد المصري عباس محمود العقاد : « لقد وضع الفيلسوف اليهودي (فيلون) صورة لائقة وتوطئة لدخول المسيحية في شخصية المسيح الهادي والفادي معاً » واردف الناقد نفسه : « لقد استطاع يسوع أن يرفع الضمير الإنساني برسالته الروحية الخالدة ، وتعاليمه الشفوية الإنسانية . نقل العبادة من المظاهر والمراسيم إلى الحقائق الابدية بقوله : تنقية الضمير رأس الإيمان بالله » .

المدارس المسيحية الأولى

منذ نشأت المسيحية برزت في غضونها مدارس عقائدية مختلفة ، غير معتمدة اية فلسفة روحية عميقة الجذور ، باستثناء « الاسِّينية » . هذه المدارس هي :

أ ـ الصدوقية : الصدوقيون إلتزموا المدرسة المتشيّعة للطبقة الدينية الارستقراطية بين

اليهود . محور حياتهم الدينية يدور حول الهيكل الذي هُمْ خدام فيه .

أُلصقت بهذه المدرسة تهمة موالاة السلطة الرومانية الحاكمة ، مع فتور عقائدي مسيحي . كانت بطبيعتها محترزة وحذرة من اتهامها بالمسيحية على إشكالها ، معتقدة بانها ستؤدي إلى تصعيد روح ثوري يهدف إلى زعزعة الحكم الحاضر . كان لها شأن في صلب المسيح ، وما اعتمدت إلا الكتاب المقدس والتوارة ، رافضة كل معتقد جديد . لم تؤمن هذه المدرسة بالخلود الشخصي ، ولا بالملائكة ولا بالشياطين ، وهي بهذاالرفض ابدت كل منافسة وعداء للمدرسة الفريسية . كما انها انكرت قيام الموتى والآخرة ، وهاجمت المسيح وتعاليمه بضراء عنيف ، مؤمنة بأن ما يأتيه الإنسان يجري الحساب عليه هنا على الأرض .

ب ـ الفرّيسية : مدرسة بدت اكثر حيوية وذاتية من الصدوقية وهي يهودية مثلها ، تعتمد المعرفة العميقة والخبرة الدقيقة للشريعة ، وللتعاليم المنقولة . لكنها تعلقت بالحرف دون الروح . لم يرضَ عنها يسوع ، فقاومته واظهرت الكثير من الرياء والكبرياء .

ج ـالاسينّيَّة : مدرسة قوامها اليهودية ، وقد تنكرت لكنيسها ، واعتزلت بيئتها إلى شواطىء البحر الميت ، ثم أنِست بعمق في تعاليم (يوحنا المعمدان) وكانت مقربة من يسوع ومطمئنة لتعاليمه . سبق أن افردنا بحثاً خاصاً بهذه الشيعة . ومن الباطنية جماعة ، ترى في يسوع (العقلَ الأعظم) وفي (المعمدانيِّ) النفسَ الكلّية بالتقمُّص .

صلب المسيح

كان الصلب هو الوسيلة للقضاء على المسيح جسداً . نُفذ الأمر حين وقف الفادي بصلابة الثائر ، صاحب الحق المغصوب ، خاضعاً للمشيئة ، متحولاً ذلك الإنسانَ المتناهي سماحاً ووداعة ، واكتفى عن ثورته بطلب المغفرة ، وبالمناداة بالمحبة والرضى بتدبير الرب ، ليعطي المثل الأسمى على صدق رسالته ونبلها . مضيفاً قوله : « الهي أغفرْ لهؤلاء لانهم يجهلون ما يفعلون » وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر هذا اليوم كانت انفاس المسيح تحشرج في حنجرته ، لينبعث بعدها عاصف من التبشير والفداء ، شمل الأرض شرقاً وغرباً خلال بضعة قرون .

مات المسيح وحُمل إلى قبره ، ووضعت على الباب صخرة فخمة امامها جماعة من الحرس . متى (٧١١ xx و ٦٢ ٦٦) لوقا : (١١١ xx و ٥٥).

وصباح الفصح ، ارتعدت الأرض ، وهبط ملاك على القبر فـأزاح الصخرة ، وهلع الحرس مُدْبِرين . حين اقبلت بعض النسوة القديسات يتلّمسنَ جثمان يسـوع ، أُوحي إليهن بأن ملاكين نقلاه إلى العلى .لكنهنَّ كرَّرنَ الزيارة ، إذا بالميت ينتصبُ امامهنّ حيـاً سويـاً . كما اعاد المسيح تجليه على (تومـا) وعلى الـرسل بـأجمعهم بما فيهم (بـطرس) الذي أكّـد تمييزه وانذره بالموت مستشهداً .

وأكد الرسل الثلاثـة : يوحنـا ولوقـا ومتى هذا الكـلام بلسان يسـوع : « انذا قبـل ابراهيم وقبل موسى وسليمان ، وقبل كل نبيّ دعا برسالة على الأرض » .

وليلة تألُّم المسيح جـاءه كاهن سـائلاً : اصحيـح انك المسيـح ؟؟ اجاب : « انـا هو وسوف ترون ابن الإنسان) جالساً عن يمين الله ..

الموت والتجلي

قبل تلك المأساة كان قد حدث الاستقبال الحماسي الذي جرى ليسوع في اورشليم . فأوجس بقلق بالغ زعماء اليهود ، وخشوا من أن تتطّور هذه الحـماسة إلى ثـورة على السلطة الرومانية ، تكون عاقبتها القضاء على ما تتمتع به اليهودية من حكم ذاتي ، وحرية دينية . من اجل هذا قرر الحاخام وجماعة اليهود أن يسرعوا في القضاء عـلى صاحب هـذه البِدعـة الخطِرة .

وفي الثـالث من نيسان من العـام الثلاثـين للميلاد ، أكـل يسوع ورسله عشـاء عيد الفصح ، في دار احد اصدقائـه (بأورشليم) . ارتقب الصحـب معجـزة في نجاتـه ، لكنه ابى ذلـك ، راضياً بمـا قُدِّر لـه ، كفارةً عن ذنـوب شعبه . وآخـر ما عُـرف عنه ، إهـابته بتلاميذه قائلاً :

« يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد : أوصيكم بأن تحبوا بعضكم بعضاً » .

وبما أن الصَلبَ كان من وسـائل العقـاب موتـاً عند الـرومان واليهـود ، فقد وضـع الجنـد ، سخريـة من يسوع ، اكليـلاً من الشوك عـلى رأسه ، وسيق إلى تـلِّ الجُلجلـة ، حيث نُفِّذ فيه حكم الإعـدام . وقد وصفَ هـذه الميتة (شيشـرون)، بأنها: « أقسى أنـواع التعـذيب وأبشعها». ويعـزى أن (مرقس ومتى) قـالا لدى احتضـار يسوع إنـه تلفَّظ بـ :

« إلهي ألهي لماذا تركتني » ذلك هو نداء اليأس البشري .

بعد يومين زارت (مريم المجدلية) قبر يسوع ، فوجدته فارغاً ، فذهلت ذهولاً يمتزج فيه الخوف والسرور معاً . أما منقذ هذه المؤامرة ، رغم تبرئة المحكمة فهو (بيلاطس البنطي) . نفذها محاباةً لأسياده وحرصاً على منصبه . وقد ورد في سفر اعمال الرسل ، أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء ، بعد اربعين يوماً من ظهوره إلى مريم المجدلية . وإن انتقال الجسم إلى السماء هو رواية يهودية آمنوا بها زاعمين أن (موس واخنوخ واليعازا واشعيا) كلهم انتقلوا بجسمهم إلى السماء ، لكن يسوع المصلوب فقد أنكروا صعوده .

أثبتَ الواقع أن المسيح الذي كان يبشّر بالمحبة والاخوة ، ظهر من تصرفاته اليوّمية أن ما كان ينادي به قَولاً ، كان يحققه عملاً ، بعفوية ، وصدق عاطفة ، ونكران كليّ للذات . حينذاك حامت حوله الشبهات وجحظت أعين الرقباء .

إستشاط أقطاب اليهود لِظهور شاب في ظهرانيهم ، يحقق المثل الأعلى للإنسان ، ويدعو إلى ما ليس يدعون له ، ويؤمن بغير الإله الذي يعبدون ، ويحثّ على نبذ متاع الدنيا ، وزخارف الحياة . في حين كانوا هم مستذئبين ، نهماً وراء المادة ، غارقين في خضمّ الشهوات ، ضالين عن الصراط الذي رسمه لهم انبياؤهم الصادقون . بأَيَّةِ ذريعة يستمسك هؤلاء لِيقضُوا على ناشر بذور الفضيلة والغيريّة والحق ؟؟ وما كانوا ذوي السلطان الأقوى في البلاد . كانوا مستعمرة رومانية . وكانت روما لا تعير كبير اهتمام لِدين هذا ودين ذاك، طالما الجميع مطيعون للامبراطورية ، ويعملون في ظل جناحها المديد ، بخضوع وسلام .

لكن الدهاء لم يفت اليهود حين سعوا ينفثون سموم احقادهم ، ويصورون هول المستقبل ، أمام المسؤولين الرومان ، إذا هم اغضوا عن نشاط هذا الشاب المهرطق « يسوع » . كادوا له وأفلحوا ، إذ انصاعت السلطة لهم كلياً .

يقول الخرساني (ص.٢٥) « كانت دعوة المسيح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر وثلاثة أيام، وكان نزوله كأشراق النور على الجسم الشفيف. بعد صلبه نزل رآه (شمعون الصفا) وصيٌّ يسوع . إن عاقبة الصالحين : سرور ومعرفة ، والاشرار : غم وجهل » . واردف المؤرخ نفسه : « قال مار (إسحاق) بلسان يسوع المسيح : « النعيم ابدي ، أما الجحيم فيمكن تخفيفه » .

الفصل الرابع

رسالة يسوع

كان يقول لوقا أن يسوع قد شرع يخطب في الناس ، بعد سجن (يوحنا) ، مبشراً بملكوت الله ، ومعلماً في مجامع (الجليل) ، وقد اختار من سفر (اشعيا) هذا القول : « روح الرب عليَّ ، لانه مسحني لأبشِّر المساكين ، ولأعصِب منكسري القلب ، ولأنُادي للمَسبِيِّين : بالعتق ، وللمأسورين : بالإطلاق . وللعُمي : بالبصر » .

بلغ شعور يسوع بالقوة حداً جعله يندّد أشد التنديد بمن لا يشاركونه في آرائه . كان يعفو عن كل الاخطاء إلا عن عدم الإيمان ، وكان يلعن شجرة التين ، التي لا تحمل ثمراً ، ويلعن الناس الذين لا يؤمنون برسالته . هذا اللعن انما هو حَثٌّ على التمسك بتعاليم الدين الجديد ومقوماته ، ودفعٌ لحيويةِ الإنسان كي يعمل وينتج ، ولا حقَّ بالحياة لغير الكادحين . وكان إلى هذا ، أحبَّ الناس جميعاً لقلوب سامعيه ومعايشيه . كان لباس يسوع كَلِباس اهل زمانه : عباءةٌ فوق جلباب ، وخُفَّين فوق قدميه ، وغطاء على رأسه يقيه الهجير اللافح . وقيل أن عاهراً كانت قد سمعت عن عطفه وحنانه الفائقَين ، فدنت منه وخرّت راكعة بين يديه ثم دهنت قدميه بالطيب ، وغسلتهما بدموعها ، وجففَّتهُما بشَعر رأسها . قال عنها يسوع : « إن خطاياها قد غُفرت لانها أحبَّت كثيراً » .

هذا هو سلطان المحبة ، وهذا حسامه الذي امتشقه يسوع ، ليحطم به كل حسام ملطَّخٍ بدم الأبرياء ، ومُسْلَطٍ في وجه الضعفاء والمعوزين .

ولم يكن يسوع ذلك الزاهدَ المتبتِّل ، بل كان إجتماعياً داعياً بحرارة وجرأة إلى اعتناق طريق الحق ، وإلى العمل على تكفير الخطايا بالتوبة وصفاء السريرة .

وبعد صلبه ، حدث أمران هامّان : تجسّده ثم هبوط الروح القدس على الجماعة الأولى ، المخلصين للمعلم ، حتى تتوطد الثقة بنفوسهم فيه .

كانت له معجزات تأكيداً لسامعيه على ألوهته . قيل انه مشى على صفحة الماء وانه احال الماء خمراً وانه شفى المعاقين ، وكثير غيرها .

رأي الإسلام في المسيح :

استناداً إلى الآية الكريمة : ﴿ إن مثلَ عيسى (يسوع) عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ . انه عبد لله ورسوله ، القى كلمته إلى مريم بروح منه ، ومريم بتول . ارسل إليها الله « جبريل » مبشراً اياها بغلام سيغدو المسيح المنتظر . وتشير الآية إلى صلبه قائلة : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾ .

صلبه :

الإيمان بصلب المسيح هو احد الأصول الرئيسية للدين المسيحي ، اكدته الاناجيل . وسَببهُ فداء البشرية وخلاصها من ذنوبها المتوارثة عن آدم وتحقيقاً لعدل الله ورحمته معاً . شاءت عِنايته أن تحمل كلمته في رحم امرأة هي : مريم. ثم أن يتجسد الكلمة جنينا في رحمها ويولد منها . بهذا اعتُبر الطفل انساناً لأنه ابن مريم ، وإلهاً لانه كلمة الله إليها ، معصوماً ، تامة فيه كل صفات الإنسان عدا الجنس . وصلب وتجلى ليدير ويدبِّر ويسهر على رعاية عباده . (سليمان مظهر) .

تعاليم يسوع :

إن المجتمع الجديد الذي دأب يسوع على تصويره لمستمعيه ، ومعظمهم من الطبقات المتواضعة والفقيرة ، يتميز بالعلاقة بين : الله والإنسان ، ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

أما علاقة الله بالإنسان فقائمة على المحبَّة ، قبل كل شيء : لقد احب الله الإنسان فجبله على صورته ثم ارسل (ابنه وكلمته) ليعيد الإنسان إلى صورته الأولى التي شوهتها الآثام . . . ليس المقصود هنا أن الله جسم مادي ، انما الإنسان حين يتكامل صفاء نفسه يغدو من عنصر إلهي . هذا ما يعنيه يسوع ، ذلك الثائر الذي تعالى عن المادةِ قولاً وعملاً وفداءً .

أما علاقة الإنسان بالإنسان ، فلا تقوم فقط على : « أن يفعل الإنسان لغيره ما يريدهُ لنفسه » بل هي تطالب الإنسان بأن يتمثل بالله في تنظيم صلته بالناس ، معتبراً الإنسانية جمعاء اسرة واحدة ، لها مدبِّر أبٌ واحد ، تستمدُّ فَيضه القدسي ، كما تستمد

الأرض من اشعة الشمس : الحرارة ، والدفء والضياء . (الحضارة الإنسانية) .

كم حرَّض يسوع على الرفق والتسامح والصفح عن السيئات ، أليس هو القائل : « لا تدينوا لكي لا تُدانوا . . بالكيل الذي تكيلون يكال لكم » . (متى ٧ : ٢٩) .

إن المكافأة التي وعد بها يسوع اتباعه ، ليمدهم بـزَيت النضال الدامى ، والتضحيات مهما غلت ، كانت هذه المكافأةُ خلود النفس ، والطيبات لطيبي النفوس ، ورؤية الله والملكوت ، التي لا تبلغها متعة ، يُلازمها نعيم سرمدي . ذكرت الاناجيل الاربعة اسم القيامة ورؤية الله فيها ، وكانت اساساً لدعوتهم ولإعلان « البشرى السارة » في البيئة اليهودية بأُورشليم .

ولم يطل الزمن باليهودية حتى وجدت في هذا المعلم ، خطراً عظيماً على رسالتها . كيف ؟؟ لقد عاش مؤسس المسيحية ، كل تعاليمه بصرامتها ، عاشها بخلجات نفسه . هذا الصدق في القول والعمل ، دعا الفيلسوف : (ج .ج . رُوسّو J. J. Rausseau) لأن يُعْلِنَ : « لو لم يظهر المسيح حقاً ، كما يدَّعي ناقدوه ، لكان تلاميذه كلهم عظماء مثله » . (الإنسان روح لا جسد) .

ظهرت لأول مرة ، الصورة السماوية الغامضة (لابن الإنسان) في كتاب (دانيال الحكيم) ثم عقبها ايضاح أعمق في كتاب (أخنوخ) وقد اتضح منه أن (ابن الإنسان) هذا ، سيكون في المستقبل اداة للعدالة الالهية ، ومؤسساً لنظام جديد .

اختار يسوع اثنى عشر رجلاً من عامة الشعب اليهودي ليصاحبوه في اعماله التبشيرية . آمنوا بتعاليمه ، وشهدوا معجزاته ، لكن أحدهم المسمى (يهوذا الاسخريوطي) قد تآمر مع اعدائه للقبض عليه ، مقابل ثلاثين قطعة من الفضة . وبعد صلب يسوع وصعوده ، انتشر هؤلاء الحواريون مبشرين في اقطار الأرض ، ويسود الظن بأنهم استشهدوا جميعاً .

في عصر المسيح ، كانت المبادىء اليهودية الأولى قد أهملت ، وشاع الانفلات ، والعقيدة المنادية بالمطلق ، عقيدة مدرسة الاسكندرية (الأفلوطينية) ، معتبرين الله والكون واحداً . وتعددت شيع غيرها . اما عبادة اله واحد ، فقد تضاءلت ، حتى جاء يسوع وأعلن بإصرار وتكرار : « أعبدوا الله خالقكم ولا ترضوا عنه بديلاً ». متىّ

(١٠) وقال : « ليس لكم إلا إله واحد في السماء .

وفي الموعظة التي القاها يسوع وهو على (الجبل) ركز على افكار هامة نوجز بعضها :

« سعداء ، هم ، أولئك الفقراء بأفكارهم ، فأن لهم ملكوت السماوات ـ وسعداء هم الحزنى ، سيلاقون عزاءهم . وسعداءُ هم الناعمون ، فإنهم سيرثون الأرض ، وسعداء هم المتشوقون إلى العدالة فإنهم سينصفون ، والرحماء سيرحمون وطاهرو القلوب سيرون الله ، ودعاة السلام سيصبحون أبناء الله والمضطهدون ستطالهم العدالة . إلى كل هؤلاء ملكوت السماوات » . لوقا : (٢٠ , ٢٦) . هل أصغى إلى هذا النداء قادة الدول الكبرى حاملو حضارة العصر ؟ .

يسوع في معجزاته :

كان يتوهم اليهود انه في موت المسيح يقضي نهائياً على عقيدته . وما كان ابعد ما تخيلوه . كان تلاميذه بعد غيابه ، يجتمعون سراً ويتابعون التبشير ، وينطلقون خارج البلاد ، هادين إلى ديانة المحبة والسماح . وكان اعتماد المسيح حيا ، على الفقراء والمضطهدين ، اكثر منه على سواهم ، مما حدا بهؤلاء بعد صلبه إلى تعزيز معتقدهم به مُخلِّصاً . رأى هؤلاء بأم العين ما كان يأتيه المسيح من معجزات خارقة ، استفاد بعضهم منها ، وآمن المخلصون بصدق الرسالة التي يحملها . من هذه المعجزات نكتفي بـ :

١ ـ أطعم خمسة آلاف جائع بخمسة أرغفة وسمكتين .
٢ ـ أبرأ العديد من العمي والمقعدين والبرص .
٣ ـ اعاد العقل إلى المجانين ، والسمع إلى الصُم ، والصحة إلى المُسقمين .

كانت حسنة هذه الأعاجيب ،إلتفاف الجماهير الشعبية حول تعاليمه ، خاصة بعد صلبه .

الفصل الخامس
الانجيل

ما كان الانجيل كتاب حِكم وحججٍ عقلية وحسب ، انما تخلله اقاصيص رمزّية ،

اعتاد الشرق أن يسمعها ويعيها ، في الهندية والفارسية واليهودية . وإن الغموض الذي يكتنف بعض العبادات ساق المؤوِّلين إلى التخبُّط في تفسيرات صحيحة أو نابية عما يراد منها ، فكانت البدع وكان المروق : قال « بولس » : « إن كلمة إنجيل تعني : البُشرى السعيدة » .

كانت بداية تعاليم يسوع : إنجيل (يوحنا) الذي يتشابه جداً بأقوال (دانيال وأخنوخ) . من اقواله « ان ابن الإنسان سيأتي على سُحب السماء ليحاسب جميع البشر : الاحياء منهم والاموات » . وقوله : « . . إن من تاب وأتاب وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برُسُله ، فانه سيرث ملكوت السموات . . وسيتحرر من الشرور والالآم والموت » .

كانت هذه الافكار مألوفة لدى الجماهير التي تسمعُها ، لان فيها بذوراً من الرسالات الروحية السابقة للمسيحية . لكن اليهودية كانت تجهل تحديد السماء التي المحَ إليها يسوع . فهم يعرفون من انبيائهم أن الحساب والجنة ورؤية الإله (يهوه) هي كلها تتم على الأرض وحدها ، فماذا في السماء ؟ وما يعني بها يسوع ؟؟

المسيحيون الأولون نفسهم كانوا ينتظرون أن توجد مملكة ارضية . لكن يسوع ، لدى انصرافه بالتفكير القديم والعادات السابقة ، رأى أن يرتفع بالجسم البشري من التراب وعلائقه ، إلى عالم الغيب ، حيث لايُعرف فيه مدى الأحاسيس واطايب الحياة لمن يستحقونها ، ومدى الآلام الجسدية والروحية السرمدية ، لمن لا يعتنق المسيحية . أما قال : « إن ملكوت الله داخلكم » . فتلك اشارة حاثَّة تومىءُ إلى أن ملكوت الرب ، أين كان لا يُؤتىَ إلا للصالحين والمصلين التائبين .

ولا يغرب عن المطالع المجرد ، ما تحمل بعض آيات يسوع من الروح الإنسانية الشيوعية . كان هو أول المنادين بها بوضوح ، ومحدوديَّةٍ واتِّزان . أليس هو القائل : « بِعْ املاكك ، وأَعطِ الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماءِ ، وآتبعني » .

ويبدو أَن الرسل كانوا يتوقعون أو يعملون على إشعال ثورة اجتماعية ، تُزعزع النظام الإقطاعي المُتَّبعَ ، وتلجم أفواه المستأثرين ، خدمةً للفقراء والمحرومين والمستضعفين . أما أَلمحَ يسوع إلى ذلك بقوله : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء

مشتركاً » . وكم ابدى احتقاره للرجل الذي يجعل همه في الحياة ، جمع المال والانغماس في الشهوات . أليست الاناجيل جميعها مشيرة في كثير من صفحاتها بلسان يسوع ، وبلسانها بالذات ، إلى وجوب الاصلاح الاجتماعي ، ومحو العقلية السائدة ، التي ترى المادة شمسَ حقولها ، وبؤبؤ عينها ، ومنتهى أمانيِّها ؟؟ أما كانت « الأنا » ذلك الصنم الضخم المرعب . كانت الهاجس الأول في نظر يسوع واتباعه ، فنادوا بحطمها . وهل يصلح مجتمع أرضي ، وترقى نفس إلى مستوى السماء « ملكوت الرب » إذا لم يتألق في داخلها مصباح الحق والصدق ، في القول والعمل ؟ وهل ابلغ من كلام يسوع في هذا المجال ، فلنسمعه :

« من اراد أن يكون فيكم عظيماً ، فليكن لكم خادماً . انه أيسر أن يدخل الجمل من ثقب ابرة ، من أن يدخل غنيٌّ ملكوت الله . إفعلوا بالناس كما تريدون أن يفعل الناس بكم » . . نتبين من هذا الكلام المأثور أن يسوع أول من قرع في أُذنِ الاجيال بصوت جَهْوريّ داوٍ ناقوسَ الإشتراكية ، ولا غرو ، فأننا إذا لم نقف عند رسالتهِ السماوية ، فلا ريب بما انه انسان مولود في موضع متواضع ، ومن اسرة فقيرة وناشىء في بيئة كادحين بسطاء ، وتحمَّل بذور الأخوة العميقة لكل إنسان ، إذ أتى بهذه الآيات الخالدة . كان يسوع معلماً ، باثاً روح العمل والثورة في تلاميذه الذين اختارهم من طبقته المتواضعة . لقد نعى المظالمَ والاضطهاد حتى لقبه أعداؤه : بالهدَّام . وأيُّ هدَّامٍ مَن يقول : بعرق جبينك تأكل خبزك » لا بالربا ولا بالابتزاز والاستئثار .

إن أرباب السلطة في فلسطين ، وكبار المثرين الجشعين ، بما يقترفونه كل يوم من تنكيل وتجويع ، وبما لهم من هيمنة شاملة على الشعب والأرض ، قد تناسَوا تعاليم الانبياء الصالحين ، وانجرفوا مع رياح المكاسب ، وانحطوا بأنسانيتهم إلى مزالق الحيوانية المفترسة . هؤلاء ، لم يطمئنوا لهمسات يسوع الداوية في النفوس كالصواعق ، فعمدوا واصروا ونفَّذوا قتله . لم يقتلوا الفضيلة بِحرَبتهم المُدماة ، بل احيوها زمناً ظلت فيه روح يسوع سابحةً في دماء كل إنسانٍ مطبوعٍ على الحب والفداء ، قولاً وعملاً . دماء ذلك الفادي الكبير ، أكان رباً او آبناً لِرب ، أو مصلحاً أو خيالاً . وعبثاً تُردد الاجيال في الدنيا الفسيحة كلمات يسوع : « ويل لكم ايها الكتبة والفريّسيون المراؤون ، انكم لتشبهون قبوراً مبيضة ، تَظهرون للناس ابراراً ، ولكنكم من داخلٍ ، مشحونون رياءً ونفاقاً . . .

إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » . (قصة الحضارة ج ١١ ص ٢٣١) .

إن هذه التعليمات الاجتماعية ، بما تحمل من قداسة وروح ثورية رصينة ، جعلت جماهير غفيرة من اليهود ، يعتقدون بالمسيح « ملك اسرائيل » جاء لينقذهم من نير الرومان . وقد جاء في الانجيل الرابع تلميح صريح بهذا المعنى ، دفع بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن هذه النزوة الشعبية كانت العامل الأكبر للإسراع بصلب يسوع . وفي اليوم الثالث من نيسان من العام الثلاثين ـ كما سبق ـ ، أكل يسوع ورسله عشاء عيد الفصح في اورشليم وكانوا يأملون أن ينقذ نفسه بمعجزة ، لكنه ابى ذلك تكفيراً عن ذنوب شعبه . وآخر ما قاله تلك الليلة نقلاً عن يوحنا : « يا اولادي انا معكم زماناً قليلاً بعد . . وصيةً جديدةً أنا أُوصيكم ، بأن تحبوا بعضكم بعضاً . . آمِنوا بي . . . في بيت ابي منازل كثيرة . . . أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً » .

وقد بيَّنت الأدلة أن مفكري أوروبا الشمالية كانت تطغي على عقول بعضهم حماسة ، هي روح التطور الذي نادى به (لوثر) وتعدَّوه تطرفاً وصل بهم إلى نكران المسيح كلياً . فلنتساءل : كيف يمكن أن يكون باعث المسيحية بطلاً اسطورياً ، حين نجد في العام (١١٠) للميلاد كتاباً بعث به (بلني الأصغر) يستشير فيه (تراجان) عما يعامل به المسيحيين . ومؤرخون عدّة نوهوا باضطهاد (نيرون) للمسيحية المتسرِّبة إلى مملكته . فمن أين جاءت هذه العقيدة ؟ ومَن الذي انشأها ورصَّعها بقويم تعاليمه ؟ هل نُودي بأحد لها غير يسوع المسيح ؟؟ .

وخليق بنا أن نقدّم بعض الادلة التي تدحض آراء اولئك المفكرين منها :

إن الكاتب الوثني (تاللُّوس ، Thallus) الذي عاش في منتصف القرن الأول للميلاد ، صرح بعفوية : « ان الظُّلمة العجيبة التي يقال انها حدثت آن موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة » . ووجود المسيح عند هذا الكاتب الوثنيّ هو قضيةٌ مُسلَّمٌ بها كُلياً .

ولم يشك احد في وجود (بولس) وفي لقاءاته لبطرس المتكررة (وليعقوب وليوحنا) . يعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح اثناء حياته ، وانه كان يحسدهم على هذه المعرفة . ثم أن الرسائل المعترف بنسبتها لبولس تشير بوضوح إلى

العشاء الاخير وإلى حادث الصلب .

أما الاناجيل ، فان الاربعة منها التي وصلت إلينا ، هي البقية الباقية من عدد اكبر منها كثيراً ، انتشرت كلها بين المسيحيين ، في القرنَين الأولين للميلاد . واللفظ الدال على الانجيل باليونانية (Evangelion ، إفانْجَليون) الذي يبدأ به مرقس ومعناه : « اخبار سارة » والأناجيل الثلاثة الأخرى هي لِـ (متى ومرقس ولوقا) كتبت كلها باليونانية الدارجة ، وهي سهلة الأسلوب ، شيقة القصة وعميقة الشعور .

إن الاناجيل الأربعة المتداولة لدينا الآن ، ترجع إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو انها كُتبت بين عام (٦٠ و ١٢٠) ميلادية ، ثم تعرضت لتحريف مقصود ، ولضياعٍ مرموق لروح انسانية اصيلة فيها .

يقول المؤرخ (بابْياس ، Papias) : « لقد اعاد متىً كتابة الكلمات بالعبرية » مما يشير إلى أن هذا الانجيل مجموعة آراميّة من اقوال السيد المسيح ، ومن المرجَح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لانه ينقل احياناً كلمات (يسوع) .

كُتب انجيل (متى) في الأصل بالآرامية ثم نُقل إلى اليونانية حيث وصل إلينا بها . كان غرض متىً هداية اليهود ، معتمداً على ذكر المعجزات التي قام بها يسوع . انه أشد الاناجيل تأثيراً في النفس ، واثارة للعاطفة . يعتبرُه النُقَّاد : مِن روائع الآداب العالمية .

الفصل السادس

يوحنا المعمدان

هو يحيى بن زكرياالمغتسل . دعا اليهود إلى التوبة والاغتسال من الذنوب بواسطته حيث يقوم بذلك على ضفاف (الأردن).

كان يحيى مبشراً بقرب « ملكوت الله » ، وكان يعمِّد كل من ران في نفسه مسحة الخير والتوبة والعكوف على الصلاة في بيئةٍ تفاقم فيها الشر والنهب والمتع الرخيصة .

وكان « يحيى » أو (يوحنا) بسن المسيح تقريباً وصفه (مرقس ومتى) بهذه العبارات :

« كان يوحنا يرتدي ثوباً من الشَعر ، يعيش على الجراد الجافّ ، وعسل النحل ، يقف بجوار الاردن ، داعياً إلى التوبة مندداً بحرارة واستمرار : بالنفاق ، ومعلناً قرب حلول مملكة السماء .

كان ينصح جماعته بهذا القول :

« إذا تاب اليهود جميعهم وتطهّروا من الخطيئة جاءهم المسيح ، وحلَّتْ مملكة السماء على الأرض » .

وذكر (لوقا) انه في العام الخامس عشر لحكم (تيبيريوس) أو بعده بقليل ، جاء يسوعُ إلى نهر الاردن ، ليتعمد على يدَي (يوحنا) ، فتعارفا ، وكانت تعاليمهما جدَّ متشابهة .

ودوَّن المؤرخ المعروف (يوسفوس) ما يلي :

« ان سبب القبض على يوحنا هو خوف (هيرودس) ، حاكم اورشليم اليهودي منه ، وتوجُّسه من أن وراء تعاليمه السليمة سخطاً على النظام القائم ، وثورة تنذر البلاد بالخطر الكبير » .

وأوضح بأكثر صراحةً الحواريّان (متى ومرقس) بقولها :

« إن ابنة (هورودياس) قد فتنت (هيرودس) وطلبت منه رأس (يوحنا) ، فاستجاب للطلب مُكرهاً » .

العمادة والكنيسة :

تناقلت الناس خبر ورود احد اليهود إلى شاطىء الاردن ، يدّعي النبوآت ويعمِّد الطالبين . ذهب إليه (يسوع) وتعمد من يده . وكان ظاهر التعميد الغسل بالماء الجاري لتطهير الذنوب ومحو الآثام . أما (يوحنا) فما لمحت عينه (يسوع) حتى ارتمى على ركبتيه هاتفاً : « أنا الذي بحاجة لكي تعمدني » . لكن يسوع قد استمر في طلب التعميد . وبينما هما في عملهما شاهد (يوحنا) الروح القدس نازلاً على صورة حمامة بيضاء ، يتبعها صوت خفي هامساً : « هذا هو ابني الحبيب » . ولدى سؤالنا الحَبر الجليل (ابا فاينوس زائد) رئيس أبرشية (عكار ـ لبنان) عن التعميد قال: «أنه باب النصرانية، وأول أسرار الدين

المسيحي ، يتم بغسل الطفل وغير الطفل بالماء ، باسم الأب والابن والروح القدس » .

قبل أن يتعرف يوحنا إلى السيد المسيح ، كان معلماً لجماعة من (الأَسِّينيين) ، وقبل انـه كان يبشرهم بمخلصٍ ، نـظراً لمـا عـانـوه في عـزلتهم واضـطهـاد الأَسبـاطِ الاخـرى المُتميِّعة . كان لقاؤه بيسوع في العام الثلاثين ، حيث بدأت تظهر بزخم وتصديق معجزات يسـوع . وكانت السنـوات الثلاث بعـدها ، مليئـة بالضنـك والمراقبـة ، وبتسفيـه جمـاعـة يسـوع ، وتصديق جمـاعة اخـرى . وهذه الآيـة ليوحنـا تختصر جوهـر الدعـوة المسيحية . نُكرِّرها : « طُوبى للودعاء ، لانهم سيرثون الأرض ، طوبى للرحماء لانهم سيرحمون ، طوبى لِأنقياء القلب لانهم سيعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام ، لانهم ابناء الله يُدعَون » .

ولم يعمّد (يوحنا) حذراً من خصومه ، بعد جهر المسيح بدعوته الجـريئة بـل انطلق مع الحواريـين يبشر ويهدي . وكـانت نهاية مـطافه قـطع رأسه . لكن الاجيـال ما بـرحت تجلجل في مسامعها تعاليمه وتعاليم رفاقه الذين تنسَّموا عبيرَها من شفتَي المعلم الفادي .

إنّ يوحنا ورفاقه ومعلمهم كلهم من الطبقة المتواضعة المحرومة . من الشعب الـذي ابتلي بحكم امبراطوري طاغ ، وبزمرة الأثرياء المرابين ، وبيئة تعجُّ بفساد [illegible] وقِحةً وفجوراً .

هذه الأمراض المتفشيـة في بيئة (اورشليم) اوجبت أن ينبلجَ كوكبَ هـدايةٍ ومحبـة وغفران بجفن كل انسان ، سعد بغسل ضميره في واحة الاخوة والغـيرية والتسـامح . وان تتنزّل صواعق إذلالٍ وافقار وحرمان ، على رؤوس اولئك السفاحين والمبتزّين والمتهتكين . عاشت المسيحية الأُولى هذا الوضع في تطوُّراتها للآتي القريب لكنه كان بعيداً ، بعيداً .

يقـول فيلسوف الكنيسـة القـديس بـولس : « لا يكفي التعمـد في أن نهب انفسنـا ليسوع ، بل أن نتَّحد بهِ اتحاداً . إنه لم يمت قط ، إذ ليس للموت سلطة عليه » .

كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤمن بأن اسرار القربان المقـدس من ذاتها ، تثمـر النعمة الالهية . وكانت تعلن أن الـذين يترقبـون نجاة انفسهم ، عليهم قبـل أي شيء آخر ، أن يعتصموا بالإيمان الكاثـوليكي . وإن الذين احتقبـوا الصالحـات سيذهبـون إلى الابديـة ، والذين اقترفوا السيئات سيلاقون النار التي لن تخمد جُذاها .

لذا فإن الكنيسة باحتضانها تعاليم المسيح واتحادها به، تعني أن المسيح نفسه تحـدّث

بهـا ، وانها خضعت لارادته. أمـا الذين يـزعمون أن اسرار القـربـان المقـدس هي عمـل سحري لا تعوزه جهود ،فمخطئون لأن النجاة تتعلق بكل مسيحيٍّ عمل بجدِّية وصدق في سبيل خلاصه .

بطرس :

من اثبت المراجع لأحداث هذه الفترة ما كتبه (لوقا) في اعمال الرسل وفي الانجيـل الثـالث . ويبدو أن الـرسل كـانوا مؤمنـين بعودة المسيـح ، ليقيم ملكـوت السمـوات عـلى الأرض وليطهرها من الخطيئة .

أما بطرس ، فلم يدع رقعة من المستعمرات الرومانية إلا دخلها ، كما دخلهـا بولس الرسول . وقيل أن دخوله إلى روما كان عام (٤١) كما قيل زارهـا اكثر من مـرة حين كـان بولس سجيناً فيها . وفيها استُشهد كلاهما ، بعهد نيرون عام (٦٥) .

إن كثرة تجوال القديس (بطرس) جعلته يحتفظ بكثير من العناصر اليهودية في الدين المسيحي . ورث التـوحيد والبعث والنشـور ، فانتقلت بـذلك اشكـال العبادات العـبرانية واحتفـالاتها ومـلابسها ، واخـذت اساليبهم في ادارة المجـامـع وبعض اعيـادهم . منهـا : الفصـح والعنصرة ، مـع تغيـير في التاريـخ . وقد سـاعدت اليهـودية المشـردة . والتقـدُّم الحضـاري الرومـاني ، وتجارتهم ، في تغلغـل المسيحية هنـا وهناك . وإن حكمـة المبشرين وعـلى رأسهم : (بـطرس وبـولس) وشجـاعتهم وتفـانيهم ، كلُّه أسهم في تمهيـد هــذا الانتشار ، رغم ما صدمَهُ من تيـارات وثنيّة عـارمة . وكـان مصير بـطرس الموت صلبـا في روما .

كان بطرس أكثر تلاميذ المسيح حماسة واندفاعـاً رغم تقلبه بـادىء الأمر . ونـظراً لما يتمتع به من رجولة وحزم ، اختاره مجموع الكهنة ليكون رئيساً عـلى الكنيسة الـرومانيـة في (رومـا) نفسها ، وتسلم مفـاتيح السـماء . وحين انقسمت الكنيسـة إلى شرقية وغـربية ، ظهر نشاط المسيحية في الشرق بواسطة مدارسها الأربع الكبرى في : انطاكية والاسكندريـة والقدس والقسطنطينية .

وحـين عزمت السلطة في رومـا على اعتنـاق المسيحية ، جعلت السلطة الـروحية في اسقف روما نفسه (البابا) الأول واستمرت الحال إلى يومنا هذا . على أن الكنيسة الشرقية

رفضت الاعتراف الأولويَّ بهـذه الكنيسة . أدَّى ذلـك إلى تعميق الشقاق بـين الكنيستين. وحين استأثر بعض الباباوات بالزعامة الزمنية واهمل الكهنوت ، جوهر التعليم المسيحي ، بقيمهِ الاخلاقية ، في الغرب ، حدثت فجوة واسعة في خضمّ الكنيسة ، آلت إلى انقسامها ثانية في الغرب ايضاً لدى انتشار (اللُّوثريَّة) .

يقول (متى) في (١٦ : ١٣ ـ ١٩) بلسان يسوع : و « أنا اقـول لك أنت الصَفـاة وعلى هذه الصفاة سأبني مملكتي ـ والضمير يعود لبطرس ـ المقصود بالصفاة : الصخـرة التي بُنيت عليها فيما بعد ، كنيستهُ في قاعدة (الفاتيكان) بروما » .

الفصل السابع

بدء التبشير

يؤكد التاريخ انه بعد وفاة المسيح في عام (٣٠) م ، راح اتباعه يمارسون الـطقوس الاسرائيليـة الشائعـة آنذاك . تعبَّـدوا في هيكـل سليمان ، وتجمعـوا في أروقتـه ، وكـانـوا جميعهم يهودا من الطبقات الوضيعـة ، ومن بلدان متفرقـة : (مصر ، القيروان ، الجـزيرة العربية) . كانت تغمر اجتماعاتهم الخـاصة روح المحبـة والاخلاص ، وكـانوا هم رسـل المسيح وتلاميذه . لكنهم لم يعتبروا انفسهم قط ، مذهباً من مـذاهب اليهود ، رغم ضـآلة عـدّدهم . إذ كانـوا مئة وعشرين ، حسب نص الفصـل الأول من سفر اعمال الرسـل . وبلغوا الخمسة الاف في الفصل الرابع من السفر نفسه ، وذلك بين السنة (٣٥ ـ ٣٧) بعد الميلاد .

كان عدد الرسل اثنى عشر ، والاتبـاع المقربـون (سبعون) مقرَّبـاً. في هـذه الفترة مارس المسيحيون طقوساً ثـلاثة : المعمـودية ، ووضـع الايدي ، والشركـة . ومن يستجد لقبول الدعوة عليه أن يتعمد بأسم يسوع المسيح ، وان يبارك بوضع الايدي ، وأن يمارس الشركة وكسر الخبز . كان عند هـذه الجماعـة كل شيء من المـال والعقار مشـتركاً . وقبيـل العـام السادس والثـلاثين ، طلب المجمـع اليهـودي الحكـومي ، المبشر (اسـطفـانـوس) للمثول امامه ، بتهمة التجديف على موسى وعلى الله (يهوه) . فجهر هذا المبشّر بجراءة : يا قُساة القلوب ، انتم تقاومون الـروح القدس . أي الانبيـاء لم يضطهـده آباؤكم . فصرَّ

القضاة بأسنانهم فترة ثم ساقوهُ ورجموه . كان هذا اول دم يراق في الدفاع عن المسيحية الفتيّة .

بعدئذ اقتدى الرسل بالآية : « وأذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » .

لكن الامبراطورية الرومانية ، كانت قد انقلبت من متساهلةٍ متسامحةٍ مع كل دُعاة الاديان ، إلى حانقة مجرمة ، ازاء الدعاة المسيحيين ، وخاصةً بروما نفسها . لهذا الاضطهاد حقائق اربع :

١ ـ يشير المؤرخون إلى أن التنكيلات العامة بالمسيحيين كانت بين الاعوام (٦٤ و ٣١٣) بدءاً من مقتل الرسولَين : بطرس وبولس .

٢ ـ اجريت عملية التنكيل بموجب تشريع خاص صدر عن نيرون عام (٦٤) .

٣ ـ لم يكن الاضطهاد دائماً عاماً .

٤ ـ كان عدد الضحايا الشهداء اكثر من أن يُحصر .

وحسبنا أن نعلم بأن الدولة في عهد (نيرون) اتّهمت المسيحيين بإحراق روما .

القديس بولس :

سمي هذا القديس بـ : (فيلسوف المسيحية) وكانت رسالاته مثالاً للحكمة والعمق والجرأة . بدأ رحلته التبشيرية الأولى من انطاكيا . فزار قبرص وغلاطية وبمفيلية ، ثم عاد إلى أتاليه . وكانت رحلته الثانية إلى سوريا متوغلاً حتى بلغ ترواس ، ومنها عبر إلى مقدونيا ، وزار اثينا ، أخيراً عاد إلى أفسس وقيصريّة حيث زار اورشليم . اما رحلته الثالثة فقد شملت كل البلدان التي زارها سابقاً ، ابتغاء تفقد اتباعه وتنويرهم وحثّهم على الإيمان ونشر الرسالة .

تجاوبت الجماهير مع تعاليمه نابذين معتقدهم الوطني الوثني . فآرتابت السلطة في روما منه ، وزجّته في السجن لمدة سنتين .

وقيل إنه بعدها لقي حتفه مستشهداً في روما في عام (٦٧) للميلاد ، مكان ملتقى الرسولين ، في قبر واحد ، ارتفعت عليه الكاتدرائية الكبرى . وخلاصة ما يقال في

الرسول بولس : انه شارع المسيحية الأول والانبغ ، وأن معظم القواعد الدينية المسيحية المتبعة حتى العصر الحاضر هي من وضعه ، أو هي ركائز لما ارتفع عليها من بناء .

كان يُدعَى القديس بولس في صغره بـ (شاوول) ولد في طرطوس بين عام (٥ ـ ١٥) للميلاد . وكان عدواً مطارداً للرسل ، وقد ابصر الحياة في (طرطوس) في العام السادس للميلاد . وما أن اعتنق النصرانية حتى بدأت نشاطاته المتعددة ، وتنقلاته ومواعظه وخطبه . تفتحت عبقريته وظهرت جرأته ، وثقب بصيرته . قال في احدى خطبه : « لا يسكن الله الخيام ، انه اخرج من كائن فرد جميع البشر ، واسكنهم الأرض جمعاء . أرانا في خلقه كامل معجزاته » .

وذُكر في (الاعمال ٩ : ١ ـ ١٩) أن القديس بولس لم يتتلمذ على السيد المسيح ، انما اعتنق المسيحية على اثر رؤية مشهورة ، وهو في طريقه إلى (دمشق) . خلَّف للكنيسة المسيحية اربع عشرة رسالة ، بدا فيها اثر ثقافته الرفيعة ، واتقانه للغة اليونانية ولفلاسفتها .

كان رأيه ، أن المقصد الالهي يرتكز على : خطيئة آدم (أبي البشر) وان فداء البشر حصل على يد المخلص (يسوع) . وانه هو آدم الجديد الذي تمثلت به البشرية جمعاء . وان الضحية على الصليب هي محور كل العلاقات بين الله والبشر . وقد اعتبر كل مسيحي أن هذه التضحية حصلت من اجله هو ، لذلك تسعَّرت عزيمته اخلاصاً للفادي .

أما (م . سيمون Marcel Simon) فقد أوضح بلسان (بولس) : يوجد رب واحد هو الاب الذي وجدت منه الاشياء كلها ، ومن اجله اتحدنا نحن البشر ، وأن هناك سيداً واحداً هو يسوع المسيح الذي بواسطته كانت الاشياء كافة ، وكان الإنسان (I Car. 6, 8) وان بين رسائل بولس : (سفر الأعمال) وفيه تناقضات في مواضع متعددة . وبولس هو الذي كان يبشر اليهود بأن يسوع هو مسيحهم الموعود به . واستشهد في روما مبشراً . وقال الدكتور عادل اسماعيل : مات بولس بقطع رأسه في روما .

الصلاة :

لكل دين منذ القدم شعائر خاصة تلازمه ، ويفترض تقديمها كاملة لتثبيت العقيدة .

فهذه الشعائر تربط المؤمن بربه ، برباط يتصور أنه يسكّن من هواجسه ومخاوفه . كانت اقدم الصلوات المسيحية : « أبانا الذي في السماوات » . . ومطلعها : « نؤمن بإله أحد » . وقبل منتهى القرن الثاني عشر ، بدأت الصلاة العذبة المحببة : « السلام عليكِ يا مريم » . . ونشأت عادة استعمال السُّبحة ، نقلها للغرب الصليبيون . وكانت طقوس متنوعة غيرها ، يقوم بها الكاهن في الكنيسة .

وقد وضعت الكنيسة تقويماً كنسياً جعلت في كل يوم عيداً لأحد القديسين بالرغم من أن التقويم لا يستوعب عدد القديسين البالغ حوالي ٢٥ ألفاً . وكانت بعض الكنائس الكبرى تباهي سواها بما احتازته من بعض آثار احد القديسين ، مثلاً : أن بازيليك القديس بطرس في روما . وهي تفخر بأنها تحوي جسدي القديسين (بطرس وبولس) . وفخرت كنيسة القديس (هومير St. Homer) بأنها احتفظت بقطع من الصليب الحقيقى، ومن الحَربة التي اخترقت جسد يسوع ، ومحتَضن كنيسة (أميان ، Amien) رأس يوحنا المعمدان في كأس فضّية . ويعرض احد اديرة (درهام) مِفْصَلاً من مفاصل القديس (لورنس)، والصفيحة التي قدم عليها رأس (يوحنا المعمدان) إلى (هيرودس) وقميص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها اثر قطرات من لبنها .

كذلك كانت كنائس القسطنطينية قبل عام (١٢٠٤) فكانت فيها الحَرْبةُ التي نَفَذت في جسم المسيح ، والتي لا تزال حمراء من دمه . وقطع صغيرة من الصليب الحقيقي ، مغلَّفة بالذهب . وكانت تعزى إلى هذه الملفّات قوى معجزةٌ ، كما يزعمون .

يقول تاريخ العالم في الجزء السادس عشر : لم تقم الكنيسة بهذا العمل بغية احياء الخرافات بل انها كانت قد ورِّثت الشعوب مثل هذه الاساطير مما كان يحاك على شاطىء المتوسّط ، وكان الايمان بالطلاسم والتمائم والرُقى يسهم في تقبُّل هذه الاعاجيب ، والإيمان بالقدرات الخارقة التي يتصورون أنها هي الباعثة لها . إنْ هذا إلا إرثٌ من الوثنية التي سبقت هذه الديانات .

وعادة الرش بالماء المقدس هي صورة قديمة من التعاويذ. ومراسيم التطهير امتدادٌ لشعائر موغِلَة في القدم . وعادة حرق البخور امام المذبح ، هي مماثلة لعادة تقريب القرابين المحروقة ، وتلقيب (البابا) بالحبر الأعظم ، تراث من روما الوثنية . وكثير من

العادات والطقوس الدينية التي كانت مستحوذة على مشاعر الجماهير قبل المسيحية ، تقبلتها برحابة صدر ، جادةً في القضاء عليها تدريجاً . من ذلك أن الكنيسة قد حللت عبادة شجرة البلّوط ، حين علقت عليها صور القديسين المسيحيين . واتخذت الكنيسة من تعظيم العذراء واسباغ القداسة الفائقة عليها ، وتصويرها بهذا الشكل الفاتن ، طهارةً وروعة واحتشاماً ، يطفىء غليل الشعب المتعطش إلى عبادة : « الالهة الأم ، وايزيس وعشتروت وأرتميس » .

وغدت العذراء القديسة الشفيعة للأسرة الامبراطورية في القسطنطينية . وكانت هي في كثير من الأحيان ، عندما لا تُقبل إحدى الشفاعات لدى يسوع ، يتسارع المسيحي إلى امهِ فيبتهل إليها ، ملتمساً منها تلك الشفاعة عند ابنها . وهذا مثل على ذلك في : « القصة الذهبية » ومضمونها أن أماً قدمت وحيدها استجابة لنداء وطنها . أَسرَهُ العدوُّ فارتمت الأم راكعة امام صورة العذراء تطلب منها انقاذ وحيدها . مرت اسابيع ولم يظهر أثر لقبول الشفاعة ، عندها انطلقت الأم وسرقت تمثال يسوع الصغير من حضن امه . بعد قليل ، فُتحت أبواب السجن ورجع الابن إلى والدته . (عن: Bacon: Opurs, tertium, Ch: 17باكون) المرجع السابق $\frac{\text{ص}}{٣١}$. فالطيبة والجمال والقداسة ، التي ظهرت في صورة العذراء ، اخمدت من توقُّد المظهر الحازم الرهيب الذي اضطر الكنيسة أن تتلبسه ، حفاظاً على قدسية الدين ، واستمرارية انتشاره بين تلك الجموع ، المتأخرة فكراً ونفساً .

الطقوس :

كانت الكنيسة المسيحية في ذلك العصر جِدَّ حكيمة في تصرفاتها . لقد سَبَرتْ مشاعر الناس ودارت احاسيسهم ، وعرفت كيف توفّق بين متطلباتها المقدسة ، وبين طقوسهم الوثنية . فكانت كمن يسبح مأخوذاً بتيار عنيف ، فرضت عليه درايته أن يجاري التيار بحذر ، ريثما يتخلص منه . فقد افسحت في فنها وترانيمها وصلواتها مكاناً لعبادة العذراء ، مصرةً بصرامة على الطقوس الدينية السليمة . كثيراً ما نجد الكنيسة تَسِنُّ قواعدَ ، ولا ترغم على اتباعها ، مثلاً : الصيام في أيام مُعيَّنة ، والنهي عن أكل اللحم أيام (الجمعة) ، والصوم الكبير اربعين يوماً ، محظور فيه أكل اللحم والبيض والجبن . كما أمرت أن لا يحدث خلالها زواج أو صيد أو أية صلة جنسية . وأعتبرت هذه الشروط محتمةً على المسيحي الصحيح ، لا على المتردّدين .

وأصبحت الصلاة شيئاً من التمثيل الديني ، ترافقها الموسيقى الشجية والترانيم والبخور ، مما يصقل النفس ويأخذها روعة وفتوناً ، ويجعل المشاعر الرهيفة متغلبة على العقل . لكن انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية ، رافقهُ انقسام بيِّن في الطقوس الدينية . أما المحور الذي تقوم عليه العبادات المسيحية فهو « الصلاة » . ولبثت ذكرى العشاء الأخير جوهر الصلوات اجتمعت معها بمرور الزمن ، مراسيم وأدعية وترانيم ، تختلف باختلاف أيام السنة .

كانت الصلاة تؤدَّى ، بينما الناس وقوف او راكعون ، ويعفى الضعفاء من الركوع . وللكاهن لباس خاص حسب رتبته ومذهبه . يبدأ القداس بنشيد متواضع عند اسفل المذبح : « سأَدخُلُ في مذبح الله » ، ويضيف إليه السادن : « إلى الرب الذي يضفي البهجة على شبابي » . ثم يصعد القس المذبح ويقبله باعتباره المكان الذي اودعت فيه مخلّفات القديس ، ويترنم بالدعاء : « كيري اليسون » وتعني الكلمة : « ارحمني يا رب » .

يعقب هذا الدعاء : « المجد لله في العلى » ثم « نؤمن بإلهٍ واحد » . ثم يدشن الكاهن قطعاً صغيرة من الخبز ، وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه تالياً عليها هذا الكلام : هذا جسدي وهذا دمي . ويتابع الصلاة حيث ينهيها بكلام « السادن » باسم الحضور : هذه الصلاة « اننا نرفعها إلى الرب » ثم يتلو بعدها الكاهن (القداس المثلث ، Triple Sanctus) و (نحمد الله ، Ognus dei) وأباناً الذي يشترك هو نفسه في تناول الخبز والخمر .

وهذا مقتضب لقصائد عامرة بالعاطفة والرقة والحنان الأمومي ، نظمها شاعر مسيحي قديم أمام صورة العذراء :

« هذه الأم الحنونْ
تندب مصير ابنها . . .
ـ اليَّ يا اماه !! يا منبع الحبْ
اشعريني بكل آلامكْ
ودعيني اشاركك احزانكْ

اشعلي في صدري نار الشوق وحب يسوعْ
إلهنا المنقذْ
دعيني أُقـاسِ الآمَ آبْنِكْ ـ إبنِكِ الطعينِ بجرحٍ أليمْ
واصرفْ عمري كله مشاركاً اياكِ
حزيناًمُهشَّم القلب على ابنك المصلوبْ
فلْيحمِني الصليب ، وليرعني بلُطفهْ
وإذا بَلِيَ جسمي فلتنظرْ روحي في امجاد السماءْ
إليهِ . . إليهِ . . وجهاً لِوجهْ » .

وقد اضافت الكنيسة إلى هذه الطقوس احياء عشرات الأعياد كل عام ، أولهـا ميلاد يسوع وشجرة العيـد ثم : الغطاس والختـان ، وحد السعف ، وعيـد القيامـة ، والصعود والعنصرة . . . مضاف إليها يوم « الأحد » من كل اسبوع .

وكانت اعظم المهرجانات ما يقام منها عند اماكن الحـج أملاً بِنَيـل الغفران والشفـاء والاسعاد . وقد بلغ عـدد الاماكن المعـترف بجواز الحـج إليها ، في اواخـر القرن الثـالث عشر ، العشرة الآف مكان . اعظمها فلسطين النائية عنهم . فيزحفون إليها بين متـبرِّجين حفـاةٍ وانصـاف عراة . (وروما) هي قبلة اولئـك الحجـاج ، ليـظفـروا بمشاهـدة قـبري القديسين : (بطرس وبولس) .

كان الكهان يشجعون الشعب على العمل في كل حقل مُنتج . فكان منهم المزارعون والصناعيون . ونظموا النقـابات الـطائفية الـدينية ، خـدمةً للمعـوزين . وكانت الكنيسـة حرماً لكل لاجِىء وملاذاً لكل ضعيف ومحروم .

الفصل الثامن

القانون الكنسي

أول نشوء القانون الكنسي كان طبعاً متقارباً من العادات الدينية القديمة ، القائمـة في تلك الاصقـاع ، ومن فقرات في الكتـاب المقدس ، وآراء ابـاء الكنيسـة وقـرارات مجلس

الكنيسة والباباوات . وحدثت تعديلات وإضافات على هذا القانون فرضها الوضع الاجتماعي في كل بلد .

قبل عهد محاكم التفتيش ، كانت تعتمد الكنيسة وسائل الإرهاب الروحي ، فالحرمان الأصغر يمنع كل مسيحي من الاشتراك بالعشاء الرباني . ومن حق كل كاهن أن يُصدِره . معناهُ : العذاب الدائم في النار ، إذا مات الآثم ولم يُعفَ عنه . أما الحرمان الأكبر ، فيصدره مجلس ديني أو مطارنة ، على رجال داخل هذا المجلس أو على مطارنة ، ويحرِّم على كل مسيحي أن يوآكله أو يكلمه . وفي عام (٩٩٨) صدر هذا الحرمان على (روبير Robert) ملك فرنسا ، لزواجه من ابنة عمِّه مما اضطُرَّ أن تتخلّى عنه كل حاشيته وخدمه . وكان ما يبقى من فضلات موائده ، يلقى في النار مخافة الدناسة . قد تُضاف إلى الحِرمان عقوبة اللعنةِ (Anathéma أناتيما) .

رجال الدين :

إن رجل الدين النظامي كان يدعى قسيساً ، وكان هناك رهبان وراهبات وغير هؤلاء، فهم : (دَيِّنون) أي رجال دين يمارسون الحياة الطبيعية . وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز عن غيرها ، بحلق قمة الرأس وبأن يرتدي افرادها مئزراً طويلاً ذا لون واحد أياً كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر . أما الطبقات الثلاث الكبرى ، أو الطبقات المقدسة، اتباع الشمامسة والقساوسة فلم يكن جائزاً لمن انضم إليها ، أن يخرج منها . وقد اغلق امام افرادها بوجه عام ، باب الزواج ، بعد القرن الحادي عشر . وقلما شذّ عن هذا النظام من قساوسة . فعلى القسّ أن يقنع بالمتع الروحية وحسب . والكهنوت يضم القساوسة والاساقفة معاً ، ولكل منهما مهامه الروحية الخاصة به .

أما الاسقف فيختارونه من القساوسة انفسهم . كان يعهد إليه بكثير من الشؤون الدنيوية والكنسية ، ومحكمتهُ كانت تنظر بنوع خاص في بعض القضايا المدنية وفي جميع القضايا التي تمس رجال الدين ، على اختلاف طبقاتهم .كان يرأس اساقفة كل اقليم كبيرهم او المطران .

في العصر الذي نتحدث عنه ، لم يكن في (روما) من سلطة تعلو سلطة البابا، ولا كان احد ينازع سلطان اسقف روما سلطاته الروحية ، اما ذلك السلطان للبابا فمعاده إلى

الحقوق التي منحها السيد المسيح للحواريين ، وكانت حكومة الكنيسة ديمقراطية ، في عصر طغت فيه الاقطاعية على انواعها ، إذ كان بوسع أي إنسان في العالم المسيحي عدا المصابين في عقولهم أو جسومهم ، وعدا المحكوم عليهم في جرائم ارتكبوها ، والأَرِقّاء ، والمطرودين من حظيرة الدين ، كان يحق لأي مسيحيّ أن يختار قِساً او (بابا) . الباب مشرع للغني والوضيع ، كما هو للمثري والاقطاعي .

ولما كان انتخاب البابا مقتصراً على « الاساقفة الكرادلة » المقيمين في روما فقد زيد تدريجياً عدد هؤلاء الكرادلة (السبعة) بمن انضم إليهم من الأمم المختلفة ، حتى اصبحوا كلية مقدسة ، مؤلفة في ذلك الزمن من سبعين عضواً . يمتازون بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأُرجوانية ، وشكلوا طبقة جديدة عليا دون البابا . وكانت دولة البابا ، في القرن الثالث عشر قد بلغت ذروة مجدها . كل ما يصدر من شرائع كنسية ، لا ينفذ الا بمرسوم منه بنفسه .

والنزاع بين الامبراطورية وَالبابوية استمر قروناً . هذا أمر طبيعي ، يسببه التنافس والنفوذ الشعبي ، لكن في العام (١٢٢٢) انتهى هذا النزاع بتراضٍ بين الطرفين في اتفاق (ورمز Worms) الذي عقد يومذاك ، بين البابا (كلكستوس) الثاني والأمبراطور (هنري الخامس) . . .

حياة الرهبنة :

ليس ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب في ذلك العصر هو الذي انقذ الكنيسة من محنتها ، انما الفضل الأول يعود إلى طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من افواه الضالِّين دعوة التقشف والفقر ، وظلت مدى قرون تعطي المثل الأعلى في الإخلاص المطِّهر للنفوس .

وكان من السُنَن المتبَّعة في ذلك الزمان ، عند الاباء المتحمسين لدينهم الكاثوليكي ، أن يهبوا اطفالهم في سن السابعة أو بعدها إلى الأديرة « زُلفى » إلى الله ، مدى حياة الطفل . ولكن القديس (برنار) قد أُفتى بجواز إطلاق هذا الطفل في السن التي يريد فيها تخليه عن الرهبنة . كان الراهب يصرف يومه : أربع ساعات في الصلاة ، وكان معظم

طعامه الخضر ، وقضاء بقية اليوم في القراءة والتعليم ، واعمال المستشفيات والصدقات ، ثم الراحة .

وبالرغم من الثراء المتزايد الذي ظفرت به الكنيسة آنذاك ، وما رافقه من شذوذ عن قواعد الخُلق والدين ، كان يقابله نزوات ظافرة مقدسة . قامت بها الراهبات المتبتِّلات . كانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة ، وكان العقل البشري نفسه ، قريباً من العقل الكلي الذي يسيِّر مادة العالم ويكمن فيها . والصوفيُّ الخاشع المُتذَلِّل ، يتحرق أملاً في أن تسمو روحه غير مُثقلة بالذنوب . والتي عَلَت بها الصلوات إلى الرؤى الطوباوية والصحبة الالهية ، التي يعجز الحس والعقل والفلسفة والعلم عن بلوغها . وفي العام (١٣٢٧) واصل المتصوفانِ الورعان (سُوسو Suso و توتَرْ Tauter) في شمالي اوروبا ، الدعوة إلى وحدة الوجود الصوفية . وكانت هذه تقاليد التقوى غير الكنيسة ، أحد الينابيع التي انبجست منها حركة الاصلاح الديني فيما بعد . كانت الكنيسة حيال هذه الشطحات المحدودة ، متسامحة ، غاضَّةً طرفها عنها بحذر ويقظة .

وكان الشذوذ عن مناهج الصلاح والفضيلة ملازماً كل شريعة ، منذ عرف الإنسان القوى الخارقة والواحد الأعلى . فلا ينتقص من العقيدة المسيحية في القرنيين الثاني والثالث عشر إذا ظهر في بعض اديرتها من موبقات تسربت إليها من الدير المدنس الشهير دير (أغاتا ، Agatha) مما بعث بالكنيسة إلى إلزام ابعاد الاديرة عن العالم الموبوء، في مناطق خاصة بأوروبا ، حفاظاً على العفة والطهر وقداسة المعابد . وانقاذ الكنيسة من البؤرة التي زجَّها فيها بعض الكُهّان الفجرة .

موسيقى الكنيسة :

ما كان للكنيسة قبل هذا العصر ذلك البناء الفخم والاثار المزركشة ، ولا كان فيها من التحف الفنية التي تستهوي النفوس . كانت الصلوات والاناشيد الروحية مقصورة على مقاطع محدودة . لكن تطور الموسيقى ، والطراز المعماري في العصور الوسطى ، شمل الكنيسة والكاتدرائية معاً . وما اطل القرن الثالث عشر حتى كانت اروع المقاطع الغنائية ، وأدق الفن المعماري ، تأخذ قسطها الرائع في الكنيسة وتبعتها النغمات الساحرة .

ولا يفوتنا أن المسيحية الأولى كانت تمقت الموسيقى الكنسية ، ولكن تطور الحياة والأذواق في الإنسان ، اضطرها إلى مُجاراة الأعصر وناسها ، وأن تتخذ من الموسيقى الشجية ما يشنف الآذان ، ويستقطب النفوس فيحرفها عن الوثنية المتربِّصة .

وهذه ترنيمة مختصرة موجهة (ليوحنا المعمدان) :

(أنقذِ الدنيا من دَنَس الشِفاهْ

حتى يستطيع عبيدُك المخلصونْ

القائمون بخدمتكْ

أن يردِّدوا في الفضاء الفسيحْ

أعذب الالحان

نظام الأسقفية :

أوضح تاريخ العالم (لوليم لانجر) أن الكنيسة قامت مستقلة بادىء الأمر ، وفي القرن الثالث أصبح للاسقف ما للملك من سلطان . كانت البطريركيات الخمس كلها في الشرق باستثناء روما التي ظفرت بالصدارة لأسباب مرت بنا .

كان الامبراطور يتولى دعوة المجامع المسكونية ويرأسها . وظل لقب (بابا) يطلق على جميع الاساقفة حتى عام (٤٢٥) . ولم يتخذ معناه الحالي إلا في القرن السابع الميلادي .

إن الاصحاح (١٦) لمتىً يشير إلى أن المسيح وهب بطرس سلطة المفاتيح فنقلتها الاساقفة حتى البابا (سلفستين) الأول (٤٢٢ ـ ٤٣٢) ، الروماني المولد الذي غدا للقرارات البابوية بعهده تأثير كبير ، ولها قوة القانون .

وقد تناقلت الالسن أن (ليو الكبير) هو الذي اوقف بمعجزة زحفَ « أتِلا » على روما وهو الذي اعلن اتحاد الطبيعتين في مجمع (خلقدونيا) عام (٤٥١) ورفض اطلاقاً قرارات مجمع (افسوس) .

وقد كان البلاط البطريركي في القسطنطينية ، يهيمن هيمنة دقيقة جداً حتى أعتبر الشعب أن الله جعل قوتين عُليين : الامبراطور في الدولة ، والبطريك في الكنيسة ، كل

كنيسة يومذاك . (ستيڤن رلسيان) .

المطهر :

إن فكرة المطهر الذي كانت مستولية على مشاعرالناس في ذلك العهد ، هي جد رحيمة بالنسبة إلى الجحيم . يمكن النجاة إلى دار السعادة الابدية بعد التكفير والجهود ، أما في الجحيم فأن الشقاء سرمدي . صوَّر (دانتي) المطهرَ على الشكل الآتي : مخروط جبلي مقسم إلى سبع طبقات ، ينتقل المذنب من طبقة إلى أخرى تدريجاً قدر توبته . وفي المراحل السفلى سبع عقوبات للذنوب ، تنتهي بعد اجل معين . حيث ينتقل المرء بعدها إما إلى دار السعادة أو إلى الجحيم الدائم .

اما تصوير دانتي للجنة العليا ، وللرب وملائكته فهي بعيدة عن المادة ، هي نقط من نور قدسي . على أن العقيدة الكاثوليكية ، كانت يومذاك تعتقد بأن الله يبعث الإنسان يوم الحساب : جسداً وروحاً ، فعلام تهمل في الجنة الطيبات المادية ؟؟

(المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٤٥)

الفصل التاسع

توما الاكويني

كان توما الاكويني راهباً (دومينيكانياً) ولد في ايطاليا(١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) .بعد ممارسته التعليم في إحدى جامعات باريس غدا معلم الكنيسة ، واشهر فقهاء اللاهوت والفلسفة المدرسية . درس الفلاسفة العرب وتعمق معجباً بـ(إبن رشد) ، رغم نقده لآرائه . من تعاليمه : رغم أن الفلسفة لا تنبثق إلا من العقل ، لكنها تجسد الإيمان ركيزة ضرورية لها ، إذ بهذا الإيمان يتجنب المرء الاخطاء وتغدو الحقيقةُ هدفَهُ . أما رأيُ هذا الفيلسوف في الله ، فهو اقرب إلى أُرسطو منهُ إلى أية مدرسة فلسفية سابقة له . كان يقول : (كل ما خلقه الله ، كان مسبقاً موجوداً في كلمته « الخالدة » ، اعني يسوع ، وكان هذا الوجود غير عادي ولا هو مركب (Contra gentiles IV ، كونْترا جانْتِلْس IV) .

كان رأي هذا الراهب ، أن تتولى الكنيسة الشؤون الاخلاقية كافة ، وعلى الدولة العودة إليها ، والخضوع لإرشاداتها في هذا الحقل . كما على ملوك الأرض أن يخضعوا

للسلطة البابـاويـة ، لأنها تهـدي النـاس ، كـل النـاس إلى السعـادة الأبـديـة . وإن المهمَّـة العليـا للكنيسـة هي أن تهدي النـاس إلى سبيل النجـاة . تلك النجاة التي تـطلق عليها الفلسفـة الروحية الهندوكية اسم : (الخَلاص) . إذ أن الإنسان هو مُواطن عـلى الأرض . كذلـك هو مواطن في السـماء ، إذا كان اهـلاً لها ، وفي الجحيم إذا نـدَّ من صراط الدين . وعنـد هـذا القديس أن الله الابن ، قاسى المـوت معـذبـاً ، تـاركـاً رصيـداً من الـبركـة المنجيّـة للإنسان ، رغم خطيئته الأولى . وكـان يقول عن الخـير : « انّ الله يُسيِّر الإنسـانَ بقضائـه وقدره لأن الأشياء جميعاً خاضعة لِمشيئته » وكان باذلاً ما في وسعه للتـوفيق بين قضـاء الرب وقدره ، وبين حرية الإنسان . وفي عرفه أن خير مـا ينالـه الناجـون من السعادة في الـدنيا الثانية ، هو رؤية الرب» .

إن الرهبان الفرنسيين الأوائـل ، كانـوا يسلكون طـريق الحب الصوفيِّ لمعـرفة الله ، حسب تعليـمات القدِّيس أوغسـطين . في حين جـاءت نزعـة (القديس تـوما) العقليـة ، فـرفعت العقل فـوق الارادة ، والفهم فوق الحب . وقـام مِن الرهبـان (الدومينيـك) مَن عارض هذه النزعة في بعض مـواقفها . ومنهـا : وحدة النفس والجسـد في الإنسـان . بعـد وفاته ، كانت ثمرة النزاعات والتصارع الفكري الـديني هي : منح هـذا الرائـد الأرسطي لقب : « قديس » من قِبَل السُـدة البابـوية . ونـادراً ما نقض آراء معلمـه . كان يقـول : (ان النار في العناصر الأربعة من حرارة الشمس . هذه الحرارة هي المحيية اللطيفة) .

وأكد على أن الإنسان يلد الإنسان ، والشمس هي التي تلدُ هذا الإنسان .

(مرسيون Marcion)

في غضون تلك الاضطرابات الفكرية العرفانية في مصر وسوريا، التي اذكت سعيرها مدرسة الاسكندرية العظمى ، نهض مسيحيٌّ شابٌ كافراً باليهودية ، ومؤمناً بالازدواجية ، فعمل على قيام كنيسة خاصة حملت اسمه : (مارسيون) .

هذا الشاب هو من مواليد مـرفأ (سينوب) عـلى الشاطيء الـتركي الشمالي . كـان ابوه اسقفا ، فجاء روما عام (١٤٠) وتقبل المسيحية الغربيـة . وما حـان عام (١٤٤) حتى ظهر انحراف هذا الشاب على الكنيسة ، مُعلنـاً مبادىء تتنـافى معها . لم يـطل الزمن حتى شاعت عقيدته في الأوساط المسيحية جمعاء . توفي عام (١٧٠) . كـان (مرسيـون) تلميذاً

للرسول بطرس ، لكنه انفرد عنه بآراء خاصة به ، نابعةً من نفسه واقتناعاته . من هذه الآراء نظرته المختلفة عن (الرُسل) بين الإيمان والشريعة ، وبين الرحمة والعدالة ، ثم بين العهد القديم والديانة المسيحية وأناجيلها تلك كانت ركيزة معتقد كنيسة (مرسيون ، Marcion) .

كان بالنسبة إليه تباين ظاهر بين تعاليم يسوع المسيح ونص الانجيل ، بين الطيبة الفائقة ، والعدالة العنيفة التي نادى بها إله إسرائيل . من هنا ، اوضح هذا الثائر عدم التجانس بين الشريعة الفظّة ، وهذا التسامح والرحمة والفداء ، قِوام المسيحية السليمة .

لذا فأن هناك إلهاً أعلى صاحبَ القوة الباطشة ، وإلهاً ادنى هو إله المسيحية . وليس المخلص إلا مظهراً خارجياً للإله الطيب . هذا الاله يخلص البشر بالكلمة الإلهية الصادرة عنه . وبما انه يفقد السلطة على المادة يظل ملتزماً بالمظهر البشري وبتلك الآلام المقدسة حتى النهاية .

في رأيه أن البشر قسمان : فرقة منه ناجية ، وأخرى معذبة . ولن ينجو إلا المسرف في زهده وتبتُّلِهِ . من آثارِهِ مؤلف يسمى : « كتاب المعارضة » تناول تضادَّ العهد القديم والانجيل .

الصابئة :

نشأت هذه الكنيسة خلال القرن الأول للميلاد ، في الشرق الأدنى . كان مضمون تعاليمهامقتبساًمن : الهندُوإيرانيةوالمسيحيةالأولى ، وقدآمنت بيوحنا المعمدان واتَّبعت معظم تعاليمه .

انتشرت هذه العقيدة العرفانية الازدواجية المعمدانية جنوبي ما بين النهرين (العراق) في البصرة ، والخرستان شرقاً . كانوا يَعدُّون (١٥٠٠٠) نسمة ، واليوم تضاءل عددهم جداً في اعتناقهم المسيحية والإسلام . كانوا يتكلمون العربية والفارسية ومعظمهم حِرَفيون وتجار .

اصلها :

يُعتقد أن هذه الشيعة قدمت للعراق من الاردن أو من فلسطين ، وانها أقدمُ عنصراً من المسيحية ويُستبعد أن تحمَل شيئاً من المسحية أو من الغنوصية الأولى (العرفانية

الحدسية) . وقد اطلق على جماعتها (الاسقف ماني) اسم : المعمدانيين او الأطهار . ويحتمل مُغادرة هذه الجماعة من شاطىء نهر الأردن إلى جنوبي (بابل) في سنة (١٣٥) حين دَمّر الهيكل ، وانها تعتبر آن مبادئها انبثقت قبل المسيح وقبل كل شيعة عرفانية قديمة .

في هذه الشيعة بعض التقارب بالمانوية ، ولعل ذلك ناجم عن تعايشهما في بيئة واحدة ، محاطين بأعداء اقوياء . من الكتب الروحانية لهذا المعتقد : (الكنز) أو الكتاب العظيم . تدور ابحاثه حول العالم والحياة الحاضرة من جهة ، وحول النظرة اللاهوتية للموت ولما بعد الحياة . وكتاب الـ (كولوستا) يحوي اناشيد مقدسة تنشد في بعض المناسبات الدينية منها العمادة ، ليسهل على المتوفَّى العبور إلى العالم الآخر .

اتضح من كتاب (الكنز) أن الصابئة تعتقد بأن الله واحد ، وانه يدعى (إله النور) أو (سيد العظمة) ودون الإله آلهةٌ عدة تدعى (أوتْراس) وهي عقول نورانية تَعني : الثراء . ودورها انها صلة بين الإله والبشر . ولهذه الالهة الصغيرة سيد أعلى مرتبةً هو (هيبل زيوا) وهو خليقة فائق الصفاء، وموحى إليه وخالق معاً . مهمته كما يبدو كمهمة العقل الكلي في الباطنية .

يوضح الكتاب نفسه أن (الأصل الأعلى) هو : الخليقة العظمى ، أو هو الـ(آون ، Eon) والـ(مانا)منه انبعثت الخليقة الثانية ثم الثالثة . وابن هذا الاخير قد خلق العالم الحسي ، واسمه (پْتاحل ـ Ptahil) . واحد هؤلاء الثلاثة المدعو (هيبل زيوا) الذي مرّ ذكره هو الصلة بين الخليقة العظمى والإنسان ، يظهر للناس ليس مخلصاً ، انما نبياً مرسلاً .

كان إيمان هذه المدرسة الروحية بالازدواجية يجعل اتباعها يعتقدون بأن في العالم الآخر اله النور وهو : إله المياه الصافية . انه الضد اللدود لإله الظلمة والمياه العكرة . كما أنه دائماً بالمرصاد للجماعة الخيِّرين ، وكل من هؤلاء سيصعد إلى مملكة الضياء الأعم .

انها ديانة منزلة منفتحة تعتقد بأن المُسمى : (منداد هاجا) قد علم آدم منذ القدم ، وأن (أنوح أُوتْرا) الذي هو امتداد للأول ، قد ظهر في اورشليم بعصر يسوع .

وإن هذه الديانة هي التي بشر بها يوحنـا المعمدان ، وهي تـدعو للخـلاص وتحمل وتعـزز القيم في الإنسان .

تعتبر هذه الديانة التعميد بالماء الصافي هو الاغتسال لِتطهـير النفس ، وذلك العمـل بدىء به في آدم ، بواسطة الإله (هيبل زيوا) ، على ضفة الاردن .

فيلون :

انه فيلسوف يهـودي عاش بـين (٢٠ ـ ٥٤) ق . م . ولد في الاسكنـدرية وأكـثر من الرمزية في الدين اليهودي صابغاً إياهُ باللون الفلسفي اليوناني ، وقد كان لآرائه تأثير عميق على المسيحية . لذا أصبح لزاماً علينا الالمام بفلسفته الروحية ، في لمحة عابرة .

استند فيلون إلى نظرية افلاطون في (الكلمة) فجعلها متوسـطة بين الالـه والعالم ، وقال أن الاله هو سبب (الكلمة) وان الكلمـة هي علة الروح ، وأن الـروح تحرك العـالم بأسره ، وتشيع فيه حكمة الخالق .

وأضاف (فيلون) معتمداً الفلسفة اليونانية : إن الواحد هـو مبدأ كـل شيء ، وانه الأقنوم الأول ، وأن العقل هـو الاقنوم الثـاني ، لكنه دون الـواحد في الكـمال ، والاقنوم الثالث هو النفس . أما هذا (الواحد) فهو (الخير) الذي يفيض عنه الـوجود ، من غـير أن يُنقصه هذا الفيض شيئاً ، وهذا الوجود يفيض عن (الخـير) لجوده ، كـما يفيض النور من الشمس .

ثم يضيف (فيلون) : بما أن كل شيء يصدر عن الـواحد ، لـذلك كـل شيء يعود إليه . وتعود النفس إلى خالقها ، بعد الرياضة والتأمل والاستغراق والغيبة عن الوجود .

تلك قبسـة من المدرسـة الفلسفية الاسكنـدرانية ، الغـالب عليهـا الإيمـان بـوحـدة الوجود (Panthéisme) .

وإن الله والكون واحد ، والكون المادي منبثق من الله . (الدكتور اسد رستم) .

الفصل العاشر
قسطنطين الأول

يصادف المؤرخ احياناً اضطراره لتدوين ظواهر خارقة ، وهو في بُعد عن اعتبارها حقيقة او أسطورة . من ذلك ما روي عن الامبراطور قسطنطين الأول الكبير (٢٨٨ - ٣٣٧) .

زعم بعضهم انه ، يوم كان الامبراطور في حرب مع (مكسنتيوس) احد اباطرة الرومان (٢٨٠ - ٣١٢) على جسر (ميلقيوس) عام (٣١٢) حيث لقي هذا حتفه ، شاهد قسطنطين ، فوق قرص الشمس الجانحة للمغيب ، صليبا من نور مكتوباً عليه : « بهذا تنتصر » . وفي الليلة نفسها ، ظهر له السيد المسيح حاملاً هذه الاشارة ، موصياً اياه باتخاذها راية يهجم بها على العدو . وفيها نفسها كسب المعركة . وقيل انه قبيل وفاته تقبل سر المعمودية .

عقب هذا الامبراطور ، جوٌساكن عصفت فيه رياح المسيحية موآتيةً ، حيث تساهلت الدولة في أمر الدين ، ولبثت في تساهلهارغم الصراعات الفكرية التي ناهضت المسيحية الام من (آريوس) واتباعه ، وعبثاً حاولت السلطة فض هذا الصراع حتى بعد موت آريوس المفاجىء . . ورغم المجمع المسكوني الذي استمر انعقاده سبعة وتسعين يوماً متوالياً ، بغية توحيد العقيدة .

قبل أن نطوي صفحة هذا الامبراطور الكبير ننوه بأنه اعفى الكنيسة من الضرائب ، ومنح تعويضات للمسيحين المضطهّدين ، وأمر بتعطيل الأعمال كل يوم (أحد) وقرر أن تكون (روما الجديدة) المبنية على البوسفور مدينة مسيحية . وجدد المعابد وانتزع من معابد اليونان وخاصة من معبد (دلفوس) معظم التحف الفنية ، ليزين بها القسطنطينية . وقامت في عهده فلسفة مسيحية توائم بين ايمان الانجيل وعلوم البشر ، كان همّها استبدال الالهة بإله واحد ، وبأن يسوع المسيح هو المخلص الأوحد . وحول الاقانيم الثلاثة ، استشرى الصراع العقائدي إلى أقصى حدوده في المشرق ، وطارت جُذاه لروما نفسها ولأصقاع اوروبا وافريقيا .

توفي الامبراطور في الثاني والعشرين من ايار (٣٣٧) المصادف يوم عيد العنصرة .

القديس اوغسطين :

عرف هذا القديس الحكيم النور عام (٣٥٤) ليسلم الروح عام (٤٣٠) بلغ من التفوق انه غدا اعظم آباء الكنسية في الغرب . هو « الذي وضع اساس علم اللاهوت » وبهمته ومطالعاته ودقة ابحاثه ، نقل جانباً كبيراً من الفلسفتين : الافلاطونية والأفلوطينة إلى الكنيسة . وقد لبثت الحياة الفكرية متأثرة به زهاء الف سنة ، ولا يزال اثره الفكري الكنسي ملموساً حتى اليوم . برزت تساؤلات حول طبيعة المسيح في مصر ، بالقرنين الرابع والخامس للميلاد ، واستمر الصراع متنقلاً من امبراطور روماني إلى آخر . والشعب على دين رئيسه، كان أوغسطين بطريك (هيبون). فعزز مرفأ (عنابا الجزائر) مانويا ، ثم تنصر وتضلّع من اللاهوت المسيحي ، محاولاً التوفيق بين العقل والإيمان .

اعتُبر (اوغسطين) مؤسس الحياة الكنسية في الغرب . وقد افحم اخصامه بما اوتي من فصاحة وعمق تفكير . وكان المدافع الأكبر عن الكنيسة حين هاجمها عاصف الدوناتية ، وكثرت البِدع على اتساع الامبراطورية .

والدُوناتية هذه، شيعة نادى بها (دونات Donate) بطريق قرطاجة، الذي حاول اثارة عامة الفلاحين ، متخذاً من بدعته وسيلة لتفجير الوضع الاجتماعي في روما ، غداة كان الامبراطور سيد الشعب والكنيسة معاً بنشاط هذا القديس الفكري . بلغت المسيحية في الغرب اقصى انتشارها في عهده . لم يكن فيلسوفاً بل لاهوتياً اشبع نفسه معارف من الرسائل المقدسة ومن شروحها المختلفة . كان مناهضاً للارستطاليسية ، وكان يقول : بالإيمان نصل إلى العقل ، عكس ما نادى به خلفه (توما الاكويني) .

كانت فلسفة هذا القديس تقول : « يجب أن نتعدى المظاهر حتى نصل إلى الكائن الحقيقي ، الذي هو ينبوع الحياة والحكمة . هذا الكائن هو في صلة دائمة مع النفس البشرية : انه ينير العقل ويثبت السلام والطمأنينة في قلوب الناس » . وتَعمّق بإيجاز أكثر فقال : « إن الشر هو غياب الخير . وليس المرء شريراً قط ، بل أن الإرادة البشرية ، برحمةٍ سماوية ، تنجز العمل الخير وتحققه » . وقال : « ليست الفلسفة الصحيحة نتاج

الحكماء ، انما هي وليدة الانبياء والقديسين ، بل الأصح هي في (الكلمة) نفسها المجسدة بـ (يسوع) .

فالقديس اوغسطين ، ذلك الفيلسوف الفصيح مؤلف : (الاعترافات ومدينة الله) هو نفسه القائل : «إن بذور الكلمة الالهية هي في جبلة الجنس البشري اجمع . وإن كل من يحيا بمقتضى الكلمة الالهية هو : المسيح الصحيح » .

نشأة البابوية :

قامت كل كنيسة مستقلة أول الأمر ، غير أن نموها وتطورها جعل للاسقف في القرن الثالث ما للملك من سلطان ، واجتمع في شخص الامبراطور مظهر السلطتين : المدنية والكنسية .

كانت في الشرق بطركيات أربع هي : بطركية (بيت المقدس ، وانطاكيا والاسكندرية ثم القسطنطينية) . وفي الغرب بطركية واحدة في (روما) . ولم يكن لروما سوى صدارة شرفية مبهمة . وقد ظل لقب (بابا) يطلق على جميع الاساقفة حتى عام (٤٢٥) . ولم يتخذ معناه الحالي إلا في القرن السابع . لكن اسقف روما القديس (فكتور) المتوفّى عام (١٩٩) ظل يمارس السيادة الروحية من سنة (١٨٩ ـ ١٩٩) ميلادية ، إذ أن روما كانت تتمتع بمكانة روحية فريدة ، لكونها الكرسي الرسولي الوحيد في الغرب .

في عام (٣٣٠) بعد انتقال الامبراطورية إلى القسطنطينية ، فقدت روما مكانها الأكبر . ولكن بعد الرجوع إلى انجيل (متى) الاصحاح السادس عشر ، تبين أن المسيح جعل (بطرس) مؤسساً للكنيسة ، وانه وهب هذا الرسول (سلطة المفاتيح) اعني سلطة العقد والحل ، ليهبها (بطرس) بدوره إلى خليفته اسقف روما، ومنه إلى كل من يتبوأ هذا المقام الديني الرفيع . جسَّد البابا (سلفستين) الأول هذه الفكرة المقدسة ، فأضحى اسقف روما ، بعدئذ رئيساً للاساقفة اجمعين .

ادارة الكنيسة الكاثوليكية :

نزولاً عند ارادة السيد المسيح ، وُكِل إلى القديس بطرس في البدء رئاسة الكنيسة ،

من بعده يتبوأ المقام الأقدس الأسقف المنتخب . سمي هذا الاسقف المنتخب (البابـا) . اعتـلى الكرسي البـابوي بعـد (بطرس) زهـاء (٢٦٥) اسقفـاً منهم (سكست الخـامس) (١٥٨٦) الذي عمل جاهداً على تنظيم الكنيسة ، مشاركـاً (غراغـوار) الثامن التصـادم مع (هنري الرابع) . هو الذي جعـل السلك الكهنوتي بعـد البراءة البـابويـة ، مؤلفاً من سبعـين (كاردينـالاً) منقسمين إلى : ستـة منهم مطارنـة ، وخمسين كـاهناً ، وأربعـة عشر كاردينالاً وشماساً انجيلياً . وكانت هناك جمعيات أخوية مقدسة عددها اثنتا عشرة أخويـة . لكل منها مهام خاصة محددة . من هذه الأخويات ما تُعْنَى باستقصاء الأمور الدينية ، ومنها لمجمـوعة الكـرادلة وللكنيسـة الشرقية ، وللمجـامـع ، وللكَهَنـة ، وللطقـوس ولـلأعـمال الاكليريكية ومدارسها وجامعاتها . وهنالك محاكم ثلاث ، ومـراكز للمحكمـة الرسـولية ، وللسكرتاريا ، وسواها .

الفصل الحادي عشر

المانوية

نشأ مؤسس هذا المـذهب (ماني بن فـاتك) في اوائـل القرن الثـالث بعد الميـلاد في إيران وبالتحديد في (١٤) نيسـان عام (٢١٦) للميـلاد . قال بمبـدأين : الخير أو النـور . والشر أو الظلام ، وإليه مـرجع اليـزيديـة . كما أنـه ألمح إلى المـلائكة والشيـاطين . درس (ماني) الزرادشتية والمسيحية ، وادعى انه هو (الفـرقليط) الذي بشر بـه عيسى قائـلاً : « أنـا رسول الله الحق ، في ارض بـابل » وقـال : اني جئت من بابـل مبلغاً دعـوتي للناس كافة .

ذكر ماني بجرأة أن الانبياء قسمان : صالحون واشرار مخربون . وقال أن رسـالته هي رسالة « زرادشت ويسوع » . المرجع : (ارثركريستنسن) .

يقول الشهرستـاني أن ماني كـان يؤمن بنبوءة المسيح وينكـرها عـلى موسى ، زاعـماً أن العـالم من اصلين ازليين : النـور والـظلمـة ، وأن كـل شيء قـديم . وإن العنصرين همـا كـالشخص وظله ، متحاذيـان أبداً ، وكـلاهما مـدرك وسميع وبصـير . لهما جـدول منسق واضح ، نوجزه :

نور :		ظلام :
الجوهر : صافٍ فاضل ـ حسن	=	خبيث ـ ناقص ـ قبيح
النفس : خيِّرة ـ كريمة ـ عالمة	=	شريرة ـ لئيمة ـ جاهلة
العقل : الخير ـ الصلاح ـ النظام	=	الفساد ـ الضرر ـ التشويش
الصفات : حية ـ خيرة ـ طاهرة	=	شريرة ـ دنسة ـ نَجِسه
روحها : النسيم الذي يحركها	=	الدخان الذي يحركها .
		(عن الشهرستاني) .

يـزعم ماني أن آدم من خلق الشيـطان ، ولكن هـذا اغـراه واختلس لـه من السماء نورها ، رآه الملائكة يتخبط بهذه الأنوار فسارعوا لانقاذه، وما برحوا عاملين على خلاصه من قبضة الشيطان .

اعتبر ماني وجماعته اجنـاس النور خمسـةً : النور والنـار والريـح والماء وهي أبـدان ، وروحهـا : النسيم . واجناس الـظلام خمسة هي : الـظلمة والحـريق والسموم والضبـاب وهي كذلك ابدان وروحها : الـدخان . . ونـادى بأن رفـع اجزاء النـور يتأتى : بـالتسبيح والتقديس والكلام الـطيب والمبرات ، فـترتفع الاجـزاء اولاً إلى القمر ، وهـذا لدى كـماله يبعثها إلى الشمس ، ثم هذه تطلقها إلى أعلى فأعلى . وان إله النور ظاهر وباطن ، لا يخلو منه شيء اطلاقاً .

قال الدكتور حسونه ؛ « لم يُحجد (ماني) بزرادشت ولا بالمسيح ولا ببوذا وشكك في غيرهم . وكان رصيناً معتدلاً مجدداً وجريئاً .

ماني :

حذر ماني من الكذب والقتل والزنا ، ومن كل الموبقـات ، ومن ذبح الحيـوان شفقة عليه . وكان يدعو إلى العزلة والتبتل .

حين نقرأ لهذا النبي (صلاة الاعتراف) و (خراستـونيفت) نجد في صلب العقيـله اشاعات لامعة لمكارم الخلق والتسامح والمحبة والطهـر ، وكم كان فنـاناً مـاهراً في تصـوير الجنة والجحيم ، كما تخيلها وزعمها حقيقة ثابتة .

وقد كان (زرفان) معبود أحد المذاهب الايرانية . في رأي ماني هو العظيم الأول .

أو هو الكائن الأعلى ، وأن (أَهْرَمَزْد) هو الرجل القديم الذي نسل خمسة ابناء هي : النسيم والريح والنور والماء والنار . وقد حارب زرقانُ الشرَّ مع اعوانه ، فخسروا المعركة ، وسمَّم لأولِ ابنٍ لأخيه ، وبهذا فقد اختلطت العناصر النورانية بالمظلمة ، فكانت عناصرنا نحن البشر ، ولها صفتا الطيبة والخبث معاً .

يقول هذا النبي بأن (عيسى) الصحيح هو غير الذي صلبه اليهود . أما عيسى الحقيقي في نظره ، فهو الذي أرسل ليهدي آدم الطريق المستقيم . عن (كريستنسن) . آمن ماني بالتناسخ ، وكان مبدأ خاصاً بتعاليمه الدينية على أن المؤرخين هنا لم يوضحوا نوع التناسخ ، هل هو تقمص روح بشرية بروح بشرية ام هو تناسخ بمعناه الصحيح ، اعني انتقال الروح البشرية إلى جسد حيوان أو جماد أو نبات . . وما ذكر المؤرخون شيئاً عن مصير النفوس المظلمة ، هل تضمحل ام تبقىٰ في العذاب . لكن ايمان هذا المُلْهَم بوجود جنة وجحيم يدعونا إلى الاعتراف بخلود ارواح الأشرار هنا ، والصالحين هناك .

طبقات الدين :

ليس في هذا المذهب كهنة بالمعنى المعروف انما هناك خمس طبقات متفاوتة : أصحاب الحلم وعددهم اثنا عشر ، وأصحاب العلم ، وعددهم اثنان وسبعون ، وابناء العقل ، ويعدُّون (٣٦٠) ثم هناك الساعون أي ابناء الشعب غير العارفين ، ثم الصدِّيقيون أي العارفون وعددهم غير محدود . كانت على الصديقين في هذا المذهب شروط قاسية معينة ، منها : الامتناع عن أكل اللحم ، وعن الشهوات الجنسية والخمر والثراء ، ثم عدم اكل الخضار ، لأن فيها تتسرب ذرات النور .

وعلى السمَّاعين : احتقار ملذات الدنيا ، والاستقامة في العمل ، ومعاونة الصديقين بكل ما أوتوا مادياً ومعنوياً ، لأن هؤلاء يصلّون من أجلهم ، فيكفَّر عن خطاياهم .

هذه الديانة العرفانية التي خاصمت الكنيسة الكاثوليكية بعد القرن الثالث وما قبل ، كانت مؤمنة بازدواجية الله والمادة ، والنور الصالح والظلام الوَبِيء .

كانت المستندات التي توضح حياة وتعاليم ماني غامضة ، بسبب العداء الشرس الذي حملته له الكنيسة الكاثوليكية ، في كل صقع . لكنها ظهرت اخيراً ، وتدارستها البعثات الغربية ونشرتها . عُثِر على بعض آثار المخطوطة في التركستان الصينية والعجم .

تتضمن رسائله التبشيرية ، وفاته وصعوده إلى السماء . كما عثر على بعض آخر في بلاد القبط وفي (أفيوم) المصرية ، يحوي مقدمة إلى هذا العالم ، والامه والايحاءات التي نزلت عليه

وعثر لماني على مخطوطة هي (بوذا مانية) ترجمت من الايرانية إلى الصينية . وقد تبين للباحثين أن لهذه الشيعة جذور تعود إلى الصابئة ، وإلى تعاليم يوحنا المعمدان . ثم ما لبث ماني أن نقض هذه التعاليم ، معتمداً على آرائه الخاصة التي استوحاها من « سيد جنة الأنوار » الإله الصالح الأعظم ، بواسطة الملاك « أتوم » أعني (الفراقليط) وهو الذي انزل عليه الحقيقة الكاملة . وقد اتحد هذا الملاك بماني نفسه معتبراً انه آخر المرسلين . أو لعل ماني قد اعتبر (أتوم) هذا هو نفس (أتون) مصر الأسبق . وبعد نضال سياسي ، جاهد هذا الرجل لنصرة ملك فارس (شاه بور) في قتال اعداء البلاد . كان ماني مستميتاً في بث دعوته التي صادفت قبولاً في انحاء الوطن وخارجه . بعد ذلك توفي (شاهبور) ثم ابنه (هورمزد) وجاء (بهرام الأول) الذي تنكر لتعاليم ماني ، فاضطهده ثم سجنه ، واثقل ساعديه بالاغلال ، حتى لقي حتفه في السادس والعشرين من شباط سنة (٢٧٧) .

كانت ديانة ماني ذات « كتاب » وكنيسته قائمة على سبعة كتب قانونية تتضمن العلم الكامل المنبثق من هذا (الفرقليط) . من هذه الكتب : الانجيل الحي ، وكنز الحياة ، وكتاب الأسرار ، والكتاب الذي أهداه إلى الملك ، ويسمى : (الشهبور خان) .

رغم ما اقتبسته المانوية عن الزرادشتيّة والبوذية ، فان طابعها الأصيل هو العرفانية الغنوصية ، التي لا تقف عند الخلاص وحسب ، بل توجب على الإنسان ان يتقرأ ذاته ، وأن يكشف من خلاله العلم الالهي ، ومعرفة كل ما يبعث فيه الخلاص الناجز . يعتبر الله : حقيقة وصلاحاً ، ولم يتعمد جعل هذا العالم عالم آلام وبهتان . وكان ماني يصرح مؤكداً وجود الهين : احدهما المتعالي والمتعاز والصالح ، والآخر : الاله الخلاق . وهذا مُشيرٌ بيِّن إلى الباطنية التوحيدية في الإسلام ، حيث الله منزه متعاز والعقل الكلي هو الخالق وهو محاسب عباد رَبِّه يوم الدينونة .

ورد في : (المللل والنحل) أن المانوية كانت تؤمن كالمجوسية ، بالهي النور والظلام ، وكانت تزعم أن اله النور هو القديم فقط ، على عكس تلك التي تعتبر الالهين قديمين » .

وتـابع المؤلف : آمن مـاني بـالمسيـح ورفض دعـوة مـوسى ، والنـور والـظلمـة همـا كالشخص وخياله ، لكنهما متضادان ابداً .

اعتقد (ماني) بـأن السعادة الابـدية لـلإنسان ، تـأتي بواسـطة : إلهين مخلوقـين ، من أجل خلاصـه . لكنه تـرك وراءه عناصر خمسـة متتاليـة من أصل عـدته . لكي يحـرر هذه العناصر ، صنع العقل الأكمل النابض :السماء من جلودهـا ـ اعني العناصر ـ والجبـال من عِظامها ، والأرض من لحمانها وفضلاتها . والرسول الثالث يُنقـذ العناصر النـورانية البـاقية في ا مالم . لكن المادة المجسـدة في المتع والشهـوات الجنسية ، خلقت الشيـطان والشيطانـة معاً للذين نسلا (آدم وحواء) وما تبقى من الأنوار المنحطة تجمَّع في آدم . وبينما كان آدم مستغرقاً في سباته ، أرسـل إليه صـديقٌ مخلِّص هو (ابن الله) . هـذا المخلص متحد مـع الإنسـان الأقدم ، أو مـع (يسـوع النـوراني) المجسـد في العقـل المخلص . هـذا العقـل المخلص ، ايقظ آدم واظهر له الحقيقة الغنوصية الحدسية ، ومنذ ذلك الحين أصبح الرجل الأول حُـراً وصالحاً مدى الدهر .

نهاية المطاف :

إن النفوس التي انساقت وراء مغريات الدنيا ، غير عابئة بما كانت تكتنز من نورانية مقـدسة ومجنـدة لاخماد هـذا النور ، وخـاضعة للعقـل المضاد الشريـر ، المعـادي للكنيسـة واتباعها ، هؤلاء النـاس سيحرمـون من السعادة الأبـدية ، ومن مجـد الملكوت المقـدس ، لانهم استسلمـوا مختـارين للشر . بينـما النفـوس التي الـتزمت في حيـاتهـا العفـة والـزهـد والصلاح ، فتأتيها العقول النورانية ، وتندحر من امامها العقـول الشريرة لِتقـودها إلى دار السعادة والبقاء ، في دنيا الأنوار الخالدة .

الصلاة :

حين يود المـانوي القيـام بواجب الصـلاة ، عليـه ان يقف مستقيـماً ، وأن يغتسـل بالماء ، أو بأي سائل مُمكن ، متجهاً شطر الضياء الساطع ، ثم يسجد مردداً : « مبارك هو رائـدنا الفـرقليط ، المرسـل من النور المقـدس ، ومباركـة هي الملائكـة الساهـرة ، والمجد للجنود النورانية » . ثم يعود مكرراً وهو منتصب : « المجد لك يا ماني المنور، فإنـك أنت رائـدنا ، وأنت ينبـوع استنارتنـا ، وعنوان صـلاحنا ، وأنت مخلصنـا الأوحـد » . ويكـرر

المصلي سجداته وابتهالاته لسيد الأنوار ، وللالهة الأدنَين والملائكة ، اثنتي عشرة مرة .

بشيوع المنوية هذه ، وجب على الكنيسة الكاثوليكية المثابـرة على دحض تعـاليمها ، وتسفيهها بواسطة المجامع والمؤتمرات لترسيخ الإيمان ومحاربة البِدع والمذاهب المختلفة .

مؤتمر نيقيا :

اسفر مؤتمر (نيقيا) عن المقررات الصريحة التالية :

(اننـا نعتقد بـاله واحـد ، الأب الفائق القـدرة موحـد كل شيء ، انـه مرئي وغـير مـرئي ، ونؤمن كذلـك بسيد واحـد ، هو يسـوع المسيح ، ابن الالـه الأب الوحيـد ، فيه جوهر أبيه . انه إله من إله ، ونور من نور ، وإله حقيقي من إله حـقيقي ، مساو بجوهره لجوهر الله . بواسطتـه وجد كـل شيء . من اجلنا نحن البشر ، ومن اجـل خلاصنـا هبط الأرض متجسداً بشراً ، ثم تألم وبُعث حياً في اليوم الثالث لصلبه ، حيث صعد إلى السماء بانتظار عـودته إلى الأرض لمحـاسبة الأحيـاء والأموات . كـما اقر المجمـع كذلـك :(الروح القدس) وتابع المجمع ؛

(إن اولئـك الذين يعتقـدون بأن المسيح لم يكن مخلوقاً في زمن مـا ، وانه خلق من العدم ، أو من جوهر دون جوهـر الله ، وأكدوا أن ابن الله مخلوق قـابل التغـير والتبدل ، هؤلاء استحقوا من الكنيسة الكاثوليكية الحرمان ، وتسموا بالأريوسيين نسبة لأريوس الذي سنوليه دراسة اشمل لاحقاً .

بعدئذ ، انقسم المذهب الاريوسي إلى ثلاث شيع :

١ ـ الانوميون وهم الذين نادوا بأن الابن لا يشبه اباه .

٢ ـ النصف آريوسيين الذين يعتبرون الكلمة يشبه الأب بالجوهر وبغيره .

٣ ـ السـاسة الـذين قنعوا بـأن يعلنـوا أن الكلمـة هي شبيهـة بـالأب ، دون زيـادة توضيح .

وقبل أن تُبعث الاريوسية بعد مجمع (نيقيا) كـان قد نـاهضها القـديس (أمبرواز) الميلاني مع جماعة من اقطاب الكنيسة الكاثوليكية ، فأخمدوا انتشارهـا لحين ، ثم تصعـدت جذْوتُها على امتداد الشاطيء الشرقي للمتوسط .

الفصل الثاني عشر

الجدل الكنسي

خلال القرن الثاني للميلاد ، صبغ المسيحية العالم العظيم (اوريجانوس) بصبغة أفلوطينية مسيحية . إذ كانت بعض الرسل تسمى بأسماء آلهة اليونان : (بولس - هرمس - ، برنابا . زفس . . .) ونزلوا عند رأي العامة بتعدد الآلهة في البدء ، لكنهم أسموها آلهة شريرة . سلمت الكنيسة الأولى بتلقيب المسيح : ابن الله . أما مسيحيو (أورشليم) فيرون فيه : (المسيا) الموعود به والذي أتى (لا لينقض الناموس بل ليكمله) وتغلبت المسيحية على الفارسية حين أسمت المسيح المخلص الأوحد ، بدلاً من (ميترا) .

يومذاك احتدم جدل عنيف وطويل ومنتشر حول : العلاقة بين الأب والابن . أهو اله ، أم هو صنيعته ، أم انبثاق منه قبل وجود عوالم . وإذا كان انساناً كاملاً والهاً كاملاً ، فما العلاقة بين الناسوت واللاهوت فيه ؟ هل حل الله بناسوته أم اتحدا أقنومياً . وإذا كان الاقنوم الثاني من الثالوث حقيقة قد حبل به من الروح القدس ، وولد من مريم العذراء وصار جسداً ، فهل كان للمسيح المتحد على هذه الصورة ، طبيعتان ومشيئتان ، أم طبيعة واحدة ومشيئة واحدة لا غير ؟ وإذا كان المسيح الهاً كامل العلم والحكمة ، وبوصفه بشراً ، ولد بلا خطيئة ، فكيف يمكن أن يكون بشراً حقاً ، ما دام البشر بطبيعتهم خاطئين . وكيف يمكن أن يُستهدَف لما يستهدف له البشر من تجارب ومغريات ؟؟

لقد سبب هذا الجدل الفلسفي وانتصار المسيحية على الوثنية حقداً من هذه الاخيرة على تلك العقيدة . والمتعارف مسيحياً أن « كل من يبغي الخلاص لا بد له اولاً من أن يدين بالإيمان الجامع : « كاثوليك Catholic . ولكن ما الايمان الجامع ؟ . هو ما يرون في الفرق بين الكلمتين : (هونكونسيوس Honconsios) أي السماوي في الجوهر ، وبين (هومويزيوس Homoisios) المشابهة في الجوهر ، ويعنيان : التوحيد والشرك ، أو : السماء والنار .

في نهاية القرن الثاني شاعت طائفتان : قالت احداهما بالتبنّي ، أي : إن المسيح لم يكن سوى إنسان حُبل به بمعجزة حقاً ، وتبناه الرب لامتلائه بالحكمة والقوة الالهتين .

وقالت الثانية واسمها : المصورون ، (موداليْستوس Modalistos) : ان المسيح كان صورة الله ذاته .

وكان في اواخر القرن الثاني ، قد نادى احد علماء الكنيسة (مونتانيوس) صاحب البدعة التي تحمل اسمه ، بأعتبار المسيحية الأولى هي الينبوع الأصفى للمسيحية السليمة ، كما نادى بوحي ثالث هو روحي الفرآقليط عام (١٧٢) وتعني الكلمة : المستغاث به ، وهو الاقنوم الثالث أي : الروح القدس .

وصرح بعدهَ الروماني (أياتيوس Aétios) وجماعته اللاهتيون بأن الله لم يشرك في جوهره ابنه ، إنما أشركه في القدرة الخلاقة (أنْ أمويوس An Amoios). واحتضنت هذه الفكرة جماعة من المسيحيين، منادية بتباين جوهر الله عن ابنه وسميت بـ (الأنومية Anoméenne) وقضى فيما بعد ، مجمعا (نيسا والقسطنطينية) على هذه البدع المختلفة ، حول الثالوث والتجسد ، معلنين : عقيدة ألوهة الروح القدس كما هي الحال في (الكلمة) الالهية وفي الأب .

على هذه التوصيات قامت بعدئذٍ دعائم الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية ، في تعريفها النهائي للثالوث الأقدس . ومغزى تعليمات (تيودور دي تارس Tiodore de Tarse) : إن الابن مساوٍ في جوهره للاب ، وابن (داود) مولود من (مريم) ، وهي التي حملت به وأنشأته ، وكانت هي الهيكل لـ (ابن الله) وعقبه (أنستاز Anastase) الذي أنكر على المسيحية تسمية مريم بـ (تيوتوكوس ، Théotokos) أي والدة الله كما هو متعارف .

ولكن إذا لم يكن هناك شخص آخر بأسم يسوع ، وكان هو واحداً ، وكان إلهاً أو ابن إله ، وجب أن تكون مريم والدة يسوع الإنسان ، وفي الآن ذاته ، هي والدة الله .

وقضى نهائياً المجمع (الخلقدوني) على هذه الفذلكات ، حين اعتبر للمسيح شخصية واحدة ذات طبيعتين ، احداهما بشرية والثانية الهية ، وكلتاهما متحدة جوهرياً بالاخرى . (هـ . روسو ، H. Rousseau) وقبل إنجاز هذا الموضوع الجدلي الديني ، لا يسعنا إلا أن ننوه بما أثبته الناقد (عباس م. العقاد) في كتابه الله ص (١٥٤) قال :

« لقد اكثر المشككون بوجود السيد المسيح ، وحجتهم أن تاريخ اعياد كثيرة للمسيحيين ومواصفاتها ومسبباتها هي شبيهة بمواصفات ومسببات اعياد الديانات السابقة ،

والتاريخ واحد غالباً . من هذه الأعياد : العشاء الرباني (السري) الذي كان معروفاً في عبادة (ميترا) الفارسي ، وكان مولد المسيح مطابقاً لموعد الاحتفال بمولد الشمس ، في الديانة نفسها ، بدليل أن يوم الأحد ما زال يحمل بالانكليزية اسم : يوم الشمس (سانداي Sunday) ومثله عيد الغطاس وعيد الأم السيد المسيح » .

ويتابع الناقد: «أما الثالوث فقد عُرف بالمصرية الأولى والهندية . كذلك عُرفت أم يسوع : مريم . كانت أم (كرشنا) الهندي : (مارتالا) وبوذا : (مايا) ، وادونيس : (ميرا) ، وهرمس (مايا) أيضاً ويُضيف الناقد :

«وكانت معتقدات كثيرة تتصور أقطابها مولودين من امرأة (عذراء) منهم: الرومان والمصريون والصينيون واسياؤهم : (اتيس ، رع ثم فوهي ولاوي) وأضاف الناقد : « قد ورد في انجيل متى أن يوسف النجار كان قد رأى في منامه (هيرودس) مصراً على قتل كلّ طفل يولد في (بيت لحم) بذلك العام . وثبت للمشككين أن هيرودس هذا قد لقي حتفه قبل مولد يسوع بأربع سنوات ، كما أن المؤرخ المعروف : (يوسفيوس) حين كتب تاريخ : « آثام هيرودس » ، بالتفصيل ، لم يذكر شيئاً عن مذابح الأطفال التي سبق التلميح إليها». تلك أقاويل، أن ثبتت تاريخيا، فهي لن تؤثر في شيء على العقيدة التي نشرها ، ومات من أجلها المسيح . فالمسيحية لم تناد بأنها رفضت كل قديم ، ولا يمكن أن ترفضه جملةً ، لأن للبيئة حق المداراة ، وقد لوحظت هذه المداراة في كل دين سابق ولاحق بالمسيحية .

أما القول بأن عذراوات كثيرة نسبت إليها الأمومة لمواليد غدوا أقطابا روحيين واجتماعيين ، فذلك ما اكده التاريخ ، كما ادرك العقل البشري المستنير ، أن الإيمان بالروحانيات ، لم تنجم فسائله وتتأصل جذوره ، في المسيحية وحسب . أن الحضارات التي ذكرها الناقد كانت تؤمن بالقوى الروحية وبالكائن الأعلى ، الذي يتصرف بعباده حسب مشيئته . فالمسيحية هنا لم تأت بدعة مستهجنة ، وقد افحمت الآية الكريمة كل مرتاب وشاك بقولها : « إن الله على كل شيء قدير » . هذا منطق كل مستسلم للروحانيات منذ نشأتها . وما ادرانا بأن تلك العذراوات لم يكنّ على مستوى رفيع من القداسة شأن العذراء مريم . فمتى جلجل الإيمان في الصدور ، تعثرت الفلسفة وتخدّر المنطق ، مهما تتوافر المحاولات للتوفيق الكامل بين المنطق والإيمان . وأدلت جماعة

لاهوتييون بآراء مختلفة ومتباينة حول تجسد المسيح . نلقي لمحة عجلى على ذلك :

قال (أبيزن) : إن المسيح إنسان لا إله، ولد ولادة طبيعية من أبوين معروفين .

وقال (كيرنثوس) : إن أحد الأرواح الخالدة حل على المسيح اثناء التعميد

وقال (بولس الشميساطي) : إن المسيح انس محض ، حلت فيه الحكمة الالهية .

وسواهم قال : انه جسم خيالي من السماء مر مروراً في بطن (مريم) كما تمر المياه في قناة . وقال (ماني) : إن جسد المسيح السماوي الخيالي أعيى على اليهود أن يمسكوا به ، نظراً لرهافته المتناهية . وفي القرن الرابع نادى (أبوليناريوس) بأن (الكلمة) اخذ جسداً نامياً بلا روح وأن اللاهوت قد مارس وظيفة الروح في المسيح ، وامتزج بالناسوت حتى انه تحمل الصلب والموت، وقيل ان (الكلمة) لم يتخذ جسده من (مريم العذراء) بل أتى به معه من السماء . وعكس غيرهم هذه النظريات فقال : إن مريم مقدسة بل معبودة ، وأن شيئا من اللاهوت قد حل فيها أثر حلول الروح القدس عليها ثم تجسد (الكلمة) فيها .

وصرحت جماعة من اللاهوتيين في القرن الخامس ، بوحدة طبيعة المسيح منكرةً إنكاراً انه انسان اختلطت فيه طبيعتان ، حتى استحال الناسوت متلاشياً كُلياً في اللاهوت .

واعتبر البابا (اثنا سيوس) هذه الفذلكات شعوذة على الحقيقة ، وعلى الكنيسة أن تحرمهم من بركتها . وقبل أن تقول الكنيسة الكاثوليكية الكلام الفصل في الجسد والثالوث ومريم العذراء، نوجز رأي (نسطور) في هذا الموضوع ، قال : « يجب فصل طبيعة يسوع المسيح اللاهوتية عن طبيعته الناسوتية ، ويتوجب أن تحرم العذراء من القداسة ومن لقب والدة الإله ، بل هي أم يسوع ، بحيث أن أمومتها صادرة عن ناسوته وحسب ، أما يسوع (كلمة) الله ، فهو قبل الدهور ، ولم يحوه بطن قط . وإن من يولد من جسد فهو جسد ، وتعالى عن ذلك يسوع الرب » . وسنوضح النسطورية لاحقاً .

وقالت الكنيسة الكاثوليكية في القرن نفسه : « للمسيح طبيعتان ، اتحدتا لفظاً وانفصلتا فعلا» . وأوضح ذلك البابا (ليو الأكبر) في رسالته إلى مجمع (أفسس) الثاني قائلاً : « حقاً يأتي المسيح الاثنان : الاله والإنسان ؛ ؛ الأول يبهر بالمعجزات ، والثاني يتلقى الأهانات » .

وكان احد مجامع (خلكدونيا) على شاطيء البوسفور قد تبنى هذا الرأي في عام (١٥١) ودوى صوته مصرحاً بلسان مجموعة من كبار اساقفة المجمع المسكوني : (إن المسيح اله تام ، وإنسان تام ، وهو معروف واحداً بطبيعتَين متحدتَين بلا اختلاطٍ ولا انفصال ، ولا انقسام ، ولا ابتدال . وقد هيمن هذا الاعتقاد على كنائس روما واليونان وبعدها على البروتستنتية .

ولدى بلوغ الصراع الفكري المسيحي اوج احتدامه ، انقسمت الكنيسة إلى شرقية وغربية : كاثوليك وارثوذكس . احتفظت الكنيسة الغربية الكاثوليكية برأيها ، بينما الارثوذكسية قد أكدت اتحاد الطبيعتين في المسيح ، لفظاً وفعلاً ، وجارى هذه الكنيسة كلٌّ من الكنائس القبطية والسريانية والأرمنيّة . انها طبيعة واحدة (للكلمة) المتجسد .

ومن الأدلة التي استند إليها هؤلاء الشرقيون قول يسوع : (قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن) وقوله : (أنا هو الأول والآخر . . وها أنا حي إلى أبد الآبدين) . وجهر بعده بولس الرسول بـ : (إن يسوع هو . . اليوم وأمس وإلى الأبد) .

لقد اجتمعت المشيئتان في واحدة مؤلفةٍ من كِلَيهما .

ولنا عودة إلى هذه الآراء والمجامع نزيد توضيحها في البحوث اللاحقة .

الفصل الثالث عشر

اريوس : (٢٥٦ - ٣٣٦) م

كان الكاهن (لوسيان Lucien) المستشهد سنة (٣١٢) احد تلامذة الاسكندرية . في العام (٢٦٨) أكد أن الكلمة صار أقنوما في يسوع المسيح ، وأن هذا (الكلمة) هو جوهر تالٍ خلقه الله قبل خلقه العوالم كلها . ونزل إلى الأرض واتخذ جسداً شغل فيه مكان الأصل العقلي أو الروحي . وصرح الكاهن بأن المسيح لم يكن إنساناً كاملاً، لأن العنصر الشخصي فيه ، كان جوهراً إلهياً كما انه لم يكن كذلك جوهراً كاملاً ، لأن الجوهر الالهي بعد أن أصبح شخصاً لم يعد هو الاله الواحد ، ولم تعد له طبيعته . تلقف آريوس هذه الفكرة وهو تلميذ (لوسيان) ، وخريجُ مدرسة انطاكية ، تم توسع فيها وفلسفها ، وساعده على مثل هذه البحوث الكنسية كونه خطيباً مصقعاً ، ورجل دين ،

واسقفاً لكنيسة الاسكندرية ، كما كان ناسكاً متقشفاً ، عاش ومات في جو القداسة . ثم اندفع إلى القول بوحدانية الرب وبساطته ، فزعزع لوقت مديد أو كاد، الكنيسة حين جهر بأن الابن هو كائن مخلوق ، اعطاه الله وجوداً قبل كل موجود ، وكان قوامه « اللاكينونة » . يومذاك لم يكن للكنيسة نظام عام ، ولا عقيدة رسمية . فقلقت زمناً لهذا النداء ، حتى قيّض لها القدرُ امبراطوراً رومانياً هو (قسطنطين) عطف على المسيحية الأصيلة سنة (٣٢٤) ثم اعتنق ديانتها ، وجعلها دين الدولة الرسمي . كان قسطنطين حذراً في تسامحه مع هذه الديانة ، لكنه كان متسامحاً كذلك مع سواها ، حفاظاً على الأمن والاستقرار في امبراطوريته، وبناء على ذلك فقد بذل الجهود المتواصلة لتوحيد الصف الكنسي .

وفي عام (٣٢٥) كان مجمع (نيقة) قد انعقد بفضل نشاط قسطنطين واصراره ، وترؤسه له ، فأحتدم النزاع الفكري بين (اثناسيوس) ممثل الكنيسة الكاثوليكية وبين آريوس رئيس كرسي الاسكندرية . ناصر (آريوس) معظمُ اساقفة الشرق المؤمنين جميعاً بأن المسيح هو ابن الله ، لكنه لا يشترك مع (الآب) في مادته ولا في خلوده . انه مخلوق بل هو أول المخلوقات وأسبقها للوجود .

ننقل بلسان المؤرخ الكنسي المعروف (سقراط) هذه الرواية المعبرة حول آريوس ونهايته : لدى خروج آريوس من عند (قسطنطين) قبيل عقد المجمع الكنسي ، اصيب بأسهال حاد عقبه نزيف قضى عليه في ساعته .

لم تنته (الآريوسية) بموت مؤسسها ، بل اتخذت اشكالاً من الصراعات والاجتهادات جعلها تتركز ، ويتسع نفوذها لفترة من الزمن .

عقيدة آريوس ؛

كان هذا الأسقف الملسان يعتقد بوحدانية الله واحديّته وسرمديته وأن الكلمة هو بدء الخليقة كما ألمحنا . خلق من العدم لا من عنصر إلهي ، ومنه انبثقت المخلوقات. اتخذه الله ابناً له ، ومنحه حق التصرف مختاراً بخليقته . هذه البنوة لا تجعل له اية صلة حقيقية بالالوهة ولا أي تماثل لها ، لأن الله لا مثيل له . فالمسيح هو الروح القدس (الكلمة) وهو السابق في الخلق ، وقد استحال (الكلمة) جسداً في يسوع ليكمل

وظائف النفس . هنا يتلاقى آريوس بالباطنية التوحيدية العالمية .

آريوس بهذا المعتقد ، لا يبعد عن الغنوصيَّة المسيحية . الرب في نظره مجرد ، فائق الوصف . وغير محدود . اتخذ من (الكلمة) وسيلة للصلة بين الخالق والمخلوق وهذا (الكلمة) قد استمد من الله الجوهر الالهي . انه يحمل غير القدرة الخلاقة هذه : يحمل شكل المخلوقات .

يتصل الكلمة بالرب بواسطة الروح القدس، لذا فأننا لا نستطيع حصر هذه البدعة بالتوحيد السليم أو انها تجنح لشخصية متميزة جاءتنا بالنقل معتمدة على النص .

واستمر الناس طيلة القرن الثالث محصورين فكرياً في هذا الاطار ، متوسمين الانطلاق منه لآفاق أكثر وضوحاً . لكن تلامذة (لوسيان) الانطاكي نهضوا لتوضيح فكرة وحدانية الله . قالوا : انه واحد احد ، والالوهة كلها في الأب ، وأن الكلمة هي أول المخلوقات فهو إذن مخلوق لا خالق . بهذا قد حددوا بصراحة ووضوح ماهية الله ويسوع معاً .

لكن ممثلِي الكنيسة الكاثوليكية : (اسكندر وأتاناس) الاسكندريّين ، اقرا بالوهة الكلمة ، وانه واحد من الله ، وأن المصلحة الدينية تترأس كل شيء . والذات السماوية المجسدة في يسوع ، هي الرب بذاته ولا يشبه ربا أو ينقل كلام الرب . وإذا كان كذلك هو (الكلمة) فَلَنَا أن نعتبره مخلصاً . وتبنت الكنيسة هذا المعتقد ، غير عابئة بأصول الفلسفة الشائعة في ذلك العصر .

تاريخ العقيدة :

اقرت المجامع الكنسية في الاسكندرية بأن الاراء الاريوسية باطلة ، لانها تخالف ما جاء في الاناجيل. والبطريك (اسكندر) إعترف بالألوهة الصريحة الحتمية للمسيح، فيما كان اريوس واتباعه يعتبرون المسيح الهاً ثانوياً أو هو منسوب للألوهة .

رغم أن الاريوسية خمدت جذوتها أو كادت في الاسكندرية غير انها اتقدت في فلسطين وشمل توهجها آسيا الوسطى ، ولم يطرأ على هذه البدعة تطويرات في الجوهر بُعيد وفاة (آريوس) منشئها، إذْ استمرت تعتقد بأن الله واحد، لا يُعرف. لكن من

المستطاع تحديدهُ بالصفات . وهو قريب الشبه باله العهد القديم ، واعتبرت هذه البدعة (الكلمة) أول مخلوقات الله ، بواسطتها خلق العالم ، والابن ادنى مرتبة من الأب ، والروح القدس مخلوق بواسطة الابن ، فهو إذاً أدنى مرتبة منه (هـ . روسو . H. Rousseau) بهذه العبارات الموجزة اختصرت المدرسة الآريوسية تحديد الله ، والثالوث والتجسد ، قبل أن يحيق بها التفسخ والاضمحلال .

الفصل الرابع عشر

النسطورية

كان أهل الاسكندرية الذين مثلهم المطران (كيرلُّس) يلقِّبون العذراء : بوالدة الاله .

وحين تولى (نَسطور) رئاسة الكنيسة في القسطنطينية ، بصفته اسقفاً لها عام (٤٢٨) ميلادية ، تمكن من قمع البدعة (الأريوسية) معلناً أن منح العذراء هذا اللقب ، يعتبر تجديفاً وعملاً باطلاً إذ أن الله الخالق لا يمكن أن تكون له أم .

وكانت نهاية (نسطور) النفيَ فالموت . على أن جهود هذا المتشرع قد أثمرت بعد موته في تأسيس كنيسة جديدة هي : (النسطورية) في الشرق الأدنى ، وما لبث أن امتد نفوذها لبلاد فارس ، متخذاً منها ملكها المجوسي ، سلاحاً يقاوم به الكنيسة الارثوذكسية .

وفي العام الألف للميلاد كانت النسطورية قد تملكت نفوس معظم سكان سوريا والعراق وخراسان . ثم انتقلت إلى الهند والصين ، ودامت بعد الفتح الإسلامي ، حيث مزَّق جماعتها ، ودمر كنيستها المجتاح : (تيمورْلنك) . فلجأ مَنْ تبقّى مِن النساطرة إلى جبال كردستان ، حتى الحرب الكبرى الأولى . وبعدها شملتهم الدولة البريطانية بعين رعايتها ، لمصالحَ استعماريةٍ ، وانزلتهم العراق ، وما برحوا .

نسطور :

ولد نسطور في العام (٣٨٠) للميلاد في المنطقة الشمالية من سوريا ، تعلم في مدرسة

انطاكيا والتحق بالكهنوت ، فغدا كاهناً لأحد الاديرة المجاورة للمدينة . كان خطيباً بليغاً وارتقى إلى منصب أسقف إسطنبول في سنة (٤٢٨) هناك أعلن الصراع العقائدي الفكري ضد الآريوسية والارثوذكسية معاً . ولكن لم يسعده الحظ حيث تسلم رئاسة الكنيسة في اسطنبول بطريق جديد ، وقف مدافعاً عن كاهن انطاكي صحبه ، منادياً بأن العذراء هي أم الله .

وجد نسطور نفسه معزولاً بعد أن نقضَ نظريتَه الروحية بطريقُ الاسكندرية كذلك ، فلجأ إلى معزل خاص ، بجوار انطاكيا . لكن الامبراطور (تيودوس الثاني) تعقَّبه ناقماً ، ونفاه إلى جنوبي البحر الميت، ثم ابعده إلى مصر العليا ، حيث انقطع نهائياً عن العالم في قفرٍ بليبيا عام (٤٥١)

البدعة النسطورية :

لكي نتأكد حقيقة العقيدة النسطورية ، لا بد من العودة إلى مصدر ثقافة نسطور . كان بطريق القسطنطينية تابعاً لمدرسة انطاكيا ، حيث تلقى نسطور علومه اللاهوتية . وهذه المدرسة اعتمدت المعنى الحرفي للإنجيل ، بعكس مدرسة الاسكندرية التي اعتنقت الروحانية وأنسنَتِ المُخلِّص .

اقرت هذه المدرسة الانطاكية الاحتفاظ بازدواجية المسيح ، نافية وحدانيته اطلاقاً . لكن الاساقفة والكهنة ظلوا مترددين وبصعوبةٍ تقبلوا الاعتراف بالعنصر الإنساني في المسيح . كان انساناً واقنوما انسانياً . وكان الكلمة اقنوماً إلهياً ، مما يؤكد للمدرسة وجود اقنومين اثنين في المسيح . ولكن كيف يمكن توحيد الاقنومَين معاً ، للحصول على معرفة كُنه المسيح ؟ قال علماء اللاهوت الأنطاكيون إن الكلمة الالهية هي بنفسها مُؤنسنه . أما علماء الاسكندرية فقد عنوا بوحدانية المسيح ، واكدوا على ذلك . وإن في الاقنوم الالهي المجسد كل المميزات الإنسانية وهذه الأنسنة فيه هي التي قدَّمته فداءً عن البشر . لكن الفارق بين طبيعة المسيح الكاملة والاقنوم ظلت محور النقاش .

كان المخلصون للكنيسة الكاثوليكية يعتبرون المسيح هو إله وإنسان معاً ، وما فتئوا . بينما جاء نسطور يعرِّف طبيعة المسيح ، بعيدةً عما تؤمن به الكثلكة ، حيث اخذ

مع جماعته ، في المشرق يتساءلونَ : مَنِ الذي ولد مِن مريم ؟ يجيب المخلصون للكنيسة : إنه المسيح .

بينما علماء اللاهوت الانطاكيون يقولون : إن مريم هي أم المسيح الإنسان ، وليس فيها شيء من اللاهوت ، لأنها لم تحمل من المسيح غير جسده ، انها في السريانية (Christa كريستا) لا (Théotokos تيوتوكوس) لقد اكدت النسطورية على وجود طبيعتَين خالصتَين متَّحدتَين في المسيح : إلهيةٍ وإنسانيةٍ معاً . وهذه خلاصة معتقدها .

الكنيسة النسطورية ؛

انتشرت المسيحية في بلاد فارس منذ عهد الامبراطور قسطنطين حوالي عام (٣٣٣) ولم تكن الديانة رسميةً لأن هناك « المزدكية » الفارسية ، وهناك في الجنوب النفوذ اليهودي حيث وُلد (التلمود)

ولم يمضِ اكثر من قرن ونصف القرن حتى كانت الكنيسة النسطورية ذات نفوذ قليل في « فارس » ، متمسكة بعقيدتها السابقة ، لولا بعض تطور في الظاهر وحسب . وانتعشت النسطورية في عهد الفتح العربي ، وظلت السريانية لغتها وفي احتضان الإسلام لجماعة النسطوريين شمالي سوريا بشكل خاص ، قام هؤلاء بدور ترجمة العديد من الكتب اليونانية المختلفة الاتجاهات ، إلى العربية ، مما عزَّز وعمَّق الفكر العربي .

وفي القرن الثامن للميلاد انطلق النساطرة المبشرون مِن ما بين النهرين ، شرقاً حتى بلغوا الهند والصين ومنغوليا وبلغ عدد مؤيِّديهم عشرات الملايين .

وفي العصر نفسه هبت على الشرق الأوسط عاصفة الغزو التيمورلنكي فأخمدت مِن توقُّد نار النسطورية . وما كان هذا الغزو وحده ليقضي على تلك البدعة لو لم يعقبه عام (١٨٤٣ ـ ١٨٤٨) وعام (١٩١٦) مذابح مروِّعة اوعز بها الأكراد ثم الترك ، ولم يبقوا من النساطرة غير جمع قليل ، تفرَّق في جبال الكردستان العراقية .

عقبتْ هذه العقيدةَ المسيحية الشرقيّة ، أُختٌ لها هي : اليَعقوبيَّة وهذا مضمون معتقدها :

الفصل الخامس عشر

اليعقوبية

في سنة (٤٣١) اقر المجمع الكنسي في (أفسس) طبيعة المسيح الواحدة، ولكن بعد أن رافقها التناحر والصراع الفكريُّ الروحيُّ، الذي ألمحنا إليه. وحذت الكنيسة الأرمنية هذا المنهج بالذات.

وفي سوريا، وآسيا الصغرى استطاع المبشر (يعقوب البرادعي) أن يؤسس كنيسة عظيمة، ترأسها عام (٥٤٣)، وهي التي توّسعت وعُرفت (باليَعقوبيَّة). لبثت هذه الكنيسة في مناقشات وتحدِّيات عنيفة، للكنيسة النسطورية وللأرثوذكسية معاً. دامت على شيء من الازدهار حتى القرن التاسع عشر. وقد اسبغوا على انفسهم اليوم اسم: «اليعقوبيين المتحدين Uniat Yacobits» وفي سنة (٦٨٠) عُقد مجمع عام في القسطنطينية أوضح فيه البابا (أجاتو) ما يلي:

«إن المشيئة هي خصيصة الطبيعة، وما دام هناك طبيعتان، فهناك ايضاً مشيئتان، لكن المشيئة البشريةُ تكيِّف نفسها دائماً، وفقاً للمشيئة الالهية».

وقد أيَّد المجمع هذا الرأي، وحرم مؤيدي المشيئة الواحدة. انما بعد ست مائة سنة، سُوِّيت المسائل الناشئة عن الإيمان، باتحاد الطبيعتَين: الالهية والبشرية في المسيح. غير أن الشِقاق كان قد ازداد تعمُّقاً واتِّساعاً. فشمل الشرق والغرب.

الكنيسة السورية اليعقوبية

مارست الكنيسة السورية الطقوس التي خضعت لها كنيسة انطاكيا، متخذين اللغة اليونانية وسيلة للتعبير في المدن الهلِّينية، ومارست السريانيةَ ثم العربية بعد الفتح الإسلامي.

وفي تولِّي الامبراطور (جوُسْتينيان) بمنتصف القرن السادس، قضى بالسجن على كل الاساقفة المهرطقين في مصر وسوريا، املاً بالقضاء النهائي عليهم. لكن الامبراطورة (تيودورا) اعادت الحياة لهذه البدعة، في تكريس راهبينَ من ذوي الإيمان بالطبيعة

الواحدة في المسيح ، واصبحا رئيسَين للكنيسة الجديدة .

كـان يعقوب (البرذعيُّ) قد صرف سنـواتٍ متنقلاً بـين مصر وسوريـا وفلسطين ، مكرساً الاساقفة استعداداً لِمجابهة المعتقد الكاثوليكي . وصولاً إلى الغلبة المرتقبة . أخذت هذه البدعة تمالىء الإسلام وتوآخيهم ، حتى غدا قصر الخلافة العربي زاخراً بهم : حواشي ومـترجمين . وبعض آخـر اعتنق الإسلام ، وآخـرون عادوا إلى الكثلكـة . في عام (٩٦٨) كان البيزنطيون قد استعادوا جزءاً من شمالي سوريا، فجهدوا في أن يعيدوا النفر الباقي من اليعاقبة إلى المعتقد الارثوذكسي . وخشيةً من الاضطهاد اضطرَّ اليعاقبة لنقـل أبرشيتهم إلى مدينة (دِيارْبكَر) في الكِردستان . وما زالت هذه الأبرشيَّة حتى اليوم ، تمارس طقوسها في شمالي العراق بجوار (مارْدِين) وبالضبط في (دَير سَفْران) .

كان بَطريقهم يَنتخب الاساقفةَ من مجمـوع الاكليروس ، ومن الـحكومـة الشرعية ، في البلد، وكان لهذا البطريق كامل السلطة على كل مسيحيٍّ منحرف في سوريا وكردستان والعراق . ولبث الرهبان المتبِّتلون ذوي الحق وحدهم في تولّي مرتبة الاسقف .

كان لهذه الكنيسة مئة اسقف ونيف ، وأمسوا اليوم ثلاثة فقط ، مـع بعض عشرات المعـابد ، ولم يتجـاوز عدُّهم كُليـاً الثمانـين ألفـاً ، لكنهم معتصمـون بـإيمـانهم رغم تـدنيٍّ مستواهم العلمي .

خلال هذا التصارع العقائديِّ الروحيِّ ، في الشرق والغرب ، وبعد إيغال السياسـة في مطاوي المسيحيَّة ، أين أينعت ، وبعـد أن اشرأبَّت الأنا الجـامحة ، في نفـوس هؤلاء ، نُشرع باب الروحانيات لِولوج حقيقةِ المسيحيَّة الأُرثوذكْسية .

وحسب النشرات الأرثـوذكسيـة المتـداولـة تنحصر نــظرة الاكليروس الارثـوذكسي للكنيسة ويسوع والأب موجزة بما يلي :

١ ـ الكنيســة : انها حياة جـديدة مـع المسيح وفي المسيـح ، يقودهـا الروح القـدس ويـوجهها ، إنهاجسـد المسيح ، وانهاتؤلـه الخليقة بقـوة التجسـد والعنصرة . كـانت الكنيسـة قبـل كل الدهور ، منذ بدء العقل البشري يتفتـح ، فهي بحق اساس الخليقـة وغايتهـا . تقول تعاليم الآباء : لقد وجدت كنيسة أولية في الفردوس قبل السقـوط ، وبعدهـا بعد الخـطيئة

وضع الله أساس العهد القديم بكنيسته التي تعلم فيها الإنسـان أن يتشارك مـع الله منذ الوثنية الأولى . أما بعد التجسد فقد بلغت الكنيسة أوجها بتأسيس يسوع المسيح لها . بـواسطة الكنيسـة بل هي نفسهـا روحيـاً ومـادياً الحـدُّ بـين السـماء والأرض ووحـدة الله والإنسان ، الله والخليقة . وبعد قيامةِ الرب يسوع ، إنطلق رسلهُ في أقطار الدنيـا مبشرين بكنيسته . ومنذ حلول الروح القدس عـلى تلاميـذِهِ ، بدأ وجـود كنيسة العهـد الجديـد . تقول الكنيسة (لنحب بعضنا بعضاً » وتقول : « إن الناس عنـاقيد كـرمة واحـدة وأعضاء جسد واحد ، والإنسانية جمعاء إنما هي حياة المسيح » .

٢ ـ الثالوث الأقدس : يقول علماء الكنيسة الارثوذكسية ما يلي :

ان محبـة الله هي الـروح القـدس المنبثق من الآب إلى الابن والمسـتريـح فيـه . وان الابن موجود بالنسبة للأب فقط في الروح القـدس المستقر عليـه . وإن الروح القـدس هو وحدة حياة الأب والابن معاً. أماعن المسيح ، فيصرح هؤلاء العلماء : « ليس المسيح اقنوما الهياً فقط ، انه واحد من اقانيم الثالوث الأقـدس ، وحياتـه متساويـة في الجوهـر مع الآب والروح القدس » .

أمـا عن الروح القـدس فيتابـع العلماء : « إن محبـة الله هي الـروح القـدس المنبثق من الآب إلى الابن والمستريح فيه ، وأن الأب يعلن حبه لـلابن بالـروح القدس الـذي هو وحدة حياة الأب والابن .

٣ ـ وعن الملائكة فقد أقرّ اللاهوت الأرثوذكسي أن وجود المـلائكة لا يـدرك بالعـين البشرية المجردة ، ولا يمكن أن تؤكده الا الخبرة الروحية ، كما لا يمكن أن تدركـه الا عين الإيمان .

٤ ـ أما بشأن الإنسان فيردف علماء الكنيسـة الارثوذكيسـة بايجـازهم البليغ : « ان الإنسـان كائن كـوني ، لأن حيـاتـه في الله متحـدة بحيـاة الخليقـة كلهـا ، بـروابط الحب الكوني » .

الفصل السادس عشر

الكنيسة الارثوذكسيّة

بعد الانقسام الكنسي الذي حدث عام (١٠٥٤) للميلاد بكنيسة شرقية وأخرى غربية . وبعد انتشار كلٍّ منها في الشرق والغرب ، كان قَدَرُ الكنيسة الشرقية أن تنساق لعوامل فلسفية أو شخصية أو سياسية ، في مهبّ عواصف الانشقاق ، إلى طقوس مختلفة شأن الكثلكة ، مع الزمن البعيد . أبرز هذه الكنائس:

الكنيسة البيزنطية والأرمنية والسورية والكلدانية والمارونية والقبطية .

ولم يكن في الأصل للكنيسة الأولى طقس موحد ، لذا فقد اخذت هذه الشيع تختلف في ظاهر الصلاة ، وكانت الصلوات تتلى في اليونانية أو اللاتينية حسب البيئة .

طقوس الكنيسة في الغرب : الرومانية ، والكِليكانية ، والسلتية والأسبانية ، إنما كانت اللغة اللاتينية هي السائدة .

من كبرى الاسقفيات للارثوذكسية الشرقية :

اسقفية الاسكندرية :

كان لسقوط القسطنطينية في يد الصليبيين الغربيين عام (١٢٠٤) أثر عميق في نفوس تابعي الكنيسة الشرقية ، لما طالعهم من حَيف وعنف وعداء شرس . ثم دخل المدينة الإسلام ، والغرب لبث مكتوف اليدين للدفاع عنها .

كان لهذه الكنيسة في المشرق سلطان انتشر في القرن السابع عشر ، من ضفاف الدانوب لليونان حتى فارس رغم الاحتلال التركي للبلاد .

أما الكنيسة الروسية فلم تلتئم مع الشرقية في ذلك الزمن . وقد تناولت السياسة معابر الكنيسة ، وخاصة حين استولى الأتراك على البلقان بأجمعه . ولدى نشوء التطور في عهد (مصطفى كمال) لم يعد سلطان كنيسة القسطنطينية إلا على البلاد الخاضعة لسلطانه .

كان يحكم هذه الكنيسة في منتصف القرن التاسع عشر مجمع من اساقفة أتراك

مقرّهم القسطنطينية ، مهامّهم محصورة في الأمور الروحية وحسب .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، لم يبق للمجمع المسكوني إلا (٥٧) كنيسة اسقفية وسبع مطرانيات ، مرجعها جميعاً إلى اسقف القسطنطينية .

إن هذه الكنيسة التي تألقت منارتها في العهدين البيزنطي والعثماني تقهقرت ولم تعد تحضن اكثر من مئة الف مؤمن في تركيا نفسها مع (١٣٥) الفاً في مقدونيا التي انضمت إلى اليونان .

أما الكنائس الأورثوذكسيَّة الآخرى فهي :

أ ـ **كنيسة انطاكيا** : كانت كنيسة انطاكيا ممتدة النفوذ الروحي من مصر إلى الفرات ، في عهد الرومان . وبعد الفتح العربي تقلص نفوذها ، ولم تعد تسيطر إلا على رعيتها بالذات .

في سنة (١٨٩٩) قطعت هذه الكنيسة صلاتها بكنيسة القسطنطينية نهائياً .

سلطة هذه الكنيسة موزعة بين الأسقف والمجمع المقدس والمجمع المختلط . معظم اتباع الكنيسة سوريون يتكلمون العربية . كانت علاقتها بالكنيسة الروسية قائمة وحسنة لان لهذه سلطاناً على الكنيسة السورية واللبنانية دام حتى الثورة الحمراء الظافرة. ولكن الدولة السوفاتية ما برحت تبذل الأموال الطائلة لكنيسة انطاكيا ولسواها في الشرق الأدنى .

ب ـ **كنيسة القدس** : بلغت هذه الكنيسة اوج عظمتها بين القرن الرابع والسابع ، تقلص بعدئذ هذا النفوذ غبَّ الفتح الإسلامي . وكان في القدس وفي مناطق اخرى من فلسطين لا يزال رعايا الكنيسة يمارسون طقوسهم ، دون أن يرجعوا إلى موسكو بل للكنيسة الغربية المسماة من قبل كنيسة القسطنطينية .

ج ـ **كنيسة الاسكندرية** : تقول الروايات المسموعة أن كنيسة الاسكندرية تعود إلى القديس (مرقس) تلميذ القديس بطرس . لكن مدرسة الاسكندرية بالذات كانت مسرحاً لعدة تيارات فكرية روحية ، منها النسطورية وجماعة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في يسوع المسيح ، مما اثار نزاعات عقائدية ، انعكست على الكنيسة نفسها . داوم بطريق الاسكندرية مسكنهُ في القسطنطينية حتى عام (١٨٤٦) حيث انتخب بعدئذ عاهل مصر

(محمد علي) احد الاساقفة ، وجعل مقره في مصر بالذات .

ينتجب البطريق بواسطة الكهنوت والشعب معاً ، وحوله مجمع مخصص بالشؤون الكنسية ، دون أن يكون هناك مجمع مختلط . ونفوذ هذا الأسقف يشمل الرعايا المتواجدين على شاطىء المتوسط : ليبيا وتونس ثم الحبشة . يبلغ مجموع هؤلاء الرعايا زهاء (١٥٠) الفاً معظمهم من الجنسية اليونانية واللغة الكنسية نفسها .

د ـ كنيسة سيناء : إن معظم مهام هذه الكنيسة يتعلق بالسائحين . وكان قد اتخذ من هذا الدير الامبراطور الروماني (جوسّتينيان Justinien) حصنا لِصد الفتح العربي ، ولم يثبت امام الزاحفين . وبعد الفتح ، بُني في داخله جامع لصلاة المسلمين الفاتحين .

وعام (١٧٨٢) كانت قد اعترفت كنيسة القسطنطينية باستقلالية كنيسة سيناء. أما أسقف هذه الكنيسة فكان يسكن في دير القديسة (كاترين) في سيناء وأحياناً ينتقل إلى القاهرة حيث ديرهُ الخاص .

هـ ـ الكنيسة الروسية : كان الأمير (ڤلاديمير ، Vladimir)الروسي أول من أدخل العقيدة المسيحية إلى روسيا . وفي عام (٩٨٩) تعمد ، بغية اقترانه بالاميرة البيزنطية (انــه ، Anne) . وغدت مدينة (كياف) مقر الكرسي الاسقفي منذ ذلك التاريخ ، واستمرت هذه الكنيسة تابعة لكنيسة القسطنطينية ، قاطعة كل صلة تجمعها بروما .

وفي سنة (١٧٢١) حذا بطرس الأكبر حذو خلفه في جعل النفوذ الأول خارج يد الكنيسةُ ، بحيث كان الامبراطور صاحب السلطان روحياً وجسدياً .

كانت الكنيسة الروسية على جانب من الثراء، وكان لها حوالي الثلاثة ملايين هكتار من الأرض والغابات في البلاد الروسية . لكن هذا السلطان المادي قد تقلص بل انتهى منذ نجاح الثورة السوفياتية الحمراء ، حيث توزعت هذه الاملاك الشاسعة على الفلاحين المدقعين .

وفي العام : (١٩٢٩) استعادت كنيستا (موسكو وكياف) بعض النفوذ والحق في ممارسة الطقوس الدينية . ولدى الاجتياح الالماني لبلاد السوفيات ، ابدت الكنيسة مناصرة هامة للدولة ، مما جعل هذه بتقدرها . وفي عام (١٩٤٤) تولى اسقف (لينينغراد)

المدعو : (Alexis Simanski) ألكسيس سيمانسكي) رعاية العرش البطريركي ، ثم امتدت رعايته حتى شملت القسطنطينية والصرب والبلغار فالاسكندرية . لكن هذه الرعاية ونشاطاتها كانت مراقبة من الدولة . كما كان على الموظفين وعلى السلك العسكري أن يعقدوا قرانهم مدنياً .

وكانت قد حاولت الكنيسة الروسية أن تكون الكنيسة الثالثة في العالم المسيحي الارثوذكسي ، أي بعد روما والقسطنطينية .

و ـ الكنيسة الصربية : لدى نجاح الاجتياح العثماني لبلاد الصرب ، في القرن الخامس عشر ، قطع السلطان محمد الثاني كل سلطة وعلاقة للكنيسة الصربية بالكنائس المجاورة . وكثير من سكان البلاد اعتنقوا الإسلام ديناً .

في الاجتياح الهتلري عام (١٩٤١) وقفت الكنيسة صامدة في الصف الوطني مما أدى إلى مقتل العديد من الكهان والرهبان ، وفي تولي (تيتو) السلطة اعادت الكنيسة تنظيمها في المقاطعات اليوغسلافية الست ، على أن رجال الدولة محظور عليهم ممارسة الطقوس الدينية .

ز ـ الكنيسة البلغارية : نزل بلاد البلغار في القرن السابع شعوب تركية وغير تركية فاستوطنوا ثم اعتنقوا المسيحية في القرن التاسع ، وكانت كنيستهم مرتبطة بكنيسة القسطنطينية ، وحين خضعت البلاد للحكم العثماني ، انتقلت سلطة الكنيسة البلغارية ليد كهنوت مقاطعة (الفنار) في القسطنطينية ، لأسباب سياسية واضحة .

وكان مقر الأسقف في (صوفيا) يقاسمه السلطة والتدبير مجمع من المطارنة ينتخب من الكهنوت والشعب معاً . وأصبح من الواقع أن تتمكن العلاقات بين (اسطفان) اسقف صوفيا و (ألكسي) اسقف (موسكو) نظراً لحسن العلاقات بين الدولتين ولشدّهما بمبادىء واحدة . وكان طبيعياً تصرف الدولة ازاء الكنيسة تصرف (موسكو) معها .

ح ـ الكنيسة الرومانية : يوضح تاريخ رومانيا ان شعبها حلقة من السلسلة الغربية اللاتينية التي نزلت هذه الربوع شرقي اوروبا . ولم يتم توحيد البلاد إلا في القرن التاسع عشر .

في سنة (١٨٦٢) غدت اللغة للكنيسة هي اليونانية ، ولم ينجز توحيد هـذه الكنيسة إلا عام (١٩٢٥). مقر البطريق في العاصمة(بوخارست) يحيط به مجامع روحيـة وزمنية ، وكنيسة مطلقـة التصرف . أما الشعب فـلا يعير كبـير اهتمام لـطقوس كنيستـه ، وزاد هذا الفتور تجاه الكنيسة بعد تحرير البلاد من النير الهتلري بواسطة الجيوش السوفياتية المعاضدة لجيشها .

واليـوم فإن الاسقف وكنيستـه يتصرفون بمـوجب خطة فـرضتهـا السيـاسـة العـامـة الحاكمة .

كان بطريقها عام (١٩٤٨) الحبر (اثانفـوراس) وقد تغلبت عليـه الصبغة الـتركية الاميركية ، كما تغلبت السلطة السوفيـاتية على الحبر (مكسيموس) .

اخيراً اعتلى كرسي الاسقفية الحـبر (ميخائيـل) . وفي عام (١٩٥٣) اسنـدت إليه ابرشيات البلاد المحاذية للأوقيانوسَين : الهادىء والأطلسي .

ط ـ الكنيسـة اليونـانية : اجتمـع زهاء ثـلاثة وثـلاثين مـطراناً في مـدينة (نـابولي) بـايطاليـا عام (١٨٣٣) واعلنـوا انفصالهم عن كنيسـة القسطنـطينية ليؤلفـوا مجمعاً لهم في مدينة (اثينا) . وفي سنة (١٩١٩) بلغ عدد الأديرة في اليـونان (١٥١) كنيسـة ، تضم (١٥٦٠) راهباً وراهبة ، ربع هؤلاء يمارس المعيشة الطبيعية خارج الأديرة .

ي ـ جبل أتوس : تـأسست أديـرة (جبـل أتوس Atos) في الجنـوب الشرقي من شبه جزيرة اليونان ، في القرن العاشر للميلاد . بلغ اليوم عددها عشرين ديراً .

يشرف على إدارة هذه الأديرة مجمع من عشرين عضواً ، يلتف حولهم حوالي السبعة الآف راهب .

هؤلاء الرهبان خاضعون لأسقف القسطنطينية .

والحكومة السوفياتية تشمل هذه الأديرة بعناية خاصة .

ك ـ الكنيسـة القبرصيـة : كانت قـد انفصلت كنيسة قـبرص عن كنيسـة انـطاكيـا وانضمت إلى نفوذ الكنيسة في القسطنطينية . وبعد العـام (١٨٧٨) أطلقت الحريـة الدينيـة لأرثوذكس قبرص على أمل انضمامهم لليونـان ، بعدئـذٍ خضعوا لـلاستعمار الـبريطاني عـام (١٩٢٥) . على رأس الكنيسة بطريق ومجمع يضم ثلاثة مطارنة .

الطبيعة الواحدة في المسيح :

ما فتئت الكنيسة معتمدة على الأناجيل ، ومصرة على أن يسوع المسيح ابن الله وهو انسان ، وان الطبيعة الالهية فيه مسيطرة على الطبيعة الانسانية ، بالرغم مما تناول العقيدة من نزعات فلسفية واجتهادات ، سبق ذكرها .

وقد اعتبرت الناحية الالهية في المسيح هي الرئيسية ، وهي التي نادى بها الرسل الأوائل . ونادت جماعة (الدوسيتيّه - Docétisme) بأن التأنس في المسيح ليس الا نوراً مجسداً ظاهرياً . بهذا المعتقد الراسخ قاومت المسيحية الاصيلة البدعة الآريوسية . ومدرسة الاسكندرية آنذاك ، نادت (بالكلمة) التي هي شخصية المسيح وليست إلا ومضةً نورانية من الوهته .

كان ابرز من اعلن هذه العقيدة الأسقف (أبولينار لاوديسه ـ Apollinaire : La odicée ابولينوس اللاوديسي) وأوضحها بقوله : « لا توجد نفس انسانية في المسيح ، إنما هناك (الكلمة) التي اتخذت مكانها . وقد لقي هذا الأسقف حتفه قتلاً لكن تعاليمه استمرت في الخفاء متلبسة أسماء القديس (اتناس) وبعض رؤساء الكنيسة البارزين .

وحين نادى (نسطور) بوجود طبيعتين في المسيح ، هبت جماعة من مشاهير الكنيسة مصرة على وجود الطبيعة الواحدة فقط ، وكان منطلق هذا النداء من ابرشيتي الاسكندرية والقسطنطينية وعلى رأسهم البطريق (فلاڤيان Flavien) القائل : « للمسيح طبيعة واحدة فقط ، وهذه الطبيعة فيه لا شبيه لجوهرها بغيره . شخصيته كبشر وكإله منصهرة في طبيعة واحدة .

على اثر هذا الصراع الروحي في المشرق ، حول طبيعة المسيح تزعزع في كثير من المواطنين ايمانهم بالكنيسة ، مما ادى الى ضعفها وهزالها امام العاصفة الروحية التي اجتاحت الجزيرة العربية ، دونما مقاومة من اية كنيسة مسيحية .

وقبل هذا الاجتياح كان الأباطرة البيزنطيون في منتصف القرن السادس قد ناهضوا البدعة المنادية بالطبيعة الواحدة في المسيح .

وفي منتصف القرن السابع بُعثت بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح مركزة على

القول : « في المسيح مشيئة واحدة وحسب » .

وانتشرت هذه البدعة في : مصر والحبشة وسوريا والعراق وارمينيا متلبسةً بالصفة الرسمية للديانة المسيحية .

الفصل السابع عشر

أ ـ الكنيسة القبطية

تصاعدت عصبية المسيحيين المصريين على تصرف كنيسة القسطنطينية في اعفائها البطريق (ديوسكور) المصري من مهامه ، مولية مكانه بطريقاً قسطنطينياً ، مضافاً إلى ذلك شعور الجماهير المصرية بكرههم للاحتلال السياسي البيزنطي المتغلل في كل وادي النيل .

اتخذ هؤلاء لغتهم : اليونانية في المدن ، أما في الكنائس والضياع فكانت اللغة الوطنية السائدة . بينما الأقباط ما برحوا محافظين على اللغة الأم الفرعونية ثم ما لبثوا ان استقوا العربية ، وترجموا صلواتهم اليها بدءاً من القرن الحادي عشر .

اعتمد الأقباط طقوساً خاصة ما برحوا يمارسونها حتى اليوم ، بعد تعديلات ظاهرة . وامتد انتشار هذه الطقوس في جماعات من الأحباش . وحيث كان الفتح العربي متسامحاً مع المسيحية ، ثم عاد فقهر البيزنطيين ، غدا طبيعياً ، بعد تفكك عرى اللحمة المسيحية ، ان تنهار المسيحية في المنطقة امام الاسلام . حاولت الكنيسة في روما ان توفق بينها وبين الكنيسة القبطية ، لكنها فشلت لولا مبادرة البابا (ليون الثالث عشر) في القرن التاسع عشر ، في اقامة نظام كنائسي : قبطي كاثوليكي ضم زهاء ثلاثين الف عنصر مؤمن . وحدث بعدها صراع فكري بين جماعة الكنيسة القبطية والعلمانيين المسيحيين الذين امسكوا عن الخضوع لادارة الكنيسة . ومع ذلك لم يفتأ الأقباط مخلصين لكنيستهم المنادية بالطبيعة الواحدة للمسيح ، رغم ما حصل لها من انحرافات على مر الزمن .

يرأس الكنيسة القبطية بطريق، محاطٌ بإكليروس دير القديس (أنطون) في منطقة برزخ السويد على شاطيء البحر الأحمر . وما برح منذ القرن الحادي عشر نزيل القاهرة .

سلطة هذا البطريق الروحية تشمل مسيحيي الحبشة ومصر معاً ، وهو الذي يرسم

الأسقف الذي يختارهُ على الكنيسة الحبشية . لهذه الأبرشية العديد من التابعين والكهنة والأديرة . كلهم في تعايش سلمي مع الأكثرية الإسلامية في مصر . إنما قد حدثت في الآن الحالي هزة سياسية للكنيسة . اقال لِسببٍ ما الرئيس المصري انور السادات رئيسها مع جماعة تابعين له ، من مناصبهم الكهنوتية مستعيضاً عنهم بمجلس كنسي مجارياً لسياسته المنحرفة .

ب ـ الكنيسة الحبشية

تؤمن الكنيسة الحبشية بالطبيعة الواحدة للمسيح شأن المصرية . وكان دخول المسيحية الى تلك الأصقاع منذ القرن الرابع للميلاد ، بواسطة القديس (فرومان Frumence) الذي ولاه على الكنيسة الحبشية بطريق مصر .

وفي سياق القرن الخامس اعتنقت هذه الكنيسة الإيمان بوجود الطبيعة الواحدة في المسيح ، شأن ما تؤمن به الكنيسة القبطية . ولا تملك تلك الكنيسة إلا رئيساً واحداً الأسقف (L'abouna ، لابونا) ينتخب من بين رهبان القديس (انطوان) وله الاستقلال الكنيسي الكامل. يسكن في العاصمة (اديسبابا). ليس في الحبشة، نظراً لضعف اتباع الكنيسة ولقلتهم ، لا اسقفية ولا (خورانية) . هنالك خليط ، انما الرهبنة في البلد لها اتباع كثر ، وذكر حسن ، يفوق شهرة الكهنوت العلماني .

آخر إحصاء لعدد نفوس هؤلاء المسيحيين هنالك بلغ زهاء الأربعة ملايين شخصاً .

ج ـ الكنيسة الأرمنية

انتشرت المسيحية في ارمينيا منذ عام (٢٩٠) للميلاد بواسطة المستنير القديس (غريغوريوس) . تميز هؤلاء بانحرافهم إلى الإيمان بالطبيعة الواحدة للمسيح ، بالرغم من أن القصر الأمبراطوري كان كاثوليكياً . يُعزى هذا الانحراف إلى أن الكنيسة الكاثوليكية قد خذلتهم في مواقع خاصة . وقد حدث هذا الانفصال سنة (٦٩٢) .

تميز الأرمن المؤمنون بالطبيعة الواحدة في انهم استظلوا تحت جناح اسم (الغريغواريين Grégoiriens) نسبة إلى هذا القديس .

إن الكنيسة الأرمنية موحدة وذات بطريق واحد . لها خمسة فروع ، كل منها مستقلٌ عن الآخر . وعلى رأس كل منها كنيسة يخضع له الكهّان .

يمكن للكاهن العلماني ان يتزوج بينما الراهب فينذر العفة على العمر .

ليس لدى الأرمن جماعة كهنوتية منتظمة ، ولا لديهم اخويات ، بل لكل معبد جماعته المستقلة . وليس لغير الرهبان الحق برتبة اسقف .

بجوار هذه الكنيسة للشمال من سوريا انبثقت من المسيحية الغربية ومضات عقائدية أختَ لها ، هي : المارونيّة . وتفصيلها لاحق .

الفصل الثامن عشر

الكنيسة المارونية

انها طائفة شرقية الموطن ، غربية المعتقد . نشأت في جو مشحون بالصراع الفكري حول المسيح وطبيعته . وكانت فرق متعددة بين نسطورية ويعقوبية وملكية وسواها . مسرحها الأصيل سوريا الشمالية حتى اللّكام ولبنان .

آمنت هذه الطائفة بالبابا رئيساً للكنيسة ، ورفضت الاعتقاد بما نادى به الجماعات الاخرون ، وفي مقدمتهم الروم الارثوذكس . كان معادهم الأول والأعلى بطريركية أنطاكيا . وحين هاجم المشرق قوافل الغربيين ، لإنقاذ البيت المقدس لأغراض خاصة مادية ، استعمارية ، كان الموارنة على مدّ الساحل السوري وساحل لبنان الشمالي ، اعواناً لهؤلاء الأغراب ، ذلك في أواخر القرن الحادي عشر . فأنسوا بهم ، وتلاقت العقيدتان وتمكنت الروابط الروحية والمادية بينهما معاً . واتخذ الموارنة الكرسي البابوي مرجعهم الأرفع .

اسم الموارنة : تفيد المراجع المختصه ان اسم : (الماروني والموارنة) بدأ يظهر ، في الآثار القديمة منذ أوائل القرن السادس ، نسبة الى القديس الناسك الشهير ، مار مارون الذي ظهر في اواخر القرن الرابع ، متنسكاً على جبل من نواحي (أفامية) شمالي سوريا وذاع صيته بالفضل والفضيلة والكرامات . وقد سميت هذه الطائفة سابقاً (بالخلقدونية) نسبة الى المجمع الخلقدوني المقدس .

في اوائل القرن الثامن للميلاد انقسم الخلقدونيون إلى شطرين : موارنة وملكيين سبب هذا الانقسام ، قضية المشيئة والمشيئتين ، في السيد المسيح . فأخذ (المكسيموسيّون نسبة للقديس (مكسيموس) والملكيون ، بالمشيئتين مجاراة لكنيسة القسطنطينية .

لكن رهبان دير مار (مارون) مع لفيف مُوآزر رفضوا ذلك بحجة أن هذا الاعتقاد يخالف روح تعليم المجمع الخلقدوني . ومنذ ذلك الحين غدا جلياً للعيان ، اعتصام الموارنة بالمشيئة الواحدة . وقد صرح كتاب الهدى اللاهوتي في مطلعه ، ان (الكلمة) قد اخذ من مريم البتول جسماً موازياً لنا في طبيعتنا ، وموازياً لنا في جوهرنا الانساني ، جسماً ذا نفس ناطقة عاقلة عامله .وتشابهنا في كل شيءٍ ، سوى (الخطيئة) . وهي من ثم انسان أدمي زماني ، ذي جسم انساني حسّاس . انه إله تام باللاهوت ، وانسان تام بالجسم الانساني . والطبيعة البشرية فيه ، قد حفظت جميع خواصها من : مأكل ومشرب ونوم وشعور بالتعب والآلام .

ان (الكلمة) قد اخذ الطبيعة البشرية تامة وكاملة ، كما كانت في آدم قبل المعصية ؛ يريد مايريده الله . ان تلاقي الفرنجة والموارنة في سوريا ولبنان كان من المقدمات لاتحاد الموارنة مع كنيسة روما ، بوجه شرعي ، عام (١١٨٢) بواسطة (هيماريك) بطريرك انطاكية اللاتيني والكردينال (بطرس) معتمد البابا (زخيا الثالث) المستقر في طرابلس (لبنان) ، الذي سلم بطريرك الموارنة (أرميا) رسالة من الحبر الأعظم عام (١٢١٥) بهذا الشأن . فخضعوا لهذه الكنيسة الغربية معتصمين بكامل تقاليدهم الشرقية في ما يعود للكنيسة وطقوسها ولغتها (السريانية) . ومجمل القول : ان الموارنة لم ينفصلوا قط ، عن روح الكنيسة الكاثوليكية ، ولا عن جسمها ، وما يزالون .

كتاب الهدى :

انه يبحث في الإيمان واصول المعتقدات في مذهب المسيحية وشريعتها : الاعتقاد بالثالوث الأقدس ثم تأنس الابن (الكلمة) . يقول الكتاب :

« إن أحد الاقانيم الثلاثة وهو الابن (الكلمة) المولود من الأب ، ليس في الزمان والابتداء ، وليس كتوالد الاجسام ، بل هو نور ، من نورٍ إله حق . . هبط من السماء من غير أن يفارق ذات الأب ، ومن غير تغير ولا فساد . تجسّدَ من روح القدس ، وأخذ جسداً موازياً لنا في طبيعتنا ، وموازياً لنا في جوهرنا الإنساني : جسداً ذا نفس ناطقة ، عاقلة وعالمة ، وشابهنا في كل شيء سوى الخطيئة . أنه وُلد إبناً واحداً ، ورباً واحداً ، يسوع

المسيح وأقنوما واحداً ، وشخصاً واحداً ، ذا جوهرين معقولين من جوهر الأب الأزلي بلاهوته ، ومن جوهرنا بناسوته . « أنه محسوس ومحدود بالجسم الانساني ، وغير حسوس ولا محدود باللاهوت الأزلي الأبدي » .

وتابع الكتاب : انه واحد : يسوع المسيح ، ابن الله الذي من اجلنا تأنس اقنوماً واحداً ، وشخصاً واحداً ، وهو يعقل بجوهرين ، ومشيئة واحدة ، وفعل واحد . إله تام باللاهوت ، وإنسان تام بالجسم الإنساني .

إعتبرت الفرقة (الملكية) أخت المارونية في المسيح مشيئتين: مشيئة الهية لجوهر الهي ، ومشيئة انسانية لجوهر انساني . وقالت المارونية : انه مشيئة واحدة للجوهرين الإلهي والإنساني معاً . وكان لكل منهما براهينه . أما المارونية فقالت : إن المشيئتين لا تخلوانِ من أن تكونا أما متساويتين أو متضادتين . فأن كانتا متساويتين عاد الأمر إلى مشيئة واحدة، وأن كانتا مُتضادَّتين جاز في ذلك أن يكون الجوهر الإلهي يشاء ما لا يشاء الجوهر الإنساني ، وبالعكس فإذا حصل ذلك وقع التباين والتضاد ، وبطل حكم الاتحاد وصار الثالوث رابعاً .

والادلة التي يقدمها هؤلاء منها : «لما جاء الأبرص إلى المسيح وقال له : أشئتَ شفيتني؟ اجابه يسوع : قد شِئتُ . وقوله : « خذ ما استأجرتك به واذهب بسلام فأني قد شئت أن أعطي صاحبك مثلك » . وقوله : « ليس أحد يفهم الاب إلا الابن ، وما يشاء الابن يكشف له » . يدل هذا الكلام على أن المشار إليه واحد ، والمشيئة واحدة .

القديس مارون :

يقول المطران دريان : « لم تترك لنا الآثار القديمة الثابتة ، عن القديس (مارون) الناسك ابي الطائفة المارونية وشفيعها المشفع ، سوى ترجمة مختصرة جداً ، كتبها رجل جليل القدر هو (ثود وريطس) اسقف (قورس) في نحو النصف الأول للقرن الخامس » .

وأكمل المؤلف : لقد عزم القديس مارون على أن يقضي حياته في العزلة . فأم قمة جبل كان في يوم ذا حُرمةٍ عند الأشرار . كرّس هناك هيكلاً ، ونصبت فيه مظلة صغيرة ،

يضوي إليها نادراً ، وقد افرط في المجاهدة لله والتخشع والتقشّف المُنهك . ثم وهبه الخالق قدرة شفاء المرضى . فذاع صيته في الاصقاع ، واستجلب إليه الناس من كل صوب . وأتى بكثير من الأعمال الواقية والشافية للجسد .

ولم يقتصر طب الجسد عند القديس مارون ، بل تناول النفس البشرية كأنما هو عالم نفساني، متضلع من نوازع البشر وأحاسيسهمْ ، فعالج في المجتمع : البخيل والغضوب، وعالج العفاف والعدالة والصدق . فالقديس (مارون) بعناية الحراسة الالهية ، كان يشفي الأجسام والنفوس في آن واحد . حتى لغدا مُعتزلُهُ ، محجة القصّاد .

وقد اختلفت الأقوال حول منشأ هذا القديس . قال بعضهم : انه نشأ في بلدة تدعى (المارونية) ، بجوار انطاكية . وقال آخرون : بل في انطاكية نفسها ، نظراً لما كان يشده من اخوَّة حميمة بال(ذهبيِّ الفَمِ)(يوحنا) . والحقيقة هي انه لا يُعرف له وطن معين .

قال بعضهم : ولد هذا القديس في عام (٣٥٠) للميلاد، ولكن دون مستند وثيق . والمرجّح انه ولد في بهرة القرن الرابع ، واعتزل الدنيا ، عندما مال إلى الكهولة ، بعد أن اتقن العلوم التي يتطلبها ذلك العصر .

وحين غدا كاهناً روحياً ، عُرِفتْ فيه فضيلةُ الارشاد العميق المتواصل للرعية ، مظهراً سوء عقبى الرذائل والشرور ، مركزاً على العفاف والعدالة ، والزهد والمعيشة الرهبانية الصارمة . أما وفاة هذا القديس الجليل فكانت غامضة كمعظم مراحل حياته .

دير القديس مارون .

بُني هذا الدير في جوار (افاميه) شمالي سوريا ، بجوار الكنيسة التي تحمل اللقب نفسه بناءً تدريجياً ، مما كان يعود إلى الكنيسة نفسها من الأوقاف ووفرة النذور . وفي هذه الكنيسة حفظ الكثير من آثار القديس مارون ، الأمر الذي دفع تلاميذه بعد وفاته ، إلى الاقبال عليها ، والتبرك بها . وبعد حوالي الثلاثين عاماً ، بوشر في بناء الدير المعني .

طقوس الموارنة :

كانت الطقوس التي اعتمدتها الرهبنة المارونية ، في ذلك العهد الغابر ، متجانسة مع الطقوس الشرقية في المعتقدات القريبة ، والمجاورة للموطن ، وحدثت تغييرات طارئة مع الزمن ، مجاراة للزمان والحضارة .

انهم من أصل سرياني وابناء الكنيسة الانطاكية ، اطلقوا لحاهم ، وحلقوا شعر رؤوسهم . للكاهن عندهم مقام رفيع . يتقدمون نحوه ، ويلثمون يده ، فيرفع يمينه عندئذٍ ويباركهم بصنعه اشارة الصليب المقدس .

وللكاهن (الصدارة) . حيث وُجد يقدمون له الخمر قبل الجميع . وعندما كانوا يركبون الخيل للإغارة ، يتوجهون إليه لنيل بركته .

وكانت النساء يسلكن معتزلات ، قريباً من باب الكنيسة ، لدى الصلاة ، وذلك عن حشمة وحذر . وكان استعمال البخور شائعاً عند بداية الأكل ونهايته ، وعند تبريك اللحم ، وصلاة الشكر . وكان الكاهن لدى قدوم ضيف جليل ، يلاقيه بالبخور ليبارك مقدمه .

وما برح الموارنة حتى اليوم ، محتفظين بمعتقدهم السابق ، وبطقوسهم الكنيسة ولغتها ، وببعض الطقوس السطحية التي تختلف عن الكثلكة . وفي سواها كاثوليك ، وشفيعهم بابا روما

الفصل التاسع عشر

الوضع الكنسي في الغرب

كان اعداء المسيحية في الغرب على جانب من المنطق والفلسفة ، كما كانوا كُثراً في الشرق والغرب، غير أن الكنيسة بفضل علمائها الذين أتقنوا دراسة المعلِّمَين الكبيرين (افلاطون وارسطو) تمكنت من الثبوت امام عواصفهم الهوجاء ، مستعينة بسلاح المنطق والعقل والفلسفة معاً . بهذا السلاح دحضوا الاتهامات التي اعتمدتها اليهودية والوثنية .

هذه الجهود من العلماء المسيحيين وطّدت مُعتقدهم وعزّزتهُ .

وحسبنا أن نذكر البعض الأنشط من المدارس المتحدّية ، إما عن عقيدة راسخة أو عن سَورة انانية ، ومطامع شخصية . من هذه المذاهب والشيع : الآريوسية ، والنسطورية ، واليعقوبية . الشيعتان الأخيرتان اقتصر انتشارهما على بعض مناطق في الشرق الأدنى وافريقيا الشرقية. وحرصاً على رسوخ بناء الكنيسة، عمل بعض الأباطرة بدءاً من قسطنطين، على وحدة الصف المسيحي، وعلى تلاقي كنائسه ، فكانت المجامع الآتية :

نيقيا عام (٣٢٥) ميلادية ، موجهة ضد آريوس ، وافسس المسكوني (٤٣١) ضد النساطرة ، وخلقدونيا (٤٥١) الذي انفصلت فيه سوريا ومصر والحبشة ، منادين بـ (يعقوب البراديعي قيّماً على كنيستهم . وكان ختاماً لهذه المذاهب ، انفصال الكنيسة بين شرقية ارثوذكسية ، ومقرها القسطنطينية ، وكنيسة غربية كاثوليكية في روما ، يرأسها بطريق لُقّب فيها بعد بـ (البابا) كما أوضحناه بتفصيل ادق ، مشيرين كذلك إلى أن المعضلة الرئيسية التي نوقشت بعنف وعصبية بالغة هي : شخصية المسيح . الأغنوطيسيُّون يرون فيه كائناً سماوياً نزل الأرض ليكشف هويَّة الاله الحقيقي ، ثم لكي ينقي الانسان من أدران المادة العالقة به . هؤلاء هم المسيحيون الاوائل الذين اغترفوا الروحانية الصافية السليمة ، من ينبوعها الأصيل معلمهم : يسوع المسيح .

والمسيحية المتطورة بعد هؤلاء نادت ، بيسوع مخلصاً ، وانه جاء وتعذب وصلب من أجل الناس كافة . وجاء في عام (١٤٠) للميلاد ، إلى روما العالم الديني (Marcion مارسيون) قائلاً أن المسيح هو الكائن الخيِّر ، وليست طبيعته البشرية إلا شكلاً ظاهراً وحسب . عقبه (إيرينه Irénée) الذي اعتبر يسوع جوهر البشر ومرتكز الخليقة . وتلاه كُثرٌ أبرزهم : (كليمان واوريجين) وكلاهما استاذ في مدرسة الاسكندرية .

ما توقع الشعب :

في عام (١٢٧١) صرح العالِم (روجه باكون ، Roger Bacon) بأن العقلاء من الناس يومذاك كانوا واثقين من أن نهاية العالم قد دنت، وكان كل بلاء أو كارثة أو زلزال

يحدث أو أية كـارثة تنـزل ، يعد نـذيراً بنهـاية العـالم . وأكثر مـا كان يقلق النـاس خوفهم العميق من الجحيم ، ومما كـانت تصوره لهم اخيلتهم وكهنتهم . وفي انتشـار المسيحيـة ومنـاداتها بـالرأفـة والرقـة ، كان لا بـد لـرجـال الـدين ، لضبط النفـوس عن التـمادي في الموبقات ، أن يؤكـدوا هذه الصـورة للجحيم ، وما يلقـاه الخاطىء من أنـواع التعذيب . وهذه صورة موجزة ابدعها خيال الكهان فقالوا : في وسط الجحيم يُـرى الشيطان مشـدوداً بسلاسل لاهبة حمراء. تزيد صراخة المأ، ويـداه ممتدتـان ليجذب إليـه العصاة ، يحـطمهم بأسنانه في حلقه الملتهب .

كـان أعـوان الشيـطان يعملون شتى ألـوان التعـذيب ، من سعـير إلى زمهـريـر ، إلى تعليق بالالسنة ، ونشر الاجسام بالمنـاشير أو بقليهـا على النـار . وهناك ليس للنـار ضوء ، حيث الظلام مُدْلَـهِمّ ، والصراخ والعويل يطبق الارجاء ، ورائحة الكبريت منتشرة في كـل مكان من الجحيم ، ليزداد عذاب الخاطئين والعصاة .

كان ذلك الشيطان في خيال العـامة ، حتى لـدى (غريغـوري الأكبر) جسـماً حقيقاً حياً من لحم ودم ، يغشى كل مكان في العالم ، يغوي الناس ، ويمهد لهم طريق الشر ، بما يقدم من مغريات . وكان هذا الشيطان شديد الاعجـاب بالنسـاء ، وساهـراً على الإيقـاع بهنَّ . وصف الـراهب (ريشـالـوم ، Rishalum) اولئـك الابـالسـة بقـولـه يمـلأون العـالم كله ، والهواء هو كتلة كثيفة منهم ، يترصَّدوننا في كل آن ومكان . ويحكى أن راهبـة أكلت خسّة كان جالساً عليها احد الابالسة . وهذا تدقيق حكيم في مدى لبـاقة وقدرة الأرواح الشريرة التي تقتحم حتى صدور الراهبات المحصنات .

وكـان قد شرع القـديس (غوسـطين) بأن الـطفل إذا تـوفي مبكراً مـآله النـار . وخـالفـه بعضهم . اخيـراً اعتمدت الكنيسـة مبدأ انقـاذ الطفـل غير المعمـد بسـوقـه إلى (يمپـوس أنفرنُوس پُوكر وروم ، Infernus Pucrorum) ، - يث لا يكلف عذابهم إلا بحرمانهم من الجنة وحسب .

عـلى أن العقيدة بـوجـود مـطهـر للنفـوس ، خفضت من هـواجس الـرعيـة . لكن (غريغوري الأول) قال : إن ما تعانيه الأرواح في المطهر من الآم قـد يخف أو يقصر مداه بفضل دعاء الاحياء من أهل الميت واصدقائـه وصلواتهم . ثم تطوّرت هـذه الفكرة إلى أن

أبطل الاعتراف بوجود مطهر في المجمع الكهنوتي الحديث . وقد وجد البابا (غريغوري) هذا ، فائدة من خلق الاساطير المؤيدة للتعاليم والقيم الروحية ، فملأ صفحات مؤلفاته بها ، وبفضل براعة الدعاة والكهنة ، استسلم العقل في العصور الوسطى إلى الإيمان في أغلب الأوقاتِ والحالات ، جاعلاً كل اعتماده على الرب والكنيسة ، كما يثق الرجل المثقف المعاصر بالعلم وبالدولة اليوم .

الأسرار المقدسة :

كانت الأسرار المقدسة هي القوة الثانية من قوى الكنيسة ، هذه الأسرار هي الشعائر التي ترمز إلى منح البركة الإلهية . يقول القديس غسطين في هذا الشأن : لا يستطيع الناس في دين ما أن يترابطوا معاً ، إلا إذا اجتمعوا في نوع من الزمالة ، عن طريق رموز وشعائر يرونها بأم العين . في القرن الثاني عشر حُدِّدت هذه الأسرار المقدسة بسبعة : التعميد ، تثبت العماد ، الكفارة ، القربان المقدس ، الزواج ، رتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . وهنالك شعائر صغرى : الرش بالماء المقدس ، وعلامة الصليب . والتعمد اهمها ، وهو يهدف إلى : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً ، يُستقبل على أثره في حظيرة الدين المسيحي ، ويكون احد القديسين المختارين شفيع ذلك الطفل ، وحاميه وانموذجه . وقد استبدل التعميد الكامل بالماء بطريقة الرش لسهولتها ، وعدم خطرها الصحي . وكانت مراسيم تثبيت العماد والقربان المقدس عند اتباع الكنيسة الشرقية ، بعد التعميد مباشرة ، اما عند اتباع الكنيسة الغربية فقد أُجل ذلك كله إلى السنة السابعة من حياة الطفل ، حتى يستطيع أن يتعلم مبادىء الدين المسيحي . يقوم أحد الاساقفة بهذه العملية ، يصحبها دعاء إلى الروح القدس ، أن يدخل في جسد طالب التعميد ، وتُمسح جبهته بالزيت المقدس مع لطمة لطيفة على أحد خديه ، هذه الطريقة شبيهة بما كان متبعاً في مراسيم الفروسية ، بتلك البلاد .

أما الكفارة فهي الاعتراف إلى أحد الكهنة المخصصين . وتأييداً لهذا العمل ، وتبريراً له ، الكلام الوارد في (انجيل متى الآية (١٩) من الاصحاح السادس عشر والآية (١٨) من الاصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا ، وانه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة « الربط والحلّ » . وتقول الكنيسة أن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من

الرسل إلى المطارنة الأولين ومن (بطرس) إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثاني .

ولا يحسبنّ الإنسان أن صكّ الغفران رخصة بارتكاب الاثم بل هو اعفاء جزئي أو كلي من بعض العقاب ، جزاء على آثامه الدنيوية . هذا الاعفاء تمنحه الكنيسة . وكان أول صك بالغفران الكلي هو الذي عرضه البابا (اربان الثاني عام (١٠٩٥) على من يشتركون في الحرب الصليبية الأولى . ونشأت بعدئذ سُنّةٌ منح صكوك الغفران لمن يؤدون خدمات جليلة في سبيل تعزيز الدين المسيحي . وقد مرت فترات استُغل فيها صك الغفران لمآرب خاصة يوضحها التاريخ العام ، على أنها احدثت تشويهاً لحقيقة الكنيسة ومدبريها .

أما العشاء الرباني ، أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد ، فهو تمسك الكنيسة بحرفية العبارة المعزّوة للمسيح ، وقت تناول العشاء الأخير والقائلة : « إن الخبز هو جسمه والنبيذ دمه » ، وبأعجوبة سماوية تنزل على الكاهن ، يتحول الخبز والنبيذ إلى جسم المسيح ودمه ، ومع ذلك فأن جسد المسيح في السماء يظل مصوناً كاملاً لا يمسه أذى أو دنس .

وعالجت الكنيسة عُقدة الزواج فجعلتها دائمة حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة .

وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الكهنوت ، يهب المطران الكاهن الجديد بعض القوى الروحية التي ورثها عن الرسل ، معتبرين أن الرب قد وهبها أياهم عن طريق المسيح .

وفي المسح الأخير ، آخر الأسرار المقدسة ، يستمع الكاهن إلى اعترافات المسيحي وهو يلفظ انفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التي تنجّية من النار ، ويمسح اعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة ، وتصبح مستعدة للبعث امام الحاكم العدل. ويدفن دفنة مسيحية لا حرقاً ابداً شأن السلف البعيد .

وكانت الكنيسة تقول : « إن الجسم يبعث حياً مع الروح بعد الموت لدى الحساب الأخير» .

وكانت العناية في بناء القبور على المستوى المادي للمتوفّى .

بعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ حصلت مذبحة رهيبة للمسيحيين ، اثر ثورة اليهود على الامبراطورية ، كان ضحاياها : « يوحنا الانجيلي » ، فذاق الام الحرق بالزيت الحامي .

قبيل انتهاء القرن الثاني ، اتخذت المسيحية شكلاً منظماً بالاضافة إلى القراءات والصلوات والذبيحة الالهية . بقي هذا النظام معمولاً به على سبيل العُرف ، حتى صاغه القديسان : (يوحنا الذهبيُّ الفم وباسيليوس الكبير) في منتصف القرن الرابع ، فتبلور واخذ شكله الحالي . (الروم : الدكتور رستم) ونجد المسيحين الأولين يقولون بالاسرار الثلاثة : المعمودية ، والتناول ، والكهنوت . واعاروا عناية خاصة بالموتى ، لانهم قالوا بقيامة الجسد .

ولم ينكر أي مؤرخ رصين ما كان يحمل هؤلاء المسيحيون القدامى من زهد في الدنيا ، وصلاح وتقوى مضافة إلى التضحية والاخلاص الديني المتناهي ، والشاهدُ ما قدموا من ضحايا ، وطالعوا من الوان التعذيب . كما يشهد التاريخ غيرتهم الإنسانية ، حين حرَّموا الإجهاض وقتل الأطفال ، واحتضنوا اللقطاء وعمدوهم ، وحضّوا على العفة والبتولية ، وتجنبوا ملذات الجسد ، في كبح شهواتهم بالصوم ورياضة الجسم على العذاب وصَدَفوا عن الموسيقى والمآكل الشهية . ولم يترك للاعقاب هؤلاء الأوائل غير آثار قليلة متواضعة ، هي من بقايا القرن الثاني ، منها صور الصلبان على جدران مدافن روما مع جذوع نخل ، وغصون زيتون واسماك . والسمك هو رمز لعبارةٍ يونانية تعني : «يسوع المسيح ابن الله المخلص » . فمجموع الحروف الأولى من هذه الكلمات اليونانية ، يشكل كلمة تعني (سمكة)

الامبراطورية والكنيسة :

في القرنين الحادي والثاني عشر ، كان سيدَ الدولة ،(الامبراطورُ) ودستورها (الانجيل) . وكان من يمر بشوارع روما يقرأ على جدران المنازل البارزة في المدينة هذه الكلمة : (المسيح الفُسَيلفْس) أي المسيح الامبراطور .

وكان العرش الملكي عرشين . احدهما عرش المسيح الملك ، والثاني عرش نائبه على الأرض : (الفسيلفس) . وكان الجنود على قارعة الطرقات يرددون بأصواتٍ داويةٍ

الانـاشيد الكنسيـة ، وهم يحملون الصلبان عـلى صدورهم . ثم أن قصر الملك من داخله اشبه بالكنيسة منه بالقصور . وكان ثوب الملك ثـوب الايقونـات ، وكان تـاجه وصـولجانة مرصعين بالصليب المقدس . واعتبرت ثيابه هبَة ربانية حملها الملائكة إلى قسطنطين الكبير ، ولا يليق حفظها بغير الكنيسة .

وإذا ما ظهر الملك الأرضي على الجماهير ، فلا ينبس بكلمـة . كان الشعب يحس أو يتصـور الطيـور الذهبيـة تُفصح ، والأسـود المصطنعـة تزأر ، ويسجـد الحـاضرون ثـلاث سجدات . فيجلس على عرشه الـذهبي صامتـاً ، مسبل الجفـون وكأنما هو بـذلك اقتبس الصورة الواضحة المتواضعة لرب شريعته .

ثم إذا اقتضى الأمر للكلام ، فيلقي بإشارة إلى رئيس (الخصيـان) لينفذ مـا يريـده مولاه . وحين يرسم اشارة الصليب على صدره ، يستدلّ الزائـر بانتهـاء زيارتـه ، دون أن يتنازل إلى خلجة من شفتيه .

كان هذا الملك كلما انتهى من الطعام ، يكسر الخبز ويشرب الخمر ، تذكرة ليسـوع ولاعماله الجليلة المتناهية قداسةً وخفض جناح . وكان إذا جلس هـذا العاهـل على المـائدة احاط به اثنا عشر رجلاً من خاصته ، اشـارة إلى العشاء السري الـذي كان يلقي الصـورة المشوهة عنه . (الدكتور رستم ص ٨٠) .

ويتـابع المؤرخ نفسه: «إن (الفسيلفسة) زوجـة (الفسيلفـس) أي الملك ، كانت تشـارك زوجها حق السلطة ونيـابة المسيـح على الأرض . وكـان الشعب يسجد لهـا ويعفّر جبهته بالتراب امامها . وحين تخرج من الكنيسة كـانت الجماهـير المحتشدة تهتف : « أهـلاً (بالأوغسطة) المنتقاة من الله ، المحمية من الله ، المحبوبة من الجميع » .

أترى كان هذا شكل المحبة ، ومضمونها الذي وضعهُ المسيح أساساً لدينه ؟؟

لقد طعنوا المحبة في كبدها ، ليلَ شوّهوا صدى الفادي : يسوع .

تطور الكنيسة الكاثوليكية :

ابتداء من القرن الثاني للمسيح غدت الكنيسة مجموعة روحية فاعلة في الامبراطورية

الرومانية . وفي مطلع القرن الثالث صرح المفوَّض (ترتوليان) انه مغتبط لأنتشار المسيحية في كل طبقات المجتمع ، بكل مكان :

أ ـ بعهد الروسان : غدا لزاماً على القيمين على الكنيسة أن يعنوا بتنظيم الكهنوت وتقسيمه إلى طبقات ، وتحميل كل منها مسؤوليته . فكانت البطريركية والمطرانية في (روما) ، وكانت المجامع الكنسيَّة لصيانتها من الفوضى وللذود عنها من السنة واقلام المهاجمين .

ب ـ في القرون الوسطى : كان لتفسُّخ الامبراطورية الرومانية ، ولغزو البربر لتلك البلاد ، شأن كبير في بذر الفوارق بين الكنيسة الغربية والشرقية . وما اطل القرن الخامس حتى استفحلت النزعة النسطورية ، ونزعة القائلين بطبيعة واحدة في المسيح .

وقد انساقت الكنيسة الشرقية بأوامر الاباطرة البيزنطيين منحرفةً عن الخط الروماني السابق الذي بقي صامداً امام الهزات العنيفة السياسية التي اجتاحته . حتى اصبحت الكنيسة هناك ذات نفوذ اجتماعي وسياسي كبير ، في مختلف البلاد الغربية . وأصبح (البابا) رئيس الكنيسة ، ذا سلطة وصَولة على الملوك انفسهم . وكان (غريغوار الأول الكبير) (٥٤٠ ـ ٦٠٤) يعمل على تمييز الكنيسة الغربية واعلائها على الشرقية ، طوَّر البابا بعض المراسيم منها اغاني الكنيسة التي تحمل إلى اليوم اسمه . « وغريغوار السابع » تنازع السلطان مع الامبراطور « هنري الرابع » . قاوم الفساد في الكنيسة وأسرف بالتدخل في الشؤون المدنية . وبعد القرن الرابع عشر ، وبعد التخبط الذي منيت به الكنيسة ، انقذت نفسها في المجامع . فطوَّرت وبسّطت وأوضحت تعاليم المسيح . بذلك استعادت عافيتها لمواجهة المستقبل .

ج ـ ايمان الكنيسة الكاثوليكية : كان إيمان الكنيسة قائماً على الكتاب المقدس : العهدين القديم والجديد . هذا الإيمان بالكتاب ناجم عن الاعتراف بأنه موحى من الله ، وأن علينا طاعته .

وكان إيمان الكنيسة بالثالوث المقدس الذي اعتبر : الاب والابن والروح القدس إلهاً واحداً ، وأن الاعتقاد بهذا الثالوث هو منحة سماوية لا جدوى من النقاش حولها . هذا

الإيمان الأخير عقد السنة المنحرفين وآمنت الكنيسة بأن يسوع المسيح جاء ليحمل خطيئة البشر كافة ، تلك الخطيئة هي التي ارتكبها آدم وحواء منذ القدم . وإن الإيمان في عُرف الكنيسة هو المعرفة الحق . وإن الله يعضد النفوس التي تحمل الإيمان . واعتمدت الكنيسة الكاثوليكية قول يسوع : « من أحبني أحبه الله ، فنأتي إليه ونحيا به . ومن تعرّف على روح الحق يلازمهُ الحق ويصبح جزءاً منه » .

الفصل العشرون

الكاثوليك في الشرق الادنى

على سعة ما كان للكنيسة الشرقية من نفوذ وسلطان في سائر انحاء المشرق ، قبل الفتح العربي وبعده ، كان هنالك كنائس عدة للروم الكاثوليك ، يمارس اولياؤها وتابعوها طقوسهم بحرية مطلقة .

وليس كل المسيحين ذوي الطقوس البيزنطية يخضعون للكنيسة الارثوذكسية . فمنهم في جنوبي ايطاليا واليونان وتركيا وهنغاريا واميركا الشمالية من يلوذ بكنيسة خاصة تغذوها البابوية وفرنسا، ولا يتجاوز عدها المليون مسيحي بيزنطي .

كما ان في الشرق ، الكنيسة (الملكية) الكاثوليكية واتباعها متواجدون في سوريا وفلسطين ومصر . معاد كنائس هذه البلدان الى (روما) .

غير ان النفوذ السوفياتي في البلاد الخاضعة لمبادئه ، قضى او اوشك ، على هذه الفرق المختلفة .

وهناك (الأرمن) الكاثوليك ، فإن لهم كنيستهم في القسطنطينية ، ويشمل نفوذها كل اتباعها في سوريا ولبنان والعجم .

والكنيسة السورية الكاثوليكية تحتضن اتباعها في انحاء سوريا والعراق ، ويبلغ عددهم بعض عشرات الآلاف .

والكنيسة (المارونية) تطورت وتبعت الكثلكة . أما الكنيسة (القبطية) فلا يتجاوز عدد اتباعها الثلاثين مليون نسمة والأقباط والأحباش المخلصون لكنيستهم العائدة لروما ، يبلغون حوالي العشرين الفاً . .

عن هذا الاحصاء عن التاريخ العام للديانات . طبع نهاية سنة ١٩٦٠ . وللكثلكة مدارس روحية عالمية ابرزها :

١ ـ الرابطة التوحيدية العالمية : هي حركة دينية اسسها: (Hoséa Ballou ، هوزايا باللّو) في العام (١٩٦١) في الولايات المتحدة على امل توحيد العلمانيين والتوحيديّين . رفضت الايمان بالثالوث المسيحي ، كما نادت به المسيحية الأولى .

٢ ـ الأخوة الكبوشية : تابعة للقديس (فرنسيس) بدأت (١٥٢٥) مبدأها البساطة في الطقوس الكنسية ، ضد كل بهرج كنسي .

٣ ـ الكرملية : أو الأخوة البيض تأسست في (جبل الكرمل) حوالي (١١٠٠) امتدت لاميركا عام (١٨٦٤) .

٤ ـ الكرتوزيه (Carthusians) انشأها (Bruno de Cologne برونو دي كولونيه) عام (١٨٨٤) بأحد المناسك في فرنسا . إيمانها : زهد عميق والنوم على القش والغذاء بالخُضار .

٥ ـ السيسترسيان : (Cistercians سسترسيان) هي اخوة القديس رويرت أ. فمولزم نساء ورجالاً عام (١٠٩٨) غايتها الاعتدال ، والصمت إلا للضرورة القصوى .

٦ ـ الدومينيكان : أسسها القديس دومينيك عام (١٢١٥) ثم ترأسها القديس اوغسطين عام (١٢١٦) ايمانها الكامل بالعفة والطاعة والصوم .

٧ ـ الفرنسيسكان : أنشأها القديس (كلار Clare) عام (١٢١٢) مبدأها النذر للعناية الروحية بالناس ، ثم عادت فاتجهت شطر التعليم .

٨ ـ الآباء اليسوعيون : أول منشىء لها هو القديس اغناطيوس ليولا (Layola) عام (١٥٣٤) ايمانها بالفقر والطاعة والتبتل .

٩ ـ أخوة فرسان بيتياس : (Pytheas) تاريخها يعود إلى (١٨٦٤) ومنشئها Gustus Rathbone (غسطس راتبون) تركزت على القيم الاخلاقية الرفيعة، طقوسها باطنية.

١٠ ـ جمعية القديس بولس الرسول : أسسها (اسحاق هاكر عام (١٨٥٨)

غايتها نشر الفكر الكاثوليكي المتزمت .

(المرجع : (World book - Encycl

غبّ هذا التناحر المذهبي الكاثوليكي ، وبالغرب خاصة ، كان لا بد ان تتبلور الأفكار ، ويجد المعارضون للكثلكة سبيلاً للتشفي ، عن صواب أو عن نشاز وحمق ، فكان ما دعاه بعضهم بالاصلاح الديني ، وتياراته المتنوعة .

الفصل الحادي والعشرون

الاصلاح الديني

ازمة هذا الاصلاح :

يثبت التاريخ ان الكنيسة في القرن السادس عشر ، بلغت قمة انفتاحها على بهارج الدنيا وسيآتها ، وتنكرت لتعاليم السيد المسيح ، المتضمنة منتهى الطهارة والتعفف والزهد في مغريات الحياة . ولم تكن الأزمات العقائدية التي سبقت هذا التاريخ ، على الكنيسة الا نتيجة تطرف في الشرود عن المعتقد المسيحي النبيل ، واسمى بعضهم هذ التطرف تطويراً ومجاراة للعصر .

ان اقطاب الكنيسة في تسامحهم مع من تنكر بتصرفاته الشخصية ، وبتطرفه العقائدي خلق في قلبها ، اعداء خطيرين عليها . انما الذي حدث في القرن السادس عشر ، والذي كان ثمرة تلك الاخطاء بدءاً من القرن الثاني للميلاد ، ساق الكنيسة الى الوقوف مجابهة ، امام عاصف فكري عنيف ، هب عليها من شمال شرقي أوروبا ومن فرنسا وانكلترا معاً ، مما حدا بالبابوية ان تشهر السلاح الأمضىٰ على أعوانها وعلى المبشرين ضدها .

إن شأن المسيحية في التاريخ الطويل شأن كل معتقد روحي منذ فجر التاريخ الحضاري في العالم .

فعمالقة الفكر الروحي ابتداءاً من أتون المصري (لِكْرشِنا) الهندي و (راما) الهندو اوربي ، إلى ايليا النبي ورفاقه اللاحقين الابرار ، إلى القمم في الفلسفة الروحية اليونانية ،

ثم إلى يسوع نفسه ، كان كل هؤلاء مسراهم النوراني مسرىً موحداً . عبدوا الإله الواحد ، وآمنوا بخلود النفس ومقاضاتها ثم تنكروا للاهواء الجارفة التي تنفخ فيها رياح الشهوات من : جنسٍ لِمَتاع ، إلى مال .

إن المنطق السليم يصل بكل مفكر رصين إلى الإيمان بهذه القيم جميعاً . وان التخلي عن واحدة منها هو التخلي عنها كلها .

فبعض الكهنوت المسيحي ، حين ابتعد عن طهارة مسلكه ، وصمَّ اذنه عن تعاليم معلمه ، فسد وعاث وزنى ، فسلط الرب عليه عدواً من نفسه ، واجداً البراهين الحسية ، الملموسة على انحرافاته الثورية الحاقدة .

كان هذا العدو المزعوم يتخذ الحواريين القديسين بعد يسوع مثالاً لديانته الجديدة تبريراً لانحرافه الخطير . وقد صادف آذاناً مصغية ، ونفوساً متعاطفة كل التعاطف في امد قصير .

حبذا لو كانت هذه امثولة وعظة ، وعبرة هادية الى الالتزام بالخط الاخلاقي الإنساني السليم ، في تصرف كل انسان ، بكل ارض وزمان .

إن (لو فيفر Le fèvre وحنّا هُوسّ Jean Huss) وعشرات من عمالقة الفكر في ذلك العهد ، ما كانوا ليناهضوا الكنيسة ولا كانوا مأخوذين بالعنصرية الاقليمية التي حاول ان يُبرِّر بها نفسه نفر الكهنوت المنسلخ عن تعاليم (سيده) لو كانت الأمور منساقةً بمجراها الإنساني السليم ، والبرهان : تمرُّدُ الثائر اللاتيني الفرنسي (كالفين Calvin) ومجاراته للمبادىء اللوثّرية الناقمة .

وهذا التاريخ العام للديانات ص (١٦٧) من مجلده الرابع يقول : « لم تولد البروتستنتية من فكرة اصلاحية وطنية وطبيعية ، إنما ولادتها من : أزمة دينية اطلق لها العنان المصلحان الكبيران (لوثر وكالفن) . كانت نظرة الريبة إلى بعض تعاليم الكنيسة قد انبثقت في مطلع القرن الالف للميلاد حين تنبه المفكِّر الأوربي إلى ضرورة النظر في التحليل والتحريم أولاً ، وقد نادت جماعة من الفرنسيين باستحالة وجود المسيح في القربان المقدس واستحالة قدرة التعميد على غسل الذنوب ، مصرة على أن المسيح الرب هو اسمى من أن يأتي بمعجزات لأنه خالق كل شيء . وقالت ان شفاعة القديسين عمل باطل

لأن الالتماسات هذه فيها غمز لرحمته وابوّته . كما نادت الجماعة بعودة القساوسة إلى النهج الاخلاقي السليم الذي رسمه وعاشه يسوع وحواريوه .

الكاثاري :

في ذلك الحين ظهرت طائفة (الكاثاري) الداعية إلى الاعتصام بأساليب المسيحية الأولى ، مطالبين بالتخلي عن الثروات والعائلات في سبيل الله والانجيل . عاشت تعاليمها ، معتبرة كل شيء على الأرض شراً محضاً ، وعالم الله سماوياً محضاً . نافين قيمة الصليب والعشاء السري والتثليث وصور القديسين . رافضين تقاليد المسيحية ، وصلة (بطرس) بالبابوية . وما كان (البابا) في عقيدتهم إلا (المسيح الدجال) .

هذا الانحراف حفز البابا إلى اعلان حرب مقدسة على هؤلاء المعاندين . وكانت محاكم التفتيش : . . وكان ما أثبته التاريخ العام من فظائع لا تقرها شريعة كريمة . كانت عصفة عاطفية عصبية لطخت صفحة الإيمان الحق . فطائفة الكاثاري اعتمدت الباطنية العالمية نافية كل التكاليف المتعارفة التي دعت إليها المسيحية المتطورة ، مصرة على الإيمان بالمسيحية الأولى ، وبرسلها وبكل قيمها الإنسانية .

تناقلت الأيام ذلك الحقد والتجافي بين الجماهير والكنيسة . واستمرت ناره كامنة تحت رماد الحذر والرعب حتى كان يوم ٣١ تشرين الأول سنة (١٥١٧) ، يوم تألبت الجماهير في المانيا ليقرأوا المنشور المستفيض المعلّق على باب كنيسة (ويتنبرغ) مستنكراً صكوك الغفران مع كثير غيرها . كان التوقيع على هذا المرسوم يحمل اسم : (مارتن لوثر) رأس اساقفة الكاثوليك في اوربا الشمالية . فمن هو (لوثر) ؟

لوثر

ولد هذا المصلح الخطير في (ايزليبن Eisleben) بمقاطعة (السكس) ، في العاشر من تشرين الثاني عام (١٤٨٣). كانت تربيته الأولى منحرفة نظراً لقسوة والديه . لكنه انجز دراساته حتى الجامعية ونال شهادة استاذ في الفنون من جامعة (Erfurtآرفورت) .

في العام (١٥٠٢) التحق بالكهنوت في دير بالبلدة نفسها . وقد صرف شبابه تقياً محافظاً على الطقوس الدينية بكاملها . في العام (١٥٠٧) رسمته الكنيسة كاهناً . ولعظم

تقدير الكنيسة لنبوغه ، ألحقته بجامعة اللاهوت في البلدة نفسها .

هذه الدراسات ، وما كان يراه ويسمعه من تصرفات الكنيسة في روما آنذاك ، ولّد في نفس هذا الشاب شكوكاً وحقداً عليها ، وخاصة بعد زيارته لروما نفسها ، وتلمسه تصرفات كهنتها ، واعتمادهم بعض الأفكار التي رأى فيها شروداً عن الخط المسيحي السليم ، وبخاصة اقبال البابا (ليو العاشر) على بيع صكوك الغفران التي بواستطها يمكن لمشتريها أن تغفر له الجريمة مهما خطرت . والفقراء تتراكم خطاياهم ولا غفران .

كان (لوثر) ينادي بأن الحقيقة تعيش من الايمان . وكانت الملاحظات الخطيرة التي اعلنها عام (١٥١٥) مؤشراً لثورته ، ولحرمان الكنيسة البابوية له ، واعترافها به كاهناً أو تابعاً لها ، لأنه سبق آن اعلن اعترافه فقط بسريَّن للقربان المقدس : العمادة والعشاء السري . (من تصريحات لوثر) :

« منذ الخطيئة الأولى اصبح الإنسان كشجرة فاسدة الثمار ، لا يمكن له ان يريد إلا الشر » . .

وتوفي (لوثر) عن ثلاثة وستين عاماً انهاها في (١٥) شباط (١٥٤٦) .

يتحدث المؤرخون عن صدق روحانيته وقويم اخلاقه ، وفصاحته وصراحته وجرأته . وكان يتراءى له اصلاح الكنيسة وبقاءها موحدة ، لكن رُؤاه خابت ومساعيه آلت إلى انشقاق الكنيسة الكاثوليكية للمرة الثالثة .

كان همُّ (لوثر) في هذه الثورة أمرين : علاقة الإنسان بربه ، ثم علاقة البشر الصالحين والفاسدين بعضاً ببعض . الأولى ارجعها إلى حقيقة الإيمان وحدها ، والثانية إلى الكنيسة بذاتها ، وإلى السلطة الزمنية صاحبة الرأي .

بهذا إيجاز للمنشور الذي أشرنا إليه والمتضمن خمسة وتسعين بنداً نوجز بعضها ، غامزين إلى ما يحمل من حقد على البابا واساقفته ، والكنيسة التي يرأسها ، ولكلٍّ رأيه في ما يعتبره خطأً أو صواباً ، ودجلاً أو ايماناً راسخاً :

المنشور اللوثري :

نقتطف من البنود الخمسة والتسعين التي تعلقت على جدار الكنيسة اللوثرية ما يأتي :

١ ـ ان ربنا يسوع المسيح في قوله : توبوا « يطالب المؤمنين أن تكون تـوبتهم حقيقية وسيرتهم مقدسة طاهرة نقية طوال حياتهم » .

٢ ـ إن البابا لا يستطيع ان يرفع عن الإنسـان قصاص الخـطيئة ، إنمـا يعلن فقط ، خطاياه مغفورة من الله » .

٣ ـ ينخدع غالبية الناس بالوعود الجوفاء ، التي يستحيل على البابا الوفاء بها » .

٤ ـ « أولئـك الذين يعتقـدون بخلاصهم من العـذاب في الجحيم ، لحصولهم عـلى الوعود البابوية ، سيقضون ابدية تعيسة في جهنّم ، برفقة الذين علموهم الأمور » .

٥ ـ « كل مسيحي يترك خطاياه ، ويتوب توبة قلبية صـادقة تُغفر له خطاياه ،ويُكتب اسمه في سفر الحياة ولا حاجة إلى رسائل توصية من البابا » ..

٦ ـ كل مسيحي حقيقي حياً كان أم ميتاً ، يشترك في كل بركات يسوع التي اعدهـا للمؤمنين باسمه . لا حاجة له إلى صكوك غفران » .

٧ ـ « التائب الحقيقي يحب القصاص ، ويبحث عنه ، ولا يتراخى عنـه ولا يتغاضى لحظة عن قبوله » .

٨ ـ يجب ان يحـذر الناس من التعـاليم المضلّلة ، القائلة بـأن هذه الغفـرانـات هي هدايا ثمينة من عند البابا ، بها يقبل الإنسان عند الله » .

٩ ـ « يجب ان يعلم المسيحيـون أن البابـا لو عـرف خداع الـداعين لشراء الغفـران وغشهم واختلاسهم لفضّل ان تكون كنيسة مار بطرس التي سيبنيها في (روما) ، رمـاداً ، من أن يراها تبنى من دماء الرعية » .

١٠ ـ « كل رسل البابا واتباعه الذين يبيعون صكوك الغفران ، يخطئون في قولهم ان العفو البابوي يمكن ان يحرر الإنسان من الخطيئة ، ويؤكد خلاصه » .

وبعد هذا المنشور تقدم (لوثر) من الشعب الالماني بمشروع اصلاحي يتضمن سبعة وعشرين بنداً نكتفي منها بذكر :

١ ـ « على الشعب الالماني أن يرفض دفع الضريبة السنوية للبابا ، لأنه بـدلاً من أن يصرفها في اعمال البر والإحسان ، يستعملها لاشباع شهواته الدنيئة » .

٢ ـ « عـلى البابـا أن لا يتـدخـل في الأمـور الـزمنيـة لأنها من اختصـاص السلطات الدنيوية » .

٣ ـ « من التناقض العجيب ، ان يدَّعي البابا أنه راعي كنيسة المسيح على الأرض وخليفة القديس (بطرس) بينما يحيا حياة العزة والأبهة ، غير متمثل بالمسيح الذي وُلد وعاش ومات فقيراً » .

٤ ـ الناس يجترئون على الله بتقبيلهم قدمي البابا ، فالمسيح غسل ارجل تلاميذه ، خدمة لهم » .

٥ ـ تحريم الكنيسة الزواج على الكهنة ، خطأ ، لأنه جعل الكثير منهم يندفعون إلى الفسق والفجور » .

على أثر هذه المنشورات صرح البابا بأن (لوثر) رجل مخمور ، وأمر بطرده من سلك الكهنوت ، وتحريم قراءة ما كتبه أو التعامل معه .

كان هذا هو الحد الفاصل بين (لوثر) وكنيسة (روما) وقد رأى بأم عينه تعاليمه منتشرة في اوربا الشمالية جمعاء ، تعرف الكنائس التي نظّمها باسم : (الكنائس البروتستانتية) ، وكان مطلع القرن السادس عشر مُبشراً بنهضة علمية شاملة ، لا تحدُّ من انطلاقتها القيود البابوية السابقة .

كالڤن

ولد حنا (كالڤن) من ابوين فرنسيين في بلدة (نيون) بفرنسا في الحادي عشر من تموز سنة (١٥٠٩) .

في عام (١٥٢٣) التحق بمدرسة (لامارش) . درس الحقوق على يد استاذه (بيارولمار) الذي كان أول مدين له شطر دراسة اللاهوت ، وكان هذا الاستاذ من تلامذة (لوثر) . وقد صرح المؤرخ (و.ج. مُور ، W.G. Moure) بما يلي : من الصواب الأخذ بعين الاعتبار الى عمق تأثير تعاليم لوثر في الشاب (كالڤن) .

كانت غاية (كالڤن) ان يجعل من الكنيسة القائمة صورة صادقة عن الكنيسة الأولى ، حيث الطهارة الكاملة ، والعفة وصدق الإصغاء لتعاليم المسيح ، وممارستها في الحياة اليومية قولاً وعملاً . كانت مواعظ (كالڤن) كلها قائمة على الإرشاد لطريق الله والتوبة ، ثم ان الخلاص يأتي الإنسان من نعم الله ، ولا قيمة للصنيع الشائع فتمام التبرئة ، بالإيمان الصادق .

لم تَرُقْ هذه المواعظ للحكومة الفرنسية ، فأضطرت (كالفن) الى التخفي حذراً . ثم الى الانتقال إلى (جنيف) لاتمام رسالته التي دوّنها في كتاب اسماه (المؤسسة المسيحية) في سنة(١٥٣٦) .

وبالرغم من أن هذا المصلح كان تلميذاً (للوثر) لكنه وقف عند بعض بنود من تعاليمه ، وحرّف بعضها معتمداً الولاية الإلهية ، في تشريعه . وليست الحكومة غير السلطة الإلهيةوحسب . كانت تلك عقيدته ، بالاضافة إلى مناداته بالعودة إلى المسيحية الأولى ، في صحيح ايمانها ، وصدق تصرفاتها . وفي اعتقاده بأن العبادة وسر القربان المقدس قيمتهما في ما يَرمُزانِ إليه بالحقيقة .

توفي (كالفن) في السابع والعشرين من أيار سنة (١٥٦٤) . وبعدهانتشرت عقيدته في فرنسا وسويسرا وهولندا وانكلترا ثم في اميركا الشمالية بواسطة شيعة ال (Puritan ، يوريتان) التي تمنح السلطة الكنسية إلى شخصين هما : كهنوتيٌّ وعلماني .

ويجمل القول في هذا المصلح أنه كان روحانياً طاهراً ومفكراً كبيراً ، وُلِد فقيراً ولم يكن له من شاغل في حياته إلا الشغل الفكري المتواصل . كان له عالم واحد هو عالم الأفكار .

ارستقراطي النزعة ، قوله فصل ، وارادته فولاذية ، معتمداً على الإلهام الباطني . معتبراً نفسه المبعوث لإظهار حقيقة الله ، وحقيقة شريعته .

عقيدته :

ركز (كالفن) عقيدته على الكتاب المقدس ، معتبراً إياه المصدر الأكمل الذي يضم في مضمونه حقيقته المؤكدة بالإلهام العقلي .

الكتب المقدسة هي كل شيء في عُرفه ، وكل ما هو خارج عن العهدين القديم والجديد لا قيمة له . كما لا قيمة عنده لشفاعة القديسين . عمل واحد يؤدّي إلى السعادة الأبدية هو : الإيمان بالمسيح . ولا حرية إلا من الله . فهو ذو الإرادة المطلقة ، والقدرة الفائقة . وقَدَرُ العباد في يده .

كان هذا المصلح يصرّح بأن كل إنسان يمكنه الخلاص ، لكن الله يختار له من

يشاء . وأن الخطيئة التي تحمَّلها الجنس البشري عن آدم ، جعلته يفقد الأمل بنجاته ، ومهما أكثر الإنسان من التحرّي عن طريق الخلاص فلن يجده بغيرِ الإيمان الصادق بالمسيح الذي يشرق عليه بإلهامٍ باطني .

ونهاية المطاف هي : الاعتصام بالوصايا العشر، مصحوبة بذلك الإيمان ، لتبرير الإنسان والثقة من نجاته . تلك هي خلاصة العقيدة الكالڤينيّة التي عمل على توضيحها وفلسفتها في ستّينَ مجلداً .

الفصل الثاني والعشرون

الكنيسة البروتستنتية

بعد ثورة (كالڤن) على الكنيسة البابوية ، وبعد انتشار اللوثرية في شمالي أوربا ، شرعت هذه التيارات المعاندة للكنيسة الأم ، في العمل النشيط السافر ، جاعلة مقرها الرئيسي في (جنيف) وذلك في نهاية القرن السادس عشر . وبرز ذلك الثائر المعروف (كرومْوِل) في بريطانيا ، ونادى هو الآخر بتحرر الكنيسة وحرية المعتقد .

في هذا الجو المسعور ، ظهرت شيعة المعمدانيّين الذين لا يقرون تعميد الطفل حتى يبلغ سن النضوج ، بحجة أنه صغير،لا يعي ولا يتفهم سر التعميد والمغزى المقصود منه .

كما ظهرت جماعة (الكواكَرْس Quakers) الذين انكروا قوائم الكنيسة من : سر القربان المقدس ، إلى العبادة إلى الكهنوت ، إلى طقوس الكنيسة ثم إلى مستندات (كالڤن) نفسه . يعتمدون في عقيدتهم الروحية ، العناية الإلهية التي هي وحدها تنيرطريق كل مؤمن . يعتبر هذا المذهب من البروتستينية المتطرفة ، خلفاً للباطن الروحاني العريق في التاريخ ، ومشابهاً للباطن السلتي و « للكاثارية » انه الخط الهرمسي الفيتاغوري العتيد ، الخط الروحاني الذي سلكته الباطنية في الإسلام .

والجواب على السؤال : من أين تسربت هذه العقيدة الباطنية الى تلك الجزيرة ؟ ان (الهندوأوربيين) الذين استوطنوا شواطيء الدانوب في الألف الثاني قبل الميلاد ، نقلوا من الشرق البعيد جذور التوحيد الباطني ، الذي يركّز إيمانه على الله وحده دون أن يبالي بالتكاليف المتعارفة في الكنيسة ، وفي كل كنيسة ومعبدٍ في الديانات الظاهرة ، شاعت هذه

الفكرة في بلاد (السلت) جنوب غربي المانيا اليوم ، ثم انتشر شعبها من فرنسا واسبانيا الى شمالي ايطاليا ، ثم عبرت المانش إلى بريطانيا وما من شك في أن هؤلاء (السَلت) كانوا يمارسون المعتقدات الشرقية، من بينها الباطن الروحاني ، وفي تغلغلها هذا ، زرعت بذور الباطنية هنا وهناك . كان منها الأمبراطور (نُوما) الذي مرّ ذكره . وظهرت في بريطانيا فرقة (الطرائقية Méthodisme) في مطلع القرن السابع عشر قام بإحياء هذه الفرقة البريطانيان : (واتْفيلْد - وِسْلاي ، — Wetefield - Wesley) .

عقيدة هؤلاء قوامها إيقاظ الضمير والحياة الدينية في الإنسان. وبعد مخاض عسير اعتنق الموالون منهم المعتقد (الكالڤاني) المؤمن بالقدر الأزلي والتبرئة بالإيمان . وقد بلغ عدد هؤلاء اليوم زهاء (٢٣) مليوناً .

ودعا رؤساء الأديان المسيحية في أوربا إلى اجتماع عام بينهم ، فتم لقاؤهم في منتصف القرن العشرين (بأمستردام) وبلغ عدد الفرق الملتئمة مئة وستين فرقة . بعد نقاش مدروس وطويل تناول كل القضايا ، اقروا بأنه لا يمكن التفاهم الكامل بغير اتفاق عام .

لم يحصل آنئذٍ أي تفاهم عميق بينهم ، حتى كان عام (١٩٥٢) يوم اعلن فيه استاذ جامعة (جنيڤ) المدعو : (م.ج كورْويزْيا M.Jeacques Caurruisier) : « لقد اظهرت الكثلكة تعقيداً في الحوار ، غدا مستحيلاً بعده ، التفاهم مع البروتستنتية وقد اكد غيره من العلماء استحالة تفاهم المعتقدين ، بالرغم من ان المرجع الأول لكليهما الله ويسوع المسيح » .

وأكبر الفرق البروتستنتية هي :

١ ـ اللوثرية ـ الكلفانية ، وتعد تسعين مليون نسمة تقريباً .

٢ ـ المعمدانية ، خمسة وعشرين مليونا .

٣ ـ الميتودية ، ثلاثة وعشرين مليونا .

٤ ـ البرسبيتيه ، واحداً وعشرين مليونا .

٥ ـ الأنكليكانية ، خمسة وعشرين مليونا .

كما أن هنالك فرقاً ومدارس بروتستنتية متعددة في الولايات المتحدة، خاصةً، تؤمن

كلها بيسوع المسيح سيداً للكنيسة . وأن بعضها (كالموراڤيه) اعتنقت الرمزية والايحاء الباطني امتداداً (للسلتيه) و(الكواكرزية) والكاثارية .

وباطراد نمو تلك الطوائف ، وخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، فقد كثرت تشعباتها ومبادئها الروحية حتى الرئيسيَّة منها . من بين هذه الطوائف نشأت : المعمدانية ونشأ المحفليُّون والاصدقاء .

في أواخر القرن السابع عشر لمعت عقيدة هؤلاء الاصدقاء ، وما كانوا ليؤمنوا لا بكنيسة ولا بكهنوت . كان دينهم : (النور الباطن) ، ذلك النور الذي التمع في بصيرة كهنة (ألوزي) وبصيرة جماعة النِحلة (الأورفية) ومن كان قبلها وبعدها معتمداً ذلك النهج الروحاني التوحيدي البسيط حيث لا مكاناً مقدساً إلا لدى اجتماع الأصدقاء ومداولتهم الروحية ، أياً كان المكان ، في ظل شجرة ، أم في العراء ، أم في منزل ما . وكانت الأُخوَّة الحق مسيطرة على تصرفات هؤلاء ، يربطها الحب الصادق والإيمان بوحدانية الخالق ، والصلة به دون ما واسطة اطلاقاً .

المورمونية :

انشأ في الولايات المتحدة (جوزيف سميث) في نيويورك بالقرن التاسع عشر ، فرقة متطورة، مدعياً أنه تسلم من ملاك يدعى (موروني) كتاباً مذهّب الصفحات، يحمل تعاليم مسيحية حديثة ، هي اقرب إلى البروتستنية من سواها (غير أن جماعته يرفضون الاعتراف بأية كنيسة يسارية روحية أو يمينية ، خلا كنيستهم هم ، القائمة على أبسط التعاليم المسيحية الحية ، وعلى الصراحة والصدق والوضوح. لهم حتى اليوم زهاء نصف مليون م شيْع في أرضهم الأم . وفي مطلع هذا القرن أسَّست السيدة (ماري باكر أدّي Mary Baker Eddy) مذهباً قوامه عمق الإيمان بالقدرة الإلهية . تصورت هذه الجماعة أنه بالإيمان الصادق والوحدانية ، تأتي الخوارق ، بما فيها شفاء المرضى . ولا ريب في ان هذه البدعة الحديثة جذوراً تعودُ إلى منهج المسيحية الأولى في بساطتها . وقد اطلقت على فرقتها هذه اسم : (الكنيسة الأولى للمسيح في العالم) متأثرة بالهرمسية العرفانية وما برح نشوء الفرق البروتستينية يتتابع مع الأيام ، وكل فرقة تدّعي سلامة مبدأها وصحته ، وعلميته ، لكنها كلها لا تعترف (بالبابا) سيداً على ايةٍ من كنائسهم . صلة افراد مؤيدي

هـذه الشيع مبـاشرة بيسوع ، ولا يعـوزُهم كاهن مـرشد ، ولا عـراف ، ولا منح بـركات بشرية .

قبـل ختام البحث أودّ درج لائحـة بأسـماء الفِرق الـبروتستينية ومؤسسيهـا وتـاريخ تأسيسها رغبةً في التوضيح :

١ ـ كنـائس البِنتاكـوستل (Pentecostals) غـايتهـا السعي لتعبئـة النفس بـالـروح القدس . بدأت عام (١٩٠١) .

٢ ـ كنيسة المسيح الموحدة تأسست عام (١٩٦١) لمؤآزرة بعضهم بعضاً .

٣ ـ مجمـوعـة أميش : (Amish) تـأسست في سـويسرا عـام (١٩٦٠) يـرأسهـا (يعقوب امان). في عقيدتهم السعي لمنـع الحروب والتخـلي عن الوظـائف ، وعدم الإنـارة بالكهرباء ، واللبآس المحتشم جداً للنساء .

٤ ـ كنيسة العلماء : (١٨٩٧) السيدة (أدّي Eddy) . يؤمنون بالتـطبيب الروحي وكل ما هو شرّ هو غير حقيقي (مرض خطيئة . . حروب . .)

٥ ـ كنيسة الله في المسيح : (١٨٩٥) أسَّسها (ماسّون Masson) وطرد من الكنيسـة المعمدانية بسبب تعاليمه القائلة : لا خلاص بغير قدسية .

٦ ـ الكنيسة الناصريـة : (١٩٠٨) هو اتحـاد ثلاث كنـائس في هدف نشـاط ثقافي عالمي تابع للكنيسة الطرائقية — (Méthodisme)

٧ ـ كنائس المسيح : تؤمن بأن العهد الجـديد فقط هـو قانـون الإيمان ، والخـلاص بالإيمان ، والندم والاعتراف والعمادة (ت. كامبّالّ Th. Campbell) .

٨ ـ طائفة مصارعي الروح المسيحية : تُؤمن بالصوت الداخـلي وبعدم الجـدوى من الكنيسة ولا الدولة . إيمانهم المُسالمة . وقد تأثروا بأفكار (تولستـوي) . انبثقت من روسيا فكندا .

٩ ـ الكنيسة المعمدانية : بدأت في مطلع القرن السابع عشر بانكلترا ، وهي ترفض تعميد الأطفال ريثما يدركون ويؤمنون . العمـادة عندهم في التغـطيس بالماء لا الرش بـه . رئيسها الأول كاهن بريطاني يدعى (John Smith ، حنّا سميث .

١٠ ـ الكنيسـة المرمـونية : أسسهـا (Joseph Smith) (، يـوسف سميث) عـام (١٨٣٠) في الولايات المتحدة ، يعتقدون بأن الانجيل هو كلام الله ، لكنه ليس كل مـا

قال الله وفعل . يؤمنون بأن الكائن الأسمى هو الأب الحي ابداً مجسداً . والجسد البشري هو صورة الله .

١١ ـ جمعية القديس يوحنا الانجيلي : أسسها (Benson بنْسنْ) في بريطانيا عام (١٨٦٦) .

١٢ ـ جمعية القديس (St. Francis de Sales فرنسيس دي سال) تأسّست في ايطاليا عام (١٨٥٩) .

١٣ ـ جالية مريم العذراء : أسسها (W. Butler و. بوُتْلَر ، بريطانيا (١٨٤٨) .

المرجع : (World Book - Encycl.) موسوعة (كتاب العالم) .

الفصل الثالث والعشرون

الاصلاح الديني في بريطانيا واوربا الشرقية

كان للبدعة التي انطلقت من (أڤينيون ، Avignon) في الجنوب الشرقي لباريس ، اثر عميق في تفكير البريطانيين الروحي للقرن السادس عشر ، حيث هبّ الشعب ساخطاً على البابوية ، معيراً اذنه إلى جلجلات لوثر وكالڤن .

من العوامل التي رسخت البروتستنتية في بريطانيا منذ بدء دخولها البلاد كانت قصة هنري الثامن واقترانه من (آنّ دي بولْينْ Anne de Bolyen) . ثم هناك سلطة الملك التي حاول أن يبسطها على الكنيسة كما على الشعب . وقد ذهبت ضحايا عدة على مذبح التعصب الديني . منهم اساقفة وكهان بينهم الكاهن الشهير (توما ماروس) .

في عهد الملك (ادوار السادس) سنة (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) أنجز الكثير من الاصلاح الديني المستمدّ بعضه من مبادىء (كالڤن) ما يحوي اثنين واربعين بنداً .

تأسست وقتئذٍ في بريطانيا كنيستان : المنخفضة والعريضة ، هذه الأخيرة كانت على كثير من الانفتاح بحيث احتضنت معظم الفرق المسيحية المنشقة .

حاول جاهداً البابا (بولس الثالث) ان يصدع التيار البروتستنتي في اوربا الوسطى ، وظفر في سيطرته على ايطاليا وفرنسا واسبانيا بشكل عام . كان يعاون البابا

البعثـات اليسوعيـة والكرمليـة والعازاريـة وسواهـا ، في معاهـدهم المنتشرة بمعـظم اوربـا الكـاثوليكيـة . وقد هـاجرت هـذه البعثات بعـد قليل ، إلى القارات البعيـدة ، يـدعمهـا الاستعمار لتوطيد سلطانه على كل ارض .

كانت لهذه البعثات حسنات تقابلها سيئات جمة . نشرت المعارف المادية والروحية ، كـما اسهمت في غرس روح الخنـوع للفـاتحين ، والتصفيق لأعـمالهم ، والايغـال في تعليم بلدانهم ومستعمـراتهم . كانت تقـدم كـأسـاً مـذهبـة من العلوم لكن السم مـدسـوس في خمرتها .

ظفـرت هذه البعثـات في صد الـبروتستنتية عن بعض البلدان ، لكنها عجزت عن صد موجتها الصاخبة التي اجتاحت اميركا الشـمالية ، بمعـظم مقاطعـاتها . كـما انها ألقت السـلاح امـام الـروح الثـوريـة التي فجّـرهـا القمـع والإرهـاب والحـرمـان ، في كـل من المستعمرات الفرنسية والبريطانية ، قبيـل الحرب العـالمية الثـانية وبعـدها . وكـان لمواقفهم العنيدة هذه ، اثر بالغ على الفكر المسيحي البابوي ، في الجنوب الغـربي من اوربا ، حيث اوقفوا المد البروتستنتي على حدود بلدانهم . رعا هذه النزوة الروحية الملك (لويس الرابـع عشر) وكـانت رعايتـه لها قـدر نفوذه السيـاسي في العالم ، كـما كـانت اعـداء الكنيسـة هـذه لـدى وفاة الملك سنة (١٧١٥) تجدها مناسبة سعيـدة لهم ، ليهبوا في فـرنسا نفسهـا ويشهروهـا حرباً بغير هوادة على الكنيسة وطقوسها وكهنوتها وعلى الحبر الأعظم قبلها .

اكـبر المفكرين الـذين حملوا راية هـذا التحرر العقـائدي كـان : (ديدرو ، وڤـولتير وروسّـو) . وقـد أوضـح معتقـد المعـارضـين للكنيسـة ، كـل كنيسـة ، (ديـدرو) في انسيكلوبيديّته حين أعلن: « يجب ازالة كـل ما يحـول دون نموٍّ كـل انسان جسـداً وفكراً ، والالتزام بالقانون الطبيعي البدائي ، حيث لا مسيح ولا كنيسة ولا طقوس ولا إله يُعبَد . معتمـدين العقل الـذي يضمن هذا الانفتـاح والتطور ، ويصلح المجتمـع ، مرسخـاً فيـه تنسيقاً بشريعة حكيمة ، قوامها العقل اولاً وآخراً » .

والفيلسـوف الناقـد (ڤولتـير) لم يدع مجـالاً إلاّ سلط عليه لسـانـه الـلاذع ومنـطقـه العقـلاني ، فهشم الكنيسة من اصغـر كاهن فيهـا إلى يسوع وإلى رب يسـوع ، معتبراً أن المجتمـع ، حين يحسن تنظيمه ، يغنيـه عن الله واتباعـه ويكفيه ابـاطيل المعتقـد الكثلكي

السقيم . وجارى هذا الفيلسوف جماعة جامحة ، ما اخمد من احقادهم على الكنيسة الا جهود المدارس اليسوعية والعازارية وأخواتها.

القى الضوء الأخضر على طريق هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين معظم نواب الأمة، نظراً لما يحملون من كره لجماعة اليسوعيين الذين تمادوا في تطرفهم وفذلكاتهم وخبثهم المشهور ، الذي غدا مثلاً شارداً عند الفرنسيين : «خبيث كما اليسوعي».

وكانت الثورة الفرنسية الكبرى ، فأدانت الاكليروس على ما اسلف من تعصب ضد الشعب ، وضد تحرره وكسائه ورغيفه وكرامته . ادانته بقتل زهاء اربعة آلاف كاهن مريد ، وباطلاق صرخة المفكّرين ڤولناي ، Volney) و دُوپوي ، Dupuis) اثر الثورة : « لا وجود لمن يسمونه يسوع المسيح (التاريخ العام للديانات) ولم تقتصر هذه الثورة بذلك العهد على فرنسا ، بل نشبت في بريطانيا ووجدت مرتعاً يانعاً لها في البروتستنتية في امثال (تيندال ، Tyndal) القائل في مؤلفه : (المسيحية اقدم من العالم) : « ان كل ديانة تؤلف مع الكهنوت المخادع الأُسُس لديانة طبيعية وتخطىّ هؤلاء المفكّر (J. Toland ، ج. تولان) البريطاني الذي صرّح بجرأة فائقة في مقاله : مصير روما » عام (١٧١٨) وملخصه ترجيع زوال البابوية .

الفصل الرابع والعشرون

الحملات المعادية للكثلكة في القرون الأخيرة

الجدل الثاني :

غداة تكامل تفتح العقل البشري ، وانتشرت الطباعة ، وشاع النقاد الباحثون غرباً وشرقاً ، كان لا بد أن تصاب الديانات خاصة الكبرى منها ، بنقد لاذع وكفر بقيمتها أو بتشويه لها ، أو باعادتها إلى عصور الاساطير القديمة . ذلك ما صبغ بحقد وكفر صفحة المسيحية ، غداة انكر لفيف من مختلف الجنسيات وجود شخصية (يسوع المسيح) والتهجم على صحة الكتاب المقدس .

أدت هذه الدراسات في القرون الحديثة إلى ثورة في التفكير بأوروبا نفسها ، تقارب في مضاهاتها للثورة التي احدثتها المسيحية نفسها . دامت هذه الصراعات الفكرية قرنين كاملين حديثين .

أدار هذه المعركة الروحية : (هرمان ريناس Hermann Reinarus) استاذ اللغات الشرقية في جامعة (همبرغ) . ترك بعد وفاته عام (١٧٦٨) مخطوطاً طبع بتوصية خاصة منه ، يحوى (١٤٠٠) صفحة . يقول فيه أن (يسوع) لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية ، انما هو صوفي يهودي ، يقر بالبعث والحساب (قصة الحضارة) .

تبع هذا الاستاذ لفيف جاحد ، قدموا ادلة اعتبروها دامغة ، على عدم وجود هذه الشخصية ، أو على أنها تطور محدود لليهودية ، وأن الاناجيل وما حوته أن هي إلا اساطير لا يرتاح إليها المنطق السليم ، وان الخوارق الطبيعية خرافات ، دبجتها اقلام حاذقة . (قصة الحضارة ج/١١ ص/٢٣) وفي سنة (١٨٤٠) قدم المفكر (برونو بوار ، Bruno Bauer) سلسلة من الكتب الجدلية ، يحاول أن يثبت بها أن يسوع اسطورة ، وأن تعاليم المسيحية مزيج من اليهودية واليونانية والرومانية . حذا على منوال النقاد الألمان جماعة من المفكرين البريطانيين امثال (و . ب . سميث W. B. Smith) و (أرثر دريفز Arthur Drevs) محاولين جميعاً افناء شخصية المسيح كلياً .

لكن الأيام برهنت على نشاط اقطاب الفكر المسيحي ، المؤمنين بوجود المسيح وبتعاليمه وبالحواريين رفاقه وتلاميذه . وإن الخوارق التي جاء بها يسوع لا يتعدى المنطق منها إلا اليسير ، وهي قدرة سماوية تفوق قدرات المادة ، وتسمو على عقل الإنسان الحبيس في جسد .

تحملت فرنسا العبء الأكبر في ذلك الصراع العقائدي ، وهدرت الدماء الغزيرة دفاعاً عن الكنيسة الكاثوليكية ، في صدها لتوغل المذاهب الجديدة المعادية لها وللنفوذ البابوي .

حمل لواء هذا الصراع جمهرة من رجال الفكر الفرنسي مثل الحبر (بوسوه Bossuet) و (بوردالو Baurdaloue)و (باسكال Pascal) .

وقد زار بهذا التاريخ بريطانيا الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو) وأعلن « لم يعد من ديانة في بريطانيا » . اقتدى به الفيلسوف (لوك ، Locke) الذي اعتبر كل معرفة صحيحة ، هي خارجة عن اطار الإيمان .

بينما في المانيا ، فإن رجال الفكر لذلك العصر ، لم يبدوا هذا النكران للكنيسة ومؤسسيها ، انما جعلوا من الكنيسة أداةً في يد الامراء البروسيين ، والدليل ما صرح به (غليوم الأول) (١٧١٣ ـ ١٧٤٠) وهو أن كل ما يعود إلى الكنيسة البروتستانية يجب أن يمتزج بصندوق الدولة . هذا الاستهتار بالكنيسة جعل كبار رَجال الفكر أمثال (أُدلمن Edelman و ريماروس ، Reimarus) يعلنان أن المسيح والكهنة لا يمتّان إلى الفَضيلة الإنسانية بشيء ، وأن مِن الطياشة الاعتصام بهذا الإيمان .

تلك الثورة الروحية في أوروبا الشمالية والوسطى ، تطاير شرارها إلى اسبانيا والبرتغال ، فكان هناك عصيان سافر للكنيسة ، وخاصة لجماعة اليسوعيين .

في هذا الوضع الخطير ظهرت بوادر العجز على الكنيسة ، فتضاءل عدد الكهنوت ، وكادت مدارس الآباء اليسوعيين أن تقفل أبوابها في أوروبا جمعاء ، حتى أن ملك فرنسا في سنة (١٧٦٤) امر بإقفال هذه المدارس وبطرد اليسوعيين من ارجاء فرنسا وممتلكاتها ، وبسجن (بيوس السادس) في حضن فرنسا الملتهب حنقاً . ووصل عدد الكهان فيها بين أعوام (١٧٦٦) و(١٧٠٠) من (٢٦٦٠٠) كاهناً إلى (١٦٠٠٠) فقط . ومعظم آذان الشعب امست خرساء عن سماع دوي الاجراس ، مستسيغين ما كان يردِّد بلسان (بوسُوَه ، Bossuet وفينيلون Fénélon) :

« ضمن دائرة هذا الصراع الرهيبْ
بين الشعب والكنيسةْ
كان كاهنان فرنسيان يتحريان الحقيقةْ
احدهما أعلن فقدان الأملْ
وأعلن الآخر صلب العقيدةْ
انه الإيمان الذي فُقد ـ ولم يرتعش لفقده أحدْ » .

وبالرغم من هذه الصدمات المتتالية والعامة ، فقد لاحت بوارق أمل في انتفاضة

قريبة للكنيسة ، بدأت قبل وفاة الفيلسوف (روسو) بقليل .

كان من المساهمين في هذه الانتفاضة الفيلسـوف (كانت Kant) إذ أعلن أن عـظمة يسوع المسيح هي التي تحرك الكنيسة ، وتبعث فيها الحياة . ومشت هذه الروح في الكنيسة البـروتستنيتية اولاً ، منتقلة من المـانيـا إلى انكلترا : فتنـاسي الشعب دور البـابـويـة وأصرّ عـلى أن رئيس الكنيسة لن يكون إلا يسوع ، ويسوع وحده حاضراً وغائباً .

في مـطلع العام (١٧٩٥) سمـح القيمون عـلى الثورة الفـرنسية لجـماعـة من بعض المنـاطق ، بأن يمـارسوا طقـوسهم الكنسية بحـرية كـاملة . وكانت هـذه أولى البـوادر التي عقبت تلك الازمات العنيفة طوال ذلك القرن .

الكنيسة والمجتمع الحاضر :

كان السؤال الذي شغل اهل ذلك الزمان ، بأوروبا الجنوبيـة والوسـطى هو : كيف يمكن أن يتم التفاهم بين مـا للكنيسة من حقـوق وسلطة ، وما للجمهـورية الجـديدة منهـا معـاً . لقد بـرهن رهط من علماء الكنيسة جـدارتهم للتصـدي ، وثُبـوتهم أمـام عـواصف الهرطقة والإلحاد . فالكاثوليكية هي ديانة فرنسـا ، وفرنسـا هي التي ناهضـتها ، وسفكت دمـاء مئات الكهنـة ، وهي كذلـك التي برهنت عـلى أن الكاثـوليكيـة في فـرنسـا لن يخبـو سعيرها ، مهما علاه من رماد ، وأن العلم المعاصر ليس المناقض لمفاهيم هذه الكنيسة ، إذ وجدت لها انصاراً اكفاء ، يدحضون الحُجة بمثلها . لكن أكـبر وصمة وجهت إليهـا ، هي مسايرتها ومجاراتهـا للطبقة الارستـوقراطيـة المستثمرة المستـذئبة . والثـورة في عنفها اقتصّت واسرفت .

بعد هذه الثورة بزمن وجيز ، التفّ حول الكنيسـة جماعـة ديمقراطيـون ، ذوو عقيدة اجتماعية رسمية . كانت الفترة التي تعدتها الكنيسة في فـرنسا بـدءاً من (١٨٧٩) حتى نهاية القـرن ، عصيبـة ورهيبـة ، حيث قـل المؤمنـون بـالكنيسـة وشرس الخصـوم ، وتحـاملت السلطة . ومنذ مطلع القرن العشرين لم تعد الكنيسـة الفرنسيـة الكاثـولبكية ديـانة النسـاء وحسب ، كـما كانت عليـه في القرنـين السابقـين ، بـل شرعت روح العقيـدة بتململ في الصدور ، وتبرز تدريجياً في المجتمع ، حتى كانت الحرب العالمية الثانيـة ، وكانت الكنيسـة بـرعايـة البابـا (ليون الثـالث عشر) الذي تتبـع بحكمة خـطى الكنيسـة ، وتحـرّرهـا من

الـدولة . وأطـلّ نصف القرن العشرين والحـال في تقدم بـطيء يترقّب خـطى اسرع نظراً لتطورها المحكم . وقـد أكّد هـذا التطور المؤرخ (م . دَنْسـاتّ M. Dansette) والعلاقـة المحصورة بالدولة في فرنسا وفي كل كنيسة كاثوليكية .

ألسِنَةُ النقد :

إن العواصف المتتابعة التي زحفت على خميلة المسيحية في الغرب ، كما في الشرق ، في القرون الوسطى ، حملت بذور نقـد لاذع ، اتخذ منـه رجال الفكـر المعاصر ، بيِّنـة على طعن قداسة صـورة المسيح ، وعـلى محاولـة تفكيك عـرى الإيمان بـألوهتـه ، حين تنـاولوا الاناجيل المختلفة ، وأنعموا النظر ، وفسروا بعض آياتها تفسيراً ظـاهراً ، معتقـدين بأنهم عـلى الـطريق الصـواب ، وانهم لامسـوا جـذور الحقيقـة ، في مـا ورد عـلى ألسنـة بعض الحواريين من تصاريح تؤكد لغير المؤمن ، أن للمسيح اخوة واخوات من أُمِه بالذات .

وقبل أن أدون هذه الأقوال المنقولـة حرفيـاً من الاناجيـل ، أشير إلى أن لكـل ديانـة وجهين : ظاهـراً وباطنـاً ، ولعل الأخـوة والاخوات الـذين عناهم الحـواريون هم كـذلك اصدقاء ورفقاء للمسيح ، في سَيرته المباركة ، تـاركاً للقـارىء الرأي الـذي يصطفيـه وعيه السليم .

ورد في انجيل (متى) ، الاصحاح الثاني عشر ، العدد (٤٦) ما يلي :

« بينما هو (يسوع) يكلم الجموع جاءت امه واخـوته فـوقفوا خـارج الدار يـريدون أن يكلموه ، فقال للذي اخـبره بذلـك : من هي أمي ؟ ومن اخوتي »؟ ثم اشـار بيده إلى تلاميذه وقال : « هؤلاء هـم امي واخوتي ، لأن من يعمـل بمشيئة ابي الـذي في السماء هـو أخي واختي وأُمي » .

وجاءت هذه العبارات في انجيل (يوحنا) ، (الاصحاح) السابع العدد (٣) :

« اقترب عيد « المظال » (عيد يقـام في كل خـريف فتنصب مظال يقيم اليهـود تحتها سبعة أيام ، شكراً لله على غـلات الأرض ، وعلى انقـاذهم من يد فـِ عون ، ورعـايته لهم مدة اربعين سنة في البرية) فقال : (ليسـوع) اخوتـه : « امضِ من هنا إلى (اليهـودية) حتى يرى تلاميـذك أيضاً مـا تعمل من الأعـمال ، فلا احـد يعمل في الخفيـة ، إذا أراد أن

يُعرف . وما دمت تعمل هذه الأعمال فأظهر نفسك للعالم » . وكان اخوته نفسهم لا يؤمنون به » .

وقال الحواري (مرقس) في الفصل السادس ، العدد (٢ ـ ٣) :

« وانصرف (يسوع) من هناك ، فذهب إلى وطنه ، يصحبهُ تلاميذه . ولما أتى السبت ، أخذ يعلم في المجمع . فدُهش أكثر الناس حين سمعوه وقالوا : من أين له هذا ؟ وما هذه الحكمة التي أُوتيها ، وهذه المعجزات المبينة التي تجري على يديه ؟ أما هو : النجار ابن (مريم) واخو يعقوب ويهوذا وسمعان ؟؟ أَوليست اخواته عندنا ههُنا » ؟؟

يتبين للقارىء المجرد ، من هذه الآيات ، إذا اغضينا عن مشكلة الأخوة والأخوات ، وعما يفسرها اساطين اللاهوت المسيحي ، يتبين بحق قدرة المسيح الخارقة في اتيانه تلك المعجزات المبينة ، التي لم يستطع النقاد أن يطمسوها ، وأما أن يكون يسوع ذلك النجار ، فلا يضيره ذلك ، لانه نزل متلبساً جسد إنسان له متطلباته الحياتية الآنيَّة .

هذا عرض لبحث تاريخي ، وعلى القراء رفضه أو تصديقه .

التطور الجديد في الكنيسة البروتستنتيّة

الكنيسة الأنغليكانية :

تعتبر هذه الكنيسة جسراً بين الكنيسة الكاثوليكية . والحركة البروتستنتية لأنها تجمع وتقرّب بين العناصر الأساسية في التقاليد المذهبيّة بينهما . هذه الكنيسة تؤمن بالطقوس السبعة الرئيسية المعتمدة في الكنيسة الكاثوليكية . يمارس جماعتها العبادة وفق كتاب الصلاة الذي ألّفه : (توماكرانمر ـ Thomas Cranmer) ـ (١٤٨٩ ـ ١٥٥٦ م) بعهد أدوار السادس . هؤلاء يخضعون كلياً لسلطة الكهنوت . أما الفريق الآخر المتواجد في سويسرا وألمانيا وهولندا فقد حاولوا تحقيق إصلاح في الكنيسة يتجاوز الحدود التي وقف عندها المصلحان : « لوثر وكالفن ». حملت هذه الكنيسة اسم : « الإصلاحية الراديكالية، أو اليسار البروتستنتي. أتباع هذه الكنيسة يمارسون استقلاليةً في السلطة الكنسية ، وفي تفسير الكتاب المقدس ، وفي معتقداتهم الخاصة .

كان لهذه الكنيسة تأثير على الكنائس الأخرى ، منها (المعمدانية) ، لكنّها لم تجد تجاوباً لتعاليمها التقدمية في أوروبا كما في بريطانيا ، إلا قليلاً . لقد انتشرت وتعمّقت في أميركا ، حيث تفرّع منها كنائس عِدّة . ولا تزال الأفكار التقدّمية الرافضة للطقوس البائدة أو المتخلّفة ، ما تزال تهدم وتبني وصولاً إلى الأكل في أميركا خاصة ، حيث تسود الديمقراطية فكراً وممارسات .

المرجع : الموسوعة الأميركية (١٩٨٠) ـ Encyclopaedia American .

الطريقة المورمونية

ان أول مؤسس لهذا المسلك الكنسي (جوزف سميث وبريغهام يونغ ، Brigham Yong- Joseph- Smith) يقسم المسلك المورموني الى فئتين :

أ ـ كنيسة تؤمن بمزيج من الحقائق المستمدّة من التوراة ، ومن كتاب ألّفته السيدة (ماري باكير أدي ـ Mary Baker Eady) عام « ١٨٧٥ » يُسمّى : « العلم والصحة مع تفسير للإنجيل » . والسيدة « أدي » هذه تعتقد بأن الأمراض الجسدية يتم شفاؤها بالإيمان لا بالدواء ، مُصرّة مع كامل جماعتها على طبيعة الإنسان الروحية والجسدية معاً ، باعتبار الإيمان هو العامل الأقوى على صحة الروح . . كانت حياة هذه السيدة بين أعوام (١٨٢١ و١٩١٠) .

ب ـ جماعة الكنيسة المورمونية الآخرون يجمعون بين الحقائق التوراتية وبين تفسير أحدث لها ، تضمّنه كتاب « مورمون » عام (١٨٣٠) للعالم الروحي (يوسف سميث ـ Yoseph Smith) وحياته بين (١٨٠٥ و١٨٤٤) كان أشهر قادة هذه الجماعة : (بريغهام يونغ ـ Brigham Young) الذي قاد هجرة اتباعه واستقرّ معهم في مدينة (البحيرة المالحة ـ City Sale Lake) بولاية « يوتاه Utah » الأميركية (U.S.A.) وقد أصبحت هذه المدينة حتى اليوم مَحَجاً لجماعة المورمون . لقد ناهز عدد أفراد هذا المسلك في الولايات المتحدة الـ (٢٧) مليوناً .

يقول المرجع أنه في النصف الأول من القرن العشرين بلغ عدد الكنائس المختلفة المسالك في الولايات المتحدة « مِئتي » كنيسةٍ ، معظمها تطوّرٌ للمسالك الآتية : لوثرية ،

كلفانية ، أنغليكانية ، وراديكالية . هذا الإختلاف بالرأي الروحي لم ينجم عنه أي تنـازع وصراع جسدي ، كما كان يحدث في أوروبا .

تضم حـالياً الـولايات المتحـدة ما يقـارب الستين مليـون بـروتستنتي عـلى اختـلاف مسالكهم . وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت روح دمج هذه الكنائس في واحدة ، ولكن لم يتحقق بعدُ هذا الدمج .

إن مـا يُلفت النظر في المسلك المورمـوني الأصيـل هـو الصلة الـوثيقـة بـين كتـاب « الجـوهرة » لمـورمون نفسـه وبين التـوراة الضائعـة ـ ولِمَ هي ضائعـة بعدُ ؟ وبـين الفصل (٢٤) المصحّح من إنجيل (متّى) ولماذا صُحِّح هـذا الانجيل ؟ غـبّ هذه المُخبـآت يكثر التساؤل .

الكنيسة المعمدانية

يؤمن المعمـدانيّون بـأنّ على المسيحيـين أن يتلقّوا المعمـودية وهم « بـالفـوق » وعـلى المعمود أن يغوص كلياً بالماء ، وليس فقط برشّ الماء على جسده . كما يتوجّب عليه أن يُقرّ عَلَنـاً ، وأمام الجميـع في الكنيسة ، بـاعتناقِـه لهذا الإيمان . وبهذا وحـده تختلف الكنيسة المعمدانية عن شقيقاتها الكنائس الانغليكانية .

وهنالك ، في الولايات المتحدة خاصـة ، تعدّدت المسـالك في الكنيسـة الأنغليكانيـة منها :

١ ـ كنيسـة تلامـذة المسيـح ، وهـذه تـطوّرت الى كنيسـة مستقلة سُمّيت حـالياً بـ (الكنيسـة المسيحيّـة) . يـطلق عليهـا الشعب اسم : « الكمْبِليّـة ، نسبـةً إلى مؤسسهـا (اسكندر كمْبِلْ ـ Alexandre Campbell) « ١٧٨٨ ـ 1866 » .

وتلاحقت مع الأيام المسالك المختلفة في تشعّبهـا السطحي ، دون أن تتنكّـر لمبدأهـا الأصيل .

٢ ـ في العام (١٩٥٧) حَوْلَ اللّغط الذي تعالى في أجـواء الفكر الـروحي المسيحي في أميركا ، تجمّعت كنائس أربعٌ متباينةٌ ، لِتتّحد في واحدةٍ حـاملةً اسم : « كنيسة المسيـح المتحدة » .

وخـارج الـولايات المتحـدة ، في (كنـدا) وبعـام (١٩٢٦) قـامت (كنيسـة كنـدا المتحـدة) بانـدماج كنـائس : « الطرائقيـة ، والمجمعية والمشيخيّـة » وذلك عـلى أعمق مـا حصل في الولايات المتحدة .

وكـانت تأسّست هنـالك ، قبـل ذلك التجمّـع الكنسي فيهـا ، كنيستـان تستحقـان الملاحظة والتنويه ، هما :

١ ـ كنيسة (المسيح العالِم) حيث يؤمن جماعتها بشفاء المرضى ، بالصـلاة والايمان ، وهم مغـرقـون بهـذا الايمـان . لهم صحيفـة ذائعـة الشهـرة تسمى : « رقيب العلم المسيحي ـ Christien Seienee Monitor » .

٢ ـ كنيسة المسيح في قدّيسي اليوم الأخير : (المورمون ـ Mormon) .

الكنيسة الطرائقية (Méthodisme)

قام بتأسيس هـذه الفرقـة (جون ويسـلي ـ J. Wesly) في (٢٤ ـ ٥ ـ ١٧٣٨) حين شعر بأن قلبه يخفق متوهّجاً ، لسببٍ غامض عنه ، دفعه أخيراً بمساعـدة بعض رفاقـه الى تأسيس حلقات للتبشير ، ضمن تعاليم الكنيسة الأنغليكانية ، واستمر اتبـاعها أوفيـاء لهذه الكنيسة . لقد اعتُبرتْ هذه الحركة دعامةً لتمكين الأيمان بيسـوع وبكنيسته الأنغليكـانية ، وبمـا تنشر من تعـاليم وتفـرض من تكـاليف . واليـوم هـذه الكنيسـة واسعـة الانتشـار في الولايات المتحدة . يناهز عدد معتنقي مبادئها : (١٣) مليوناً) المرجع :

Encyclopaedia American - World Book foets Collier's Encyclopaedia 1987.

تنوعت الأقاويل حول هذه الطائفة . وقد ورد ذكرها في القرآن سورة البقـرة « ٦١ » واعتبـرها من الـطوائف المؤمنة بـالله وباليـوم الآخر ومحبّـة عمل الخـير . وقـالت المقتـطف المصرية بتاريخ شباط (١٨٩٩) بلسان الكاتب صاموئيل زومير) ما مغزاه : أن الصابئين وُجـدوا وتناسلوا بـوفرة خـلال القـرن السـادس والتـاسع للمسيح ، حيث ظهـر نشـاطهم الفكري . ويُعتقد أنّ مرجعهم الأول والأقدس هو : « هرمس الهـرامسة » وزيـر الفرعـون « زوسر » . وقال بعضهم أنهم فلول « الأسينيين » ، الفرقة اليهودية المتمرِّدة والمضطهَـدَة ،

وتعـاليمهم مماثلة. كما اكتُشف في تعاليم البـاطنية الشرقيـة المعتقد الـروحي. نزل مُعـظم هـذه الطائفـة على ضفـاف دجلة والفرات . عُـرف عنهم تقديـرهـم الفائق لتعـاليم يوحنـا المعمـدان ، رغم انفصـالهم عن المسيحيـة وعن سـائـر المعتقـدات . غـير أن لفيفاً من الباحثين ، تنسّم في معتقدهم الروحي ومضات نور الديانتَين : الأشورية والبابلية .

لا يُسمـح لأتباع هـذه الطائفـة بالـتزاوج مع غـيرها ، وهم يعـايشون الإسـلام . لقد بـذلـوا جهوداً في رفع مستوى المعرفة. عني بدراسـة هذه الجمـاعة المؤرخ (نـولدكي) وركّـز على خدمتهم للعلم والمعرفة . قـال ان لهم لغةً محكية خاصة تسمى « سِدرارْيا » مخطوطة بهـذه اللغـة . وإنهم يعتبرون الأفـلاك وأجرامهـا وثُنائيـة التقويم الـروحي . ومن المؤرخـين من ينسب لهم تقديس وتربيب « مندا » ويزعمـونه « الإلـه مردوخ » ويـوحنا المعمـدان في آخر قميص له ، وقتذاك .

هؤلاء يؤمنون بتعاليم المسيحية الأولى « الغنوصية العرفانية » مع بعض الفرق ، لعلّه التباس أو غموض . والدليل عنايتهم بطهارة الروح وبخلودها ومقاضاتها في نهايـة حيواتهـا جميعاً الدنيا .

الفصل الخامس والعشرون

رأي الفكر المعاصر في المسيح ومنهجُه العام

أ ـ Teilhard de Chardin: ، تياردي شاردن

هـذا الفيلسـوف الفـرنسي ، والعـالم المختص بتـطوّر الفكـر البشري، عاش صدى (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) كان يعتقد بوحدة الـوجود ، وهـو الأب اليسوعي الحصيف . نـاقض وجودية (سارتر) معتقـداً بأنها لا تجـاري التطور . كـان هذا اليسـوعي يؤمن بأن المسيـح طاقة ، يدير محورُها المذهل الكون بأسره . تحـول عنده حب الكـمال من المادة إلى : الحبّ الأسمى ، واسماه (الأوميغا Oméga) ، وهي نقـطة التقاء الإنسـانية بـالكون أجمـع . إن النداء الأسمى للحب عنده هو : الاتحاد في الكل . وكل التيارات الروحية في الكون تدور في فلك واحد ، والمادة (المُروحَنة) أي الكـلُّ الروحي يجب أن يكـون واعياً ومُشخَّصـاً .

وعنده أن العالم ينعطف نحو التشخص ، ويسمو إلى (الأوميغا) أي إلى الله . الإنسان هو محور الكون المتحرك كما أن الأرض وحدها المأهولة .

وفي رأي هذا الفيلسوف اليسوعي ، أن العالم منساق إلى التوحُّد ، رغم تعدد الأعراق ، وحين يتخطى نحو الإنسانية يكون ساعياً شطر (الأوميغا) . هناك الحياة قائمة على المعرفة لا على التملك . والعلم التوحيدي في رأيه هو التعمق بجذور الإنسانية في الإنسان . وكل شيء في الوجود يتجه صُعداً ، إلى لقاء عام في قمة (أوميغا) أي الرب يسوع .

ورأي هذا الفيلسوف المعاصر أن العالم يعمل ككلٍّ متضامن ، وأن حركة الكون هي عمل يشترك فيه الجسد والنفس معاً ؟ إذاً فالانسان مسؤول عن نفسه وعن الأرض . من هنا ينبع علم الأخلاق ، لأنه جهدٌ لترتيب الطاقة الإنسانية ، في عالم يسير على خط مشخصن (أي بناء الكون بواسطة الإنسان) . والأوميغا يتخطى الزمان والمكان والمظاهر .

انه يحمل صيرورة الكون . هو نقطة الدائرة ومحور الأشياء . انه المحبة والمحبُّ والمحبوب معاً . انه وجدان متسام عن وجداننا ، ينعكس على المجموعة البشرية . والبشر لا يصل إلى الفناء فيه ، ولا إلى مساواته ابداً ، انه دون الإله في الغنى . فالمسيح هو كون الله في الطبيعة . انه ينبوع كل طاقة .

وأوضح (دي شاردن) ببيانه الفلسفي قيمة المحبة فقال : « كل نمو ذاتي يقاس بزيادة المحبة ، ويمكّن المسيح من بعض مشاركته في العمل الكوني . بهذا العمل تكتمل وحدتنا مع الله » .

وأضاف هذا الأب التقدُّمي : إن الانتهاء من تعمير الأرض يعني اكمال الهيكل الصوفيّ الذي هو امتداد لجسم (المسيح) أي (الاوميغا) وأضاف : « عندما يعي الإنسان مقصد عمله ، يكون قد شارك الله في خلقه » . والصوفية في رأي هذا الفيلسوف المسيحي ، هي عمل ونوع من الزهد ، الذي يجعل المخلوقات سلّماً ، للصعود إلى الله . وفي عقيدته أن هناك عناصر تجسد الشر فيها وتُمكِّنه ، وقد انفصلت بحرية خلال مراحل التطور الكوني عن المجموعة الساعية إلى اللقاء . انها الحُثالة الخالدة في تكوين العالم. هذه

الحثالة لا يمكن أن يكون لها وجود معذب ، ويقصد أن الإنسان في تطوره الطويل ، يخلص ، ولا هلاك لنفس ، انما يحرم الشرير من رؤية وجه ربه وليس أبدياً . أن القوى الخيرة المؤمنة (بالأوميغا ، يسوع) هي التي تشعل في الكون لهيب المحبة .

وخلاصة فلسفة (تياردي شاردن) أن الديانة التي خطط لها ، منزهة عن جميع الخرافات ، فلا رموز فيها ولا تأويل . يؤمن بأصالة الخير في الإنسان ، وبانتصار المسيح أخيراً . كان متفائلاً في الحياة . يؤكد الانتصار على الخوف والقلق . وكان يرى في الوحي انعكاس المسيح على مخيلة الإنسان .

اقتنع الناقد لهذا الفيلسوف (غ . غينوت Glaude Guénot) أن فلسفة (دي شاردن) قوامها سمو في الروحانيات ، وحسّ بالواقع ، وانه الابن الروحي (لبولس ويوحنا) وأن لاهوته امتدادٌ لأناشيد (بولس) . عمل جاهداً للوفاق بين التطور والإيمان ، والإيمان بالسماء والأرض وبخليقة ناشطة لِتَحطّي ذاتها .

ب - (أُدوار شُوره ، Edward Schuré)

في العام (١٩٦٠) صدر في فرنسا كتاب اسمه : (أعظم العارفين ، Les grands Initiés، لهذا المحقّق. إستطاع ذلك الكاتب أن يجلّي في تقديم البينات على وجود خطٍ عرفاني واحد ، منذ وعَى الإنسان نفسه وتميز بيئتهُ ، وتعرف إلى مجتمعه البدائي الأقدم .

لقد صنّف الكاتبُ يسوعَ المسيح في عداد كبار العارفين ، مقدماً من اقواله وتصرفاته اليومية ، الأدلّةَ الدامغة على ذلك الصفاء المتناهي ، وعلى القداسة المثلى التي تجسدت في المسيح الإنسان .

أكد هذا المحقق أن اولئك العارفين انما هم روحانيون باطنيون ، اشاروا إلى الحقائق الكونية بغمزات ورموز لا يتفهمها إلا الموهوبون الطيّبون . قال بلسان القديس (يوحنا) : « في البدء كان النور ، ومنه انبثق العالم ، وما من أحد يدرك ذلك » وقد اشار المؤلف إلى أن (بوَر سْتروس Bauer Stross) واشياعه من المؤرخين والنقاد ، الذين انكروا وجود المسيح في التاريخ ، صرّحوا بأن الضرورة دعت لخلق هذه الأسطورة ،مؤكدينَ

ذلك الوجودَ ، بأدلـة حية ، أَدلَتْ بهـا الرسـل الأوائل ، الـذين عايشـوا المسيح ، وتقبلوا دعوته ، ونقلوا تعاليمه . من هؤلاء القديس (يوحنا) صاحب : (انجيل الروحانية) ذي التعاليم الباطنة ، والحقائق السماوية المنزلة ، التي جلا غوامضها يسوع بنفسه .

مضمون تلك التعاليم يتلخَّص بِـ :

١ ـ اتخذت البشريه عبر التاريخ العديد من الالهة ، لكن هناك إلهاً اسمى هو الروح الأنقى ، وهـو الغايـة التي يسعى لها بجـدية وصـدق إيمـان ، كـلٌ من عرَّافات الهيـاكـل اليونانية : (ممفيس ودالف وألوزي) . انها الوحدانية ، وانها المحبة والخير والصدق بأكمل معـانيها . تـألقت في ادوار ، وخبت في أدوار ، ثم اطلت في اشراقة مُحيّـا المسيح ، لتُحيي القيم الراسخة على الصدق والخير والمحبة .

٢ ـ إن أنبيـاء اليهودية أطهار بمعظمهم . هم الذين نقلوا كلمة الحق وعـاشـوها ، وسيموا الهوان في سبيل اشاعتها واعلائها .

٣ ـ ان (صموئيل) هو (بهاء الدين) الباطني ، ذلك ما تعنيـه الكلمة بـالعبريـة ، وهو نبيّ حكماء الفرقة (الأسيّنية) في اليهودية . تلك الفرقـة التي تبينًا تعـاليمها ، وعـرفنا قربها من المسيح واحتضانه هُوَ لها ، لما تحمل من قداسات وصفاء وطيبة .

٤ ـ قال المسيح : « في الحقيقة كان وجودي قبل ابـراهيم » وقال : « لا تحيا كلمـة الله الا في انبيائه » ومنهم (صموئيل) قُطب الفرقة الأسيّنية .

٥ ـ كـانت دعـوة يسـوع تقـوم اسـاسـاً عـلى إصـلاح الفـرد والجمـاعــة ، روحـاً وجسداً ، وعلى تطهير العقول من شوائب الـطقوس المتـوارثة ، التي اتخـذتها البشريـة درعاً واقيـةً من عذاب الله ، وليس من حـاجة للوسـاطة بـين العابـد والمعبود . بعملهِ الإنسـانُ نفسُه ، يدنـو أو يبتعدُ عن خالقه . صرَّح يسـوع بهذا المعنى : ايـة قيمة ـ للهيـاكل والكهنـة إذا هما لا يشفيان الإنسان من آلامه ؟

٦ ـ عرف يسوع كيف يبـذر الرجـاء في صدور اشيـاعه ، فقـال لهم : « آمنوا ، ثم احبوا ، ثم فكِّروا ، وليكن الرجاء مصباحاً عـلى طريق مسـاعيكم ، وثقوا بـأن وراء العالم المـادي ، عالمـاً روْحانيـاً متنـاهي الكمـال ، سـأوصلكم إليـه حقـاً ، إذا انتم اعتمـدتم في أعمالكم : المحبَّة ومخافة الله » .

ثم اردف : « كونوا كاملين كأبيكم السماوي ، واحبوا القريب محبتكم لانفسكم » .

٧ ـ وليؤكد يسوع لاتباعهِ قيمةَ العالم الروحاني ، إزاءَ تفاهة العالم المادي هذا ، قال : « كل ما وجد من تراب فتراب ، وما اوجدته الروح فروح » . عنى بذلك الزهد في متاع الدنيا ، والصدُوف عن مغرياتها : مالاً وجاهاً وبنين ، والتطّلع إلى صالح العمل وتجسيد تعاليمه ومعايشتها ، في الضيق والرخاء .

٨ ـ وتأكيداً على وحدانية الله ، ووصولاً بالشعب إلى التضامن الكامل تحت جناح المحبة والتسامح والحق قال يسوع : « ارفعوا عاليةً رؤوسكم واعلموا أن لكم كلكم اباً واحداً » . قال هذا لكل إنسان فعلامَ التناحُر ؟

٩ ـ كيف يمكن أن نجسد المحبة بأصدق من هذا الكلام : « ابي اغفْر لهم فهم لا يعرفون ما يفعلون » . ردّد هذا القول يسوع وهو في أشد حالات العذاب الجسدي . وتلك اشارة منه إلى تفاهة المادة ، حتى الجسد نفسه ، مقابل اعلاء كلمة الحق ، ودفع سعير المحبة حتى تطال المضطهدين ، في العالم أجمع .

كان الهدف الأسمى الذي تطلع إليه يسوع هو مسلك: إنتصار الخير على الشر .

دعا مُلِحاً ومضحياً بجسدِهِ في ذلك السبيل هل تحقق سبيله أوبعضه ؟

كان رأي المفكّر (شُوره ، Schuré) نفسه ، أن النهج الباطنيّ الذي ابتدأ (بهرمس) وعايش كل الحضارات والديانات في الشرق والغرب ، قد حطَّ رِحاله في (بيت لحم)، ليعاود تألقه بيسوع. وما كان أولئك، على تباين الزمان والمكان، الا حماةً لصرح الباطنية العتيد: مُنبثَق الحقائق ، وصوت العدالة الصارخ ، غير عابئين بما ينتابهم من كوارث ، ويمزق جوارحهم من بلاء .

ليس يسوع اخر من ابتلى بالجهلةِ العمهين ، ولا هو آخر من اجتاحت خميلته عواصف الانانية الجموحِ الغَصوب، ولا هو آخر من شوهت صورته الروحية، أناملُ الغرور وحب الذات ، لتخفيها وراء الرسوم الانيقة المشوقة ، انما للزمان ادوار واكوار ، وللإنسان معتقدات تتوالد وتتنابى ، وتظهر وتبطن . وإن الخط الباطني السليم منها ، هو ذلك الذي اعاد توضيحه المسيح ، ماسِحاً غبار الجهل عن مرآته ، محاولاً جلاء النفوس ،

مما طالها من صدأ الآثام ، وغرور الحياة اليومية ، والجنوح إلى الشهوات ، والاغترار بمظاهر الطقوس ومعسول الكلام ، مهما كلَّف من دماء أبرياء .

الدين والدنيا قلما يلتقيان ، وأن تلاقيا فطوبى للجامع بينهما ، بعصرٍ شطحت فيه النفوس عن الجادة المثلى ، وزاغت البصائر دون اجتلاء نجم الهداية إلى بناء مجتمع افضلَ وأصلحَ وأسعد تتعانق فيه المواد مع صورها ، عناق الروح للجسد ، فيبطل كل تضاد مادي ، ونفسي ، وروحي ، وتنصهر المفاتن الزائلة بالقيم الخالدة .

إلى هذه الخاتمة تطلَّع يسوع ، كما تطلع ويتطلع كل عملاق روحي سابق ولاحق له . ولم ينل من قداسة الفادي ، ما لحق بتعاليمه من تحريف وتطوير ، وما طال اشياعه من تفرقة وتباين في الآراء ، وما اثقل مُحبيِّه عاتقهُ من تكاليف ، وما عزي إليه من المهد إلى اللحد ، من تصرفات كلها ترابٌ . ويسوع الروح لن يبرح المدبِّر الأسمى لخليقة باريْه . إن روحه السابقَ في الخلق ، كما انه تجسد في مَن سبقه من اولياء صادقين ، سيتجسد ويتجسد مجاراةً للنظام الكوني العام ، ولتطور الإنسان وحرصاً على بذور الفضيلة من الضياع ، في مهب الانانيات الضارية .

ليس يسوع المسيح في الحقيقة الباطنية ، إلاَّ الروحَ الأسبقَ الأولَ للمبدع تعالى ، الذي كلنا ابناؤه ، وهو تلك القُمة التي عناها (دي شاردن) في هيكل الوجود ، واسماها : الأوميغا ، وتعني الكلمة باليونانية أول وآخر كل شيء .

إن ما يؤكده المؤلف (شوره Schuré) هو أن الإيمان الصحيح بالمسيحية ، قد تبدل جوهره غداة اعتنق الامبراطور قسطنيطين المسيحية ، ونقل عاصمته إلى بيزنطيا . واستشهد المؤلف بالكونت (ج . دي ميّستر J. de Maistre) ، الذي صرّح بما يلي « كانت المسيحية الأولى نوعا من الغنوصية العرفانية » وأما الثانية . . ؟

وألمح الكاتب الإيطالي (بوكاس) إلى هذا التعريف : قائلاً : « منذ العِبرية حتى المسيحية فالإسلام ، لم يوجد واحدٌ من العرفانيين يوضح سرّ الإيمان الصحيح » . وقد ظهرت جمعية (الصليب الوَردي) ، في البروتستانتية دالةً على تطور باطنيٍّ للعقيدة اللوثرية ، مشيرة إلى المسيحية الأولى ، وصدق نهجها ، وحين استفحل امر هذه الجمعية ، حاقها اضطهاد مَرير ، إضطرَّها أن تهجر بلادها في أوروبا ، إلى الهند ، مَوطن الباطن

المتواضع النزيه . وانصهرت جماعتها في ذلك الخضّم من التيارات العقائدية المختلفة . (كبار العرفانيين ، أدوار شُورَه) .

ج - رأي الحبر الجليل المطران ابي فانيوس زيادة

إن حرصنا على صحة المعلومات حول الديانات السماوية ، وعلى قدر طاقتنا ، فقد اتصلنا ، لجلاء وتوضيح المسيحية ، بمطران عكار وسوريا الشمالية للروم الارثوذكس سيادة الحبر ابي ڤانيوس زيادة ، فأدلى لنا موجزاً بالمعلومات التالية ، جواباً على الأسئلة الآتية :

أ - بدء الخلق : «إن الله لم يخلق الإنسان كالبهائم بقَولِهِ فقط : « كن فكان »، بل قال : نعمل الإنسان على صورتنا ليُشْبِهَنا ، فخلقه على صورته ذكراً وانثى (تكوين : ١ - ٢٦) وقد جبل (آدم) من التراب ونفخ في فمه الحياة فصار ذا نفس حيَّة . وخلق (حواء) من ضلعٍ لآدم وضمَّها إليه دلالةً على أنهما واحد معه ، ثم وهَبُهما النعمة والبركة ليُنجبا الجنس البشري .

ب - النفس : انها جوهر بسيط ، ناطقة عاقلة مختارة ، تتناسل من نفس الوالدين بقوة الله ، بناء على البركة التي حولها لآدم وحواء ، بقوله : « إنميا واكثرا واملاءا الأرض » (تكوين ١ : ٢٨) وتخلق النفس لدى تكوُّن الجسد وكماله ، وحين يصبح بحالة تمكنه من الحصول عليها . الصالحة لها نعيم السماء ولن يلامسها عذاب ابداً ، والشريرة مصيرها الجحيم مع الشياطين .

ج - الإنسان : هو صلة بين العالم الروحي والمادي ، لاشتمالِهِ على نفس روحية ، وجسد مادي . هو بالجسد حيوان من تراب فانٍ ، وبالنفس : روح خالد كملاك .

د - آدم : خلق الله آدم وحواء من العدم ، دون واسطة ، وخلق نسلهما بقوة بركته . (اعمال الرسل ١٧ : ٢٥) .

هـ - الله : أحب الله العالم ، وبذل ابنه الوحيد كيلا يهلك مَن يؤمن به ، بل لتكون له الحياة الابدية . (يوحنا ٣ : ٥) .

و - الملائكة : انها ارواح غير متجسدة تحيط بالله ، وتمجده هاتفةً : قدوس . . قدوس . . قدوس ، (لوقا ٢٤ : ٣٩) . وقد كرر هذا التوضيح : يوحنا الدمشقي :

« الملاك كائن عقلي ، دائم الحركة مختارٌ ، عارٍ من الجسد ، يسبِّح الله » .

والملائكة تسع رتب في ثلاثة صفوف هي : العروش ، والشارويم والسارافيم ، والسلاطين والرئاسات والقوات والملائكة ، ورؤوساء الملائكة والسيادات ، (كونتوس ١ : ١٦ وافسس ١ : ٢١) .

ز ـ **المطهر** : تقول الكنيسة الارثوذكسية أن النفس الصالحة لا يعوزها تطهير ، فهي تقف بين يدي الله آمنة قريرة . والنفس الفاسدة لن يطهرها موضع إطلاقاً . اما الهنات ، فتمحوها الحسنات محواً . ويضيف المطران زائد : « إن المطهر عند المسيحيين الكاثوليك مكانٌ تطهّر نفس الأبرار فيه بعد الموت ، بعذاب له اجل محدود » ولم يذكر سيادته المكان الذي يوجد فيه هذا المطهر ، ولا مدة التطهير .

ح ـ **القربان** : هو كل ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها . » ونذكُرُ أن الديانات السابقة للسماوية كان معظمها يقدّم مثل هذه الذبائح لآلهته ، وكانت احياناً كثيرةً ذبائحَ بشرية ، وتطورت مع الزمن ، وقبل انبثاق الديانات السماوية .

ط ـ **الاعتراف** : انه احد أسرار البيعة المقدسة . ولم يتناول سيادته هذا الموضوع بأكثر من ذلك الإيجاز .

د ـ المسيح في القرآن الكريم

كانت سورة « مريم » في القرآن حجةَ كل مسلم في التأكيد على مكانة المسيح (عيسى) عندهم ، وفي أُعجوبة مولده ، وفي طهارة (مريم) والدته ، وفي رضى الله عنه والتسليم عليه اولاً وآخراً . وفيه تسفيهٌ لِناكري وجوده . قبل الإشارة إلى مرتبة المسيح (عيسى بن مريم) عند ربه . في رأي الإسلام الظاهر والباطن ، نستعين بسورة « مريم » لنجني من صحيح آياتها ، المعجزة التي اتانا بها الخالق ، بمولد المسيح قالت الرسالة ، بدءاً من الآية الخامسة عشرة :

يعتقد الإسلام بأن الرسائل والرؤى والإيحاءات التي انزل بها الله الأحد على انبيائه ، بدءاً من آدم ، كلها صادقة المضمون ، وبأنَّ انبياء اسرائيل والمسيح نفسه كلهم انبياء ، تتفاوت درجة كلٍ منهم قدر مستواهم الروحي لدى خالقهم .

لقد اكتفى الإسلام بتحديد يسوع المسيح المدعو في كتابهم بـ « عيسى ابن مريم » في هـذا الإيجاز المُعبرّ : قالت الآيـة الكريمـة في سورة آل عمـران ما يـلي : ﴿ **إن مَثَلَ عيسى (يسوع) عند الله كَمَثَل (آدم) ، خلَقَهُ من تراب ، ثم قال له : كُنْ فيكون** ﴾ .

على أن الإسلام الظاهر الـذي يعتبر المسيـح نبياً وحسب ، يخـالفه الإسـلام الباطني فيعتبره أسبق النبيين، وأجلهم مكانةً عند ربه. وكـلُ من المذهـبين في الإسلام ، يـرى أن الـذي صلبه اليهود هو غير عيسى (المسيح). أما المسيح الحق، فان العناية الالهية قد انقذته من خصومه بأعجوبة. وهذا ما أوضحته الآية القرآنية:

﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم** ﴾ . وهناك فئة ترى في المسيح أكثر من جسد واحد فتصحُ نظرتا المسيحية والإسلام فيه . وكما أن الإسلام الظاهر لم يعر كبير اهتمام لرسل المسيح في حين أن الباطنية منه ، تعتبر الرسل الأربعة الأوائل ابتداء من (يوحنا المعمدان) إلى (لوقا) كلهم مُجلببٌ بالعفَّة والصلاح والقداسة .

وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا
﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا
مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ

مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

فالفضائل التي عززها المسيح ، والمآل الذي بشر به المهتدين ، هو نفسه ، بشكل او بآخر ، ردّدته حناجر الانبياء والمصلحين في كل مكان وآن . ولولا الاجتهادات المتباينة في تفسير الآيات المقدسة وتأويلها ، ولولا ما لحق بالصحف المرسلة من تحريف ، لما كانت هذه الفوارق الكبرى بين ديانة واخرى، ولا كانت المذابح المتكررة، تسعرها الانانية لا الإيمان . ذلك منطق الباطنيّة السليم في كل دين، منذ اول ومضةٍ لِفَجرِ الروحانيات ، في القديم البعيد .

كانت قد صدرت في القرن السابق ثم الحالي نشرات وكتب حول الحياة الضائعة من عمر المسيح ، وتيارات خاصة طوقت نشر هذه المعارف الهامة وقد صدر حديثاً كتاب جامع حول الموضوع نفسه باللغة الانكليزية ومنع نشره تسرّبت منه حقائق وجب عليّ توضيحها لزيادة الإيمان برسالة المسيح ولعمق روحانيته . وهذا موجز ما قيل عنه :

المسيح في الهند *

ومن الحقائق الواجب ذكرها ان كاردينال باريس روتللي Rotelli عارض طبع الكتاب ونشره بشكل عنيف . وقدم كاردينال آخر في روما مبلغاً وافراً إلى الصحافي نوتوفيتش يغطي تكاليف سفر الصحافي إلى الهند تغطية كاملة ، كل ذلك في سبيل إيقاف نشر الكتاب . كما أن رئيس اساقفة « كييف » الروسية نصح الصحافي بعدم اصدار الكتاب والا !! وكان الانذار الأخير جدياً أكثر من سابقيه ذلك أنه حين عودة الصحافي الروسي إلى روسيا ضيق عليه واضطهد ، وكان وراء هذه الحملة المجمع الكنسي - Synod التابع للكنيسة الكاثوليكية . وبتوصية من مجلس السنودس اقتيد الصحافي إلى المنفى في سيبيريا القطبية ، وشُمِلَ بعناية وعطف البوليس القيصري السري . . . »[1] .

(*) عن كتاب حضارة الحكمة والحكماء - سعيد ملاعب - طبعه ١٩٨٥ .

(١) شمبالا ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

إن انجاز الكاتب الناجح نوتوفيتش لم يهدد كتابه فحسب ، بل أودى بـه إلى حكم الموت والاعدام حرقا ، بعد أن شد إلى خازوق . لقد فضل نوتوفيتش الموت بعد أن رفض التعويضات المادية وكافة الانذارات والتهديدات التي وجهت إليه . وبعد أن قام بمهمة اصدار الكتاب التيبتي في أوروبا واجه الموت برحابة صدر . كيف لا ! وقد قدم للفكر الانساني معلومات وافية عن السنوات الغامضة في حياة نبي رفض جميع اشكال الحقد والتسلط والعبودية ، وواجه جلاديه قائلاً : ابتاه اغفر لهم لأنهم لا يدركون ماذا يفعلون .

يحدد كتاب نوتوفيتش بشكل دقيق أية أماكن من الهند زارها النبي الناصري :
« حينئذ ترك عيسى نيبال وجبال همالايا وانحدر إلى وادي راجبوتان Rajpoutan ، ثم توجه إلى الغرب يبشّر الشعوب المختلفة بالإنسان المتفوق ذي الصفات الروحية الخالدة . ويشير هذا الإنجاز التاريخي ان عيسى النبي لم يُيمم شطر الهند فقط ، بل زار همالايا حيث يقطن المجوس الذين بشروا بقدومه قبل ولادته بتسعة أشهر ، وجاؤوا إلى بيت لحم ينتظرون ولادته المجيدة ليتم الناموس »[1] .

ان الاعتقاد بفكرة زيارة عيسى النبي إلى الهند شائع في عدة أوساط هندية . ولقد ذُكرت تلك الزيارة في (كتاب كشمير)[2] الذي أصدره المندوب السامي البريطاني في كشمير السير فرنسيس يونغ هازبند ـ Sir Francis Young Husband ، وذلك عام ١٩١١ . ولقد كتب المندوب السامي في كتابه السطور التالية :

« منذ حوالي ١٩٠٠ سنة مضت سكن هناك في كشمير قديس اسمه يوساسف Yus Asaf ، الذي بشر بالأمثال والحكايات الرمزية ذات المغزى الاخلاقي Parables ، واستعمل الأمثال التي استعملها المسيح نفسها . ومثل ذلك مثل الزارع . ضريحه في سريناغار Srinagar . ونظرية مؤسس طائفة الكاديناني تقول ان يوساسف وعيسى هما واحد والشخص نفسه . . . »[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢) (واحة النور ص ٨٨) ، F. Young Husband, Kashmir, London. 1911 .

(٣) نقلاً عن واحة النور ص ٨٨ . Heart of Asia — N — Roerich — N. Y 1930 .

ويردد هذا القول ميرزا غلام أحمد (١٨٣٥ ـ ١٩٠٨) مؤسس الحركة الأحمدية في شبه الجزيرة الهندية . وأعضاء هذه المجموعة يستخدمون شهادات مختلف الرحالة ويلجأون إلى حجج اشتقاقية Etymologiques أو مواقعية Toponymiques : « فمدينة كابول Kabul عاصمة أفغانستان من المفروض أن تذكرنا بـ (كابيل Kabul التوراتية (سفر الملوك الأول ٩ ـ ١٣) ! . . . كما أن السيد المسيح أيضاً ، لم يمت مصلوباً بل ذهب لينضم إلى المنحدرين من الأسباط العشرة ، ومات بعد إقامة طويلة في سريناجار في كشمير (حيث يوجد قبره . . .) وحيث يسمى الاقليم (جيلجي) الذي يذكرنا وبوضوح بـ (الجلجلة أو الجلجال Golgotha) التل الواقع قرب أورشليم »(٤) (*) .

ويشير البانديت جواهر لال نهرو في كتابه : « لمحات من تاريخ العالم » الصادر في لندن عام ١٩٣٩ موضحاً ما يلي : « فوق جميع ربى آسيا الوسطى ، في كشمير ولا داغ

= كتب الأب يواكيم مبارك هذه السطور في رثاء كمال جنبلاط ، ويشير إلى زيارة يسوع إلى همالايا : « في الوقت الذي جعل بينه ، وبين السياسة مسافة كان قد تنبأ بها أكثر من مرة ، وفي الوقت الذي توجه بفكره ، بملء اختياره كما اعتقد ، نحو منابع الغانج الذي كان يحبه ، وخلوات همالايا ، حيث (وفقاً لاعتقاد آخر) كان يسوع قد سبقه إليها ، فإني لا أرى مطلقاً أي بصيص نور من الشرق ما لم يكمل هذا الأخير ما كان كمال جنبلاط وليندا وعائلتها وشعبها قد حملوه بكل شرف وبثمن الدم » . (الرجل والمسيرة ، أول أيار ١٩٧٧ ، ص ٣٧) .

(*) قد يتملك عقولنا الروع إذا ما علمنا بأن الفادي الناصري قد ذهب في مستهل حياته إلى أوساط آسيا . والملفت أن مصادر عديدة تشير إلى تلك الزيارة المقدسة إلى الهند . ما سر هذا التعتيم على زيارات عدد من الأنبياء إلى ربوع الشرق ؟ على القارىء أن يعيد إلى الأذهان رحلة ماركو بولو إلى الشرق وما كابده عند العودة إلى إيطاليا من عذاب من قبل السلطات الدينية ، خاصة بعد أن رفض ماركو بولو البوح بما شاهد هناك من أعاجيب . وقد قدّم التلفزيون اللبناني خمس حلقات عن تلك الرحلة وكانت تلك الحلقات من روائع ما عرض على الشاشة الصغيرة . وإذا لم تكن مشاهدات ماركو بولو في الهند حقيقية فلتفتح حينئذ مكتبة الفاتيكان أبوابها الموصدة أمام طالبي العلم والمعرفة ، فما قيمة الكتب المدفونة في غبار الجهل والتجهيل ؟ فليكشفوا عن هذه الحقيقة . وإلا نكاد نجزم أنها سلسلة الحقيقة الصعبة الكشف !! . أما سلسلة الحقائق الصعبة الأخرى فلا تستحق إلا اللامبالاة لأنها تركز على هدم البنى الاجتماعية في المجتمع الشرقي خدمة للتفسخ والفوضى .

والتيبت وأبعد نحو الشمال ، هنالك ما يزال اعتقاد قوي أن يسوع أو عيسى النبي سافر في تلك الأرجاء »(١) .

وأسهم الدكتور نقولا روريك في توضيح المقولة التي تتحدث عن رحلة عيسى الناصري إلى الشرق ، وذلك من خلال كتابه الشهير « قلب آسيا » ، الصادر في نيويورك عام ١٩٣٠ فيقول : « سمعنا أيضاً أسطورة أخرى كيف وصل المسيح عندما كان شاباً إلى الهند . لقد وصل مع قافلة تجار ، وتابع دراسة الحكمة السامية في جبال هملايا . وسمعنا قصصاً متعددة عن هذه الأسطورة المنتشرة بشكل واسع في أوساط لاداغ ـ Ladakh ، وسينغينغ Sinkiang ومنغوليا . وتتفق كل الروايات على نقطة واحدة وهي أنه خلال فترة غيابه كان المسيح عيسى في الهند وآسيا » .

We also heard another legend how Christ, When young, arrived in India with a merchant's caravan and how he continued to study Higher Wisdom in the Hamalayas. We heard several versions of this legend which has spread widely throughout Ladakh, Sinkiang and Mongolia, but all versions agree on one point that during the time of his absence, Christ was in India and Asia(1) (Roerich, N. K. Heart of Asia, New York, 1930).

ويورد عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص الأنبياء) حول رحلة السيد المسيح إلى الهند ما يلي : يوجد رأي في مسألة المسيح جاء به « غلام أحمد القادياني » وهو رجل من بلد في قاديان في الهند ، قال : « إن المسيح أنجاه الله من اليهود فذهب إلى بلاد الهند واستقر في بلاد قشمير (كشمير) في شمال الهند بسفح جبل هملايا . وأقام هناك إلى أن وافاه أجله ودفن في تلك البلاد قرب بلدة سرنجار وله قبر معروف » . وفي رأي النجار أن دعوى مجيء المسيح إلى الهند أمر يحتاج إلى بحث وافٍ وتحقيق دقيق . ولكن المؤلف (النجار) يتابع قائلاً : « كنت مسافراً في رحلة إلى اسطنبول في سنة ١٩٣٤ وكان في السفينة الأستاذ الوقور الشيخ « أبو الوفاء الشرقاوي » فسألته ؟ هل يعرف حين كان في

(١) نقلاً عن واحة النور ص ٨٨ . J. L. Nehru, Glimpses of World History, London, 1939.

(١) Oasis of Light, 1977 Page 89 and Baikal (USSR) No 3. 1969.

سرنجار بقشمير عن قبر بقربها يقال له قبر النبي الأمير؟ أي قبر المسيح فقال : نعم سمعت بذلك ، وانه في الصحراء . ويوجد فريق من المسلمين ـ عددهم قليل جداً ـ قد كونوا لهم اعتقاداً خاصاً انتزعوه من نتفٍ اقتطفوها من الأناجيل تدل على نجاة المسيح من القتل ، وان في نجاته سراً خاصاً . (عبد الوهاب النجار ، قصص الأنبياء ، بيروت : دار احياء التراث العربي ، ص ٤٢٧) . ولقد أشار إلى رحلة الناصري إلى الهند ماير Mayer في مجلة (Historica)(*) .

في العام ١٩٦٧ طبع المهاجرون التيبتيون في الهند قاموساً تحت عنوان « تيبيتو ـ شانشون ـ Tibeto Shanshun » . وقد تضمن القاموس نصوصاً من كتب البون Bon القديمة . واحد من هذه المقاطع في غاية الفائدة : « حينئذ أتى مجترح المعجزات (عيسى ـ Esses) إلى أرض شانشون مار Shanshun Mar . الواقعة شمال التيبت » . ويصف مقطع آخر كيف بشّر المعلم عيسى أو ايش Eshe في فارس ـ Persia في القرن الأول من عهدنا ، أي منذ قرابة ألفي سنة . كما يظهر عيسى بين ملائكة طائفة البون المتفوقين . ووسط شعار مقدس من شعارات المؤمنين بعقيدة البون نرى الصورة الرائعة آدي بوذا Adi Buddha في الوسط ، وعن يساره مسيح المستقبل The future Messiah ، وعيسى النبي عن يمينه .

الفصل السادس والعشرون

السبتيون أو (الأدفنتست)

منشأ العقيدة :

تساءل كثير ممن لم يطّلعوا على حقيقة المذهب السبتي (المجيئي) ، أهو سبط من اليهودية أم فرقة من المسيحية ؟

الحقيقة هي كما يتبين للمطّلع على كتبهم وتعاليمهم ، أنهم مسيحيون يتبعون تعاليم الحواريين من المسيحية الأولى .

(*) جان فرنسوا ماير Mayer لغز سريعي ، وحلول دينية غريبة ، ترجمة عز الدين أحمد عزو ، Historia, No. 45 Janvier — 1985 نقلاً عن مجلة « الثقافة العالمية » العدد ٢٢ ، الكويت ، مايو ١٩٨٥ ، ص ٢٣ .

السبت الـذي يحفظونـه هو سبت العهـد الجديـد ، ورجاؤهم عـامر بمجيء يسـوع المسيح ، يعتمدون المعمودية بالتغطيس ، ويمارسون العشاء الربـاني ، طبقاً لمنهـج المسيحية اللأولى .

يقـولون : « ان الاضـطهادات والمجـازر التي لحقت بـالمؤمنين بـالمسيحيـة الأولى في العصـور الـوسـطى ، إنمـا عنتهم هم ، قبـل ان يحملوا لقب : (السبتيـين) ودام ذلــك الاضطهاد، واستمر التقتيل والتمثيل بهؤلاء، من اتباع المسيحية المتطورة، حتى فجر «القرن التاسع عشر » حيث ظهر في الولايات المتحدة الأميركية شخص يُـدعى (وليم ميللّر) وهو مزارع ، استطاع ان يقود حركة فكريـة ، تتركـز على تعـاليم الحواريـين الأوائل ، محـورها المسيح ، ودنو مجيئه لخلاص البشر ، وحفظ الوصايا العشر التي نقلها موسى لأشياعه .

الكتاب المقدس :

للكتاب المقدس في نفوس السبتيين المنـزلة الأولى فهـو اساس كـل تعاليمهم ومبعث نشاطهم ، وانه رسالة علوية ، في عرفهم ، لبني الناس .

يقولون أن اعرابياً في سنـة (١٩٤٧) عثر عـلى (سفر أشعيـا) في احدى المغَـاور ، وكان مضمونه مطابقاً لما يؤمنون هم به ، رغم أنه كتب قبل الميلاد بمئتي عام . لقـد وجدوا في هذا السفر الرسالة الأصلية كما انزلهـا الله ، دون أن ينالهـا أي تحويـر . يقولـون أن الله صانها لكي يرى الناس طريق السماء . ويسأل المحقِّقون : لماذا لم يشعْ هذا السِفرُ لأشْعيا ؟ الجواب : صمتٌ مطبق .

يؤمن السبتيون بالكتاب المقدس بعهدّيه القـديم والجديـد ، ويعتبرونهما موحيينِ من الله اصلا . ولكن حاقها تحريف جـذري . كما يؤمنـون بابن (الـروح القدس) هـو القوة العـظيمة المجـددة في عمل الفـداء . وعلى الشخص ان يختـبر الولادة الجـديدة لكي ينـال الخلاص. هذه الولادة هي الإيمان بالرب يسوع. (يوحنا : ٣ :١٦) . واعتقدوا بأن التوبة ومغفرة الخطايا يجب ان يسبقا المعمودية ، وطريقها الصحيحة : التغطيس . كذلك الإيمان بموت المسيح ودفنه وقيامته .

المسيح :

سأل احد التلاميذ يسوع : أرِنا الأب ؟ أجـاب : « أنا معكم زمـاناً . . الـذي رآني فقد رأى الأب . . »(يوحنا ١٤ :٩) .

وقـال لـوقـا بلسـان يسـوع : « مسجني الـرب لأبشر المسـاكـين ، ارسلني لأشفي المنكسري القلوب ، لأنادي للمأسورين بالإنطلاق وللعُمي بالبصر » . (٤ : ١٨) .

وفي كورنيثوس ورد : «ان الله كان في المسيح مُصالحاً العالم بنفسه». (٥ : ١٩) واوضح يوحنا بإيمان عميق : « في المسيح كانت الحياة ، والحيـاة نور النـاس » . (١ : ٤) من هذه الآية البينة نستشف انّ هذا النور هنا هو ارواح الناس ، وان هـذه الأرواح كانت في المسيح ، ولعلها ستعود إليه ، كما يعتبر ذلك الباطن العام ، هذا إذا كان من فارق بـين الرب والابن، وإذا لم يكن، فتلك هي عقيدة ال (المطلق Pantéisme) . غير أن الآية : « ان المسيـح يسوع جـاء إلى العالم ليخلص الخُـطاة » . (كونثـوس ١ : ١٥) ، لا تتضمن وحدة الأب والابن ، وللأهوتيين الكلام الفصل .

يقول الكتاب المقدس : « بغير المسيح لم يكن شيء مما كان » واعتبر السبتيون انه لن يتخلى عن خليقته حتى يستأصل الشر من الكون وتُسترد جنة عـدن ، ويقول الكتـاب : « الله محبة » فالله إذاً ، في اعتقاد هؤلاء هو المحبة بطبيعته وجوهره ، وهي الصلة بينه وبـين جميع مخلوقاته . وهذا النور وتلك المحبّة المحثّ إليهما معظم المعتقدات ، وانتهى مطافه في « علم الروح الحديث » .

تذكرنا كلمة : (المحبة) هنا بما يعتقد به الباطن العام بأن التـوجُّد والشـوق المستعر لرؤية الخالق قد ربطا الأرض بالسماء ، بأشعة المحبة المتبادلة . ويبقى لـدينا معـرفة طبيعـة المسيح هل هُناكَ ثالوث ، أم إله متعالٍ منزَّه ، ويسـوع إنما هـو ابنه بـالروح ، وصفيُّـه ، وشفيع الخُطاة ونعني به : العقل الأعظم . ؟

لَكم صرَّح السبتيون في نشراتهم : (أصدِقاؤك) بأن تضحيـة السيد المسيـح ستظل ثمناً لفدائنا ، ستظل سـراً مكتومـاً إلى ما لا نهايـة . كأنمـا هم لا يسلمون كليـاً بأن ذلـك القداء كان لمحو خطايانا . وقد ورد في المرجع السابق (ص ٢١) مـا يلي : « هـذا الايمان بمخلّص حي جـالس عن يمين الله . . أنـه لا بد راجـع . . . يعـود إلى الأرض في يـوم لا يعلمه إلا الله . . » فهل يستدل من هذا القول ، ان هناك إلهاً واحداً أم هناك ذاتان : أب وابن ؟

أطلق على السبتيين صفة : (المجيئيون) لالتزامهم المطلق بهذه الآية : « هو ذا (يسوع) يأتي مع السحاب وستنظره كل عين » (رؤيا يوحنا ١ :٧) فعندهم مجيء المسيح سيكون شخصياً حرفياً حقيقياً منظوراً ، ظاهراً كملك الملوك ورب الأرباب .

الخطيئة : لم تجد العقيدة غير الكتاب المقدس ملتمسًا لتفسيرٍ مُرضٍ لأصل الخطيئة والشر .

اعتقدوا بأن هذه الخطيئة نشأت في السماء ونبتت في قلب (لوسيفورس) أي الكَروب المضلّل . وقد استحال هذا الكَروب شيطاناً رجيماً . عصي ربه فطرحه الخالق ارضاً فباشر بتضليل الناس ، وانه صائر إلى هلاك محتوم ، في بحيرة النار المتقدة .

الجنة : ينقل لنا الكورنتوس وصف الجنة بهذا التعبير : « ما لم ترَ عينٌ ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال انسان ، ما اعدّه الله للذين يحبونه » . (٢ : ٩) . وقالت الرؤيا : (٧ : ١٦: ١٧) « لان الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية ، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم » .

والسؤال من يظفر بالجنة ؟ يقول النبي ايوب : « لا احد يَخرج الطاهر من النجس » وقال بولس في روميه: « اهتمام الجسد عداوة لله ، لأنه لا يستطيع ان يخضع لناموس الرب » (٨ : ٧) . اذاً ليس غير الإيمان القلبي الصادق بالرب المخلّص ، والاقتداء به وبحوارييه الأبرار ، والعمل بتعاليمهم .

آدم وحواء :

انها الرواية المتناقلة . وغرورهم ، في مذاق الثمرة المحرّمة عليهم ، وبعد ان قرع آدم على صدره وقال : « اللهم ارحمني أنا الخاطىء » استعاد منزلته الروحية ، وتبعته حواء .

الروح والاتحاد :

يقول السبتيون في مرجعهم (طريق الحياة ص ٥٧) : « لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل الله » . فشأن الحياة . شأن كل نُموٍّ ، له مراحل ونهاية .

والادلة على إيمان هؤلاء بالاتحاد بيسوع تفسره الآيات التالية : « اثبتوا فيّ وأنا فيكم » (يوحنا ١٥ : د. و ٥) .. وتشير الآية التالية بصراحة عن موقف الابن من

الأب : « لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً » (يوحنا٥ : ١٩) ويضيف : « الأب الحال فيَّ يعمل الأعمال » (يوحنا١٤ : ١٠) ويتوجه يوحنا إلى الناس بقوله : « ان لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم » (٦ : ٥٤) .

وأكمل يوحنا حديث يسوع لأبيه : « كما ارسلتني إلى العالم ، ارسلتهم (البشر) انا إلى العالم . . انا فيهم وأنت فيّ . . ليعلم العالم انك ارسلتني » (١٧ : ١٨و٢٣) فهل نستدل من هذه الآية ان المتكلم والمخاطب هما واحد كما العالَم سيكونه ؟

الوصايا العشر :

جاء موسى بالوصايا العشر المشهورة ، وكلها حض على تقويم طريق الحياة وضبط النفس ، ومعرفة حدودها لتخلُص إلى خالقها .

ولما كانت دعوة المسيح تتمة لما سبقها ، فقد أوصى : « ان كنتم تحبونني فأحفظوا وصاياى » (يوحنا١٤ : ١٥) .

وقد شنف داود النبي آذان الاجيال بنغمه العَلوي : « إلى الأبد يا رب كلمتك مثبَّتة في السموات » . (مزمور١١٩ : ٨٩) .

ويحسن بنا ان نعيد ذكر الوصايا العشر مفصلاً لأن على بعضها تعليقاً ذا شأن :

١ - « لا يكن لك آلهةٌ اخرى امامي » .٢ - « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء والأرض . . انا الرب إلهك ، غيورٌ . . واصنع احساناً إلى مُحبيَّ وحافظي وصاياي . » أراد السبتيون أن يشيروا إلى نقض تعلُّق المسيحيين بالتماثيل والصور ، رغم ما ترمز إليه .

٣ - « لا تنطق باسم الرب باطلاً . . »٤ - اذكر يوم السبت لتقديسه . . ففيه سبت للرب إلهك . . لا تصنع عملاً ما ، انت وابنك . . واستراح الله في اليوم السابع وهو السبت وقدّسه » .نتساءل : هل يتنزَّل مُبدع الكائنات إلى هذا المستوى ، وهل يطاله تعب ليسأل الرحة ؟؟ .

هــذا تلميح إلى أن يـوم « السبت » هو المقـدس وليس « الأحد » كـما يفعل سـائـر المسيحيين .

٥ ـ « اكرم أباك وأمك . . » ٦ ـ لا تقتل . ٧ ـ لا تـزنِ . ٨ ـ لا تسرق . ٩ ـ« لا تشهـد على قـريبك شهـادة زور » وهنا علق مـرجع السبتيـين على قيمـة الصـدق وضرورة انتهاجـه وربط ذلك بالقريب ، كأن الكذب على غير القريب حلال .

١٠ ـ « لا تشتـهِ بيت قريبـك : إمـرأتـه وعبده وأمتـه وثورهُ وو » فهـلاً اشتهاءُ بيت البَعيد حَلاَل ؟ أم هناك معنى باطنيُ شاطِح ؟

السبت : يعني فعــل : سبت لغـةً إسـتراح ، ومن هـنــا اعتـمــد هــذا النهــار الاسرائيليون والسبتيون يوم استراحة . زاعمين ان الله انجز الخلق في ستة أيام ، وفي اليوم السـابع وهـو السبت استراح . ومن حق مخلوقـاته الـواعين ان يستريحوا لاستراحتـه عـلى العمر . وألا يقوموا بأي عمل خلا خدمة الكنيسة والصلاة والابتهال . ويومىء السبتيـون (الأدفنتست) إلى ان اسـاقفة رومـا في العصور المتـوسطة والسـابقة لهـا ، طغـوا بنفـوذهم السياسي على المسيحية فاستبدلوا السبت بالأحد لغير مبرر ديني ، خلا ان الأخير رمز لقيامة المسيح من الموت . والسبتيون لشديد تعـلُّقهم بنص الكتاب المقدس ، وبالوصايـا العشر ، وبحذوهم حذو الرسل الأوائـل وحذو المسيـح نفسه ، استمـروا يعيرون يـوم السبت تلك القـداسة المـرموقـة . إذا كان هنـالك استبـدالٌ فمراعـاةً لمعتقد البيئـة الرومـانيـة ، أولاً . لِظروفٍ سياسية وجيهة .

فشرعوا بتطبيق ذلك ، عام ١٨٤٤ بعد نشر دعوتهم بزهاء نصف قرن .

الخطيئة والصفح :

الانسان في عرف السبتيـين اعجز من أن يقـوى على الخـلاص بنفسه من الخـطيئة . هذا الخلاص يقوم به الله بمحبته ورحمته ، في تقديمه ابنه البار ليموت خلاصاً للإنسان .

ولن يتم صفـح بغـير تَـوبـة خَلوصــاً : « تـوبـوا وارجعـوا لتمحى خــطايـاكم » (اعمال٣ : ١٩) وقال المزمور : « طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيئة (٣٢ : ١و٢) .

وقـال الكتاب المقـدس : « تعالـوا إليّ جميـع الـمتعَبيـن . . . وانـا اريحكم » . (متى ١١ : ٢٨) ولن يـأتي إلى يسوع غـير التائبـين . والقول : « من يعـطش فليأتِ . . مجـاناً » (رؤيا٢٢ : ١٧) وقال يوحنا مؤكداً غفران الله للتائبين : « ان اعترافنا بخطايانـا فهو امـين

وعادل وحق . . . ويطهرنا من كل اثم » . (١ : ٩). أكد على ذلك متّى : « اسألوا تُعطَوا . اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يُفتح لكم » . (٧:٧) .

واثبتت السبتية في مرجعها (طريق الحياة ص ٣٢) ما يأتي : « من يكتم خطاياه ، لا ينجُ ، ومن يُقرّبها ويتركها ، يُرحم » . (امثال ٢٨ : ١٣) . وقول المزمور : « قريب هو الرب من منكسري القلوب (٣٤ : ١٨) .

الاختيار والتسليم :

المعتقد السبتي كأصله المسيحي يقر : بأن المسيح يحرر من الخطيئة ولا يفرض الجبر ولا القسر . وهذه طبيعته في ميادين نضاله الروحي كافةً .

ويقول ارميا النبي : ، وعدنا الله فقال : « ان تطلبوني بكل قلوبكم تجدوني » (٢٩ : ١٣) . وقال يسوع « من لا يترك جميع امواله لا يقدر ان يكون لي تلميذاً » . (لوقا : ١٤ : ٣٣) .

التجلّي :

كثير من الأديان الظاهرة والباطنة يؤمن بتجلي الله ، بشكل او بآخر ، وتحدَّثنا عن ذلك ، ونتحدث في موضع آتٍ . والسبتيون هم ممن يعترفون مع العبرانيين بـ : « القداسة التي بدونها لا يرى أحدُ الرب » . (عبرانيين١٢ : ١٤) .

الصلاة :

يعتبر السبتيون الصلاة فريضة متممة للايمان ، ولن يتم إيمان الا بممارستها ، لأن بها يتجدد الإيمان بالكتاب والمسيح وقيامه ومجيئه . وهي الوجهة العملية من الدين ، ومَن لا يصلي البتة لا يقدر ان يحيا حياة يرضى عنها الله . الصلاة : فردية وعائلية وجماعية ، أين كانت .

التوكل والطاعة والخلاص :

يقول مزمور داود : « سلِّمْ للرب طريقك واتَّكل عليه وهو يجزي » . (٣٧ : ٥) والقول : « البائسون والمساكين انا الرب استجيب لهم » . (اشعيا٤١ : ١٧) .

ولم يُعر الرب كبير العناية بالجسد . تفسر ذلك الآية التالية : « يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ، ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح » . (روميه٨ : ١و٤) .

وقال يوحنا مشيراً إلى ربط الأرض بالسماء ، حين تنعدم الخطايا : « الحق الحق اقول لكم ، من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان » . (١:٥١) . ذلك مشير إلى ان الهوة التي احدثتها الخطيئة (خطيئة آدم المتوارثة) قد رُدمت ، ووُضِع سلَّم الاتصال بين الأرض والسماء .

المسلك اليومي :

بالرغم من ان الكتاب المقدس لم يعر الجسد ذلك الاهتمام لإضفاء العناية لتصفية الروح فإن « السبتيين » يجدون في صحة الجسد عاملاً هاماً لانجاز مهمتهم الروحية ولإشاعة الراحة في المجتمع لما للصحة من قيمة فيه .

بهذا المنظار للمجتمع العام ، يجد السبتيون انفسهم مسؤولين تجاه الله في تأدية الرسالة الخلقية للحياة اليومية ، جنباً إلى جنب مع الحياة الروحية . وهم يرون من شروط الانتساب إلى كنيستهم ، الابتعاد عن : التدخين والمسكرات وكل شهوة جسدية تأنفها الفضيلة ، مردِّدين كلام متّى : « فكونوا انتم كاملين كما أن اباكم الذي في السماوات هو كامل »(٥ : ٤٨) .

وهم الى ذلك يسهرون على القاء المواعظ الدينية في كل مجتمع يعايشونه ، متمنين على الناس الاقتداء بالرسل في نبذ الانانية والتعامل بمحبة وتواضع وصدق . كما انهم يعودون المرضى ويزورون السجناء وينصفونهم ويَهدونهم . وهم في كل موقف رسل تحاب ودُعاةٌ للبِشرِ والفرح .

يعيش السبتيون من عملهم اليومي ومعظمه تبشير واسهام في الطباعة والنشر . لا يتجاوز عددهم المليون . كلهم منتشرون في القارات الخمس يطبقون بجزم المبدأ المالي المعروف : بالعُشر من دخل كل عضوٍ فيهم .

القيامة :

ان ايمان السبتيين عميق بعودة المسيح للأرض ، وان اقامتهُ حالياً في ديار المجد هي موقّتة . أنه سيعود للأرض في يوم لا يعلمه إلا الله ، ليكمل القصد الذي جاء من اجله .

هم يزعمون آنه بعودة المسيح ، سوف يقوم الأموات الأبرار ، عديمي الفساد (منذ البدء) يعودون إلى الأمجاد الخالدة حيث لا فراق بعده . والتبشير بمجيء المسيح يكون بصوت بوق رئيس الملائكة . الأموات الصالحون يقومون والأحياء ينخطفون في السحب لملاقاة الرب في الهواء . (تسالونيكي : ١٦و١٧) وهناك لا جوع ولا عطش برعاية ذلك الخروف (يسوع) .

يشير الكتاب المقدس إلى ان ممالك العالم قد استنفدت وقتها ، وقربت نهايتها ، لتحل مملكة الله . حيث يجتمع الشمل وتزخر الحياة بسعادة لم تخطر في بال إنسان .

« هناك في الجنة ، حسب تعبيرهم : يعطون منازل وأعمالاً ويغرسون الكروم » اشعيا (٦٥ : ٢١) وهنالك بعد القيامة ينعدم الموت ، وكل بؤس وحرمان ، ويكمل الصفاء والرخاء بملقى يسوع .

أما مصير الكفار فكذا : « يصعدون على عرض الأرض مع ابليس ، وتنزل عليهم نار من عند الله لتلتهمهم فتتطهر الأرض وتتجدد » . (رؤيا ٢٠ زكريا١٤ : ١ ـ ٤) .

يتبين من ذلك أن الجنة والنار كلاهما على هذه الأرض كما يعتقد الباطن العالمي ويؤكد على ذلك السبتيون بقولهم سيصنع الله كل شيء من جديد ، ويتم الموعد المقطوع لإبراهيم أنه بواسطة السيد المسيح سيملك هو (إبراهيم) ونسله الأرض إلى ما لا نهاية . « والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل سماء ، تعطى لشعب قدّيسيّ « العليّ » ، وملكوته ملكوت ابدي ، وجميع السلاطين اياه يعبدون ويطيعون . (دانيال ٧ : ٢٧) .

بهذا المشهد صور الباطن الإسلامي التوحيدي يوم القيامة ، ومحكمة يسوع (العقل الكلي) العادلة ومصير الموحدين . أما العُصاة فلا يُحرَقون حرقاً بل يعيشون في الحرمان وتوبيخ الضمير إلى ما شاء الله .

لكن السبتيين مما طالعناه ، لم يوضحوا في ما يعتقدون بصراحة : هل هناك ثالوث مقدس ، وهل لهم إله واحد ، آم لهم رأي مغاير ؟ كل ما جهروا به أن يسوع المسيح غير الله . انه يجلس على يمينه ، ويعني ذلك أنه أقربُ الناس إليه لِعمق إيمانه وصفائه المتناهي .

الفصل السابع والعشرون

ملخص الديانة المسيحية بمذاهبها

بعث الديانةَ المسيحيةَ يسوع المسيح المولود في بيت لحم ، بفلسطين . كانت ولادته اعجوبة سماوية ، حسب ايمان جماعته . في مطلع شبابه تفجرت تعاليمه سحائب رأفة واخوة ورحمة ، في بيئة كانت تعج بالمفاسد والاهواء الرخيصة . كان يتنقل في ارجاء بلاده مبشراً بمبادئه الرفيعة ، يصحبه تلاميذه ، وعددهم اثنا عشر . وكانت اناجيل (يوحنا ومتى ولوقا ومرقس) صدىً صادقاً داوياً لتعاليم المعلم الأول . جاءت المسيحية الأولى في مبادئها وتصرفات دُعاتها، جوهر نداءات انبياء اليهود الساخطين على الانفلات والموبقات الناشطة يومذاك. وما كان يسوع ذلك الداعي للرحمة والمحبة والرفق وحسب، إنما كان إلى جانب ذلك ، صاعقة قاصفةً ، على قصور المترفين والمُرابين والمحتكرين . كان يضع الندى والسيف في المكان المناسب لهما . لهذا نشط معارضوه وكثر أخصامه ، واستكان السواد المضطهد ، فلم يصخب ولا ثار لصلبه ، كما كان ينبغي أن يثور ، وأن يدَمِّر . وصلب يسوع وهو في الثلاثين من عمره . وقيامته كما بمولده ، عبرة للمؤمنين .

اثناء العشاء السريّ ، أوضح يسوع سر القربان المقدس ، ملقياً آخر مواعظه على تلاميذه . والانجيل هو دائرة المسيحية وروحها وهو أربعة كُتيبّات لـ (متى يوحنا ولوقا ومرقس) .

الغَنوصيّة :

مذهب بين اليهودية والمسيحية ، إعتنق المعرفة الحدسية وتعني الكلمة : معرفة الأشياء العُلوية . بدت في المسيحية الأولى ثلاث مدارس : الصدوقية والفريسية ثم الاسيّنية المقربة من يسوع . من توصياته : « يا أولادي اوصيكم بأن تحبوا بعضكم بعضاً » . وله معجزات أذهلت المشاهدين. أكبر دُعاته :

أ ـ يوحنا المعمدان هو الذي عَمد يسوع وكان موقناً بمجيئه . وقتل خيفةً من انتشار تعاليمه البنّاءة .

ب ـ بطرس طاف المستعمرات الرومانية مبشراً حتى قتل في روما ، وقبره حيث

كنيسته ، وكل بابا يتولى رئاسة الكهنوت المسيحي هو خليفة له .

ج ـ بولس : انه فيلسوف العقيدة لا يقل نشاطاً وحماسة عن بطرس ، طاف طوافه ، ولقي مصرعه في روما نفسها ، واراهما قبرٌ واحد . افظع ما حدث من ويلات بالمسيحيين من قِبل الرومان كان بين اعوام : (٦٤ و٣١٣) ميلادية . وأول تشريع صدر بالتنكيل عن نيرون عام (٦٤) م .

للمسيحية صلوات خاصة واعياد بعدد أيام السنة لكثرة شهدائها .

إنَّ مؤسَّسات الاكليروس المسيحي هي بالحق اكبر وأنشط المؤسسات في العالم . أنظمتُها مُتطورة ، يرعاها قداسة البابا ولفيف من الكرادلة ، اساطين اللاهوت والفلسفة..

في الاكليروس قُسُس وآباءٌ وراهبات ورهبان ، ومطارنة وبطاركة ثم كرادلة فالبابا .

إنه لهَرَم ضخم ، قمته الكرسي الرسولي . وبكل اجزائه يجري نسغ الانتظام ، وفق مراسيم خاصة . كان لكل ابرشية في الشرق كما في روما أُسقفٌ يدعونه : البابا ، واخيراً وبعد نقاشات حادة توحّدت البابوية في روما على صخرة القديس بطرس .

وللرهبنة نظامها الخاص ، كما للكنيسة من طقوس وموسيقى وملابس وترانيم وقداسات . والبابا (ليوالكبير) أعلن اتحاد الطبيعتين : البشرية والالهية بالمسيح ، في مجمع خلقدونيا عام (٤٥١) رافضاً قرارات مجمع افسوس . وقد اعتبر البلاط البطريركي في القسطنطينية أن الله جعل للشعب قوتين عُلييَيْن : الامبراطور والبطريك .

كانت المسيحية تؤمن بالمطهر وحديثاً جداً ، أشيح النظر عنه . وهناك نظريات حولها :

أ ـ كان من عِمدة الكنيسة (توما الإكويني) . نقدَ فلسفة ابن رشد مُعجباً به وبأرسطو . كان يقول : « من الخير أن يسيّر الله الإنسان بقضائه وقدره » .

ب ـ وكان (مارْسيون) وهو صاحب كنيسة شائعة حملت اسمه ، يعتبر تبايناً ظاهراً بين تعاليم يسوع المسيح ، ونص الاناجيل ، زاعماً أن العالم فرقتان ، احداهما معذبة والثانية ناجية ، إذا اسرفت في الزهد والتبتُّل .

ج ـ والصابئة آمنت بيوحنا المعمدان ، واتبعت معظم تعاليمه . من كتبها :

« الكنز » . معتبرين الله واحداً : اله النور ، ودونه عقول نورانية تحيط به .

د ـ وكان فيلون الفيلسوف اليهودي معتنقاً نظرية افلاطون في (الكلمة) . جعلها متوسطة بين الله والعالم وهي علة الروح ، والروح تُشيع حكمة الخالق في العالم .

هـ ـ قسطنطين الأول أسهم بجدية في بناء المسيحية وتعميمها ، وقد تساهل في أمر الدين ، رغم الصراعات الفكرية الحادة ، التي اوقد حطامها : آريوس . وعبثاً حاولت الدولة فض هذا الصراع فأمر قسطنطين بتعطيل يوم الأحد واعفى الكنيسة من الضرائب ، وقرر أن تكون (روما الجديدة) المبنية على البوسفور ، مدينة مسيحية .

و ـ القديس أوغسطين أصبح اعظم آباء الكنيسة . وضع علم اللاهوت ، ونقل فلسفات افلاطون وافلوطين إلى الكنيسة . حاول التوفيق بين العقل والإيمان . وحارب البدع المتعددة ، منها :

ز ـ الدوناتية : إنها بِدعة قام بها (دونات) محاولاً اثارة جماهير الفلاحين لإقلاق الأمبراطور الروماني الذي كان سيِّد الدولة والكنيسة معاً .

كان اعظم بطرقيات المشرق اربع : بيت المقدس ـ انطاكية القسطنطينية والاسكندرية . وفي الغرب واحدة هي : (روما) قبلَ أن تغدو مقراً للكرسي البابويّ بواسطة البابا « سلفتين الأول » .

وقد اعتلى هذا الكرسي حتى اليوم قرابة (٢٦٥) أُسقفا .

المانوية :

مؤسس هذا المذهب ماني بن فاتك في اوائل القرن الثالث للميلاد في ايران . ادعى انه هو الفرقليط الذي بشر به عيسى (يسوع) اعترف بأن رسالته هي خلاصة تعاليم زرادشت والمسيح . نافياً نبوة موسى . آمن بأصلي النور والظلمة . اعتبر ماني اجناس النور خمسة ومثلها اجناس الظلمة . وإنَّ التسبيح والمبرات تنجي الإنسان .

وإله النور ظاهر وباطن ، وهو مالىء كل مكان . حذر (ماني) من الكذب والبخل والقتل والزنا حتى من ذبح الحيوان رأفةً به . في نظر ماني أنَّ زرقان الإيراني هو

العظيم الأول ، والكائن الأعلى . قال أن عيسى الصحيح (يسوع) هو غير الذي صلبه اليهود . وقد آمن بالتناسخ . ليس في مذهبه كهنة بل طبقات هم اصحاب الحلم ، واصحاب العلم وابناء العقل . كما هناك سماعون وصديقون . وهذا مشابه للمدرسة الفيتاغورية . وطابع مدرسته : عرفاني غنوصي . للعقيدة صلوات خاصة يباركون فيها الفرقليط والملائكة (العقول النورانية) والله الأعلى . وكان للكنيسة مجامع ومؤتمرات لدحض التعاليم المخالفة لها . من تلك المؤتمرات :

مؤتمر نيقيا :

خلاصة ابحاث هذا المؤتمر كانت : الإيمان بإله واحد ، موجد كل شيء ، مرئي وغيرمرئي والإيمان بيسوع المسيح ، الابن الوحيد ، وهوجوهر ابيه ، واله من اله ، ونورمن نور . بواسطته وجد كل شيء . ومن اعتقد في المسيح غير هذا فهو كافر .

الجدل الكنسي :

طوال القرن الثاني للمسيح وما بعده استمر الجدل ، واحتدم وتطايرت جذواته شرقاً وغرباً ، حول : الطبيعة الواحدة في المسيح أو الطبيعتين ، وحول مشيئة واحدة أو مشيئتين . ونادى بعضهم بأن المسيحية الأولى هي الأصفى .

حين عُقد مجمعا نيقيا والقسطنطينية ، قُضي على كل البدع حول الثالوث والتجسد . وقضى المجمع (الخلقدوني) على الفذلكات كلها ، معتبراً للمسيح شخصية واحدة ذات طبيعتين : بشرية والهية ، وكلتاهما متحدة جوهرياً بالاخرى .

نسطور :

من الاساقفة المناهضين كان نسطور القائل : « يجب فصل طبيعة المسيح اللاهوتية عن طبيعته الناسوتية ، ويجب أن تحرم العذراء من القداسة ، فيسوع كلمة الله ، لم يحوه بطن قط . وصل (نسطور) إلى رتبة اسقفٍ لكنيسة القسطنطينية ، فقمع الآريوسية ومات قتلاً . ولدى انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية : كاثوليك وارثوذكس ، احتفظت الأولى برأيها بينما الثانية اكدت اتحاد الطبيعتين في المسيح لفظاً وفعلاً . انها طبيعة واحدة (للكلمة) المتجسد . وجارى الارثوذكسية كلٌ من الكنائس : القبطية والسريانية

والارمنية معتمدين قول يسوع : « قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن . . وها أنا حي إلى أبد الابدين » . وفي العام الالف للميلاد انتشرت النسطورية في سوريا حتى خرسان فالصين ودامت بعد الفتح الإسلامي حتى تيمرلنك ، الذي قضى عليها .

أريوس وبدعته :

هو أحد تلامذة الاسكندرية ، وغدا كاهناً ، ثم أكد أن الكلمة صار اقنوما في يسوع المسيح ، وانه جوهر آخر عن الله ، خلقه قبل خلقه العوالم ، ونزل إلى الأرض مجسداً . كان كاهناً متنسكاً وخطيباً مفوهاً . وحيث لم يكن للكنيسة يومذاك نظام مُعيّن ، فقد قلقت واضطربت ، حتى جاءها الامبراطور قسطنطين عام (٣٢٤) فأعتنق ديانتها ، وجعلها دين الدولة بكاملها . بذل جهوداً متواصلة لتوحيد الكنيسة ، حفاظاً على أمن الامبراطورية . وفي عام (٣٢٥) كان مجمع (نيقية) يرأسه قسطنطين . أحتدم فيه الجدل والنزاع بين آريوس والكنيسة الأم . ناصر آريوس اساقفة الشرق ، لكنه توفي في يومه ذاك . ولم تمت بموته الاريوسية . وشاع وتأكدَّ موته مسموماً في بلاط قسطنطين ، حقداً عليه .

أخيراً أقرت المجامع الكنيسية في الاسكندرية بطلان الآراء الار .بسية لانها تخالف كلام الاناجيل .

الكنيسة اليعقوبية :

استطاع المبشر المسيحي يعقوب البرادعي أن يؤسس كنيسة ، قوامها مناهضة النسطورية والارثوذكسية . انتشرت في المنطقة عام (٥٤٣) م وعرفت باليعقوبية . خضعت لتعليمات كنيسة انطاكيا ، واتخذت اليونانية فالسريانية فالعربية للتعبير عن معتقدها وممارسته . مالأوا الإسلام ليتحدُّوا الكاثوليك في المشرق ، وكان منهم مترجمون ماهرون . ما زالت كنيستهم قائمة شمالي العراق بجوار (ماردين) . لا يتجاوز عدهم الثمانين الفاً .

القبطية :

ظل الأقباط محافظين على لغتهم الأم الفرعونية في مراسيمهم الدينية ، معتمدين طقوساً خاصة ، ما برحوا يمارسونها . نادت كنيستهم بالطبيعة الواحدة للمسيح . اسقفهم نزيل القاهرة يشرف على مسيحيي مصر والحبشة معاً .

وكانت الكنائس الحبشية والأرمنية كلها تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ، ولها طقوسها الخاصة ولغتها .

الكنيسة المارونية :

سميت بذلك نسبة لمؤسسها القديس مارون الذي ظهر في أواخر القرن الرابع ميلادي في شمالي سوريا . آمن بالبابا رئيساً لكنيستها . خالفت جيرانها المسيحيين الشرقيين لأسباب جلها سياسية ، في البَدء . اتخذ الموارنة الكرسي البابوي مرجعهم الارفع ، واعتبروا الكلمة قد اخذت الطبيعة البشرية تامة وكاملة ، كما كانت في آدم قبل المعصية : يريد ما يريده الله . قال كاهناها : الأب طانيوس منعم والأب سمير حايك، قضاء البترون (لبنان) ، ما يلي ؛ « ليس من فوارق في العقيدة بين الكثلكة والمارونية . المارونية انتماء مذهبي للكثلكة جملةً وتفصيلاً ، عن قناعة ، وعن رضى وقبول . وليس للكثلكة طقس معين . لكل جماعة طقوسها وفقاً للغتها وخصائصها ومقوماتها » .

وكانت الاسرار المقدسة في الكنائس الكاثوليكية عامة ، هي القوة الثانية من قوى الكنيسة ، انها ترمز إلى منح البركة الآلهية ، وكان التعميد اهمها . والكفارة هي الاعتراف إلى أحد الكهنة المتخصِّصين. ثم كان صك الغفران وملابساته والشعب الذي احتاطه .

الامبراطورية والكنيسة :

كان الامبراطور الروماني في القرنين الحادي والثاني عشر هو سيد الدولة ، ودستورها الانجيل . وكان يُعتَبر الامبراطور المسيح بنفسه ، فهو : (الفُسَيلْفس) . وكان الجنود على الطرقات يرددون الاناشيد الكنسية . وزوجة الملك (الفسيلفسة) تشارك زوجها السلطة .

البربر :

كان لغزو البربر شأن في تفسخ الكنيسة بالقرون الوسطى، فكانت كنيستان : شرقية وغربية . وانساقت الكنيسة الشرقية بأوامر البيزنطيين والثانية بالتيار الروماني الاثيل . حتى غدا البابا في حينٍ ، يلقي أوامره على الملوك . وقد منيت الكنيسة بعد القرن الرابع عشر بهزات عنيفة ، انقذتها المجامع ووحدة الصف .

الكنيسة الارثوذكسية :

حدث الانقسام الكنسي بين الكنيستين الشرقية والغربيـة عام (١٠٥٤) . وانساقت كل منهما بعـوامل شخصيـة أو فلسفية أو سيـاسية ، منشقـة إلى مذاهب وطقـوس مختلفة ، حتى اليوم . كانت في الغرب الكنائس الكليانية والـرومانيـة والسلتية والاسبـانية . واللغـة السائدة فيها هي اللاتينية .

وأبرز الكنائس الشرقية كانت : البيزنطية والارمَنيَّة والسورية والمـارونية والكلدانيـة والقبطية .

كـان للكنيسة الشرقيـة ابتداءً من القـرن السـابـع عشر سلطان فـاعـل من ضفـاف الدانوب لليونان ففارس ، رغم ما حاقها من اضطهاد تركي في بعض الظروف .

جبل أتوس :

في القرن العاشر للميلاد تأسست اديرة فخمة على جبل اتوس باليـونان تحـوي اليوم زهاء سبعة الاف راهب ، يخضع كلهم لكنيسة القسطنطينية .

تعدّدت الكنائس الارثوذكسية في الشرق الأدنى ومصر وقـبرص وفي أوروبا الشرقيـة اليوم ، والاتحاد السوفياتي . لكل من هذه الكنائس لغتها الخـاصة وطقـوسها ؛ وتعـاليمها الروحية واحدةٌ ، وللسياسة شأن في بعضها .

الاصلاح الديني :

انحرفت الكنيسة الغربية عن تعاليم المسيح في القرن السادس عشر ، بانفِتاحها على مغـريات الـدنيا ، وارتكـاب بعض كهنتها المعـاصي فسلَّط الله عليها ـ كـما يزعمـون ـ عـدُواً لها من قِلبها . وكان هذا العدو : (لوثر) الالماني الأصل ، والكاهن النانغ وحذاهُ (كالفن) .

فـي عام (١٥١٥) جهر لوثر بملاحظات ناقدة لاذعـة للكنيسة الكـاثوليكيـة ، تبعتها ثورة فكرية عارمة ، شملت شمالي أوروبا وانكلترا وبعضاً من فرنسا . تناول في ملاحـظاته سوء تصرف الكرسيّ البابوي وأساقفته وكنائسهم ، واتى بأفكار مناوئة للكنيسة وتعـاليمها . كثيراً ما نقل التاريخ إلى جانب نبوغ لوثـر ؛ فصاحتـه وجرأتـه وصدق روحـانيته المتطورة ، تضمَّن منشورهُ اللاذع خمسة وتسعين بنداً ، أوضح فيها اراءه بجُـرعَةٍ فائقة .

كالڤن :

فرنسي الأصل ، ومُحام متأثر لأعماقه بتعاليم لوثر المعاصر له . اعتمد الولاية الالهية في تشريعه . والحكومة في زعمه ، هي السلطة الالهية . والعمادة وسر القربان المقدس ، قيمتهما في ما يرمزان إليه. ذاعت تعاليمه واتُبعت في: فرنسا وسويسرا وهولندا وانكلترا وفي بعضٍ من اميركا الشمالية . اعتُبر كل ما هو خارج عن العهدين : القديم والجديد لا قيمة له . وإن قدر العباد في يد الله .

وبظهور الكنيسة البروتستنتية وترسّخها في العالم الغربي أولاً ، أخذت مع الزمن تظهر تيارات فكرية ناشطة على تطويرها ، واستمر هذا النشاط الروحي وما يزال ، خاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، إذ بلغ عشرات المذاهب الپروتستنتية . أشهرها خمسة : ١ ـ اللوثرية الكلڤانية ٢ ـ المعمدانية ٣ ـ الميتودية ٤ ـ البرَسْبيتية ٥ ـ والأنكليكانية . وتبعتها المورمونيَّة في القرن التاسع عشر . ثم كان الاصلاح الديني في بريطانيا معادياً للبابوية كذلك ومتآخياً مع اللوثريّة . عقب ذلك حملات معادية للكثلكة ، في العصور المتأخرة ، على رأسها فرنسا في القرن الثامن عشر . قام بهذه الحملات ڤولتير وصحبه . مما اضطر ملك فرنسا عام (١٧٦٤) أن يأمر بإقفال المدارس اليسوعية وبطرد آبائها من فرنسا ، منساقاً بعوامل سياسية. أخيراً سكنت العاصفة الهوجاء التي هبت على الكنيسة الكاثوليكية ، غداة مدَّت لها يد السياسة في كل أرضٍ ، العونَ المادي والمعنوي ، وعادت لفرنسا صورتها الأولى ، بكثير من التحرّر . واتخذ الاستعمار من الديانتين : الكاثوليكية والپروتستنتية ، اوتاداً له ، عمل ناشطاً على زرعها في اصقاع متسعمراته . وفي منتصف القرن العشرين استيقظت شعوب المستعمرات من سباتها منادية بالتحرُّر . لكن الارساليات المسيحية على انواعها ، ما برحت جاهدة في كل قارة ، وخاصةً في المناطق المتخلّفة ، وبشتى الوسائل ، لدعم نفوذها ، ولمدِّ موجات التبشير هنا وهنالك دعماً للإستعمار .

السبتيون :

هم نفسهم (الأدڤنتيِستْ) تبعوا تعاليم الحواريين في المسيحية الأولى . أساس تعاليمهم الكتاب المقدس باعتباره رسالة علوّية .

اعتبروا المسيح هو المخلص الحي ، الجالس على يمين الله ، وليس هو الله بذاته ،

على عظيم تقديرهم له ، وشغفهم به وبتعاليمه . آمنوا بالجنة والنار وبالخطيئة ، ثم بالوصايا العشر . يزعمون أن بمقدورهم رؤية الرب بالقداسة ، وهذا هو التجلي بعينه . وقد اعتبروا الصلاة فريضة متممة للإيمان . والتوكل والطاعة يؤديان إلى الخلاص . وإن يسوع سيعود للأرض ، ليكمل القصد الذي جاء من اجله . وبعد القيامة ينعدم الموت .

الأفكار المعاصرة :

بهذا الانفتاح للفكر البشريّ ، وبالحرية التي يعتمدها رجال الفكر ، وبالسياسية المحايدة التي تنهجها الدول ازاء الرأي الديني ، تعددت الآراء والأقاويل حول المسيح نفسه ، وحول تعاليمه وتطورها وحول بهرجة الكنيسة والكهنوت ، وما إلى ذلك . وقد سعدتُ بمطالعة مؤلفات كشفت النقاب عن كل الملابسات ، إذ تحاور برصانة واصالةٍ . من هذه المؤلفات المنفتحة ، ما رصّعه قلم الأب الفيلسوف (تياردي شاردن) (Teilharde de Chardin) والمؤلف (أدوار شوره Ed Schuré) وآراء الاسقف لقضاء عكار وسوريا المطران ابي فانيوس زيادة . ثم القرآن ورأيه في المسيح مولداً وصلباً ، اخيراً آراء الكاهنين الأب طانيوس منعم ، والأب سمير الحايك . وتبع ذلك لقاء اتى بجماعة من شهود يهوه وجماعة الأدڤنتيستْ (السبتيين) ، أُثبتُهُ بتجرُّد .

حاول العلامة (روريك الأب) الوصول إلى حرم شمبالا بـواسطة بعض (لامَـوات التيبت) فتعذر عليه ذلك . ولدى سؤاله عن السبب . أجابه احدهم : « لقد اقام الحكماء المقدسون سداً بين البشرويينهم . والسد هو غاز ينبعث من جوف الأرض ليحولَ دون تعكير صفـاء اولئك الحكـماء في مقرهم الأقـدس » وكثير من أدلاء المستشرقـين يضلّلونهم خشيـة بلوغ المحجة : (شمبالا) . لا يـأذن كبـير (الـلامـوات) بـالعبـور لهـول مـا يحـدث أمـام المجازفين ، حيث يَرتدّون أدراجهم .

إن الرحَّالين رجال العلم والسياسة ، الذين توخّوا بلوغ قمم حملايـا وكشف حقيقة (شمبـالا) ، لم يبلغوا حتى اليـوم هـدفهم المنشـود ، لسبب أو لآخـر . وقـد صرح عـام (١٩٦١) الأمين العام للأمم المتحدة ، (داغ همرْشولد) بأنه قام بـرحلة استكشافيـة فوق (حملايا) وكان قائد الطائرة رجلٌ (نيبالي) . حين تقرب الطائرة من حرَم (شمبالا) يغير القائد مسارها ، ولا يرضخ للأوامر بـالمتابعـة . وأكمل (همـرشولـد) : عدنـا إلى (نيبال Nipal) ، وشرعنا نتسلق الجبال . لدى عبورنا في القـرى ، تجمع حـولنا الـرجال والنسـاء هاتفين : أهدوا سلامنا إلى السادة الحكماء ، إذا بلغتم الذُرى .

وعبثاً كانت وما برحت جولات السفن الفضائية والروادِ المجازفين لتبلغ منطقة (شمبالا) . لم تسفر جهودهم الشاقة عن حقيقة ناصعة ، على ضوئها ننفي أو نثبت وجودَ ما راود افكار ملايين الشرقيين منذ أجيال ، وما تـرسَّخ في نفـوسهم من احلام مـذهبة حـول هذا الحـرم الأقدس .

كل ما استطعنا استشفـافه عن معتقـد أولئك الحكـماء المنعزلـين ، هو أنهم : المنبثقُ الاصيل لعلم (الباطن) التوحيدي الذي غزا العالم من آلاف السنين . لـولا ذلك لـما كان قَصَـد مملكتهم أمثال فيثـاغورس وأپـوللونيوس ، ولا كـان الكاهن (جـون) وَاصَلَ مبشِّـراً الأبـاطرة والمقَّـر البابـوي باتبـاع مسلك السيـد المسيـح ، والـرسـل الأربعـة (للمسيحيـة الأولى) ، حيث تناهت القدسية ، وحيث حفظت رسائل هذا انروحـاني الشرقي الكبير ، في المكتبة البابوية وحـظر المسؤولون من مـطالعتها ، وكشف مغـازيها . لكن يتعـذر الإيمان بضـلال وعباهـة الامبراطـور اللبناني (سپتيمـوس سفرُوس) وهـو المعـاصر لعهـد الحكيم (أپـوللونيوس) زائـر حرم (شمبـالا) ، حين وضـع تمثال هـذا الحكيم بين تمثـالي السيـد المسيح والمستنير (بـوذا) ، في هيكله الأقدس ، كما أسلفنا ، ورب قـائـل : (شمبـالا)

واحـدة من آلاف الاسـاطـير . الجـواب : هـل حـدث لأيـة اسـطورة اهتـمام ودراسـات واختبارات وقداسات ، قديماً وحديثاً ، كما حدث لِـ (شمبالا) ؟

أمـا تحققت بعض الأسـاطـير أمثـال : (بـرج بـابـل) ومـديـنـة (تـرواده) وأسرار (هليوبوليس) و (الألوزي) ؟ ولِمَ لا نرجح أن الإيمان العميق بمادِّية الكون ، الذي يدين به معظم العلماء والقادة السياسيين ، في الغرب النابض الناهض ، هو الذي أقعد الباحثين عن متـابعـة دراسـاتهم حـول الـروحـانيـات . ألم يصرِّح العـالم الفـرنسي (ريشـا C.Richet) وجماعته : علماء الـروح (Les Psychistes) ، بأن المسؤولـين في الدول الكـبرى لو منحـوا العُشر مما ينفقونَ من اموالٍ على الحروب ، لتعزيز علم الروح ، لكانت البشرية تسعد بعد قليـل : بالسـلام الدائم والبحبـوحة المبتغـاة ؛ ولكان ارتفـع الحاجـز الكبـير بـين الـواقـع والاسـطورة، وتعانقت التيـارات المادية والروحيـة وتوحَّـدت في : الفكـر المستنـير للعقـل الخلَّاق ، مسيح الزمان .

من فروع هذه المدينة الباطنية وجوارها أغصانٌ أُورقت وأُثمرت في معـابد اليـونان ، وكُنَّا منذ قليلٍ على أعتابها مُتقرِّئين ولنا في المذهبينَ الآتيين أوضحُ بيِّنة :

١ ـ مسلك الصليب الوردي

إن مسلك الصليب الـوردي Rosicrucianisme)(هو فلسفـة دينيّة بـاطنيّة يقـال أنها نشأت في أوائل القرن الرابع عشر . أول مَن دعا لها الرحّـالة (Christian Rosen-kreutz) بعد تعداد جولاته ودراساته طيلة مكوثه في الشرق الأوسط ـ ولعله تجاوزه ـ .

كان يصحب هذا الرحّالة ثلاثة من جماعته ، وكان يشرح لهم ما يقرأ ، وما يـرى في معابد الشرقيين ، بإيمانٍ منه ، في ما يتفهّم ويسمع . ولدى عودته الى أوربـا أسّس جمعيـة قائمة على ما تلقى من معلومـات شرقيـة ومبادىء روحيـة باطنيـة ، أسماهـا : (الصليب الوردي) . إنتشر هذا المسلك في أوربـا وبريطانيا والولايات المتحـدة ، في القرن السـابع عشر ، معتمداً ومؤمناً بقدرة الإنسان الكامنة ، لِفهم كُنْهِ المملكة الروحية المتغلغلة في كـل ما تتضمَّن الطبيعة .

لما كانت هذه المبادىء الشرقية منافية لما تحمل الديانات السماوية الظاهرة ، وبخاصة

المسيحية ، في الغرب كله ، من طقوس وتعاليم ، تفجّر الصراع الفكري والتضييق على هؤلاء زاد عنفاً ، وهم : ـ واحةٌ في بحر ـ ممّا اضطرهم الى هجرةِ ربوعهم هنا وهناك صوبَ الشرق ، حيث تعايشوا مع أهله ، والتحموا بهم عن رغبة وقناعة .

وليس غريباً على التاريخ أن يحدث مثل هذا التحدِّي والانتقام ، في عصر طغت فيه النزوات الطائفية ، بما تحمل من عصبيات وقهر ، في غياب ديمقراطية الحكم وحرية الرأي والمعتقد ، عن مشارف وأبهاء ملوك وإكليروس الغرب .

٢ ـ المسلك الغنوصي

يُطلق هذا الاسم على حركة دينيّةٍ برزت في القرن الثاني . ان معرفتنا بها الان ترتكز على طرق تفكيرها ، وعلى الطقوس التي يمارسها أتباعها . تميّزتْ عقيدة هذه الجماعة بالفِكرة القائلة أن الإنسان فيه جذورٌ إلهية تلقّاها منذ القِدم، بواسطة رسلٍ أبرارٍ . وتعني هذه الجذور روح الإنسان ، وهي الخالدة ، كما هي التي تصعد بعد الوفاة الى العالم الإلهي حيث أصلها .

يقول جماعة هذا المسلك أن عالمنا الأرضي قد وُلِد نتيجة سقوط جزءٍ آخر سماوي فكُنَّا نحن . وهم يُصرّون على الإيمان بأن هذا الجزء الساقط منذ الزمن البعيد البعيد ، يجب أيضاً أن يعود إلى أصله .

أما العُرف الذي تناقله الواعون من الناس ، مِمّنْ عايشوا هذه الجماعة ، هو أنها ممسكةٌ عن يقينٍ بحرفيةِ أناجيل الحواريين الأربعة الأوائل : « يوحنّا ، متّى ، مُرقس ، ولوقا » قبل أن يطالها التحريف والتأويل .

في هذه الحال ، يتذكر التاريخ فتوح القائد البوذي (أسوكا) وتعاليم مذهبه الشرقية التي اتّضحت صلتُها الحميمة بتعاليم بعض الحواريين . هؤلاء الذين اعتبرهم الباطن التوحيدي في ما بعد : أئِمّتَهُ ، وأشار إلى تلك الصلة المؤرخ الفرنسي (هنري أرفون ـ Henri Arvon) في كتابه : « الباطِنيّة ـ L'Esotérisme » .

غير أن المؤرخ (فريدريك س . غرانت ـ Fréderique S. Grant) يزيد العقيدة توضيحاً فيقول : إسمها مُشتقٌ من الأغريقية ويعني « العرفانية » . إزدهرت في القرون

الأولى للمسيحية مُحاولةً التوفيق بين عدد من المعتقدات يومذاك ، أهمها : بعض مذاهب مصر القديمة وفارس والهلينيّة والأفلاطونية والأورفية والفيثاغورية ، حيث يبطن الباطن العالمي .

ويؤكد المؤرخ على اعتبار الغنوصية العرفانية أنّ العالم المادي هو نِتاجُ كائنٍ حقير يعزى عادة إلى الله الذي يصفه العهد القديم في التوراة . كما تعتبر أن ظواهر كثيرة تؤكد الواسطة بين الكائن الأعلى وهو الله الذي لا يحدُّهُ وصف ، وبين الانسان . .

في هذا الإعتبار كان التجسُّد : (تجسد المسيح) وَهْماً ، والخَلاص يتحقق بالاستنارة ـ المزيد من المعارف الروحية ـ التي تتفتّح للمؤمنين. ويضيف المؤرخ أن هذه الحركة تحتقر الجسد ، لِذا فإنها تترفّع عن ملذات الدنيا . وقال آخرون عكس ذلك .

كان لهذه الحركة الروحية كتب كثيرة ، فُقِد معظمها ـ بسبب التصارع الديني والتنكُّر للفكر الحرّ ـ . من أبرز دُعاة هذا المسلك في القرن الأول : (سمعان المجوسي) و(ميناندر) وغيرهم وكان في القرن الثاني (باسبليدس) المتوفى عام « ١٤٠ » .

قبل القرن العشرين كانت جميع المعلومات عن هذا المسلك مُستقاة من آباء الكنيسة ، منهم : (إيرانيوس وهيبوليتوس . .) وكانت أقوالهم مُتناقَلَة لا تعتمد مراجع موثوقاً بها . وفي العام (١٩٤٥) اكتُشِفتْ مكتبةٌ كاملة تعود للعِرفانيين الأقباط، في خابية ضخمةٍ ، بحقلٍ مُجاوِرٍ لِـ « ناج حمادي » في مصر: على بُعد أربعين كلم الى الجنوب من القاهرة، بين هذه الصحائف نسخة عن مُؤلِّف بِـ (فالنتينوس) الشهير يدعى بـ « إنجيل الحقيقة » .

هذه المخطوطة الفريدة ما تزال محفوظة في (زوريخ) ، وقد أُعيد النظر فيها وتمّتْ ترجمتها عام (١٩٥٦) حيث عكف الباحثون على التدقيق في المخطوطات الأخرى وترجمتها وتفسيرها . والسؤال : مَنْ المُترجِمون ؟ وما مدى تجرُّدهم ؟؟

يعود المؤلف « غرانت » قائلاً أن لهذه الحركة جذوراً في اليهودية والمسيحية معاً ، وهي متوافقة مع أقوال الحواريين وبخاصة « يوحنا المعمدان » . وقد جاء في (انجيل الحقيقة) صفحة « ٢٢ » : ان الذي يعرف (يعرف هذه الحقيقة) أو يعرف نفسه ، هو

كائن علويّ ، حين يُدعى : يسمع ويستجيب ـ بإرادة الله ـ .

ويضيف المؤلف : « أن هذه الغنوصية (العرفانية) هي معرفة الـذات ، وهي تُحقِّق التحـذير الإغـريقي ـ سقراط ـ : « إعـرفْ نفسك » . وهـذا دليل عـلى الصلة بـين هـذه العقيدة وبين ما كان ينـادي به الحـواريون ، والـدليل الأوضـحِ كلام « لـوقا » في الفصـل (١٧ ـ ٢١) « أن مملكة الله هي في صميمك » .

إن المسيـح في عُرف هـذا الباطن هـو (العقلُ الأول الكـلّيّ) وهو أسبق العـوالم إلى التوحيد ، وهو المثيبُ والمعاقب يومَ الحساب . فَلْنُمعنْ في ديانته الحاضرة ، ولنتتبَّعْ مجـاريَ روافدِها في الصفحات اللاحقة .

المراجع العامة للديانة المسيحية ومذاهبها .

I بالعربية :

١ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ ص (١٤١ ـ ١٧٧) . (١٩٦٦)

٢ ـ ستيفن رلسيمان تاريخ المسيحية عبد العزيز جاويد :

ط (١٩٦١) ص (١٢٣ ـ ١٥٨) .

٣ ـ موسوعة تاريخ العالم ط/٢ جـ (٢) ص (٧٨٥ ـ ٧٨٩) وزارة التربية المصرية (القاهرة) .

٤ ـ كتاب الله ، للعقاد :

ص (١٤٧ ـ ١٥٨) و (١٧٢ ـ ١٧٨) . (١٩٦٤) .

٥ ـ س . مظهر :

قصة الديانات ص (٣٨٢ ـ ٤٤٢) و (٤٤٣ ـ ٤٨٠) . ط/١ بلا تاريخ

٦ ـ هامرتون :

تاريخ العالم ص (١٦٩ ـ ١٩٧) و (٣٦٤ ـ ٤١٧) جـ (٤) . جـ (٦) ص (٤٣ ـ ٨٤) و ص (١٣٥ ـ ١٣٧) و (٣٩٠ ـ ٤٨٧) . جـ (٧) ص (٢٥٦ ـ ٢٥٩) و ص :(٤٤٠ ـ ٤٤٢) . ط/٢ . وزارة التربية المصرية .

٧ ـ ديورانت :

قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب محمود جـ (١٢ و١٣) ص (١٢٥ ـ ١٥٢) جـ (١٤ و ١٥) ص (٣٥٣ ـ ٣٩٢) جـ (١٦ و ١٧) ص (١ ـ ٦٨) جـ (١٨ ـ ١٩) ص (٨٩ ـ ١١١) جـ : (٢٠ و ٢١) ص (٣ ـ ١٥) . (١٩٦٢) .

٨ ـ اسد رستم :

الروم دار المكشوف بيروت ص (٢٤ ـ ٤٢) ـ (٥١ ـ٧٣) و (١٠٢ ـ ١٠٦) .

٩ ـ سامي اليافي :

الحضارة الإنسانية القاهرة ص (٣٧ ـ ٥٧) و (٢٤٢ ـ ٢٤٦) .

١٠ ـ جورج حنا :

قصة الإنسان بيروت (١٩٦٣) ط (٤) ص (١١٧ ـ ١٢٨) .

١١ ـ تاريخ العالم (المرجع نفسه) :

جـ (٢) ص (١٦٩ ـ ١٨٧) و (٣٠٥ ـ ٣٧٤) .

يتبع المسيحية

١٢ ـ الأب ميخائيل عبدالله غبريل الشبابي :

تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية جـ ١ ص(٢٩٩ ـ ٣١٧) . .

١٣ ـ تاريخ الشبابي : ص (٨٤ ـ ٩٥) ص (٢٥٦) و ص (٥٩٥ ـ ٦٠٠) .

١٤ ـ المطران يوسف ديان :

حقيقة الموارنة ص (١٠ ـ ٢٢) ص (٢٣٦ ـ ٢٤٤) و ص (٣٣٦ ـ ٣٤٥) .

١٥ ـ مجلة الندوة :

مار مارون ج ٢ عدد (٥ ـ ٦) حزيران (١٩٤٨) .

١٦ ـ جريس ابراهيم عبدل :

اصدقاؤك الادفنست بيروت ص (١٥ ـ ٣٧) ص (٤٣ ـ ٦١) .

١٧ ـ ا . ج هويت :

طريق الحياة ، دار الشرق الأوسط ط (٥) بيروت ص (١٢ ـ ١٩) ـ (٣٢ ـ ٣٧) .

II المراجع الأجنبية :

1 - Histoire de L'Humanité (Hawekes, trad laffont) Tome III P (451) Tome IV (231) (1969).

2 - Ed. Schuré: Les grands Initiés P: (511 - 623) (1960).

3 - La Penseé Chrétienne: Herv Rousseau (Collection que sais - je) Paris, page: (7 - 50) - (81 - 88) (1973) .

4 - Les Premièrs Chrétiens: Marcel Simon (Collection que sais - je) Paris P: (5 - 56) (58 - 121) (967).

5 - L'Esotérisme: Luc Benoist, (Collection que sais - je) Paris P: (93 - 105) (965).

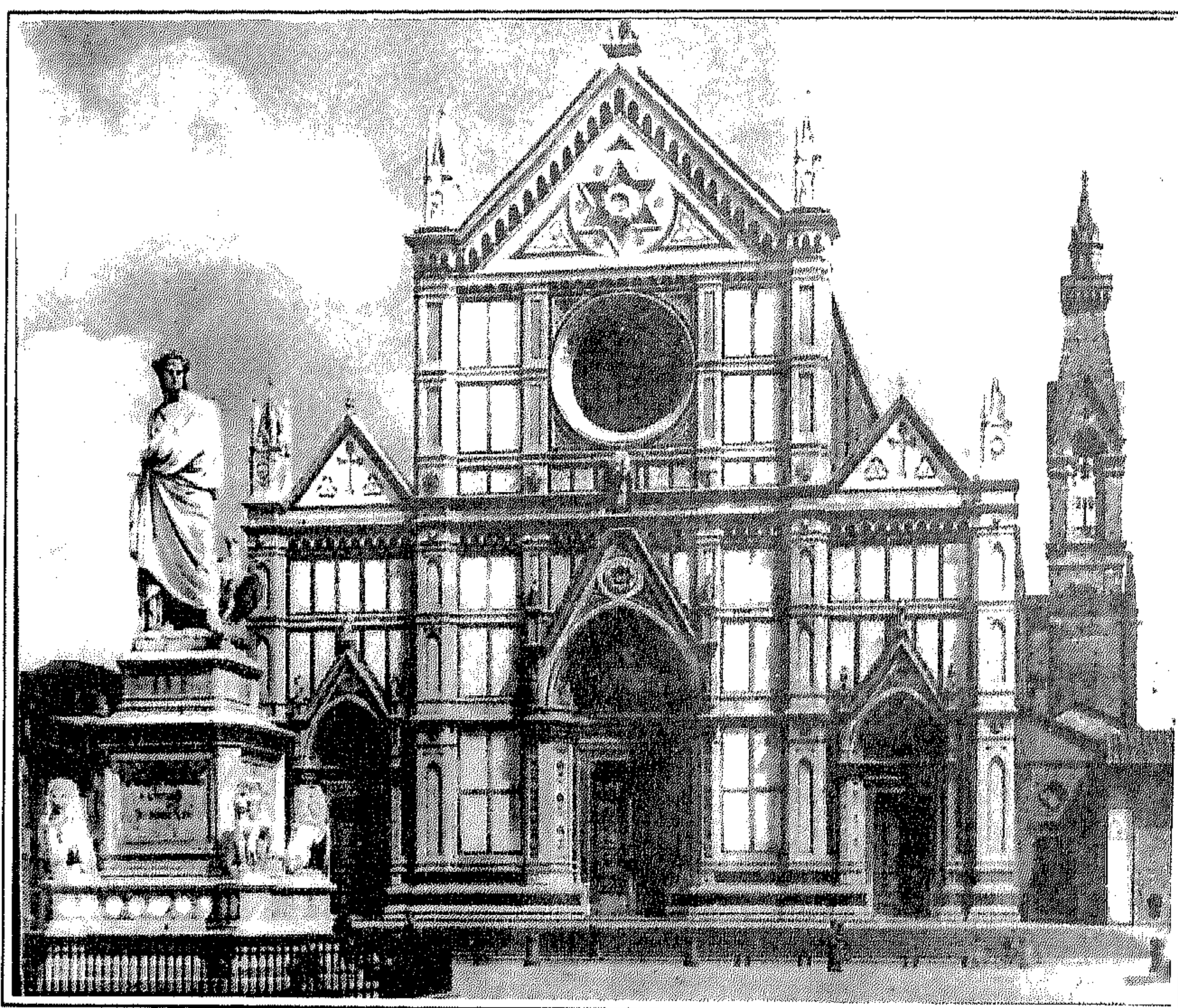
6 - Histoire générale des Religions: tome IV P: (60 - 91) - (97 - 164) - (169 - 197) (1966).

7 - Histoire de La Pensée Chrétienne: Payot (1970) P. Tillich. (détaillé).

8 - L'Eglise primitive: Y. Labreton et Y. Zeiller - Paris - (détaillé) (1934).

9 - Aperçu sur L'ésotérisme Chrétien: R. Guénon - Paris - (détaillé) (1951).

10 - Luther et L'Eglise Confessante: Paris G. Casalis - (détaillé) (1962).



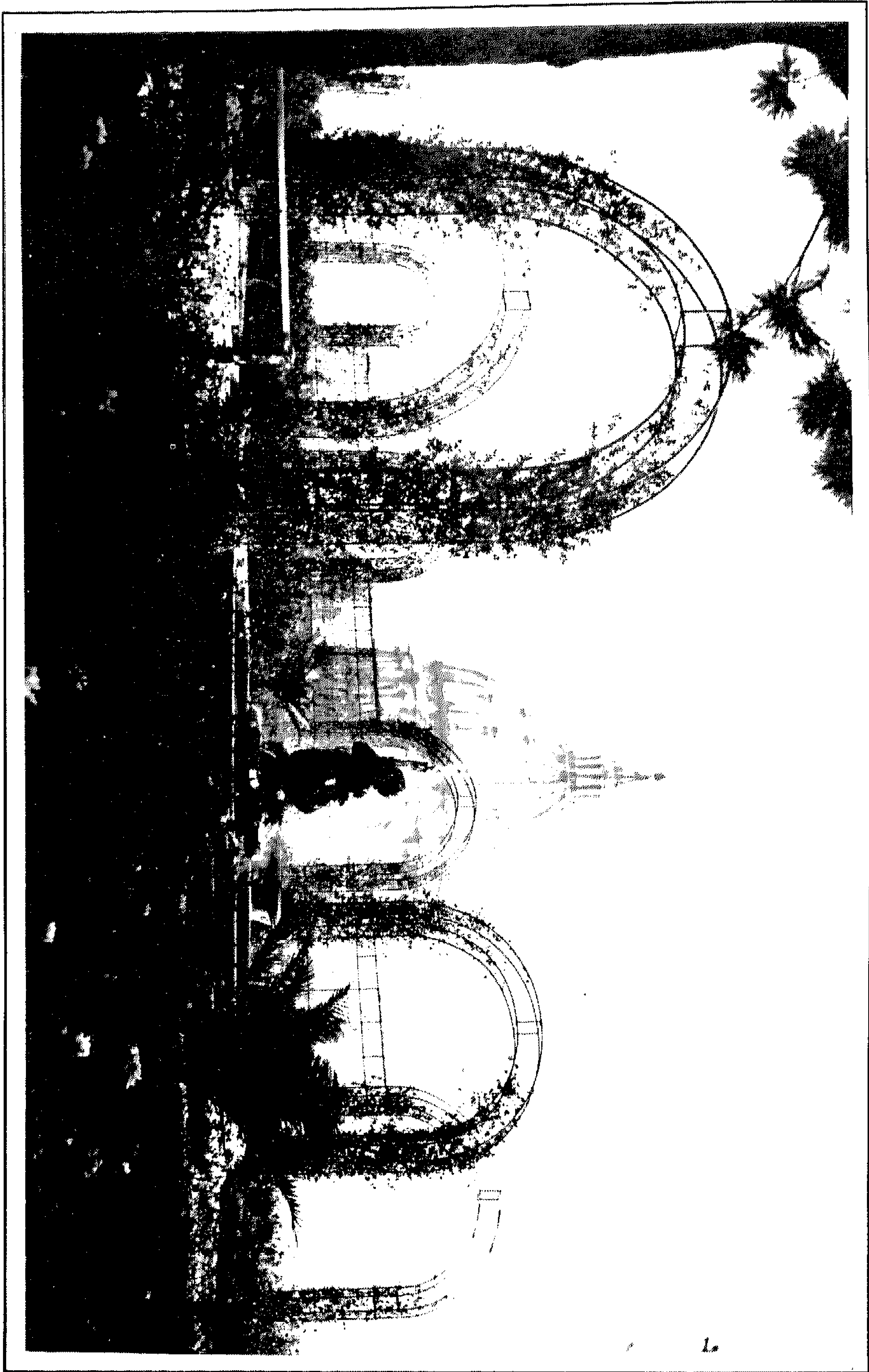
كنيسة القديس كروسي.



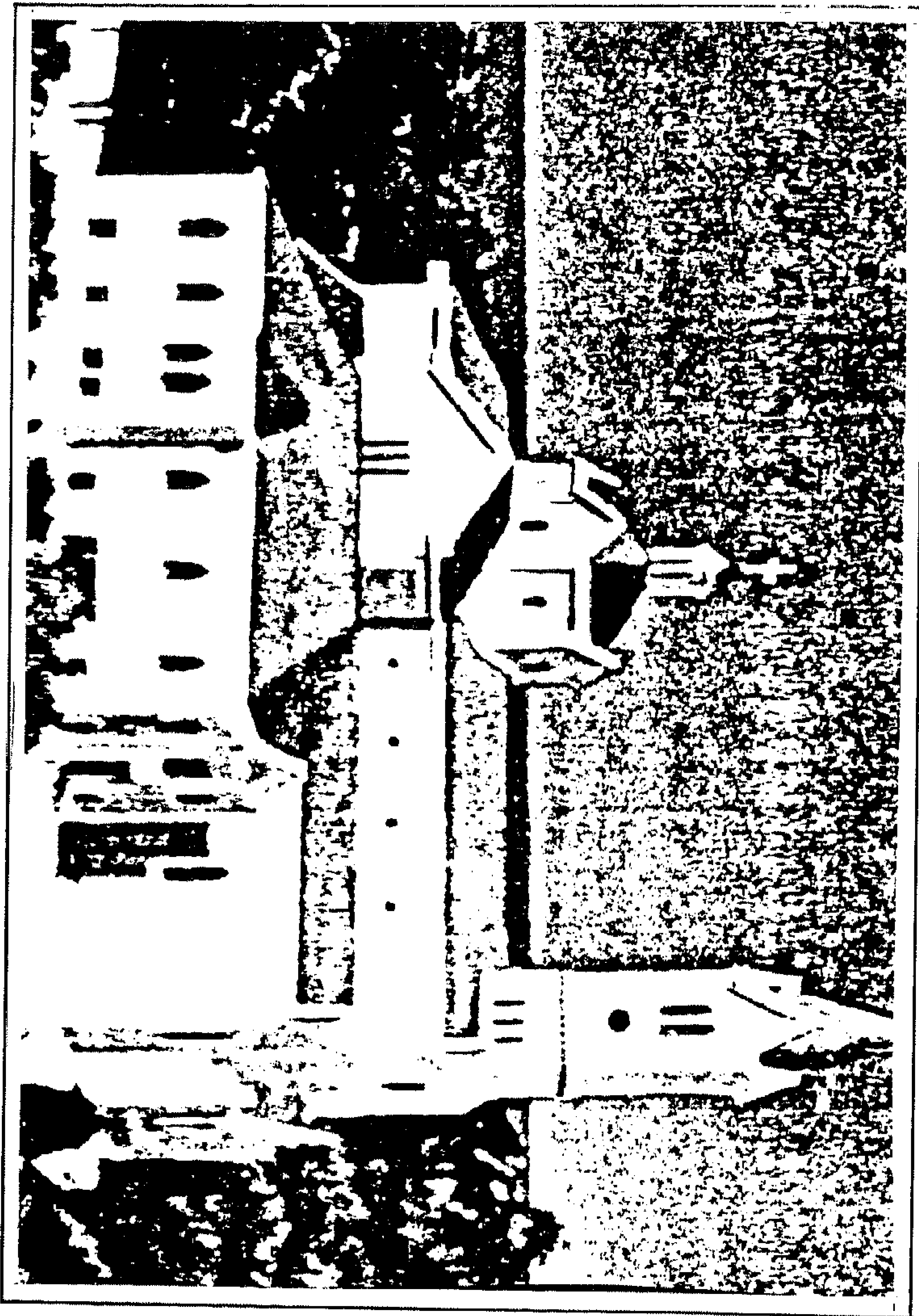
القديس بطرس كما تخيله ميكال انجلو



جبريل يبشّر مريم بيسوع



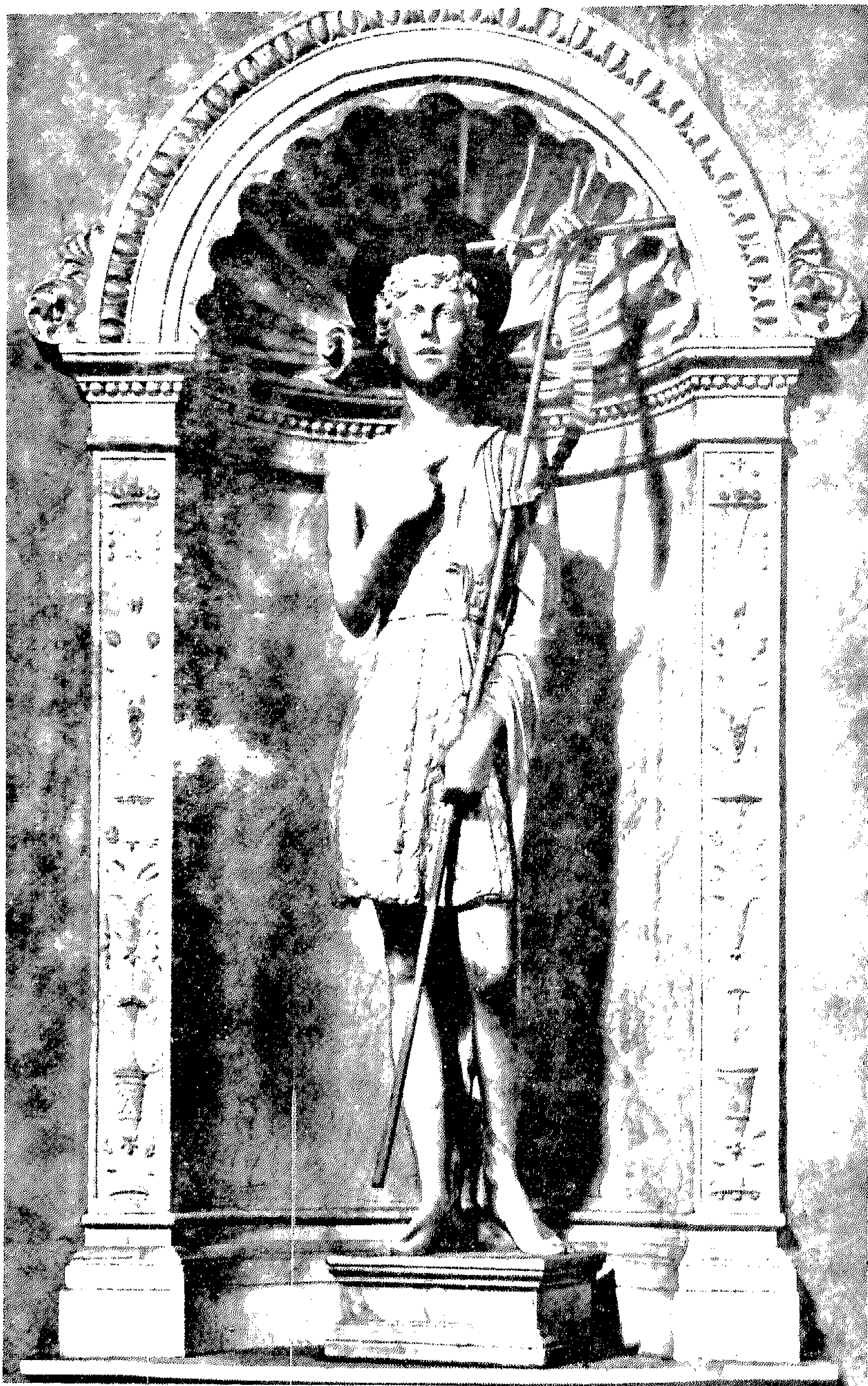
حاضرة الفاتيكان



كنيسة القديس مارون (طرابلس)



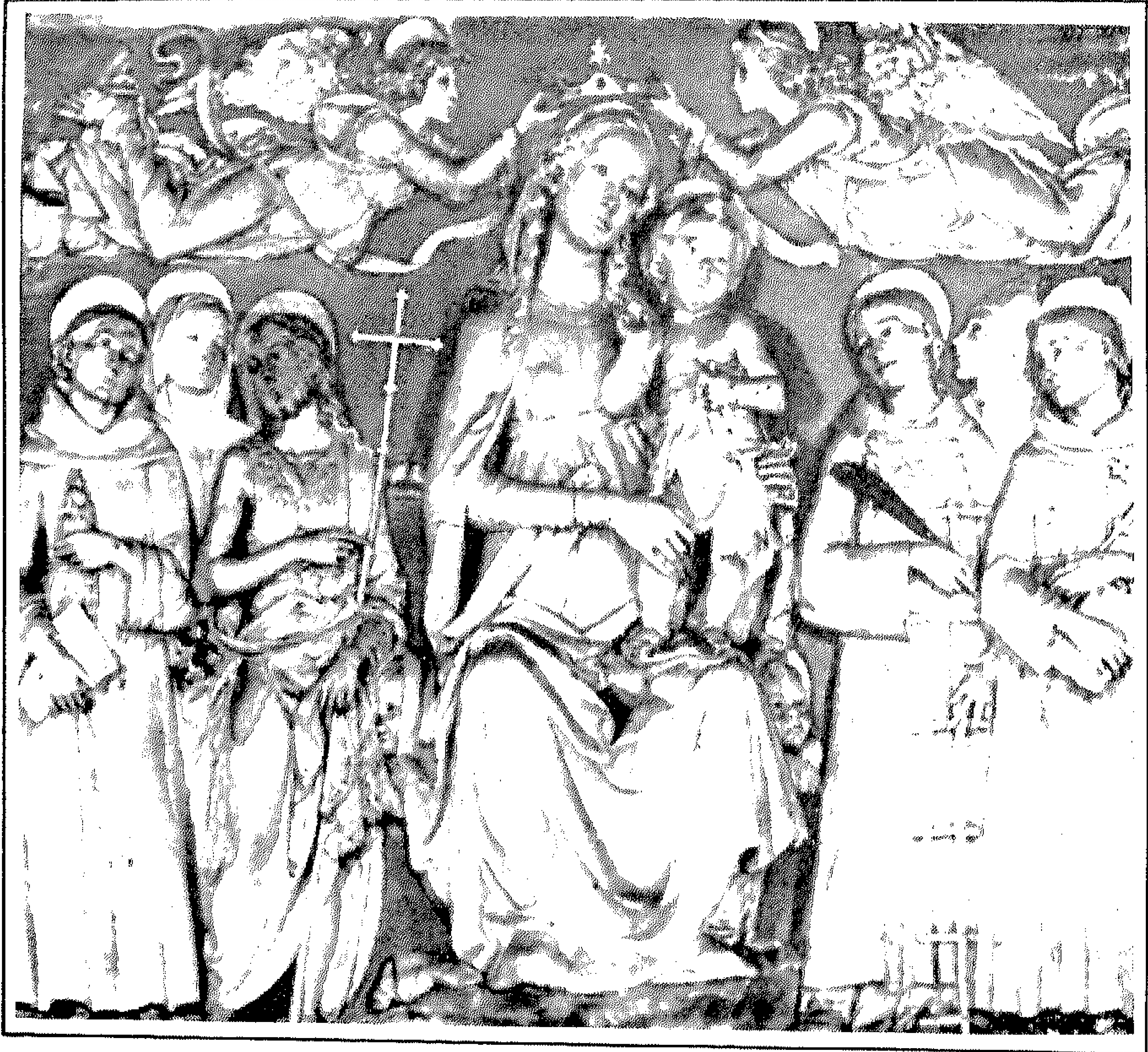
الوجه الأمامي لقوس قسطنطين - روما - .



يوحنا المعمدان



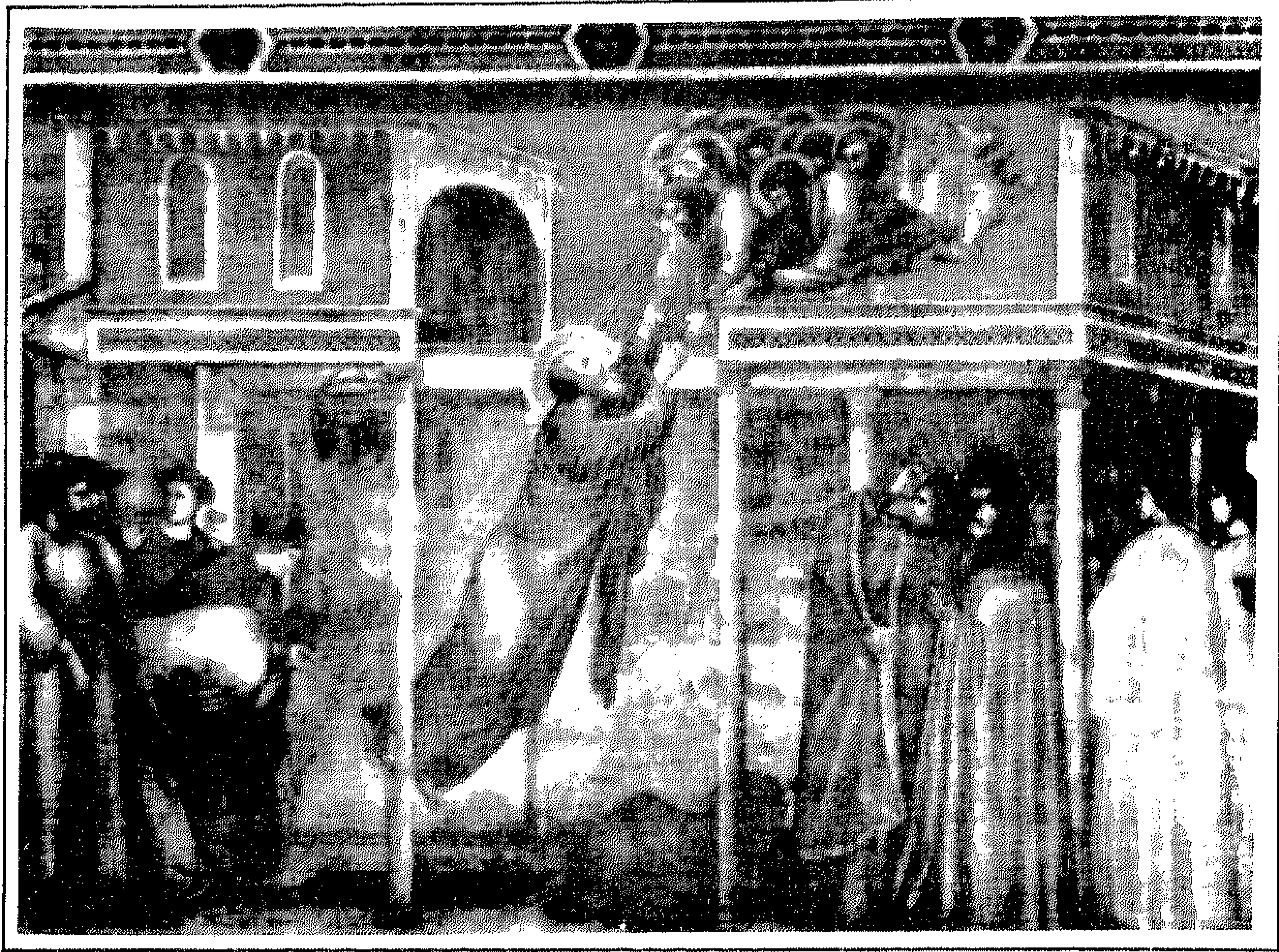
العذراء والطفل يسوع



العذراء مريم وابنها يسوع بين الملائكة والقديسين



المسيح أمام قبر الليعازر



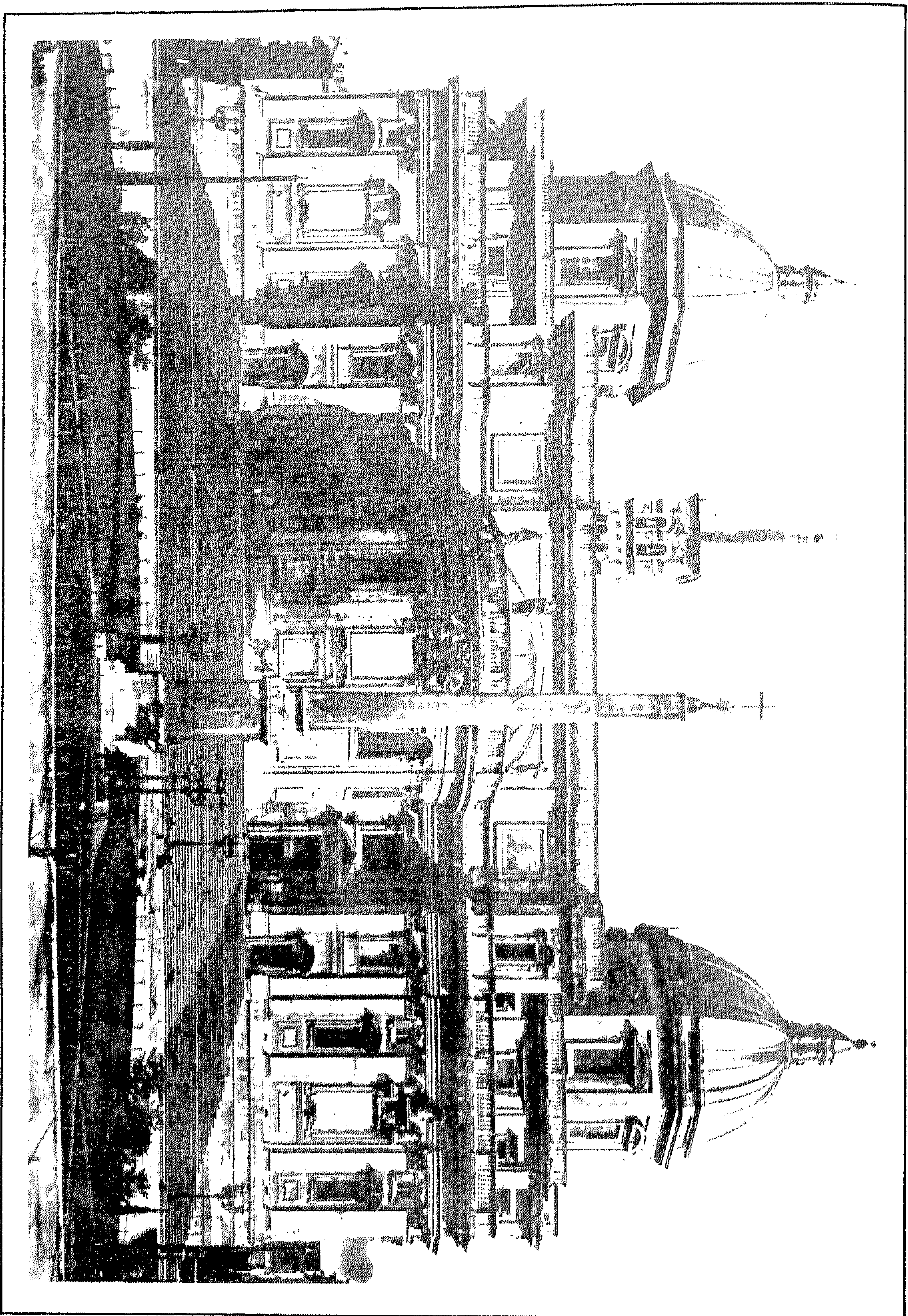
القديس يوحنا يصعد إلى السماء .



القديس يوحنا المعمدان



موكب المجوس في أورشليم .



كنيسة القديسة مريم العجائبية - روما .



القديس دومينيك



أفلاطون وأريستوتل

